

الرسائل الجامعية

الاستيطان الصليبي في بلاد الشام
مملكة بيت المقدس أُنموذجاً

(٤٩٢ ـ ٥٨٣ هـ / ١٠٩٩ ـ ١١٨٧ م)

اطروحة تقدم بها

مصعب حمادي نجم الزيدي

الى

مجلس كلية الاداب في جامعة الموصل

وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الدكتوراه فلسفة في التاريخ الاسلامي

باشراف

الاستاذ المساعد

الدكتور ناصر عبد الرزاق الملا جاسم

١٤٢٦ هـ **٢٠٠٥ م**

بسم الله الرحمن الرحيم

)وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) صدق الله العظيم

(الأنفال:٦٠)

اقرار لجنة المناقشة

نشهد باننا اعضاء لجنة التقويم و المناقشة قد اطلعنا على هذه الاطروحة الموسومة "الاستيطان الصليبي في بلاد الشام مملكة بيت المقدس أنُموذجاً (٤٩٢ . ٥٨٣ هـ / ١٠٩٩ . ١١٨٧ م)" وناقشنا الطالبة في محتوياتها وفيما له علاقة بها في يوم الاحد بتاريخ ٢٠٠٥/٧/١٠ ونعتقد انها جديرة بالقبول لنيل شهادة الدكتوراه فلسفة في اختصاص التاريخ الاسلامي.

رئيس اللجنة
أ.د. عبد المنعم رشاد محمد
التاريخ: / / ٢٠٠٥

عضوا
أ.د. محمود ياسين احمد
التاريخ: / / ٢٠٠٥

عضوا
أ.د. نزار محمد قادر
التاريخ: / / ٢٠٠٥

عضوا
أ.م.د. حسين حديس جاسم
التاريخ: / / ٢٠٠٥

عضوا
أ.م.د. ميسون هاشم مجيد
التاريخ: / / ٢٠٠٥

عضوا ومشرفا
أ.م.د. ناصر عبد الرزاق الملا جاسم
التاريخ: / / ٢٠٠٥

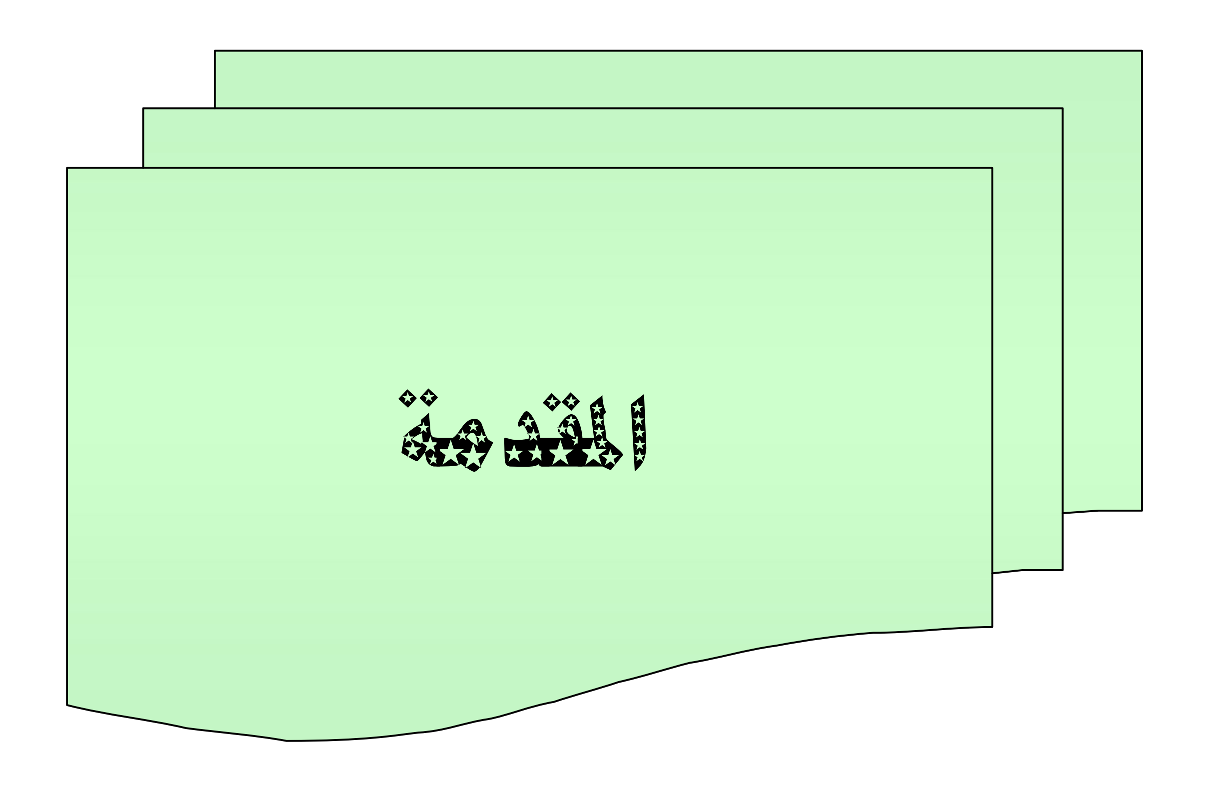
قرار مجلس الكلية

اجتمع مجلس كلية الاداب بجلسته المنعقدة بتاريخ / / ٢٠٠٥ وقرر التوصية بمنحه شهادة الدكتوراه فلسفة في اختصاص التاريخ الاسلامي.

التوقيع
مقرر مجلس الكلية
معاون عميد الكلية للادارية والطلبة
د.زهير علي احمد النحاس

التوقيع
عميد كلية الاداب
د.محمد باسل قاسم العزاوي

ثبت المحتويات


المقدمة



المقدمة

أولا : نطاق الدراسة

كانت الحروب الصليبية إحدى حلقات العداء الطويل بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، وقد بدأت تلك الحروب بدعوات دينية أعدت لها البابوية بكل ما استطاعت من قوة منذ نهايات القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي واستخدمت الدين وسيلة لكسب اكبر عدد من الأوربيين للمشاركة فيها ولا سيما العامة منهم بما يخدم الأغراض العسكرية لتبرير العدوان على المسلمين وتنفيذ الأهداف والمخططات الرامية إلى اغتصاب الأراضي العربية الإسلامية واستنزاف مواردها الاقصادية والتحكم بمقدرات شعبها الأمر الذي اجبر عدداً كبيراً من المسلمين على الهجرة إلى البلاد المجاورة بسبب المجازر وعمليات السلب والنهب التي ارتكبها الصليبيون في المدن والقرى التي استولوا عليها بالقوة ، وفي الارض نفسهاتجلى نمط الاستعمار الاستيطاني بأوضح صورة بتأسيس أربعة كيانات صليبية غرست في جسم الدولة العربية الإسلامية ، وهي الرها وإنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس التي استفاد منه الصليبيون في سياستهم التوسعية تجاه المدن الشامية للوصول منها إلى مصر والقضاء على الحكم الإسلامي فيها .

يعد موضوع الاستيطان الصليبي من المواضيع البالغة الأهمية لانه يمثل النمط الاوربي المبكر للاستعمار الاستيطاني الذي جاء في مرحلة من أدق مراحل الدولة العربية الإسلامية ، فقد حاول الصليبيون تثبيت أقدامهم في المنطقة عن طريق الاحتلال والاستيطان واقاموا نظاماً غريباً عن هذه المنطقة واهمية الموضوع تتجلى في كونه يلقي الضوء على طبيعة الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية للصليبيين الذين استوطنوا في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية ، فقد كانت حركة الاستيطان الصليبي في الأراضي المحتلة تتمثل في قيام الملوك ورجال الدين الصليبيين بتأسيس المستوطنات في مملكة بيت المقدس الصليبية من اجل

تنفيذ أهدافهم ومخططاتهم الرامية إلى الاستقرار بشكل دائمي في الأراضي المقدسة ، ومن جانب آخر كان لاعتماد الدولة العربية الإسلامية الجهاد وتوسع قاعدته دوره في تقويض دعائم ذلك الكيان الصليبي الطارئ ، ومما يزيد في قيمة دراسة الاستيطان ويمنحه أهمية قياساً بالدراسات الأخرى هو عدم وجود دراسة أكاديمية مستقلة وافية ومفصلة حسب ما هو متوافر في مكتباتنا ولما تعانيه المنطقة عينها من استيطان غربي جديد نجده يتمثل في خطواته تجربة الاستيطان السابقة ودواعي متشابهة . مما دفعني لاختيار الموضوع فكانت الدراسة (الاستيطان الصليبي في بلاد الشام مملكة بيت المقدس أنموذجاً ٤٩٢-٥٨٣هـ/ ١٠٩٩-١١٨٧م) ولابد من الإشارة إلى أن ما وجد في المصادر التاريخية العربية واللاتينية المعاصرة على حد سواء عن الجانبين الاجتماعي والاقتصادي للكيان الصليبي في بلاد الشام يتميز بالندرة لاهتمام المؤرخين آنذاك بإبراز الجوانب السياسية والعسكرية اكثر من اهتمامهم بهذه الجوانب التي لا تقل أهمية عنها إذ إن طبيعة تلك الحقبة وما شهدته من عمليات عسكرية ومعارك عديدة خاضها المسلمون ضد الصليبيين شغلت المؤرخين عن ذكر تفصيلات تتعلق بالجانبين الاجتماعي والاقتصادي .

ولغرض إعطاء صورة واضحة ومفصلة عن الاستيطان الصليبي في مملكة بيت المقدس الصليبية فقد ارتأينا تقسيم الأطروحة إلى خمسة فصول فضلاً عن تمهيد يوضح الخلفية التاريخية للغزو الصليبي للأراضي العربية الإسلامية .

تناول التمهيد عرضاً موجزاً للحروب الصليبية والآراء المختلفة حول طبيعتها والظروف التي آدت لاندلاعها فضلاً عن تناول مقتضب للحملة الصليبية الأولى وانطلاقها من الغرب الأوربي إلى الشرق الإسلامي وما استطاعت احتلاله من أراضٍ نفوذ ضعفت للاحتلال الصليبي وصولاً إلى مدينة القدس ّمما يكشف الأطماع الصليبية على حقيقتها إذ لم تكتف بهدفها المعلن وهو امتلاك القدس وإنما أرادت سياسة التوسع الصليبي الاستيلاء على مدن بلاد الشام والزحف جنوباً تجاه مصر للقضاء على الحكم الإسلامي فيها .

وكُرس الفصل الأول لدراسة (التكوين السياسي والإداري لمملكة بيت المقدس الصليبية) من حيث تأسيسها وامتدادها فقد قسمت بدورها إلى أربع إقطاعات كبيرة هي إمارة الجليل وبارونية صيداً وكونتية يافا وعسقلان وبارونية ما وراء الأردن فضلاً عن اثنتي عشرة إقطاعية هي الجليل وارسوف وحيفا وبيسان وطبرية وبانياس وتبنين واللد والرملة إلى جانب ثلاث

إقطاعيات أخرى صغيرة ، كما تناول أجهزة الحكم فيها والمؤلفة من المؤسسة الملكية والنظم الإدارية والقضائية والدينية .

واختص الفصل الثاني باستقصاء (الاستيطان في مملكة بيت المقدس الصليبية) من خلال دراسة النظام الإقطاعي الذي جلبه الصليبيون إلى بلاد الشام استناداً إلى كونه النظام الوحيد الذي عرفوه لكن مع مراعاة ظروف الوضع الجديد الذي وجد نفسه فيه ، فقد كان الملوك والأمراء الصليبيون يمنحون الإقطاعيات والضياع والقرى لاتباعهم عادة لكي يضمنوا لهم دخلاً يمكنهم من القيام بواجباتهم العسكرية ويساعدهم على أن يعيشوا حياة تتناسب مع مكانتهم في المجتمع .

وتضمن الفصل الثالث (النظم العسكرية) دراسة سياسة الصليبيين في إنشاء القلاع والحصون في مملكة بيت المقدس ودورها في تثبيت الاستيطان الصليبي الطارئ في بلاد الشام ، فالمعروف إن الاستيطان الصليبي قد تركز على احتلال الأجزاء الساحلية القريبة من البحر لضمان التموين من الخارج وعلى سلسلة القلاع الضخمة للحماية والدفاع ضد أي هجوم ، فاستراتيجيتهم تنحصر في القلاع والحصون للحماية أو الاتصال لغرض التموين والإمداد ، فقد أحاط الصليبيون مملكة بيت المقدس الصليبية بسلسة من المعاقل الحصينة امتازت بأنها جمعت بين خصائص العمارة الحربية الغربية والشرقية من حيث الأسوار المزدوجة والأبراج ذات الطابقين وكل مستلزمات الحامية من ذخيرة وتموين ووسائل دينية .

وعالج الفصل الرابع (النظم الاجتماعية) الخاصة بالصليبيين في مباحث مختلفة منها طبقات المجتمع الصليبي في بلاد الشام وصفات الصليبيين وطبائعهم واخلاقهم التي عكست خصائص ثقافية موروثة عن الغرب الأوربي انتقلت معهم إلى الشرق . وكذلك العادات والتقاليد التي اعتادوا عليها آنذاك ومنها الأعياد الدينية والمدنية والزواج والضوابط التي تحكمه ثم الملابس والأزياء التي ارتدوها على ضوء ملاءمتها لأجواء الشرق التي كانت نابعة من مجاورتهم للعرب المسلمين واحتكاكهم بهم ، فضلاً عن تأثرهم بعادات المسلمين أهل البلاد الأصليين كالاستحمام بالحمامات العامة والعناية بنظافة أجسامهم ، وعالج هذا الفصل موضوعاً هاماً هو الطب في مناطق النفوذ الصليبي ، والأساليب المتبعة في معالجة الحالات المرضية .

أما الفصل الخامس (النظم الاقتصادية) فقد عالج النظام الزراعي الذي أوجده الصليبيون في بلاد الشام انسجاماً مع استيطانهم في البلاد الجديدة وأنواع الأراضي الزراعية وأساليب الزراعة وطرائقها واهم المحاصيل الزراعية وطريقة تقسيم المحصول بين السيد الإقطاعي والفلاحين في المملكة الصليبية ، وفيما يتعلق بالنشاط الصناعي في مدن مملكة بيت المقدس الصليبية فقد ضم اشهر الصناعات التي كانت موجودة في البلاد قبل الغزو الصليبي سواءً المعتمدة على الإنتاج الزراعي أو غيره ومنها السكر والزيتون والصابون والزجاج والأصباغ . أما التجارة فقد تناول النشاط التجاري المبكر لسفن المدن التجارية الإيطالية في ساحل البحر المتوسط ودورها في نقل الأسلحة والإمدادات والمقاتلين أثناء حصارهم المدن الساحلية في بلاد الشام تحقيقاً لمصالحهم الاقتصادية ولا سيما أن مملكة بيت المقدس الناشئة لم تكن تمتلك أسطولا حربياً ، ومن جانب آخر فان النشاط الاقتصادي التجاري تركز في الموانئ البحرية في الساحل الشلمي ، وفوق ذلك كله تناول الفصل مبحثاً خاصاً بالنقود أو العملات الصليبية التي سكت في مدن مختلفة من المملكة الصليبية منها الفضية والنحاسية التي سكوها على النمط الفرنسي آنذاك ومنها العملة الذهبية المقلدة على وفق الطراز العربي.

ثانيا : تحليل المصادر

وبصدد تحليل المصادر لا نود التكرار لما ورد في عشرات الدراسات التاريخية إلا إننا سنتطرق إلى المصادر الأساسية التي تعالج موضوع الدراسة .

١ـ كتب التواريخ العامة

شكلت المعلومات الواردة في كتب التاريخ العام أهمية كبيرة لدراستنا ، ويعد كتاب (تأريخ الحملة إلى القدس) لمؤلف فوشيه الشارتري (ت : ٥٢٢هـ/١١٢٧م) في غاية الأهمية لدراستنا لكونه من المصادر اللاتينية المعاصرة فهو مؤرخ الحملة الصليبية الأولى التي شارك فيها منظماً إلى جيش بلدوين الأول الذي أسس إمارة الرها الصليبية ، وبقي الشارتري هنالك مدة سنتين إلى أن تولى بلدوين الأول عرش مملكة بيت المقدس الصليبية بعد وفاة أخيه الأمير جودفري ، وكان

الشارتري قسيساً للملك بلدوين الأول ورافقه في حروبه وأسفاره ، ومن المحتمل انه كان مستشاراً له ، عاش سائر حياته في مدينة القدس حيث كتب تاريخه حتى وفاته سنة ٥٢٢هـ/١١٢٧م ، وقد أفدت منه في جوانب كثيرة من الأطروحة ابتداءاً بانطلاق الحملة الصليبية الأولى من الغرب حتى وصولها بلاد الشام واحتلالها القدس والأساليب التي اتبعها المحتلون في دعم وتثبيت الاستيطان الصليبي في البلاد المحتلة من خلال انتزاع الأراضي والمنازل من أصحابها الأصليين وامتلاكها بالقوة ، وتشجيع مجموعات من النصارى الشرقيين (الأرثوذكس) على الهجرة والاستيطان في القدس لمعالجة قلة نسبة الكثافة السكانية ، كما أورد معلومات قيمة عن الاستيطان العسكري الصليبي فذكر القلاع والحصون التي شيدها الصليبيون زمن ملوكهم الأولين كبلدوين الأول وبلدوين الثاني .

ويعد كتاب (تأريخ الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار) لمؤلفه وليم الصوري (ت : ٥٨١هـ/١١٨٥م) من المصادر اللاتينية المعاصرة واول دراسة تكاد تكون شاملة لتاريخ الحروب الصليبيةابتداءاً بالحملة الأولى وانتهاءاً بمعركة الرملة سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م التي خاضها الناصر صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبيين ، وتأتي قيمة رواياته بتفردها في مباحث متنوعة شملت الأطروحة بفصولها الخمسة ، وامتازت معلوماته بالتفصيل والموضوعية ، فكان المصدر الأساس الذي اعتمدناه لكون المؤرخ من الطبقة السياسية العليا ومستشاراً لمملكة بيت المقدس الصليبية فقد تولى مناصب عدة سياسية ودينية تدرج فيها فعمل رئيساً لشمامسة صور في عهد الملك امليك الأول ثم اصبح مستشاراً للكلك ورئيساً لأساقفة صور في عهد الملك بلدوين الرابع ، وحاول أن يصبح بطريركا للقدس لكن محاولته لم يكتب لها النجاح فاضطر لمغادرة الشام إلى أوربا ليموت هناك قبل أن يرى قيام الحملة الصليبية الثالثة . وتمت الإفادة منه في مباحث كثيرة منها تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية والظروف التي أحاطت بنشأتها وعرضه للسير الذاتية للملوك الصليبيين واوصافهم وطباعهم ومهاراتهم ، كما أفادت معلوماته النظم السياسية والإدارية والقضائية والدينية التي أسهمت في تثبيت الأستعمار الاستيطاني في بلاد الشام مدة تجاوزت القرنين من الزمان ، كما تناول المستوطنات التي أسسها الملوك ورجال الدين الصليبيين ، وذكر معظم القلاع والحصون في مملكة بيت المقدس الصليبية ، وانفرد في روايات مهمة عن التوزيع الجغرافي لتلك المعاقل العسكرية واسباب بنائها ونتائجها

ودورها في دعم الاستيطان الصليبي في البلاد المحتلة ، فضلاً عن تطرقه إلى معلومات أفادت الجانبين الاجتماعي والاقتصادي للصليبيين ولاسيما في تحديد طبيعة العلاقة بين المحتلين الصليبيين والمسلمين أصحاب الأرض الأصليين إلى جانب فئات النصارى الشرقيين من اللاتين الأرثوذكس والسريان واليعاقبة والأرمن والأقباط وغيرهم ، وعاداتهم في الأعياد الدينية والمدنية وطرقهم وطقوسهم في حفلات الزواج وأساليبهم في مجال الطب والتداوي ومعالجتهم للأمراض التي تصيب أبناء وبنات جنسهم ، كما أشار لبعض اللمحات عن النشاط الاقتصادي الزراعي والصناعي واهم المنتجات الزراعية وابرز الصناعات التي اشتهرت بها مدن مملكة بيت المقدس الصليبية وقراها .

وتم الاعتماد على كتاب (الكامل في التاريخ) لعز الدين بن الأثير (ت : ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) في معظم فصول الأطروحة ، فأغنت نصوصه الكثير من جوانبها وزادت في قيمتها ، فلم يخلُ فصل من فصول الأطروحة من الاعتماد على هذا الكتاب لذا كان عمادها الأساس ويعود سرد التفاصيل الدقيقة عنده لكونه عاش في منطقة قريبة من بلاد الشام وتناقل الأخبار من المؤرخين في المنطقة آنذاك وتمت الإفادة منه في استعراض سير ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية وأحوال المملكة في عهود أولئك الملوك والمعاقل الاستيطانية العسكرية .

٢ـ كتب المدن والدول والإمارات

يقف في مقدمتها كتاب (ذيل تأريخ دمشق) لابن القلانسي (ت : ٥٥٥هـ/١١٦٠م) وهو يتصدر كتب تواريخ المدن ويعد من أبرزها ، فقد احتوى على مادة غزيرة أفادت موضوع الدراسة جاءت خلال حديثه عن تأريخ مدينة دمشق ، ولكونه عاصر فترة الحروب الصليبية ، فقد امتازت رواياته عن غيره من المؤرخين بالدقة ، وعلى الرغم من أن روايات ابن القلانسي تمتاز بالإيجاز إلا أنها بتفردها وأسبقيتها الزمنية وتركيزها تعد ذات أهمية خاصة ولا سيما ان المؤرخ كان رئيساً لمدينة دمشق وواكب معظم الأحداث التي دونها في كتابه ، وفيما يخص موضوع مملكة بيت المقدس الصليبية ، فقد قدم عرضاً لما قامت به القوات الصليبية من عمليات حصار واحتلال المدن الشامية وما ارتكبته من مذابح تجاه السكان الآمنين وتهجير من بقي منهم على قيد الحياة إلى مناطق أخرى خدمة للمصالح الصليبية ، كما ذكر بعض الملوك

الصليبيين ، واشار إلى الوضع السياسي لمملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول وبلدوين الثاني وفولك الانجوي ، فضلاً عن معلوماته القيمة عن القلاع والحصون التي شيدها الصليبيون في أنحاء متفرقة من مملكة بيت المقدس الصليبية التي ورد ذكرها في الأطروحة .

ويعد كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية) لأبي شامة (ت : ٦٦٥هـ/١٢٦٦م) من الكتب المهمة لدراسة الاستيطان الصليبي ، وامتازت رواياته بالتفصيل والموضوعية وانفراده بذكر بعض الأحداث معتمداً على العديد من الروايات التي نقلها عن العماد الأصفهاني وابن الأثير وابن شداد إلى حد كبير ، وتمت الإفادة منه في جوانب متباينة من الأطروحة أبرزها في النظم العسكرية التي اعتمدها الصليبيون في بلاد الشام ، فذكر معظم القلاع والحصون الصليبية الواقعة ضمن نطاق حدود مملكة بيت المقدس الصليبية ، وكيفية بنائها ووصف حصانتها واوضح دورها العسكري ضد المسلمين ، فضلاً عن التحرير الإسلامي لها على يد الناصر صلاح الدين الأيوبي ، كما قدم معلومات أخرى أفادت الحياة الاجتماعية للصليبيين لاسيما منها ذكره لصفاتهم وطباعهم واخلاقهم ، إلى جانب تسليطه الضوء على وضع المسلمين تحت الحكم الصليبي .

كما تم الاعتماد على كتاب (الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة) لمؤلفه عز الدين بن شداد (ت : ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) وقدم فيه معلومات قيمة عن الاستيطان الصليبي في مملكة بيت المقدس الصليبية ولا سيما من الناحية العسكرية ، و فضلاً عن ذكره للمعاقل العسكرية الصليبية إذقدم وصفاً دقيقاً للبعض منها ، كما حدد مواقعها الجغرافية بين المدن والقرى الواقعة تحت الاحتلال الصليبي .

أما كتاب (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) لمؤلفه ابن واصل (ت : ٦٩٧هـ/١٢٩٧م) فقدم فيه معلومات مقتبسة من مؤلفات المؤرخين المسلمين السابقين له ، بينما انفرد في ذكر بعض الروايات التي سجلت عاطفتهم الدينية تجاه الأماكن المقدسة في فلسطين ، فضلاً عن لمحات أفادت الحياتين الاجتماعية والاقتصادية للصليبيين .

٣. كتب السير والتراجم

يتصدرها كتاب (الاعتبار) لأُسامة بن منقذ (ت : ٥٨٤هـ/١١٨٨م) الذي يعد من المصادر المهمة في مجال السير الذاتية اتخذ شكل المذكرات ، وعلى الرغم من انه لم ينل في حينها الشهرة والأهمية إلا انه يعد في الوقت الحاضر من أهم نتاجات ذلك العصر وأندرها لانه قدم صورة حية وواضحة للأحداث السياسية التي عاشتها المنطقة وللعلاقات الدبلوماسية بين القوى المحلية من جهة ، ومع الصليبيين من جهة أخرى ، ومما يزيد في قيمة الكتاب أن مؤلفه كان شاهَد عيانٍ لتلك الأحداث ومساهماً فيها ، إذ تتضح أهمية هذا الكتاب في كونه أحد المصادر العربية الأساسية النادرة في دراسة سياسة الاستيطان الصليبي في بلاد الشام وضم معلومات قيمة عن أساليب حياة أولئك الطارئين من حيث عاداتهم وتقاليدهم واخلاقهم وأنماط سلوكهم وطرائق عيشهم والقضاء والمحاكمات والنظافة والاستحمام والأطعمة والملابس وغيرها فضلاً عن عرض ابن منقذ للفروق الحضارية بين الصليبيين والمسلمين وتلك التي بين الصليبيين الحديثي العهد بالبلاد الشامية وبين القدماء المستوطنين منهم .

ويعد كتاب (الفتح القسي في الفتح القدسي) لمؤلفه العماد الأصفهاني (ت : ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) من المصادر الحيوية الهامة لدراسة تأريخ الحروب الصليبية في بعض مراحلها ولا سيما تعرضه لدراسة الفترة الواقعة بين سنتي (٥٨٣-٥٨٩هـ/ ١١٨٧-١١٩٣م) ، وذلك لمعايشته أحداث الحملة الصليبية الثالثة بتفاصيلها وتدوينه وقائعها على شكل سيرة ذاتية أو مذكرات الناصر صلاح الدين الأيوبي لكونه عمل مستشاراً وكاتباً شخصياً له ، وتبرز أهمية هذا الكتاب في كونه قدم معلومات قيمة عن سيرة بعض الملوك الصليبيين الذين حكموا مملكة بيت المقدس الصليبية ، كما أورد لمحات مهمة عن الجانب الاجتماعي للصليبيين أفادت الفصل الرابع ، منها ذكره لبعض اوصافهم وصفاتهم وطبائعهم واخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ، فضلاً عن كتابه الاخر (البرق الشامي) الذي افاد الدراسة ورفدها بمعلومات مهمة ضمن الفصل الثالث ، إذ حدد مواقع بعض القلاع والحصون الصليبية وقدم وصفاً لها ، كما تحدث عن التحرير الإسلامي للبعض منها .

ومن الكتب التي تم الاعتماد عليها في بعض جوانب هذه الدراسة كتاب (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) لبهاء الدين ابن شداد (ت : ٦٣٢هـ/١٢٣٥م) وهو من

المصادر المعاصرة للوجود الصليبي في بلاد الشام ، إذ كان مؤلفه شاهد عيان لمعظم ما دونه من معلومات في هذا الكتاب فجاءت كتابته دقيقة وصادقة وامتاز ابن شداد بأسلوبه السهل وعرضه السلس الممتع ، وقد أفادت المعلومات التي أوردها جوانب عديدة منها الاستيطان العسكري الصليبي في بلاد الشام بصورة عامة و مملكة بيت المقدس الصليبية خاصة ، وذكر المعاقل الصليبية وقدم وصفاً دقيقاً للعديد من القلاع والحصون الصليبية التي تضمنتها الدراسة كما تناول تحريرها وإنهاء الوجود الصليبي فيها .

٤. كتب الجغرافية والرحلات

تكمن أهمية كتب الجغرافية في تقديمها وصفاً جغرافياً ومادة غزيرة عن كثير من المواقع التي ورد ذكرها في موضوع الدراسة ، ويعد كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي (ت : ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) من أهم الكتب الجغرافية إذ أفدت منه في التعرف على معظم الأماكن والمواقع في بلاد الشام التي وردت في البحث ، كما أعاننا على تحديد الموقع الجغرافي للعديد من القلاع والحصون الصليبية في مملكة بيت المقدس الصليبية ، فضلاً عن كتابه الآخر (المشترك وضعاً والمفترق صقعا) الذي قدم فيه معلومات تكاد تكون مماثلة لكتابه الأول .

وتأتي بعد ذلك مؤلفات الرحالة المسلمين والحجاج الصليبيين التي تركت تراثاً كبيراً على جانب كبير من الأهمية ، فقد ارتبط نشاط الحجاج إلى الأراضي المقدسة في فلسطين بظهور نوع من المؤلفات اللاتينية أهتم بإيراد وصف دقيق للأراضي المقدسة وذلك لكي يكون بمثابة دليل جغرافي في أيدي الحجاج النصارى القادمين لأول مرة إلى تلك الأماكن ولا يعرفون عنها إلا الشيء القليل ، ومن امثلة ما وصلنا من الرحلات رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب الذي قام برحلة إلى الأراضي المقدسة ما بين سنتي (٥٠٠-٥٠١هـ/١١٠٦-١١٠٧م) وهو يعد من المصادر المهمة لدراسة أحوال تلك البلاد في بداية الاستيطان الصليبي ، فقد تعرض دانيال الراهب لمختلف جوانب الحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية والعسكرية للصليبيين ، وتكمن أهمية تلك الرحلة في أنها جاءت مع بدايات مرحلة جديدة في حياة الشرق الإسلامي بشكل عام والأراضي المقدسة بوجه خاص وقد أفدت منه في تحديد موقع بعض الاماكن الدينية التي شاهدها وذكر الكنائس والأديرة التي كانت موجودة في بلاد الشام ، وذكر الطقوس الخاصة

بأعيادهم الدينية والمدنية ، ووصف الأماكن المقدسة في مدينة القدس ، وقدم وصفاً هلماً للطرق التي سلكها الحجاج النصارى والتي تولت حمايتها هيئة الفرسان الداوية ، كما زودنا بمعلومات قيمة عن أهم المزروعات التي اشتهرت بها فلسطين فضلاً عن ذكره لمصادر المياه والينابيع التي كانت تشتهر بها تلك المناطق ، كذلك زودنا بمعلومات عن أهم الصناعات التي كانت سائدة في الأراضي المقدسة آنذاك .

ويعد كتاب (وصف الأماكن المقدسة في فلسطين) للرحالة الألماني ثيودريش الذي زار الأراضي المقدسة في فلسطين ما بين سنتي (٥٥٧-٥٥٩هـ / ١١٦١-١١٦٤م) من كتب الرحلات المهمة والمعتمدة للدراسة ، وتتمثل أهمية الكتاب في وصفه للأوضاع الداخلية لمملكة بيت المقدس الصليبية من عدة جوانب فقدم صورة واضحة عن الجانب العمراني للمدن الإسلامية المحتلة التي ذكرها في كتابه ، كما تكمن أهميته في إعطاء صورة واضحة عن الاستيطان العسكري للصليبيين ، ولكون المؤلف شاهد عيان فقد أشار إلى عدد كبير من القلاع والحصون الصليبية التي شيدها الصليبيون في أنحاء متفرقة من مملكة بيت المقدس الصليبية ، وحدد مواقعها ووصف مناعتها وحصانتها فضلاً عن المهام المناطة بها ، وكذلك أفدت منه في دراسة الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية للمملكة الصليبية فذكر العادات والتقاليد ولا سيما الأعياد الدينية والمدنية ، وتطرق إلى الحياة الزراعية في مملكة بيت المقدس الصليبية من خلال حديثه عن أراضي فلسطين من حيث توافر السهول الخصبة والينابيع والآبار والأنهار التي تسهم في ديمومة الحياة الزراعية هذا إلى جانب المحاصيل والمنتجات الزراعية الكثيرة والمتنوعة التي تنتجها تلك الأراضي .

أما كتب الرحالة المسلمين فتعد من المصادر العربية الإسلامية التي أسهمت في وصف المشاهدات والمعاينات والتي ضمت في ثناياها قيمة تاريخية كبيرة أفادت موضوع الدراسة في معظم جوانبها . ومن أهم أولئك الرحالة ابن جبير الأندلسي (ت : ٦١٤هـ/١٢١٧م) مؤلف كتاب (رحلة ابن جبير) الذي زار بلاد الشام (٥٧٨-٥٨٠هـ/١١٨٢-١١٨٤م) ودخل الأراضي الإسلامية المحتلة وتجول في مملكة بيت المقدس الصليبية ، وعلى الرغم من انه لم يستقر في مدنها ولا في قراها سوى مدة قصيرة لا تتجاوز الخمسة والعشرين يوماً إلا انه ذكر

جوانب مهمة في أوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية على عهد الملك الصليبي بلدوين الرابع .

٥ ـ المراجع العربية والمعربة

قدمت الكتب والمراجع الحديثة معلومات قيمة تناولت مادة غزيرة أغنت الأطروحة من خلال تحليلات واراء واستنتاجات في النواحي السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية ولعل من أهمها كتاب (تأريخ الحروب الصليبية) لستيفن رنسيمان الذي اختص بدراسة الحروب الصليبية من وجهة نظر أوربية ويقع في ثلاثة أجزاء مترجمة إلى العربية ، واهم ما يسجل على هذا الكتاب تركيزه الكبير على إبراز الجانبين العسكري والسياسي اكثر من اهتمامه بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية للصليبيين في بلاد الشام ، ومع ذلك كان هذا الكتاب العماد الأساس لموضوع الدراسة ، وتمت الإفادة منه في معظم مباحث الأطروحة .

ويعد كتاب (عالم الصليبيين) لمؤلفه اليهودي يوشع براور من الكتب المهمة لدراستنا لكون مؤلفه من اشهر المؤرخين المختصين وابرز الذين كرسوا حياتهم لدراسة ظاهرة الاستيطان الصليبي ومؤسساته وإفرازاته ، وتمت الإفادة منه في تناول جوانب الحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية لاولئك الغزاة الصليبيين الذين استوطنوا وسط المحيط البشري الإسلامي المعادي لهم .

ومن بين المراجع التي اعتمدتها الدراسة كتاب (تأريخ الحروب الصليبية) لمؤلفه هانز ماير وهو أحد ابرز المختصين الألمان في دراسة الكيان الصليبي في بلاد الشام ، وقد أفادنا بمعلوماته عن النظام الإقطاعي الصليبي ، واوضح طبيعة العلاقة بين الملك الصليبي والسادة الإقطاعيين ، والقوانين الإقطاعية التي أصدرها الملوك الصليبيون لتوطيد مركزهم في الحكم ، وسلط الضوء على المشكلات والصعوبات التي رافقت استيطان الصليبيين ، وذكر الأساليب التي اتبعها المحتلون لمعالجتها ، فضلاً عن المستوطنات التي شيدها الملوك الصليبيون ورجال الدين الصليبيين ، كما تطرق بالتفصيل إلى الأحوال السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية التي شهدها ذلك الوجود الطارئ .

ويعد كتاب (القلاع أيام الحروب الصليبية) للمؤرخ الألماني مولر من الكتب المهمة في دراسة الاستيطان الصليبي من الناحية العسكرية قدم فيه فكرة عامة عن القلاع التي وقع اختياره عليها ، كما تضمن أيضاً لائحة بأسماء القلاع الصليبية الرئيسة التي استغلها الصليبيون استغلالاً كاملاً لغرض المحافظة على وجودهم في بلاد الشام .

كما تم الاعتماد على مراجع أخرى أفادت الدراسة في جوانب عديدة منها كتاب (الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب) لمؤلفه رنيه كروسيه فقدم فيه معلومات مهمة عن الأوضاع السياسية لمملكة بيت المقدس الصليبية منذ بداية تأسيسها حتى سقوطها ، كما عالج النظام السياسي وصلاحيات الملك الصليبي في أوقات الحرب والسلم . وزودنا بمعلومات أفادت النظام الإداري والوظائف المرتبطة به إلى جانب النظام القضائي والمحاكم التي أسسها الصليبيون في بلاد الشام لتنظيم شؤون المستوطنين ولاجل إحكام قبضتهم على البلاد. ودراسة كروسيه الانفة هي اختصار لكتابه الاهم (***Histoire des Croisades***) فضلاً عن الدراسة الشاملة لتاريخ الحروب الصليبية التي أعدتها جامعة انديانا في الولايات المتحدة الأمريكية ضمن كتاب (***A History of the Crusades***) تحرير ***K.M. Setton*** .

ويعد كتاب (الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية) لمؤلفه سعيد عبدالله البيشاوي من الدراسات الحديثة والقيمة التي اغنت موضوع البحث في جوانب مهمة ، أما كتابا (***Crusaders in the East***) للمؤرخ الانكليزي ***W.B. Stevenson*** و (***Crusader Castles***) للمؤرخ الإنكليزي **R. *Fedden*** ، فهما من المراجع المهمة التي أفادت الدراسة في بعض جوانبها في الفصلين الثاني والثالث ، وخاصة ما يتعلق بالمستوطنات الصليبية التي شيدها الملوك ورجال الدين الصليبيين ، فضلاً عن معلومات أفادت الاستيطان العسكري الصليبي متمثلاً بالقلاع والحصون في مملكة بيت المقدس الصليبية خدمة لمصالحهم الاستيطانية .

وقد قدمت في الخاتمة ملخصاً لاهم النتائج التي افرزتها الدراسة ، ثم قدمت مجموعة من الملاحق والخرائط والأشكال التي تخدم موضوع البحث .

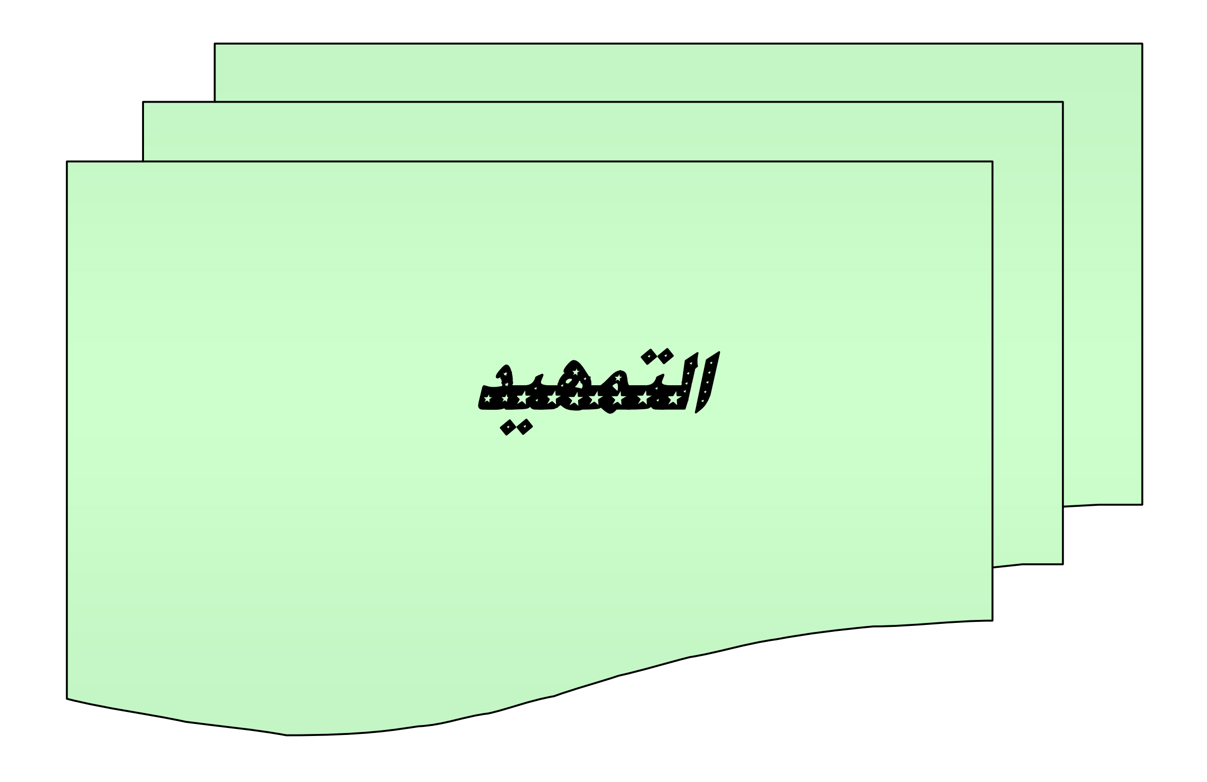
وفي ختام هذه المقدمة لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل لاستاذي الفاضل الدكتور راغب حامد البكر الذي اشار عليّ بالموضوع واشرف على العمل في مراحله الاولى ومنحني توجيهاته وارشاداته القيمة ووضع بين يدي الكثير من المواد العلمية التي اغنت موضوع الدراسة

، كما اتقدم بالشكر مثله الى المشرف الدكتور ناصر عبد الرزاق الملا جاسم الذي بذل فيها جهداً علمياً واضحاً وكان لملاحظاته وإرشاداته ومتابعته المستمرة للبحث دورها في اخراج الاطروحة بهذه الصورة ، وأتقدم بالشكر الجزيل لأساتذتي الأفاضل كافة في قسم التاريخ بكلية الآداب لما أبدوه من ملاحظات علمية قيمة ، واوجه الشكر لمنتسبي مكتبة كلية الآداب والمكتبة المركزية في جامعة الموصل والمتحف والأوقاف في محافظة نينوى ، والمتحف والمركزية في جامعتي بغداد والمستنصرية ومركز الملك فهد والمكتبة الوطنية ومكتبة الأمير سلمان في المملكة العربية السعودية ومؤسسة عبد الحميد شومان في المملكة الأردنية الهاشمية لتسهيلهم توفير بعض المصادر والمراجع المعتمدة في الأطروحة ، وكذلك اوجه شكري وامتناني الى الاستاذ الفاضل المؤرخ سهيل زكار الذي اسهم في تأسيس هذا البحث على اسس قويمة ، ولا يفوتني ان اشكر الدكتور علي فاضل الشمري لتفضله بتقويم الاطروحة لغوياً .

وبعد ، فالكمال لله وحده ، ولا يسعني إلا أن اذكر قوله تعالى (ربَّنا لا تؤاخذنا أن نسينا أو أخطأنا) وادعوا الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا جميعاً لخدمة المسيرة العلمية .

الباحث

مصعب حمادي الزيدي


التمهيد

التمهيد

أطلق اسم الحملات الصليبية على تلك الغزوات العسكرية التي قام بها الأوربيون منذ نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي والقرنيين السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين من أجل الاستيلاء على أراضي بلاد الشام من أيدي المسلمين مدفوعة ببواعث دينية واقتصادية وسياسية واجتماعية وتأريخية [١]وقد تعددت آراء المؤرخين حول طبيعتها . فهناك من عدها حلقة من حلقات التفاعل بين الشرق والغرب [٢] بينما نظر إليها البعض بأنها ذروة الأحياء الديني وعصر الإيمان الذي عاشته دول غرب أوربا خلال القرنيين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين ، فهي ((***حروب مقدسة وطريق الحجاج إلى كنيسة القيامة [قبر المسيح عليه السلام]***)) [٣] وهناك من رأى أن الحركة الصليبية كانت بمفهومها الشمولي حركة كبرى نبعت من الغرب الأوربي في العصور الوسطى متسمة بطابع حربي استعماري ضد الدولة العربية الإسلامية خاصةً في بلاد الشام بهدف امتلاكها مستغلة استغاثة الدولة البيزنطية ضد المسلمين كوسيلة لتحقيق مآربها في السيطرة على الأراضي العربية الإسلامية واستنزاف خيراتها الاقتصادية[٤] ومما يدعم هذا الرأي ويكشف حقيقة الحملات الصليبية كونها أول المشاريع الاستعمارية الأوربية من ناحية أولى وأنها كانت التجربة التي سبقت مرحلة الاستعمار الحديث من ناحية ثانية هذا فضلاً عن أنها كانت الجذور الأولى للتجربة الصهيونية ذات الأهداف الاستيطانية من ناحية ثالثة [٥] .

---

(1)*Hussein Mohammed A. " The Imperialistic Elements of the Crusades ", in Speculum : 1981 , Vol. 1 , P. 487 .*

(٢) عبد القادر احمد اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب (منشورات المكتبة العصرية ، بيروت : ١٩٦٩م) ، ص٣١ ؛ ر. سي. سميل ، الحروب الصليبية ، ترجمة : سامي هاشم (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت : ١٩٨٢م) ، ص ٨ .

(٣) ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، ترجمة : الباز العريني ، ط٢ (دار النهضة العربية ، بيروت :١٩٦٧م) ، ص٩ ؛ نيكيتا ايليسيف ، الشرق الإسلامي في العصر الوسيط ، ترجمة : منصور أبو الحسن (دار الكتاب الحديث ، بيروت :١٩٨٦م) ، ص٣٨٢ .

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة : ١٩٦٣م) ،ج١ ، ص٢٥ .

(٥) قاسم عبدة قاسم ، ماهية الحروب الصليبية (مطابع السياسة ، الكويت : ١٩٩٠م) ، ص١١ .

هكذا عُدّت تلك الحركة انعطافاً خطيراً في تأريخ الغرب الأوربي وكان هدف الحملة الصليبية الأولى هو الحج إلى بيت المقدس وقتال المسلمين ، وانتزاع بلاد الشام عامةً ومدينة القدس خاصة وجاء ذلك الهدف المعلن تلخيصا للأيديولوجية الصليبية التي تمثل الأرضية التي تحركت عليها الجماهير الأوربية [١] ، نظراً لتأثير الحركة الصليبية على جميع نواحي الحياة في أوربا بسبب ارتباطها بشكل أو بآخر بالحياة الدينية التي كانت المحرك الأساسي للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمشاركة فيها[٢] . وإذ ما أمعنا النظر في مجريات الحوادث التأريخية يمكننا تلخيص دوافع الحروب الصليبية بما يأتي :

أولا :الظروف الدينية ، يعد العامل الديني دافعاً اساسياً مهماً اسهم في اندلاع الحروب الصليبية ، فقد أكد المؤرخون الغربيون على إبراز الجانب الديني في دراساتهم لدوافع تلك الحروب من خلال تأكيدهم على اهمية الأماكن المقدسة واهتمامهم بالنصارى في الشرق وما يعانونه من سوء الأحوال فحاولت البابوية جاهدةً توحيد النصارى في الشرق والغرب تحت رايتها وسعت إلى تصدير نفوذها الديني خارج القارة الأوربية ونحو الشرق خاصةً [٣] لذا استغل البابا اوربان الثاني ***Urban II*** (٤٨١ . ٤٩٢ هـ / ١٠٨٨ . ١٠٩٩ م) خطابه الذي ألقاه في دير كليرمونت في ٢٧ تشرين الثاني سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م [٤] للافصاح عن نواياه فأكد على تخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين مستخدماً

---

[١] قاسم ، الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية (مطبعة ذات السلاسل ، الكويت : ١٩٨٨م) ، ص٨٦ . ٨٧ .

[٢] منى جمعة حماد ، " تطور الكتابة التأريخية عن الحروب الصليبية في الغرب الأوربي من القرن الثاني عشر وحتى القرن العشرين " ضمن اعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي (جامعة اليرموك ، الأردن :١٩٩٩م) ، ص١ .

[٣] ول وايرل ديورانت ، قصة الحضارة (عصر الإيمان) ، ترجمة : محمد بدران (مطبعة دار الجيل ، بيروت : ١٩٨٨م) ، ج١٥ ، ص١٢ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص٥. ٦ ؛ ميخائيل زابوروف ، الصليبيون في الشرق ، ترجمة : الياس فرح (دار التقدم ، موسكو : ١٩٨٦م) ، ص٢٠ . ٢٩ ؛ ايليسيف ، الشرق ، ص ٣٨٠ . ٣٨١ ؛ كافين رايلي ، الغرب والعالم ، ترجمة ، عبد الوهاب محمد المسيري واخرون (مطابع الرسالة ، الكويت : ١٩٨٥م) ، ص١٩٦ .

[4] *K. M. Setton , AHistory of the Crusades , (Pennsylvania University Press , New York , 1955) ,Vol. 1 , P. 220 ; C. Erdmann , The Origin of the Idea of Crusade (Priceton University Press , New Jersey : 1977) ,P. 355.*

جميع وسائل الأغراء لإثارة حماس الأوربيين[١] وهذا يعني أن الصليبيين حملوا راية الدين وتسلحوا بها كواجهة أمامية لتحقيق أهدافهم التوسعية في البلاد العربية ، وكسب منافع اقتصادية وتجارية وعسكرية[٢] .

أما العامل الثاني : فهو الظروف الاقتصادية ، وترتبط ارتباطا مباشراً بطبيعة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي أحاطت أوربا آنذاك ، والتي جعلت من الفقراء مادة الجيش ، فقد كان الفلاحون في شمال غرب أوربا يعيشون في ظل ظروف قاسية بسبب تفشي الأمراض وانتشار الجهل فضلا عن حدوث الفيضانات وتحطم قنوات المياه مما أدى إلى تلف الحقول الزراعية فأضطر معظم الفلاحين إلى ترك أراضيهم ، وأدى ذلك بالتالي إلى قلة الإنتاج الزراعي وظهور المجاعة ، فاصبحوا عاطلين عن العمل فبحثوا عن وسيلة للخروج من هذا المأزق لذا بدأوا يلبون الدعوة للحروب الصليبية[٣] هذا فضلاً عن الآثار السلبية التي لحقت بالتجارة الأوربية نتيجة لعدم وجود قوة شرائية مّما أدى ذلك بالتالي إلى انعدام الأمن والاستقرار ، وظهور قطاع الطرق واللصوص في حين أن المشرق الإسلامي كان على العكس من ذلك ، إذ ازدهرت تجارته ولاسيما في المدن الساحلية في بلاد الشام مصر[٤] ولذلك بدا تجار المدن الإيطالية (البندقية . جنوة . بيزا) تتجه انظارهم نحو الشرق لأهميته الاقتصادية فكان هدفهم الحصول على امتيازات وأسواق في الشرق لتصريف بضائعهم ومنتجاتهم[٥] فالسيطرة على الموانئ البحرية في

---

[١] هـ. أ . ل. فشر ، تأريخ أوربا العصور الوسطى ، ترجمة : محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ، ط٥ (دار المعارف ، القاهرة : ١٩٦٦ م) ، ق١ ، ص ١٧٦ . ١٧٧ .

[٢] مرتضى الشيخ حسين ، " الحروب الصليبية وعبرها في كفاحنا ضد الصهيونية " (مجلة آفاق عربية ، بغداد : ١٩٧٩م) ، ع١ ، ص ٨١ .

[٣] ستيفن رنسيمان ، تأريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : الباز العريني (دار الثقافة ، بيروت : ١٩٦٧م) ، ج١ ، ص١٧٠ . ١٧١ .

[٤] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص٣٤ . ٣٧ .

[٥] احمد رباح ، " دور التجار الأوربيين في دعم وتوجيه الحملات الصليبية " (ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ، جامعة اليرموك : ٢٠٠٠م) ، ج٢ ، ص٨٦٨ ؛

W. B. Stevenson ,The Crusaders in the East , Second editIon (Salim Press ,Beirut : 1968) , P. 5 .

بلاد الشام كانت من أهم الأسباب التي دفعت التجار الأوربيين إلى تشجيع الحروب الصليبية[1] ولم يكن يعنيها الدافع الديني إلا بالقدر الذي يحقق مصالحها ويكفي ان نعرف ان شقار البنادقة الذين عرفوا به وقتذاك كان ((***لنكن أولاً بنادقة ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين***)) [2] .

أما العامل الثالث : الظروف السياسية ، من خلال تتبع الخارطة السياسية والظروف القائمة بين منطقتين : الأولى أوربا مصدر الحروب الصليبية ، والثانية : الدولة العربية الاسلامية وهي المقصودة من تلك الحروب فبالنسبة لأوربا كانت تضم ممالك ودويلات وامارات صغيرة متنازعة فيما بينها وكان للكنيسة دور كبير في السيطرة وفرض كلمتها على تلك الممالك[3] ونتيجة لسيطرة البابوية على السلطة الزمنية فقد حاول ملوك أوربا وأمراؤها استعادة تلك السلطة ّمما أدى إلى زيادة حدة الصراع بين الأباطرة والملوك وبين رجال الكنيسة ، فكانت مشاركة ملوك أوربا في الحملات الصليبية تحت تأثير البابوية وإلحاحها ، أما الأمراء الذين اسهموا فيها فمعظمهم كان يبحث عن أطماع سياسية ولا سيما أن الكثير منهم كان عديم الأهمية ومسلوب النفوذ ، إذ أدت طبيعة النظام الإقطاعي في الغرب الأوربي إلى وجود عدد كبير من الأمراء والفرسان من دون ارض لان القاعدة الأساسية لذلك النظام أن الابن الاكبر وحده هو الذي يرث الإقطاع ، فإذا مات صاحب الإقطاع انتقل الإقطاع بأكمله إلى اكبر أبنائه وهذا يعني حرمان سائر الأبناء الآخرين من الأرض الأمر الذي جعلهم يحاولون التغلب على هدة العقبة من خلال الزواج من وارثات الإقطاع أو الالتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على الإقطاع ، فكان لظهور الحركة الصليبية باب جديد أمامهم فأسرعوا للمشاركة فيها لعلهم ينجحون في تأسيس إمارات خاصة بهم في الشرق تعوضهم عما فاتهم في الغرب [4] .

---

[1] جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، ط٣ (دار النهضة العربية ، بيروت : ١٩٨١م) ، ص٨٧ . ٨٨ ؛ رباح ، " دور التجار " ، ج٢ ، ص٨٦٨ .

[2] محمود العروسي المطوي ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (د . م. ، تونس : ١٩٥٤م) ، ص ١٦ ؛ علية عبد السميع الجنزوري ، الحروب الصليبية (المقدمات السياسية) (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : ١٩٩٩م) ، ص ٢٤٩ .

[3] انتوني ويست ، الحروب الصليبية ، ترجمة : شكري محمود نديم (مؤسسة فرانكلن للطباعة والنشر ، بغداد : ١٩٦٧م) ، ص٢٤ .

[4] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١، ص٤٠.٤٢ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص١٨ .

أما ما يتعلق بأوضاع الدولة العربية الاسلامية فقد شهدت أوضاعها السياسية قبيل الحروب الصليبية انقسامات وصراعات مريرة ففي بغداد كانت الخلافة العباسية تخضع لسيطرة السلاجقة ، أما في بلاد الشام فقد كان هناك عدة قوى مميزة ومشتبكة مع بعضها البعض بنزاعات من أجل مناطق النفوذ ، وهي القبائل العربية المحلية والامراء التركمان السلاجقة والقادة العسكريون الأتراك والقبائل التركمانية المستقلة أوغير السلجوقية [١] كما كانت الدولة الفاطمية تعاني من الضعف والانحلال واستنزاف قوتها بسبب نزاعها مع الأتراك السلاجقة من أجل استعادة النفوذ الفاطمي على بلاد الشام[٢] .

أما العامل الرابع : الظروف الاجتماعية ، فقد كان المجتمع الأوربي منقسما على نفسه إلى ثلاث طبقات الأولى طبقة الأمراء والنبلاء والفرسان ، والثانية طبقة رجال الدين ، والثالثة طبقة الفقراء وعامة الشعب ومعظمهم من الفلاحين والاقنان ، فقد تمتعت الطبقتان الأولى والثانية بامتيازات واسعة على حساب الطبقة الثالثة (***الكادحة***) التي كانت تمثل الأغلبية الساحقة المجتمع الأوربي [٣] ففي الوقت الذي كان الأمراء والنبلاء ورجال الدين يعيشون في حالة من الترف والدعة كان الفلاحون الذين شكلوا مادة الحروب الصليبية يعانون من الفقر والبؤس والجوع والحرمان بسبب قحط المواسم الزراعية والكوارث الطبيعية والأوبئة الفتاكة [٤] .فحاولوا الخروج من هذا المأزق من خلال المشاركة في الحملات الصليبية طامعين في خيرات الشرق [٥] .

خامسا : الظروف التأريخية ، لقد كان لمجيء الإسلام وقيام المسلمين بحمل رسالته ونشرها ، وتوليهم أمر تحرير بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا وضم الأندلس اثر كبير في توتر

---

[١] هاملتون جب ، صلاح الدين الايوبي دراسات في التأريخ الإسلامي ، تحرير وترجمة : يوسف أيبش (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت : ١٩٧٣م) ، ص٤٥-٤٦ ؛ اليوسف ، علاقات ، ص٢٦-٢٧ ؛ خاشع المعاضيدي ، " طبيعة الحرب الصليبية الأولى " (مجلة الجامعة المستنصرية ، بغداد : ١٩٧٤م) ، ع٤ ، ص٢٨٠ .

[٢] حسن حبشي ، الحرب الصليبية الأولى ، ط٢ (المطبعة العربية ، القاهرة : ١٩٥٨م) ، ص٩ .

[٣] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١، ص٣٧-٣٨ ؛ ويست ، الحروب الصليبية ، ص٢٣ .

[٤] زابوروف ، الصليبيون ، ص١٦-١٧ ؛ قاسم ، الخلفية الأيديولوجية ، ص ٩٢-٩٣ .

[٥] عاشور ، أوربا العصور الوسطى التأريخ السياسي ، ط٥ (مطبعة ألا نجلو المصرية ، القاهرة : ١٩٧٢م) ، ج١ ، ص٤٤١ .

العلاقات مع الغرب الأوربي [1] وجاءت معركة ملاذ كرد سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١م مكملةً لذلك إذ تحطمت فيها هيبة الإمبراطورية البيزنطية على يد السلاجقة التي كانت من أهم نتائجها سيطرة السلاجقة على معظم أراضي آسيا الصغرى [2] عندئذ أخذت بعض السلطات البيزنطية تناشد حكام أوربا والبابوية بتقديم المساعدات العسكرية للتخلص من الخطر السلجوقي ، إذ جرت مفاوضات في هذا الشأن في عهد الإمبراطور ميخائيل السابع (٤٦٤ـ٤٧٢ هـ/١٠٧١ـ١٠٧٩م) مع هنري الرابع إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (٤٨٨–٤٩٩هـ/١٠٩٥–١١٠٥م) وكذلك مع البابا جريجوري السابع (٤٦٦.٤٧٨هـ/١٠٧٣.١٠٨٥م) غير أن هذه الدعوات لم تلق أذناً صاغية [3] حتى جاء الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين (٤٧٤ـ٥١٢هـ/١٠٨١ـ١١١٨م) الذي استنجد بالبابا في روما [4] ملتمساً منه التعاون ضد المشرق الإسلامي ، فألهب شعور البابا وحماسه الديني الذي أثار بدوره مشاعر الحجاج والفقراء الأوربيين مستغلاً خطابه [5] الذي ألقاه في دير كليرمونت ليكون بداية انطلاق الحملات الصليبية [6] .

تألفت الحملة الصليبية الأولى من قسمين أطلق على القسم الأول تسمية حملة الشعوب أو العامة ، والقسم الثاني الحملة النظامية أو حملة الأمراء ، اتسم الأول بعدم التنظيم والاعتماد على روح الحماس الذي أثارته الدعوة للحروب الصليبية لدى الجموع الغفيرة من المعدمين والمتشردين وقطاع الطرق والفقراء [7] وقبل الموعد الذي حدده البابا انطلقت في نيسان سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م خمسة جيوش من العامة نحو القسطنطينية تعرض ثلاثة منها للهلاك والتدمير

---

[1] باركر ، الحروب الصليبية ، ص١٤ . ١٥ .

[2] عز الدين محمد بن محمد بن أبي الكرم بن الأثير ، الكامل في التأريخ (دار صادر ، بيروت : ١٩٦٦م) ، ج١٠ ، ص٦٥ .

[3] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص٣٣ ؛ اليوسف ، علاقات ، ص٢٥ .

[4] زابوروف ، الصليبيون ، ص ٣٦ . ٣٧ ؛ رايلي ، الغرب ، ص١٩٦ .

[5] حول نص خطاب البابا اوربان الثاني . ينظر : فوشيه الشارتري ، تأريخ الحملة إلى القدس ، ترجمة : زياد العسلي (دار الشروق ، عمان ، ١٩٩٠م) ، ص ٣٢ . ٣٥ .

[6] ستيفن رنسيمان ، تأريخ الحروب الصليبية ، ترجمة الباز العريني (دار الثقافة ، بيروت : ١٩٦٧م) ، ج١ ، ص١٦٠ . ١٦١ .

[7] حبشي ، الحرب الصليبية ، ص ٦٤ ؛ يوسف ، العرب ، ص١٥٢ ؛ رايلي ، الغرب ، ص١٩٦ .

ولم يصل سوى جيشين كان مصيرهما الإبادة أيضا عن آخرهما على أيدي الأتراك السلاجقة في اراضي آسيا الصغرى لتبدا الحملة النظامية [١] في ١٥ آب من السنة ذاتها بالزحف تجاه القسطنطينية [٢] وتألفت قيادتها من ثلاث مجموعات ضمت الأولى فرسان اللوريين تحت زعامة الدوق جودفري البويوني ***Godfrey Bouillon*** وأخيه اللورد بلدوين ***Baldwin*** ، والثانية شملت فرسان إقليم بروفنسال يقودهم ريموند الأول ***Raymond I*** أمير تولوز وبصحبته المندوب البابوي ادهمير ، أما المجموعة الثالثة فتكونت من الفرسان النورمان وعلى رأسهم بوهيمند الأول ***Bohemond I*** وابن أخيه تانكرد ***Tancard*** هذا فضلاً عن عدد آخر من الفرسان المشهورين في أوربا آنذاك [٣] فوصلتها في شهر أيار سنة ٤٩١ / ١٠٩٨م ، وعلى وفق شروط المعاهدة المعقودة بين الإمبراطور البيزنطي والأمراء الصليبيين اعترف معظم زعماء تلك الحملة ضمناً أو صراحةً بولائهم له ، وأقسموا بإعادة كل ما استولى علية السلاجقة من أملاك الإمبراطورية البيزنطية مقابل تعهد الإمبراطور البيزنطي بمساعدة الصليبيين بالمؤن والإمدادات العسكرية لاحتلال القدس لذا عبرت القوات الصليبية مضيق البسفور وبحر مرمرة ونزلت في أراضٍ آسيا الصغرى [٤] وهاجمت نيقية عاصمة سلاجقة الروم في بداية حزيران سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨ في الوقت الذي كان فيه حاكمها السلجوقي قلج ارسلان خارج عاصمته منشغلاً في نزاعة مع الدانشمنديين [٥] لكنه لم يلبث أن علم بالخطر الذي يهدده من قبل جهة الغرب ، فأرسل جيشاً للدفاع عن المدينة غير أن الصليبيين تمكنوا من صد ذلك الجيش وردّه على أعقابه [٦] قد فرض الصليبيون حصاراً على مدينة نيقية ، وعلى الرغم من صمود سكان المدينة

---

[١] للاطلاع على خط سير الحملة الصليبية الأولى . ينظر : خارطة رقم (١) .

[٢] وليم الصوري ، تأريخ الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار ، ترجمة : سهيل زكار (دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت : ١٩٩٠م) ، ج ١ ، ص١٩٥ ، ٢٢١ . ٢٢٦ .

[٣] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٤٠ . ٤١ ؛

[٤] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٢٢٦ – ٢٢٧ .

[٥] الدانشمنديون : إحدى الاسر التركمانية التي نشأت في الركن الشمالي الشرقي من آسيا الصغرى ، ويعد الأمير التركماني احمد بن الدانشمند المؤسس الحقيقي لتلك الإسرة التي توسعت على حساب الممتلكات البيزنطية في كبد وكيا واماسية وسيواس وقيصرية . وللمزيد من التفاصيل ينظر : فتحي سالم اللهيبي ، مملكة أرمينية الصغرى (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة الموصل : ٢٠٠٠م) ، ص ٦٥ . ٦٨ ؛ رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ١١٢ .

[٦] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٢٣١ . ٢٣٣ .

ومقاومتهم الا انها سقطت بيد الصليبيين ، وعادت بذلك إلى حضيرة الإمبراطورية البيزنطية في ٢٠ حزيران سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م [١] .

وبعد الانتهاء من أمر نيقية اشتبك الصليبيون مع قلج ارسلان في معركة دارت رحاها عند دوريليوم (اسكي شهر) انتصر فيها الصليبيون [٢] وهزم فيها السلاجقة في ٢٩ تموز سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م[٣] ولم يكتفِ الصليبيون بذلك بل تقدموا نحو مدينة هرقلة التي كانت من ممتلكات السلاجقة فاحتلوها في أيلول من السنة ذاتها [٤] ومن ثم توجه الجيش الصليبي الرئيس الذي يقوده المندوب البابوي ادهمير نحو مدينة قيصرية وأثناء الزحف انفصل كل من القائدين بلدوين وتانكرد عن الجيش الرئيس [٥] ويرجع ذلك إلى الأطماع الشخصية لكل منهما وطموحهما في تشكيل إمارة صليبية في قيليقيا الأرمينية [٦] .

هكذا التقت مصلحة كل من بلدوين وتانكرد في معارضة الطريق الدائري الذي اتخذه الجيش الرئيس نحو مدينة قيصرية الذي يخدم مصلحة الإمبراطور البيزنطي في القضاء على التواجد السلجوقي في المنطقة [٧] فانفصل كل منهماوسلك طريقاً مغايراً للآخر في الوصول إلى طرسوس ، فكان تانكرد أسرع وصولاً إليها من بلدوين فاحتلها ، وعندما وصل الأخير طلب منه تقاسم المدينة معه [٨] وبما أن تانكرد كان اضعف موقفاً من بلدوين فقد اثر التوجه إلى ادنة والمصيصة ، فاستولى عليهما بمساعدة سكانها من الأرمن بعد أن هربت الحامية السلجوقية منها

---

(١) الشارتري ، تأريخ الحروب ، ٤٧ ؛

Claud Cahen , Pre – Ottoman Turkey (Helythom Press , London : 1968) , P. 85.

(٢) أبو يعلي حمزة ابن القلانسي ، ذيل تأريخ دمشق ، تحقيق : اميدوز (مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت : ١٩٠٨م) ، ص١٣٤ .

(٣) رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٢٦١ .

(٤) زابوروف ، الصليبيون ، ص ٧٨ .

(٥) مؤلف مجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة : حسن حبشي (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة : ١٩٥٨م) ، ص٤٤ .

(٦) رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٢٦٩ .

(٧) راغب حامد البكر ، الحروب الصليبية بدايات الاستعمار الأوربي (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة الموصل : ١٩٨٣م) ، ص ٧٧ .

(٨) أعمال الفرنجة، ص٤٤ . ٤٥ ؛ الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص٥١ . ٥٢ .

، وما لبث أن التحق بلدوين بالجيش الرئيس قرب مرعش [١] ولكن فشله في اقامة إمارة صليبية خاصة به في قيليقيا جعله ينفصل مرة أخرى عن الجيش الرئيس ويتجه نحو مدينة الرها [٢] بفئة قليلة لا تتعدى الثمانين فارساً ، بعد أن تلقى الدعوة من حاكمهما ثوروس الأرمني في أواخر كانون الثاني سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م ، وذلك لخشيته من الاستيلاء السلجوقي على المدينة ، وتم الاتفاق بينهما على ان يتبنى ثوروس بلدوين ، لكي يكونَ وريثاً شرعياً له في حكم الرها ، وبوصوله إليها استقبل بحفاوة من قبل ثوروس وزوجته ، ولم يكد بلدوين يستقر في الرها لمدة خمسة عشر يوماً حتى نشبت الثورة فيها ضد ثوروس لسببين الأول كره الأهالي له ، والثاني إشراكه بلدوين في حكم المدينة [٣] وانتهت تلك الثورة بمصرع ثوروس ، وبمقتله آلت مقاليد الأمور السياسية في حكم الرها إلى بلدوين [٤] وهذا ّمما يدفعنا إلى الظن ان بلدوين كانت له يد في الثورة على ثوروس وقتله وذلك لانه يعد صاحب المصلحة الوحيدة والمستفيد الأول من ذلك لان الأمور ستؤول إليه بوصفه الوريث الشرعي لحكم المدينة . وبذلك نشأت أولى الكيانات الصليبية في الشرق [٥] .

استأنف الجيش الصليبي زحفه نحو مدينة انطاكية التي كان يحكمها آنذاك الأمير السلجوقي ياغي سيان [٦] الذي ما أن علم بالخبر حتى أمر سكانها من المسلمين والنصارى بحفر خندق حول المدينة استعداداً للمواجهة [٧] في الوقت الذي اتخذ فيه الصليبيون مواقعهم

---

[١] مرعش : مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق ، وفي وسطها حصن عليه سور . ينظر : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي ، معجم البلدان (دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت : ١٩٥٧م) ، ج٥ ، ص ١٠٧ .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٢٩٩ . ٣٠١ .

[٣] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص٥٢ . ٥٣ .

[4] *Stevenson , The Crusaders , P. 5.*

[٥] ابن القلانسي ، ذيل ، ص١٣٤ ؛ يوشع براور ، عالم الصليبيين ، ترجمة : قاسم عبدة قاسم (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة : ١٩٩٩م) ، ص٤٤ . عن نشأة تلك الإمارة وظروف نشأتها ودورها السياسي في عصر الحروب الصليبية .ينظر : الجنزوري ، إمارة الرها الصليبية (مطابع سجل العرب ، القاهرة : ١٩٧٥م) .

[٦] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص٥٣ . ٥٤ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٢٩٩ .

[٧] ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص٢٧٤ .

حول المدينة في تشرين الأول سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م [١] ففرضوا حصاراً على أبوابها الثلاثة ، أما بابها الرابع فكان ((***يكتنفه جبل شامخ***)) [٢] وقد واجه الصليبيون في أثناء الحصار [٣] صعوبات جمة كقلة المؤن والمواد الغذائية وارتفاع أسعارها بشكل كبير جدا مما أدى ذلك إلى حدوث المجاعة في صفوف الجيش الصليبي [٤] كما ازداد الوضع سوءاً بسبب الهجمات المكثفة التي كان يشنها الأمير ياغي سيان على الجيش الصليبي المرابط حول انطاكية والتي اربكت صفوفهم [٥] .

وقد حاولت القوى العربية الإسلامية نجدة انطاكية وفك طوق الحصار عنها عندما أرسل ياغي سيان إلى دقاق أمير دمشق وجناح الدولة أمير حمص وكربوغا حاكم الموصل مستنجداً بهم إلا أن الإمدادات التي أرسلت ردت إلى أعقابها [٦] وخلال فترة الحصار نجح بوهيمند في الاتصال بأحد المدافعين عن أبراج المدينة يدعى فيروز ، ووعده بالثروة والأموال مقابل تقديمه المساعدة للصليبيين في احتلال المدينة [٧] وأخيرا تم الاتفاق بينهما على أن يكون الهجوم في تمام الساعة الثالثة صباح يوم ٣ حزيران سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩م ، وعندما حان الموعد المتفق عليه زحفت ليلاً قوة مكونة من عشرين رجلاً ، وقبيل بزوغ الفجر وصلوا البرج الذي يتولى حراسته فيروز ، وتسلقوا لسور فاستولوا على البرج وسائر الأبراج الأخرى للمدينة وقتلوا عدداً

---

[١] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص٥٣ ، باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٣٤ ؛ ايليسيف ، الشرق الإسلامي ، ص٣٨٤ .

[٢] أعمال الفرنجة، ص ٤٩ . ٥٠ .

[٣] اتفقت روايات المصادر المعاصرة على أن حصار انطاكية دام تسعة اشهر . ينظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص٢٧٤ ؛ الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص٥٧ . بينما ذكرت مصادر متأخرة انه استغرق سبعة اشهر . ينظر : زين الدين عمر ابن الوردي ، تأريخ ابن الوردي (المطبعة الحسينية ، النجف : ١٩٦٩ م) ، ج٢، ص١٥ ؛ عبد الحي بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (المكتبة التجارية للطباعة والنشر ، بيروت : د. ت.) ، ج٣ ، ص ٣٩٦ . والرأي الراجح هو ما ذهب إليه كل من ابن الأثير والشارتري .

[٤] أعمال الفرنجة، ص٥٤ . ٥٥ ؛ الشارتري ، نفسه ، ص ٥٥ .

[٥] الشارتري ، نفسه ، ص٥٧ ؛ كمال الدين عمر بن محمد بن العديم ، زبدة الحلب في تأريخ حلب ، تحقيق : سامي الدهان (المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق : ١٩٥١م) ، ج٢ ، ص١٣٢ . ١٣٣ .

[٦] ابن القلانسي ، ذيل ، ص ١٣٤ .

[٧] أعمال الفرنجة، ٦٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص٢٧٤ ؛ مؤرخ مجهول ، تأريخ الرهاوي المجهول ، تعريب : الأب البير أبونا (مطبعة شفيق ، بغداد : ١٩٨٦م) ، ج٢ ، ص٧٦ . ٧٧ .

كبيراً من سكانها [١]وعندما حقق الصليبيون ذلك النصر صاحوا جميعاً صيحة رجل واحد ((***هذه إرادة الله ، هذه إرادة الله***)) [٢] .

أما حاكمها ياغي سيان فانه دهش لهذا الأمر ، وبعد أن تأكد له أن المدينة احتلها الصليبيون خرج من البلد في جماعة المنهزمين [٣] إلا انه سرعان ما ندم على ما اقدم عليه من أمر الهروب ، وتخاذله عن قتال الصليبيين [٤] ولا سيما ان القلعة لما تسقط بعد بايدي الصليبي ، فكان سقوط انطاكية في ٣/ حزيران سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩م [٥] ويرجع سقوطها إلى سببين رئيسين الأول تفكك الموقف للقوى الإسلامية وتقاعسها في الدفاع عن المدينة والثاني هو الدور الخياني الذي قام به فيروز وليس ناجماً عن قوة الصليبيين وقدراتهم العسكرية [٦] وعلى الرغم من احتلال انطاكية إلا أن قلعتها بقيت صامدة ، إذ قوي عزم المدافعين عندما قدمت جيوش كربوغا ، وكان احمد بن مروان قائداً لحامية القلعة فوقع الصليبيون بين نارين نار القلعة ونار كربوغا ّمما اضطرهم إلى طلب التفاوض مع كربوغا إلا أن تلك المفاوضات لم تجدِ نفعاً لان كربوغا طلب من الصليبيين الاستسلام دون قيد أو شرط وبذلك لم يكن أمام الأمير بوهيمند سوى الحرب ، فهاجم القوات الإسلامية منتهزاً فرصة انسحاب الأمير دقاق حاكم دمشق ، وتمكن من تحقيق انتصار حاسمٍ على المسلمين مما

---

[١] أعمال الفرنجة، ص٦٨ . ٧٠ ؛ الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص٥٧ . ٥٨ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٣٢٨ . ٣٢٩ .

[٢] الشارتري ، نفسه ، ص٥٨ .

[٣] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٣٣١ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ١٣٥ .

[٤] يذكر ابن الأثير ان ياغي سيان جعل يتلهف على ترك أهله وأولاده المسلمين فاستبد به الحزن فسقط على الأرض واغمي عليه ، ولم يستطع اصحابه أن يعيدوه إلى وعيه فتركوه ، حتى مر به أحد الفلاحين الأرمن ، فقتله وقطع رأسه وارسله إلى الصليبيين بانطاكية . ينظر : الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٧٥ ؛ جمال الدين أبو الفرج غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري ، تأريخ الزمان ، ترجمة : إسحاق أرملة (دار المشرق ، بيروت : ١٩٩١م) ، ص١٢٤ .

[٥] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٣٣٢ ؛
Setton , Ahistory of the Crusades ,Vol. 1 , P. 318 ; J. R. Tanner , The Cambridge Medieval History (Cambridge University Press : 1968) ,Vol. 5 , P. 29.

[٦] خضير عباس الجميلي ، مدينة انطاكية في مواجهة الحملة الصليبية الأولى (ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي (جامعة اليرموك ، الاردن : ٢٠٠٠م) ، ج٢ ، ص ٧٣٠ . ٧٣١ .

اضطر كربوغا إلى الانسحاب إلى الموصل بعد خسائر فادحة[١] .

ويعزو ابن الأثير الحماس الذي قاد الصليبيون إلى القتال ورفع معنوياتهم إلى راهب يدعى بطرس الناسك ، كان في صفوف جيش ريموند الصنجيلي ، إذ ادعى أن المسيح (عليه السلام) كانت له حربة مدفونة في احدى زوايا كنيسة القديس بطرس في انطاكية ، قائلاً للصليبيين إن وجدتموها فالنصر سيكون حليفكم ، وان لم تجدوها فالهلاك محقق ، وبعد إجراء عمليات الحفر هناك تم العثور على الحربة المقدسة [٢] وذكر الشارتري انه عندما وجدت الحربة لم يصدق المندوب البابوي ادهمير هذا الأمر ، أما الأمير ريموند فقد أَمل أن تكون صحيحة[٣] ويعلق رنسيمان على الحادثة قائلاً : ((***ولعل بطرس بارثولوميو ابتكر هذه المسألة بعد عودته إلى انطاكية او لعله توافرت له موهبة المتنبئ فيستطيع أن يخبر بوجود قطعة من الحديد***)) [٤] .

والحقيقة ان تلك القصة ملفقة بكاملها إذ تم اختبار بطرس عن طريق النار لاحقاً واثناء الاحتراق احترق ومات [٥] . أما بالنسبة لقائد حامية القلعة احمد بن مروان فقد كان يشاهد ما يدور من قتال بين الطرفين الإسلامي والصليبي ، ولما رأى أن المعركة خاسرة لا محال أرسل مندوباً عنه إلى المدينة للتفاوض في أمر الاستسلام ، فأرسل ريموند علما من أعلامه ليرتفع على أعلى برج من أبراج القلعة ، غير أن آبن مروان عندما علم أن العلم ليس علم بوهيمند رفض ان يرفعه ، لانه كان قد عقد اتفاقاً سرياً مع بوهيمند يتعهد فيه بتنفيذه عند انتصار الصليبيين ، لذا فانه لم يفتح أبواب القلعة إلا عندما ظهر بوهيمند بنفسه ، فسمح لاحمد بن مروان ولحاميته بالخروج دون أن تتعرض لأي أذى [٦] .

وقد اتخذ الصليبيون من مدينة انطاكية قاعدة متقدمة لتنفيذ مشاريعهم الاستعمارية

---

[١] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٣٥٢ . ٣٥٤ ؛ اليوسف ، علاقات ، ص٦٨ .

[٢] الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٧٦ .

[٣] الشارتري ، ص ٥٩ .

[٤] تأريخ الحروب ، ج١ ، ص٣٤٩ .

[٥] باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٣٦ ؛ اليوسف علاقات ، ص ٧٠ .

[٦] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٣٥٤ .

الاستيطانية في بلاد الشام [١] فاتجهوا نحو مدينة البارة ونجحوا في الاستيلاء عليها بعد أن قتلوا معظم سكانها [٢] ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فبعد احتلال البارة اختار ريموند أمير تولوز أسقفا يدعى بطرس النربوني ، وهو احد أعوانه المقربين ، ومنح الأسقف الجديد نصف المدينة بل ونصف المنطقة بأسرها ، وبذلك اصبح أول أسقف لاتيني في الشرق ومقره مدينة البارة [٣] ومن ثم سارت جموع الصليبيين إلى مدينة معرة النعمان ، وما أن وصلوها حتى فرضوا عليها حصاراً [٤] من جهاتها الأربع [٥] .

وقد واجهه الصليبيون خلال فترة الحصار مقاومة عنيفة من قبل سكانها الذين اظهروا شجاعة فائقة في التصدي لأعدائهم [٦] واستمرت المعارك بين الطرفين إلى أن تمكن ريموند من بناء برج خشبي ساعد الصليبيين في اعتلاء سور المدينة ، وفي الوقت ذاته تمكن بعض الجند من أحداث ثقب في جدار السور فحاول الصليبيون مهاجمة المدينة من خلال تلك الثغرة ولكن المقاومة الباسلة للسكان حالت دون ذلك وأمام هذا الوضع اضطر بوهيمند إلى إعطاء الأمان لأهالي المدينة مقابل الاستسلام له إلا أنه لم يفِ بوعده بعد أن استجابوا لطلبه [٧] وليس ذلك فحسب بل ارتكبت

---

[١] كارل بروكلمان ، تأريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي (دار العلم للملايين ، بيروت : ١٩٤٩م) ، ج٢ ، ص ٢١٧ .

[٢] ابن القلانسي ، ذيل ، ص١٣٤ .

[٣] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص٣٧٨ .

[٤] عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، المنتظم في تأريخ الملوك والأمم (مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، الدكن :١٩٣٨م) ، ج٩ ، ص١٠٦ .

[٥] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٣٨٠ .

[٦] آبن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٧٨؛ وقدم الشارتري وصفاً دقيقاً لحال الصليبيين أثناء حصار المدينة الذي استغرق عشرين يوماً ((***عانى رجالنا من الجوع الشديد ، ويقشعر بدني إذ أذكر أن كثير من رجالنا وقد اضناهم الجوع ، وعذبهم إلى حد الجنون واقتطعوا لحم العجز من جثث الشرقيين المطروحة ، وطبخوه واكلوه وكانوا ملتهمين اللحم بوحشيه قبل أن يتم طهيه ، وهكذا فان الضرر أصاب المُحاصرين أكثر من المُحاصَرين***)) . ينظر : تأريخ الحملة ، ص ٦٨ .

[٧] أعمال الفرنجة، ص ١٠٥ . ١٠٦ .

فيها مذبحة بشعة [١] ذهب ضحيتها الكثير من سكانها [٢] .

وكانت المشكلة الكبرى التي واجهت الصليبيين هي مصير مدينة انطاكية ، وإلى من سيؤول حكمها للصليبيين أم للبيزنطيين فخلال فترة الحصار الثنائي للمدينة بدأت تظهر الدسائس والمؤامرات والمنازعات بين القادة الصليبيين ، فقد تحدى الأمير ريموند الصنجيلي الأمير بوهيمند النورماندي صانع النصر في انطاكية وادعى انه أحق بحكم المدينة من غيره [٣] وفي الوقت الذي كانت فيه قوات الأمير بوهيمند تسيطر على الأجزاء الشمالية والشرقية والوسطى من المدينة بما فيها القلعة احتل الأمير ريموند الجزء الجنوبي الغربي من المدينة ، ولم يكتفِ الأمير ريموند بذلك بل أبقى حامية من جنده هناك لحماية المنطقة التي سيطر عليها [٤] .

وكان الأمير بوهيمند قد طلب من الأمراء الصليبيين الآخرين تسليمه المناطق التي تحتلها قواتهم وهي أبواب المدينة وأبراجها وتحصيناتها ، فقبل جميعهم وتنازلوا عن السلطة والحكم في انطاكية للأمير بوهيمند ، باستثناء الأمير ريموند مما أدى إلى تصاعد حدة النزاع بين الأميرين ، فاضطر الأمير بوهيمند إلى مهاجمة الحامية واجبر جنودها على مغادرة الموقع [٥] وبذلك لصبح بوهيمند بحكم الواقع حاكماً لإمارة انطاكية ، فهو الذي حقق النصر بأساليبه

---

[١] وقد اعترف الشارتري بذلك قائلاً : ((***قتلوا جميع الشرقيين من ارفعهم إلى اوضعهم ، ونهبوا كل ممتلكاتهم***)) ينظر : تأريخ الحملة ، ص٦٨ ؛ وذهب ضحية تلك المذبحة زهاء مئة ألف شخص على حد قول ابن الأثير : الكامل ، ج ١٠ ، ٢٧٨ . في حين قدرهم ابن العديم بعشرين ألف شخص . ينظر : زبدة الحلب ، ج٢ ، ص١٤٢ .

[٢] كلود كاهن ، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة : احمد الشيخ (دار سينا للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٩٥م) ، ص ٢٨٤ .

[٣] براور ، عالم الصليبيين ، ص ٤٥ .

[٤] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٢٠٩ ؛ الجميلي ، " مدينة انطاكية " ، ج٢ ، ص ٧٣٢ .

[٥] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٣٦٧ .

الخاصـة فـي الاستيـلاء علـى المدينـة وهزم جيش كربوغـا واستسـلام القلعـة لـه[1] وهكـذا أسـس الصليبيون إمارتهم الثانية في بلاد الشام [٢] .

وكان الهدف الرئيس للصليبيين احتلال مدينة القدس [٣] التي عدت بداية طور جديد في تلك المرحلة [٤]وأخيرا وصلوا إلى مدينة القدس التي كانت هدفاً مرسوماً لتلك الرحلة الطويلة [٥] في أواخر شهر رجب سنة ٤٩٢هـ/٧حزيران ١٠٩٩م [٦]فشرعوا بحصارها من جميع الجهات [٧] .

أما عن موقف افتخار الدولة الذي كان يتولى حكم المدينة من قبل الوزير الفاطمي

---

[١] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٣٥٥ ؛ اليوسف ، علاقات ، ص ٦٩ .

[٢] قاسم ، ماهية الحروب ، ص ٢٧ ؛ سهيل زكار ، مدخل إلى تأريخ الحروب الصليبية ، ط٢ (دار الفكر ، بيروت : ١٩٧٣م) ، ص ٢٤٢ ، يوسف ، علاقات ، ص ٦٩ . وللمزيد من التفاصيل عن نشوء تلك الإمارة ودورها في أحداث الصراع العربي الإسلامي . الصليبي . ينظر : طلب صبار الجنابي ، إمارة انطاكية دراسة في علاقاتها السياسية بالقوى الإسلامية (أطروحة دكتوراه مقدمة إلى كلية التربية ابن رشد ، جامعة بغداد : ١٩٩٦م) .

[٣] يروي ابن ظافر أن الوزير الأفضل كان قد تسلم مدينة القدس من حاكمها سقمان بن ارتق في رمضان سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧ م ،أي قبل مجيء الصليبيين إلى بلاد الشام ، ويضيف قائلاً لو ترك بيد الارتقية لكان اصلح للمسلمين . ينظر : جمال الدين علي ، أخبار الدول المنقطعة ، تحقيق : اندريه فريه (مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ، القاهرة : ١٩٧٢ م) ، ص٨٢ ؛ شمس الدين احمد بن محمد بن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق : إحسان عباس (دار الثقافة ، بيروت : د. ت) ، ج ٢ ، ص ٤٥١ . إذ كان الفاطميون في مصر يطمعون لاعادة الاستيلاء عليها ، بوصفها قاعدة فلسطين ونقطة الارتكاز لمحاولة استرداد مناطق النفوذ التي استولى عليها السلاجقة . ينظر : عماد الدين خليل ، الإمارات الارتقية في الجزيرة والشام (مؤسسة الرسالة ، بيروت : ١٩٨٠م) ، ص ٧٧ .

[٤] البكر ، " حكام دمشق والحروب الصليبية " (مجلة آداب الرافدين ، الموصل : ١٩٩٥م) ، ع٢٧ ، ص ٢٥٣ .

[5] *John France ," The Capture of Jerusalem" , http / ehostvgw 2/ epnet Com* .

[٦] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤١٥ ؛ ابن القلانسي ، ذيل ، ص ١٣٦ ؛ محمد بن علي بن ميسر ، أخبار مصر ، اعتناء : هنري ماسيه (مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ، القاهرة : ١٩١٩م) ، ج٢ ، ص ٣٩ .

[٧] أعمال الفرنجة، ص ١١٧ ؛ تأريخ الرهاوي المجهول ، ج٢ ، ص٧٩ .

الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٨-٤٩٥هـ/ ١٠٩٥-١١٠١م) في مصر [١] فقد اتخذ عدة إجراءات احترازية استعداداً لمواجهة الخطر الصليبي ، فلجأ إلى ردم جميع آبار وصهاريج المياه أملا بأن العطش سيدفع الصليبيين إلى التخلي عن حصار المدينة ، كما أخفى الكثير من المواشي بعيداً عن أيدي الصليبيين ، وطرد جميع النصارى من المدينة خوفاً من الخيانة ، هذا فضلاً عن اهتمامه بتقوية التحصينات والتأكد من سلامة الأسوار الخارجية للمدينة [٢] وقد واجه الصليبيون عدة صعوبات بسبب قوة تحصينات المدينة ، والهجمات المفاجئة التي كان يشنها المحاصرون على القوات الصليبية وكذلك قلة المواد الغذائية وشحة مياه الشرب وذلك للجفاف الذي تميزت به المنطقة ّمما اضطر الصليبيون إلى جلب المياه من مسافات بعيد تتراوح بين٨ .١٠ كم عن مدينة القدس ، ثم شنوا عليها هجمات مكثفة إلا أنها باءت بالفشل[٣] .

وعلى الرغم من تلك المحولات الفاشلة إلا انهم استمروا في فرض الحصار حتى تمكن ريموند وجودفري من إنشاء برجين من الخشب لاقتحام أسوار المدينة [٤] . أما المسلمون فعلى الرغم من نجاحهم في إحراق أحد البرجين إلا أن ذلك لم يجدِ نفعاً ، لان الصليبيين نجحوا في اقتحام المدينة من جانبها الشرقي وهو اضعف جوانبها [٥] بعد حصار دام اربعين يوماً [٦] .

أما افتخار الدولة حاكم المدينة فقد تمكن مع مجموعة من جنده من الاحتماء بأحد ابراج المدينة ، وقاتلوا فيه الصليبيين لمدة ثلاثة أيام إلا انهم عجزوا عن المقاومة فاضطروا إلى الاستسلام بعد أن منحهم الصليبيون الأمان ، وسمحوا لهم بالخروج إلى مدينة عسقلان [٧] فكانوا الفئة القليلة من مسلمي القدس التي نجت من سيوف الصليبيين ، أما بقية السكان فتعرضوا

---

[١] ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٨٣ ؛ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق : جمال الدين الشيال (مطبعة كوستاتسوماتس ، القاهرة : د. ت .) ، ج٥ ، ص ١٤٨ .

[٢] أعمال الفرنجة، ص ١١٦ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص٤١٥ .

[٣] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٧٣ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٤٢ .

[٤] أعمال الفرنجة، ص ١١٧ ؛ تأريخ الرهاوي المجهول ، ج٢ ، ص ٧٩ .

[٥] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٤٣ .

[٦] ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص٢٨٣ ؛ عماد الدين إسماعيل بن محمد أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر (المطبعة الحسينية ، القاهرة : د . ت.) ، ج٢ ، ص ٢١١.

[٧] ابن الأثير ، نفسه ، ج١٠ ، ص ٢٨٣ ؛ الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص٧٧ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص٤٤٢ .

لمذبحة مروعة شهدتها المدينة ، حيث انطلق الصليبيون في شوارع المدينة وإلى المساجد والمنازل يقتلون كل من صادفهم من رجال ونساء وأطفال وشيوخ[١] .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل تعداه إلى إحراق المصاحف في المساجد [٢] كما سرقوا القناديل الذهبية والفضية التي كانت موجودة في المسجد الأقصى وقبة الصخرة [٣] كما هاجموا المنازل وسرقوا ما فيها من أموال ومجوهرات وملابس نفيسة ومواد غذائية [٤].

وفيما يتعلق بالمذبحة فإذا كان الصليبيون قد ارتكبوا مجازر بشعة في معظم المدن الشامية التي احتلوها ، فإنها بلغت ذروتها من القسوة والوحشية في مدينة القدس نفسها إذ مالوا على المسلمين يذبحونهم ، ويقطعون أطرافهم ويلقونهم من فوق الأسوار دون أن يميزوا بين رجل أو امرأة او طفل أو شيخ كبير حتى إن تلك الأعمال لا تزال تتناقلها الأجيال بتقزز واشمئزاز [٥] ففي وصف فضائح الصليبيين في القدس قال ابن الأثير ومن نقل عنه ((***وركب الناس السيف ولبث الفرنج أسبوعا في البلد يقتلون فيه المسلمين ... وقتل في المسجد الاقصى ما يزيد على سبعين ألفا منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف***)) [٦] .

---

[١] أعمال الفرنجة ، ص ١٢٠ ؛

Setton , A History , Vol. 1 , P. 337.

[٢] ابن ميسر ، أخبار مصر ، ج٢ ، ص ٣٩ .

[٣] ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٩ ، ص ١١٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٨٤ ؛ عبد الله بن اسعد اليافعي ، مراة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، ط٢ (مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت : ١٩٧٠م) ، ج٣ ، ص ١٥٨ .

[٤] أعمال الفرنجة ، ص ١١٩ ؛ الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٧٦ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٤٢ .

[٥] شفيق جاسر احمد ، القدس تحت الحكم الصليبي ودور صلاح الدين في تحريرها (د. م.، القاهرة : ١٩٨٩م) ، ص ٣٤ .

[٦] الكامل ، ج١٠ ، ص٢٨٣ . ٢٨٤ ؛ شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري ، نهاية الارب في فنون الادب ، تحقيق : محمد محمد امين واخر (مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : ١٩٩٢م) ، ج٢٨ ، ٢٥٧ ؛ محمد بن عثمان بن قيماز الذهبي ، العبر في خبر من غبر ، تحقيق : أبو هاجر محمد السعيد (دار

ولم يقتصر ذكر حادثة المذبحة على المصادر الإسلامية وإنما تطرقت إليها المصادر اللاتينية المعاصرة فالمؤرخ الفرنسي الشارتري الذي كان مرافقاً للحملة الصليبية الأولى وأرخ لها أوضح حقيقة الصليبيين وحقدهم على الإسلام والمسلمين عندما روى خبر قتل عشرة آلاف مسلم في المسجد الأقصى قائلاً : ((***ولو كنت هناك لتلطخت قدماك حتى الكواحل بدماء القتلى ... ولم يبق منهم أحد ولم يرحموا امرأة ولا طفلاً ، كم كانت تصيبك الدهشة لو أنك شاهدت رجالنا من المشاة وحملة الترس بعد ان اكتشفوا اللاعيب الشرقيين يبقرون بطون من ذبحوا ليستخرجوا من أمعائهم الدنانير الذهبية ... وبعد بضعة أيام جمع رجالنا كومة عظيمة من الجثث واحرقوها رمادا لكي يسهل عليهم الحصول على هذا الذهب ... وبسيوف مشرعة ركض رجالنا في المدينة لا يستبقوا أحدا ، حتى أولئك الذين يستعطفون الرحمة ، وتساقط الجمع كما يتساقط التفاح المتعفن من الأغصان المهزوزة***))[١] ولم ينجُ يهود القدس من قتل الصليبيين وتعذيبهم ، فقد احرقهم الصليبيون في معبدهم الكبير الذي تجمعوا فيه لعله يحميهم من بطش الصليبيين وهكذا أدت مذبحة بيت المقدس إلى خلو المدينة من السكان المحليين [٢] .

ولم يكن الصوري اقل صراحة من ذلك عندما روى مندهشاً تلك المذبحة ((***ولقد كانت المجزرة التي اقترفت في كل مكان من المدينة مخيفة جداً ، وكان سفك الدماء رهيباً جداً لدرجة عانى فيها حتى المنتصرون من أحاسيس الرعب والاشمئزاز ... وبات من المحال النظر إلى الأعداد الكبيرة للمقتولين دون هلع ، فقد انتشرت أشلاء الجثث البشرية في كل مكان ، وكانت الأرض ذاتها مغطاة بدم القتلى ، ولم يكن مشهد الجثث التي فصلت الرؤوس عنها والأضلاع المبتورة المتناثرة في جميع الاتجاهات هو وحده الذي أثار الرعب في كل من نظر إليها ، فقد فقد كان الارهب من ذلك هو النظر إلى المنتصرين أنفسهم وهم ملطخون بالدم من رؤوسهم إلى أقدامهم ، انه منظر مشؤوم جلب الرعب لجميع من واجهوهم***)) [٣] .

الكتب العلمية ، بيروت : د.ت.) ، ج٢ ، ص٢٦٥ ؛ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، تأريخ الخلفاء ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٣ (مطبعة السعادة ، القاهرة : ١٩٥٢ م) ، ص٤٢٧ .

[١] تأريخ الحملة ، ص٧٥ . ٧٦ .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص٤٠٥-٢ ، رفيق شاكر النتشة واخرون ، تأريخ مدينة القدس (دار الكرمل ، عمان :١٩٨٤م) ، ص٥٢ .

[٣] تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٣٦. ٤٣٧ .

في حين قالت أنة كومنين ابنة الإمبراطور البيزنطي الكسيوس ((***وكان من احب ضروب اللهو إليهم قتل من يلاقون من الأطفال وتقطيعهم أربا اربا وشيهم***))[١] وذكر غيرهم تفاصيل أدق لتلك الحادثة ((***إن النساء كن يقتلن طعناً بالسيوف والحراب ، والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد***))[٢] .

أما الكاهن ريموند داجيل فيقدم دليلاً آخر على همجية الصليبيين قائلاً : ((***لقد افرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان ، وكانت جثث القتلى تعوم في الساحة هنا وهنالك ، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها ، فإذا ما اتصلت ذراع بجسم لم يعرف اصلها و كان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمشقة***))ويسترسل في معلوماته متعجباً من حجم تلك المذبحة ي المروعة التي ارتكبها الصليبيون ((***حدث ما هو عجيب بين العرب ، عندما استولى قومنا على أسوار القدس وبروجها ، فقد قطعت رؤوس بعضهم ، فكان هذا اقل ما يمكن أن يصيبهم ، وبقرت بطون بعضهم ، فكانوا يضطرون إلى القذف بأنفسهم من أعلى الأسوار ، وحرق بعضهم في النار ، وكان ذلك بعد عذاب طويل ، وكان لا يرى في شوارع القدس وميادينها سوى أكداس من رؤوس العرب وأيديهم وأرجلهم فلا يمر المرء إلا على جثث قتلاهم ، ولكن كل هذا لم يكن سوى بعض ما نالوا ...***))[٣] .

ويكفي هنا أن ننقل الخبر التالي الذي رواه الشاهد الراهب روبرت عن سلوك الصليبيين في مدينة القدس للدلالة على وحشية الصليبيين وسياستهم الحربية تجاه المسلمين ((***وكان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل ، وذلك كاللبؤات التي خطفت صغارها ، وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إرباً إرباً ، وكانوا لا يستبقون أناسا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة ، فيا للعجب ويا للغرابة ان تذبح تلك الجماعة***

---

[١] غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ترجمة : عادل زعيتر (مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة : ١٩٦٤م) ، ص ٣٢٦ . ٣٢٧ .

[٢] ديورانت ، قصة الحضارة ، ج١٥ ، ص ٢٥ .

[٣] لوبون ، حضارة العرب ، ص٣٢٦ .٣٢٧ .

الكبيرة المسلحة بأمضى سلاح من غير أن تقاوم ، وكان قومنا يقضون على كل شئ ، فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعاً ذهبية فيا للشراه وحب الذهب ، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث ، فيا لتلك الشعوب العمي المعدة للقتل ، ولم يكن بين تلك الجماعة الكبرى واحد ليرضى بالنصرانية ديناً)) [١] .

أما المؤرخون الأوربيون المحدثون فقد انتقدوا ذلك العمل العدائي ، فيعلق كروسيه *Grousset* قائلاً : ((***ولا يمكن أن يبرر الصليبيون بحال من الأحوال المذبحة المروعة التي قاموا بها خلال الأيام التي اتبعت دخولهم بيت المقدس ، ولم تكن هذه المذبحة جريمة فحسب ، وإنما كانت خطأً سياسياً لا يغتفر ، فقد جعلت من الفاطميين أعداء الداء للصليبيين***)) [٢] ، وليس هذا فحسب بل عدها وصمة عار في تأريخ الحملة الصليبية الأولى .

وبالنسبة لموقف القوى العربية الإسلامية من الاحتلال الصليبي للقدس ، فالدولة الفاطمية في مصر تلقت الأخبار ببرود وكذلك بغداد التي اتجه إليها القاضي زين الدين أبو سعد الهروي قاضي دمشق ليخبر الخليفة العباسي المستظهر بالله (٤٨٧ . ٥١٢هـ /١٠٩٤ . ١١١٨م) بالكارثة التي حلت بالمسلمين بالقدس كما اجتمع المستنفرون من دمشق إلى بغداد واستغاثوا بالخليفة العباسي لكن الخلافة لم تحرك ساكناً ، لان مقاليد الأمور كانت بيد الأمراء السلاجقة المتنازعين والمتحاربين فيما بينهم حول عرش السلطنة [٣] .

ولقد كان لاحتلال القدس أثره السيء على المستوى الشعبي العربي الإسلامي وبكى الشعراء حال الأمة الممزقة وضعف الخلافة العباسية وضياع الديار ولعل أروع ما قيل في ذلك قصيدة أبي المظفر الابيوردي التي نقتطف منها أبياتا تصف حالة الوهن والضعف التي انتابت العالم العربي الإسلامي آنذاك حيث قال :

مزجنا دماءً بالدموع السواجم	فلم يبق منا عرضةً للمراحم
وشر سلاح المرء دمعٌ يفيضه	إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

---

[١] ديورانت ، قصة الحضارة ، ج١٥ ، ص ٢٥ .

[2] *Rene . Histoire des Croisades et du Royaume de Jersalem (Librairie Plon , Paris : 1934) , Vol. 1 , P. 161 .*

[٣] ابن الجوزي ، المنتظم ، ج٩ ، ص١٠٨ ؛ النويري ، نهاية الارب ، ج٢٨ ، ص ٢٥٨ .

وكيف تنام العين ملء جفونها	على هفوات ايقظن كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهم	ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وانتم	تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمي	توارى حياء حسنها بالمعاصم
يكاد لهن المستجن بطيبة	ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتي لا يشرعون إلى العدى	رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى	ولا يحسبون العار ضربة لازم
ليتهم إذ لم يذودوا حميةً	على الدين ظنوا غيرة بالمحارم [١]

وهكذا انكشفت على حقيقتها النوايا الاستعمارية للحركة الصليبية منذ الفترة المبكرة لها من خلال النوازع الاستعمارية للقادة الصليبيين والمتمثلة في حب السيطرة والامتلاك والتنافس فيما بينهم حول مناطق النفوذ واعتمادهم على السبل المتوافرة كافة لتنفيذ طموحاتهم [٢] .

وعليه فقد كانت الحركة الصليبية منذ بدايتها تسعى إلى تحقيق تلك الأهداف ، فهي استعمار عسكري اتخذ من القوة المسلحة وسيلة لتحقيق أهداف العدوان ، وهي استعمار سياسي يستهدف سلب حرية البلاد وتفتيت وحدتها وإعاقة نموها ، وهي استعمار استيطاني يهدف إلى الاستيلاء على الأرض واستعباد النفس البشرية ، وهي استعمار ثقافي يسعى إلى فرض الحضارة الغربية اللاتينية على العالم العربي الإسلامي ، ثم هي استعمار ديني يتمثل في محاولات أوربا لنشر الكثلكة في العالم العربي الإسلامي عن طريق الحروب الصليبية والبعثات التبشيرية واخيراً هي استعمار اقتصادي استغلالي غرضه نهب ثروات البلاد بالاستئثار بخيراتها [٣] .

---

[١] محمد بن احمد بن اسحاق ، ديوان الابيوردي ، عمر الاسعد (د.م. ، دمشق : ١٩٧٥م) ، ج٢ ، ص ١٥٦ .

[٢] البكر ، الحروب الصليبية ، ص٩٩ . ١٠٠ .

[٣] يوسف ، العرب والروم ، ص ١٠٥ .

الفصل الأول : مملكة بيت المقدس التكوين السياسي والإداري

أولا : تأسيس مملكة بيت المقدس وإمتداداتها

ثانيا: نظام الحكم وأجهزته

أ . المؤسسة الملكية

ب. النظام الإداري

ج. النظام القضائي

د.النظام الديني

الفصل الاول : مملكة بيت المقدس التكوين السياسي والاداري

أولا : تأسيس مملكة بيت المقدس وإمتداداتها

حقق الصليبيون باستيلائهم على مدينة القدس الهدف الأساس الذي جاءت من أجله الحملة الصليبية الأولى ، وهو إرجاع تلك المدينة إلى حكم النصارى ، وكان من البديهي أن تكون الخطوة التالية هي اختيار رئيس الدولة الجديدة ، وتشكيل حكومة للإشراف على شؤون المدينة المقدسة [١] وكان هذا الاحتلال يمثل انتصاراً لفكرة الحرب المقدسة ***Holy War*** ضد المسلمين [٢] .

وعلى ضوء ذلك اجتمع زعماء الحملة الصليبية الأولى للتشاور حول رئاسة الدولة وشكل الحكومة الجديدة لادارة المينة مدنياً وعسكرياً ، وهل يكون رئيس الدولة من العلمانيين أم من الكنسيين ؟ وما هو مدى الارتباط بالبابوية في روما ؟ ولا سيما ان بطريركية القدس قبل احتلالها كانت تابعة للكنيسة الشرقية الأرثوذكسية وليس لكنيسة روما الكاثوليكية [٣] .

وذكر الصوري وهو أحد أهم المصادر الرسمية لمملكة بيت المقدس الصليبية أن قادة الصليبيين اجتمعوا في اليوم الثامن بعد الاحتلال من أجل اختيار حاكم للمدينة [٤] وانقسم الصليبيون في الاجتماع على انفسهم الى فريقين متعارضين ، الأول : يدعو الى قيام حكومة دينية في القدس تخضع لإشراف الكنيسة وهيمنة رجال الدين ، وتوجيههم نظراً للدور الفاعل للكنيسة والبابا اوربان الثاني في توجيه الحملات الصليبية ودعمها ، أما الفريق الثاني : فكان مؤيدا للعلمانية وهيمنة الأمراء على اعتبار حاجة الصليبيين الى قيادة عسكرية تتولى الدفاع عن الممتلكات الصليبية ضد أعدائها المسلمين ، ولكن سرعان ما استبعد الصليبيون من حساباتهم

---

[١] عمر كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس الصليبية (مطبعة رويال ، الإسكندرية : ١٩٥٨ م) ، ص٦٠ .

[٢] محمد الحافظ النقر ، " التغيرات الإدارية والعمرانية والسكانية في مدينة القدس " ، ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي (جامعة اليرموك ، الاردن : ٢٠٠٠ م) ، ج٢،ص٦٥٥ .

[٣] اليوسف ، علاقات ، ص٧٣ ؛ زكي النقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية (دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت : ١٩٥٧م) ، ص٢٤ .

[٤] تاريخ الحروب ، ج١ ، ص ١١١ .

الراي الاول ولا سيما انه لم يكن بصحبتهم الزعيم الديني الذي يصلح لتلك الزعامة لا سيما بعد وفاة ادهمير المندوب البابوي [١] .

وبعد مشاورات بين الأمراء استقر الرأي أخيرا على انتخاب الأمير جودفري [٢] البويوني دوق اللورين أميراً للقدس والمناطق المجاورة لها [٣] واتخذ لنفسه لقب متواضع هو حامي القبر المقدس ***Advocatus Sancti Sepulchri*** [٤]ويبدو أن ذلك كان اقتباساً من النظام الذي كان سائداً في غرب أوربا الإقطاعية ، إذ كان يعين أحد النبلاء حاميا لدير من الأديرة [٥] وهذا اللقب المؤقت ادى إلى حفظ النظام النهائي للدولة الصليبية الجديدة [٦] .

ومن الجدير بالذكر أن الأمير جودفري رفض أن يصبح ملكاً ويرتدي تاجاً من الذهب في المكان الذي ارتدى فيه المسيح (عليه السلام) حسب قوله تاجاً من الشوك [٧] وقد جاء اختيار الأمير جودفري لهذا اللقب اعترافاً منه بان الدولة الجديدة ليست لها الصفة السياسية فحسب بل لها صفتها الدينية التي تجعل للكنيسة نوعاً من الإشراف عليها [٨] أما عن ترشيح الأمير

---

[١] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٢٤٩-٢٥٠ ؛ خاشع المعاضيدي واخرون ، الوطن العربي والغزو الصليبي (دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل : ١٩٨١م) ، ص ٤٨ .

[٢] أطلقت عليه المصادر العربية الإسلامية تسمية كندهري ، ينظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٢٤ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ١٣٤ ؛ النويري ، نهاية الارب ، ج٢٨ ، ص ٢٥٨ .

[٣] أعمال الفرنجة ، ص ١٢٠ ؛ ويرى الشارتري إن الصليبيين ((***قد اختاروه لنبل طباعه ومهارته الحربية وجلده ثم علاوة على ذلك لوسامة طلعته***)) ينظر : تأريخ الحملة ، ص٧٧ .

[٤] هانز ابرهارد ماير ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة وتعليق : عماد الدين غانم (منشورات مجمع الفاتح للجامعات ، ليبيا : ١٩٩٠م) ، ص ٩٤ ؛ قاسم ، ماهية الحروب ، ص ١٣٠ ؛ اليوسف ، علاقات ، ص ٧٤-٧٥ ؛ بشارة خضر ، أوربا وفلسطين من الحروب الصليبية حتى اليوم ، ترجمة : منصور أبو القاضي (مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت : ٢٠٠٣م) ، ص٤٠ ؛

P. M. , Holt , The Age of the Crusades (NO. P . , London : NO. D.) , P. 23.

[٥] توفيق ، مملكة ، ص ٦١ .

[٦] رنيه كروسيه ، الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب ، ترجمة : احمد ايبش (دار قتيبة للطباعة والنشر ، دمشق : ٢٠٠٣م) ، ص ٤٩ .

[٧] الشارتري ، تاريخ الحملة ، ص ١١١ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٥٦-٤٥٧ ؛ مكسيموس مونرود ، تأريخ الحروب المقدسة في الشرق ، عربه : كيريو كيريو مكسيموس مظلوم (مطبعة دير الرهبان الفرنسيسكان ، اورشليم : ١٩٦٥م) ، ص ٢١٣ .

[٨] عبلة المهتدي الزبدة ، صلاح الدين وتحرير القدس (د. م. ، عمان : ١٩٩٤م) ، ص٤٢ ؛ المعاضيدي ، الوطن العربي ، ص٤٨ ؛

جودفري حاكما على القدس فكان يمثل حلاً وسطاً للهروب من تحديد العلاقة بين الكنيسة والدولة بشكل حاسم في الدولة الوليدة [١] .

ولم تمض بضعة اشهر على تنصيبه حتى اندلع النزاع في القدس بينه وبين البطريرك دايمبرت البيزي ***Dimbert Pisa*** حول من سيفرض سلطته وحكمه في البلاد ، غير أن الموقف سرعان ما تغير لوفاة الأمير جودفري في ١٦ تموز سنة ٤٩٤هـ / ١١٠١م [٢] إذ ذكر المؤرخون العرب المسلمون أن الأمير جودفري قتل من جراء إصابته بسهم في أثناء حصار الصليبيين لمدينة عكا [٣] مما أثار من جديد مشكلة اختيار من سيحل محله في حكم مدينة القدس [٤] .

وكان الأمير جودفري قد أوصى قبيل وفاته بأن يخلفه في الحكم أخوه بلدوين [٥] كونت الرها بوصفه الوريث الشرعي للإمارة الصليبية [٦] وعلى الرغم من أن تلك التوصية نالت رضا وموافقة جميع الأمراء والفرسان ، إلا أنها لم ترض البطريرك دايمبرت لكنه أدرك في نهاية الأمر أن خططه لم تتحقق ، ولكي يحافظ على منصبه كبطريرك للقدس على الأقل توجب عليه الموافقة على التوصية [٧] .

توج بلدوين الأول ***Bildwen I*** ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية (٤٩٤-٥١٢هـ/١١٠١-١١١٨م) بموافقة جميع الزعماء الصليبيين من دينيين وعسكريين في يوم عيد الميلاد سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠١م في كنيسة مريم العذراء في بيت لحم بحضور البطريرك دايمبرت

Stevenson , The Crusaders , P. 36.

[١] قاسم ، ماهية الحروب ، ص ١٣٠ .

[٢] الشارتري ، تاريخ الحملة ، ص ٨٥ .

[٣] ابن القلانسي ، ذيل ، ص ١٣٨؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٣٢٤ .

[٤] الزبدة ، صلاح الدين ، ص٤٣ .

[٥] تذكره المصادر العربية الإسلامية باسم بغدوين ، ينظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٥٤٣ ؛ الذهبي ، دول الإسلام ، تحقيق : فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم (مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : ١٩٧٤م) ، ج٢ ، ص ٣٨ .

[٦] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ١٠٣ .

[٧] ماير ، تاريخ الحروب ، ص ١٠٤ .

الذي وضع التاج على رأس بلدوين الأول ، كما حضر رجال الدين من الأساقفة والرهبان وعدد من أمراء المملكة البارزين فضلاً عن جمهور من الصليبيين [1] وتم ذلك بعد تنازله لاحد أبناء عمومته وهو بلدوين بورج ***Baldwin Bourg*** [2] عن حكم إمارة الرها [3] .

نال بلدوين الأول تربية جيدة من والديه في أوربا ، ومنذ بداية شبابه اقبل على الدراسات العقلية ، كما اصبح رجل دين وشغل الوظائف الكنسية في بعض الكنائس الأوربية أمثال كنيسة الرايم وكامبيرا وليبيج غير انه تخلى فيما بعد .والكلام للصوري . لاسباب نجهلها عن المنصب الكنسي وحمل الأسلحة الحربية ، واصبح جندياً محارباً ، وتزوج من سيدة بارزة ذات مكانة اجتماعية مرموقة في إنكلترا تدعى غودهيلد والتحق بأخويه الأميرين جودفري ويوستاس ، ورافقهما بصحبته زوجته في الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام [4] .

ووصف بأنه : ((***كان خبيراً في استخدام الأسلحة ، ورشيقا في ركوب الخيل ، ولذلك كان متيقضاً ومجتهداً كلما دعته أمور المملكة***)) [5] كما قيل أيضا بشأنه : ((***وكان جّباراً خبيثاً شجاعاً***)) [6] .

وقد تسلم بلدوين الأول دولة ضعيفة وممزقة بسبب الانقسامات السياسية ، كما أنها كانت محاطة بأعدائها المسلمين وتعاني من وضع اقتصادي سيئ [7] فضلاً عن انه لم يكن

---

[1] الشارتري ، تاريخ الحملة ، ص ١١١ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٨٨ ؛ هارولد فنك ، " تأسيس الامارات اللاتينية " ، ضمن كتاب تأريخ الحروب الصليبية ، تحرير : سعيد عبدالله البيشاوي ومحمد مؤنس عوض ، ترجمة : علية عبد السميع الجنزوري (دار الشروق ، عمان : ٢٠٠٤م) ، ج١ ، ص٧٣ ; *Setton ، AHistory ، Vol. 1 , P. 382.*

[2] بلدوين بورج : هو اكبر أبناء هيو أمير كونتية رائيل *Rathel* من زوجته الكونتيسة ميليسند ينحدر من أسرة فرنسية الأصل ، وهو قريب بلدوين الأول وخلفه أولا في الرها سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م ، ثم عندما اصبح ملكاً للقدس سنة ٥١٢هـ/١١١٨م واتخذ اسم بلدوين الثاني . ينظر : الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٩٦–٥٧٠ . وأطلقت عليه المصادر العربية الإسلامية تسمية القمص . ينظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٥٤٣ ؛ الذهبي ، دول الإسلام ، ج٢ ، ص ٣٨ .

[3] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ١٠٣، ١١١ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٧٧ .

[4] الصوري ، نفسه ، ج١ ، ص٤٧٧ .

[5] نفسه ، ج١ ، ص ٤٧٨ .

[6] الذهبي ، دول الإسلام ، ج٢ ، ص ٣٨ .

[7] فنك ، " تأسيس الإمارات " ، ص ٩٧ .

تحت سيطرته سوى مساحة محدودة ، تكاد لا تتعدى مدينة القدس ذاتها وضواحيها ، وفي ذلك قال الشارتري : ((***ملك بلدوين في بداية عهده بضعة بلدان (القدس ويافا) واناس فقط ، ودافع ببسالة ... عن مملكته ضد الأعداء [المسلمون] من كل صوب ... ولو توافر له عدد اكبر من المقاتلين لواجه أعداءه بسرور***)) ، ويسترسل قائلاً : ((***إذ لم يكن لدينا في ذلك الوقت اكثر من ثلاثمائة فارس ومثلهم من المشاة للدفاع عن القدس ويافا والرملة ومدينة حيفا المنيعة***)) [١] فقد كانت نقطة الضعف الخطيرة بالنسبة لمملكة بيت المقدس الصليبية أنها لم تمتلك سوى ميناء واحد مهم هو ميناء يافا ، أما سائر الساحل الفلسطيني فكان لا يزال باقياً في أيدي حكام مصر أو الأمراء التابعين لهم ، وهذا يعني أن تلك المستعمرة الصليبية لم يكن بمقدورها الاتصال بالغرب الأوربي بغير الطريق البحري ، وهذا ما دعا الملك بلدوين الأول إلى تركيز هجماته في البداية على الساحل [٢] .

وهذا يعني أن الملك بلدوين الأول وضع خطة استهدفت ضم جميع موانئ ساحل فلسطين المواجهة لمملكته وذلك لتأمين طرق الحجاج من ناحية ، ولتنشيط التجارة مع الغرب الاوبي من ناحية أخرى مما يوفر للمملكة الصليبية كثيراً من أسباب القوة [٣] .

وعلى الرغم من قلة أعداد الصليبيين وضعف إمكاناتهم إلا أن بلدوين الأول استطاع أن يوسع حدود دولته على حساب المسلمين ، ونجح بمساعدة أساطيل المدن الإيطالية في الاستيلاء على مدن الساحل الشامي ، فاستولى على أرسوف [٤]

كما استولى على قيسارية[١] في سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م وعكا[٢] في سنة ٤٩٧هـ/١١٠٤م وبيروت في سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م من أيدي المسلمين ، خاصة وان تلك الأساطيل كان لها أهمية حيوية في تعزيز الحصار البحري على الأماكن التي كان يهاجمها من جهة البر [٣] .

---

[١] تاريخ الحملة ، ص ١١١-١١٢ ، ١٦٣ .

[٢] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٥٣ .

[٣] الجنزوري ، الحروب الصليبية ، ص ٢٦١ .

[٤] أرسوف : مدينة على ساحل البحر المتوسط تقع بين مدينتي قيسارية ويافا ، كانت تحت حكم المسلمين حتى استولى عليها الصليبيون في سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج١ ، ص ١٥١. بعد حصار شديد طوق المدينة من جميع جوانبها ، مما اضطر سكانها إلى إرسال وفدٍ للاتفاق على تسليم المدينة للصليبيين مقابل منحهم الأمان ، فتم الاتفاق على ذلك وسمح لهم مع زوجاتهم وأبنائهم بالمغادرة إلى مدينة عسقلان . ينظر : الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٩٤ -٤٩٥ .

ولم يكتف الملك بلدوين بذلك بل وصلت جهوده في إخضاع المدن الساحلية إلى نهايتها مع بداية سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م ، فقد سيطر على جميعها باستثناء مدينتين الأولى صور التي استمرت في المقاومة حتى سقوطها في عهد الملك بلدوين الثاني سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م . أما المدينة الثانية فهي عسقلان التي بقيت قاعدة مصرية متقدمة حتى سقوطها سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م على عهد الملك بلدوين الثالث ***Baldwin III*** (٥٣٨-٥٥٩هـ/١١٤٣-١١٦٣م) [٤] .

وبذلك كان بلدوين الأول أول الملوك الصليبيين ، ويعد المؤسس الحقيقي لمملكة بيت المقدس الصليبية التي ظل يحكمها لمدة ثماني عشرة سنة ، فحولها من إمارة كنسية إلى دولة اتخذت طابعاً خاصاً ، هذا فضلا عن دوره في تأسيس الإمارة الرابعة والأخيرة وهي إمارة طرابلس [٥] وبتأسيس تلك الإمارة نشأ في بلاد الشام تفاوت كبير في ميزان القوى بين الصليبيين والمسلمين ، فواجهت مملكة بيت المقدس دمشق ، وواجهت إمارة انطاكية حلب ، كما واجهت إمارة طرابلس مجموعة المدن الصغيرة في وادي نهر العاصي الأعلى [٦] وقد حكم مملكة بيت

---

[١] قيسارية : مدينة حصينة منيعة مطلة على الساحل الشامي . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٤٢١ .هاجمها الصليبيون بعد احتلالهم لارسوف وضربوا حصاراً شديداً عليها استمر مدة خمسة عشر يوماً ، ودافع سكانها ببسالة عن مدينتهم غير أن طول مدة الحصار وقلة الإمدادات كان لها دور كبير في سقوط المدينة يوم الجمعة ١٧أيار سنة٤٩٥هـ/١١٠٢م.ينظر:الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ١١٤ .

[٢] عكا : مدينة تقع على ساحل البحر المتوسط ، وتعد من افضل المدن الساحلية هاجمها الصليبيون سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٤م ، وفرضوا حصارهم عليها براً وبحراً .ونظراً لقساوة الحصار وقلة المؤن وانقطاع الإمدادات المصرية ، اضطر سكانها إلى الاستسلام وتسليم المدينة للصليبيين . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص ١٤٣ –١٤٤ .

[٣] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٥٣-٥٤ ؛ فنك ، " تأسيس الإمارات " ، ص ٧٦-٧٧ ؛ جان ريشار ، " تكوين مملكة القدس اللاتينية وبنيتها " ، ضمن كتاب الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى ، تحرير :هادية دجاني(مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت : ١٩٩٤م) ، ص ١٥١ .

[٤] فنك ، نفسه ، ص ٧٧-٧٨ . عن الدور الجهادي لاهالي مدينة عسقلان في مواجهة الغزو الصليبي . ينظر : مصعب حمادي نجم الزيدي ، عسقلان والحروب الصليبية للفترة بين ٤٩٠ . ٦٦٩ هـ / ١٠٩٦ . ١٢٧٠م ، (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الاداب ، جامعة الموصل : ٢٠٠١م) .

[٥] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ١٦٣ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٦٨ ؛ كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ١٠٨-١٠٩ .

[٦] جب ، " زنكي وسقوط الرها " ، ضمن كتاب تأريخ الحروب الصليبية ، تحرير : سعيد عبد الله البيشاوي ومحمد مؤنس عوض ، ترجمة : علية عبد السميع الجنزوري (دار الشروق ، عمان : ٢٠٠٤م) ، ج١ ، ص ١٤٢ .

المقدس الصليبية من بعده العديد من الملوك الصليبيين واستمرت ثمان وثمانين سنة حتى نجح الناصر صلاح الدين الأيوبي في تحريرها من أيديهم ، وأعادها الى السيادة العربية الإسلامية (١) .

وهكذا كانت نتيجة النصر الذي أحرزته الحملة الصليبية الأولى أن تأسست إمارتان هما الرها وانطاكية ودولة صغيرة مركزها القدس ، لم تلبث أن تحولت الى مملكة سميت بمملكة بيت المقدس الصليبية ***The Latin Kingdom Jerusalem*** ، التي كانت في ذلك الوقت تشتمل على مدينة القدس فضلا عن مدن أخرى مثل صور وعكا وحيفا وقيسارية وارسوف ويافا واللد والرملة وبيت لحم والخليل ، كما كان لها ظهير ريفي تسكنه أغلبية من المسلمين الذين رفضوا التعاون مع الصليبيين (٢) .

ومن ثم أصبحت مملكة بيت المقدس التي أسسها الصليبيون في بلاد الشام اعظم دولة للصليبيين أقيمت في المنطقة وأوسعها إذ امتدت حدودها من بيروت الشمال في الشمال الى عسقلان في الجنوب ، واشتملت على جميع الأراضي الواقعة بين نهر الأردن والبحر المتوسط ، كما امتد نفوذها الى المنطقة الشرقية للأردن (***إمارة الكرك***) والبحر الميت حتى بلغت ايلة الواقعة على رأس الذراع الشرقي للبحر الأحمر (***خليج العقبة***) (٣) وهذا يعني أن حدودها امتدت حوالي (٦٠٠كم) من الشمال إلى الجنوب ، ولكن حدود المملكة استقرت بشكل نهائي في الشرق والجنوب على طول حدود صحراء سوريا وشرق الأردن والنقب وسيناء (٤) .

وبذلك نجح الصليبيون منذ الفترة المبكرة لاستيطانهم في تثبيت قواعد الحكم في الإمارات الصليبية الأربع ، التي تم تكوينها في الرها وانطاكية وطرابلس والقدس بمساحة تمتد ما بين ماردين من الشمال إلى العريش في الجنوب ، إذ لم يبق ما يحتفظ به المسلمون من الولايات العربية إلا حلب وحمص وحماه ودمشق وبعض الأعمال كالقلاع والحصون التابعة لها ، كما

---

(١) الزبدة ، صلاح الدين ، ص ٤٣ .

(٢) براور ، عالم الصليبيين ، ص ٨٩–٩٢ ؛ قاسم ، ماهية الحروب ، ص ١٣٠ .

(٣) باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٤٥ ؛ عبد العزيز سيد الأهل ، أيام صلاح الدين (دار الكتب ، بيروت : ١٩٦١م) ، ص ٢٠٢–٢٠٣ .

(٤) براور ، عالم الصليبيين ، ص ٩٢ .

امتدت السيطرة الصليبية على معظم الموانئ الساحلية لبلاد الشام ، لأجل الحفاظ على خطوط مواصلاتهم الدفاعية مع أوربا ، التي تحرسها وتمدها أساطيل المدن الإيطالية [١] .

وهكذا كان الملك بلدوين الأول سياسياً ومنظما ومؤسساً لمملكة لها أهميتها في تأريخ العصر الوسيط ، فهو الذي استطاع بمهارته أن يحقق لمملكة بيت المقدس الصليبية مكانة مرموقة وسط محيط إسلامي معاد له في بلاد الشام ، وإليه يرجع الفضل في وضع دعائم تلك السياسة التي سار عليها خلفاؤه ملوك بيت المقدس[٢] بعد وفاته في ٧ نيسان سنة ٥١٢هـ/١١١٨م في مدينة العريش ، ونقلت جثته إلى مدينة القدس ودفن بجانب شقيقه الأمير جودفري في كنيسة القيامة [٣] وقد شكل رحيل بلدوين الأول نهاية الفترة التأسيسية لمملكة بيت المقدس الصليبية التي شغلت مكان الصدارة في القوة والقيادة بين الدويلات الصليبية في الشرق [٤] كما كانت وفاته نهاية لحكم عائلة بويون التي حكمت المملكة منذ بداية نشأتها بشكل وراثي والتي أدت دولاً هاماً في دعم المملكة الناشئة وتقويتها لما قامت به من سياسات نشطة وقوية على الصعيدين الداخلي والخارجي [٥] .

ثانيا: *نظام الحكم وأجهزته*

من المعروف أن الاستعمار الاستيطاني الصليبي للمنطقة العربية دام قرابة قرنين من الزمن ولذلك من الضروري دراسة النظم التي اعتمدها الصليبيون خاصة أنها أسهمت في إحكام قبضتهم عليها واستغلالهم لمواردها .

فقد كان النظام الإقطاعي يشكل الأرضية التي قامت عليها الكيانات الصليبية في بلاد الشام ، ولاسيما أن معظم قادة الحروب الصليبية كانوا من السادة الإقطاعيين في أوربا ، لذلك

---

[١] مرتضى حسن النقيب ، " عماد الدين زنكي وسياسة الجهاد تجاه الصليبيين " (مجلة المورد عدد خاص عن غزو الفرنجة للأراضي العربية ، بغداد :١٩٨٧م) ، م١٦ ، ع٤ ، ص ٩٨ .

[٢] " المملكة الإفرنجية في بيت المقدس " ، على شبكة الانترنيت ، ص ٨-٩ .

[٣] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ١٦٣ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٦٨ .

[٤] فنك ، " تأسيس الإمارات " ، ص ٩٧ .

[٥] روبرت . ل. نيكلسون ، " تطور الدويلات اللاتينية ٥١١-٥٣٩هـ/١١١٨-١١٤٤م " ، ضمن كتاب تأريخ الحروب الصليبية ، تحرير : سعيد عبد الله البيشاوي ومحمد مؤنس عوض ، ترجمة وتعليق : عبد الرحمن المغربي (دار الشروق ، عمان : ٢٠٠٤م) ، ج١ ، ص ١٠٦ .

كـان مـن البـديهي أن يعتمـد الصـليبيون النظـام الـذي نشـأوا فيـه وعرفـوه [١] وبهـذا الصـدد أكـد كوبلاند اعتماد الصليبيين نظام الحكم الإقطاعي منذ البدايات الأولى لاستيطانهم في بلاد الشام ((*والواقع إنا لا نجد مثالاً نموذجياً للحكم الإقطاعي ، إلا مـا حملـه الصليبيون معهم من أوربا إلـى الأراضـي المقدسـة ، فأقـاموه هنـاك علـى غيـر أسـاس وفـي ارض أجنبيـة ، وإذا ذكـرنا أن أولئك الصليبيين قصدوا أن يحكموا البلاد على مقتضى نظام الإقطاع لأنهم لم يفقهوا نظاماً غيره للحكم*)) [٢] في حين عد أدوار بروي النظام الإقطاعي الذي تبناه الصليبيون في المنطقة العربية كان يشكل ((*شبه مخفر أمامي بعيد للإقطاعية الغربية*)) [٣] .

أما بخصوص نظم مملكة بيت المقدس الإقطاعية فقد كانت أنموذجا للنظم التي اعتمدت عليها الكيانات الصليبية الأخرى في الرها وانطاكية وطرابلس ، على الرغم من وجود بعض الاختلافات من حيث الموقع الجغرافي والظروف السياسية والعرقية التي أحاطت بتلك الإمارات الصليبية [٤] .

وقد استند نظام الحكم في مملكة بيت المقدس الصليبية على الأسس الإقطاعية والقضائية التي احتواها دستورها ***Assize Jeruslem*** [٥] الذي وضعت خطوطه الأساسية في عهد الأمير جودفري البويوني ، واتضحت معالمه في عهد الملك بلدوين الأول ، وبموجب هذا الدستور قسمت البلاد الى إقطاعيات كبرى وأخرى ثانوية منحت للأمراء والنبلاء الصليبيين ،

---

[١] إبراهيم علي طرخان ، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة : ١٩٦٨م) ، ص ٤٧ ؛ فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ط٢ ، ترجمة : كمال اليازجي (دار الثقافة ، بيروت : ١٩٧٢ م) ، ج٢ ، ص ٢٦٢ .

[٢] ج. و. ، الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوربا ، ترجمة : محمد مصطفى زيادة (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة : ١٩٤٦ م) ، ص ١٧ .

[٣] القرون الوسطى تاريخ الحضارات العام (مطبعة الموسوعات ، بيروت : ١٩٦٥ م) ، ج٣ ، ص ٣١٣ .

[4] *Cahen , La Syria du Nord Alepogue des Croisade et La Prinicipaute d Antioche (No. p. , Paris : 1940) , P. 438 .*

[٥] وتعرف القوانين ايضاً بالدواوين الاشتراعية ، وهي مجموعة القوانين وأنظمة الحكم الصادرة في مملكة بيت المقدس الصليبية خلال القرنين ٦-٧هـ/ ١٢-١٣م ، ينظر : كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٩٦ ، هامش رقم (٢) .

فضلاً عن إقطاعيات خاصة بالملك [١] على أن التنظيم النهائي لمملكة بيت المقدس الصليبية اكتمل باكتمال مجموعة قانون العرف بها [٢] .

أما عن طبيعة الحكم الذي أقامه الصليبيون بعد احتلالهم مدينة القدس فكان اقرب ما يكون بالحكم الثيوقراطي [٣] كان لرجال الدين دور بارز فيه ، غير أن وفاة الأمير جودفري االبويوني وتنصب أخيه بلدوين ملكاً لمملكة بيت المقدس الصليبية [٤] كانت تجسيداً لطبيعة نظام الحكم الذي اعتمده الصليبيون وتطبيقاً لمبدأ الوراثة في النظام الملكي الصليبي في الشرق المستمد بصورة عامة من الغرب الأوربي [٥] .

ويروي المؤرخ الصليبي الصوري أحداث المرحلة الجديدة واحتدام التنافس بين المؤسسة الدينية والسلطة الزمنية حول إدارة دفة الحكم بعد وفاة الأمير جودفري البويوني فقد حاول دايمبرت بطريرك القدس أن يجعل السلطة بيده غير أن مجموعة من فرسان اللورين يترأسهم الكونت وارنر جراي ***Warnerd Gray*** ابن عم الأمير جودفري اتخذوا بعض التدابير الوقائية لتفويت الفرصة على دايمبرت ، اذ رفضوا تسليمه مدينة القدس ، كما استولى الكونت وارنر على برج داؤد وقلعة القدس ، ولم يكتف بذلكبل أرسل خفيةً رسولاً إلى
بلدوين يطلب منه القدوم بالسرعة الممكنة لتسلم العرش [٦].

هذا في الوقت الذي حاول دايمبرت أن يمنع بلدوين من أن يخلف أخاه فأرسل الى بوهيمند حاكم انطاكية طالباً منه عدم السماح لبلدوين بالذهاب الى القدس ، وإذا اقتضت الضرورة اللجوء الى القوة [٧] غير أن وقوع الأمير بوهيمند أسيرا بيد الأمير التركي غازي بن

---

[١] اليوسف ، علاقات ، ص٨٧ ؛ المعاضيدي ، الوطن العربي ، ص ١٥ .

[٢] باركر ، الحروب الصليبية ، ص٧٢ .

[٣] الثيوقراطي أو الثيوقراطية : حكومة دينية يشرف عليها رجال الدين . ينظر : كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٥١ ، هامش رقم (١) .

[٤] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ١، ص٤٥٨-٤٦٠ .

[٥] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥١ .

[٦] تاريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٧٩-٤٨٠ .

[٧] ماير ، تاريخ الحروب ، ص ١٠٤ .

الدانشمند حاكم ملطية [١] سنة ٤٩٢ هـ/ ١٠٩٩م [٢] وكان لحادثة الأسر وانصراف منافسه تانكرد للوصاية على عرش انطاكية دورهما البارز في إفشال خطط دايمبرت [٣] الذي سرعان ما تبددت أماله وخاب مسعاه [٤] وادرك في نهاية المطاف أن خطته في الحاق ملكية مدينة القدس بالكنيسة لم تتحقق[٥]ولذلك اضطر أخيرا إلى الموافقة مرغماً على تتويج بلدوين ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية ، وعلى الرغم من هذا الوفاق إلا أن النزاع استمر بين الكنيسة والسلطة الزمنية ، ولم يحسم بشكل نهائي إلا بعد عزل دايمبرت عن منصب البطريركية بقرار من المجمع الكنسي في ١٨ تشرين الاول سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م ، وذلك عندما اتبعت البابوية سياسة جديدة في علاقاتها تجاه بيت المقدس ، إذ منحت بلدوين الأول كامل الحرية في ترشيح شخص مناسب لاشغال منصب البطريركية [٦] ويرجع سبب هذا التراجع في سياستها إلى خشيتها من ظهور شخصية دينية قوية في بيت المقدس تطالب (***بوصفها خليفة المسيح [عليه السلام] في مدينته***)بالسيادة على العالم المسيحي مما يشكل تهديداً خطيراً على زعامة البابوية في روما [٧] .

وهكذا شهدت مملكة بيت المقدس الصليبية قيام نظام حكم ملكي وراثي اتسم بالطابع الإقطاعي ، إذ كان الملك في حكومته لا يعدو أن يكون سيداً إقطاعيا لا ملكاً [٨] على وفق

---

[١] ملطية : من أهم المدن التابعة لسلاجقة الروم على حدود الفرات ، وتعرف حالياً باسم ملاطيا (*Malatya*) ، وتبعد حوالي (١٨٠كم) عن الرها ، ينظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١٩٢ ؛ الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٩٩ .

[٢] ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٠٠ .

[٣] فنك ، " تاسيس الامارات " ، ص ٧٤ ؛ اليوسف ، علاقات ، ص ٧٧ .

[٤] للمزيد من التفاصيل عن رسالة دايمبرت الى بوهيمند أمير انطاكية ، وما حوته من تفاصيل المشكلة مع بلدوين الأول حول مسألة العرش الصليبي ينظر : الصوري ، تاريخ الحروب ، ج١ ، ص٤٨٠-٤٨٢ .

[٥] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٥١ .

[٦] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ١، ص ٤٥٨-٤٥٩ ؛ " فنك ، تأسيس الإمارات " ، ص ٧٤ ؛ ماير ، تاريخ الحروب ، ص١٠٥ ، اليوسف ، علاقات ، ص٧٧-٧٨ .

[٧] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص٤٨٤ .

[٨] بول كرام ، الحروب الصليبية وغرب أوربا في العصور الوسطى ، موسوعة تاريخ العالم ، تحرير : السيرجون أ. هامرتن ط٢ (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة : د. ت.) ، ج٢ ، ص ٧٠٠ ؛ البكر ، " الاستيطان الفرنجي

على ما كانت عليه مملكة النورمان في إنكلترا وصقلية ، فقد حفظت النظم الإقطاعية المركزية حقوق الملك في حين إن الوضع في الشرق كان مختلفاً بعض الشيء ، فبعد نجاح الغزو الصليبي تمكن النبلاء من الحصول على إقطاعياتهم من الأراضي التي استحوذوا عليها فكان لزاماً على الملك الذي نصبوه الاعتراف بنفوذهم وبالقوانين الإقطاعية للمملكة الصليبية (١) .

أما عن أجهزة الحكم فهي تتألف من المؤسسات التالية التي أسهمت في تثبيت الاستيطان الصليبي في بلاد الشام .

أ : المؤسسة الملكية

لقد اعتمد الصليبيون النظام الوراثي في حكم مملكة بيت المقدس الصليبية ، فثمة رواية مهمة أشار إليها العماد الاصفهاني تؤكد اعتمادهم هذا المبدأ ، وفي ذلك يقول فكانت ((***عادتهم انه إذا مات ملك ينتقل ملكه إلى ولده ، وسواء في هذا الميراث بين الذكور والإناث ، ويكون الملك بعد الابن إذا لم يخلف ابناً للكبرى فان توفيت من غير عَقِب كان للصغرى***)) (٢) فبعد وفاة الأمير جودفري البويوني تولى أخوه بلدوين الأول الحكم في المملكة الصليبية بوصفه الوريث الشرعي للمملكة التي ظل يحكمها حتى وفاته في سنة ٥١٢هـ/١١١٨م (٣) من دون أن يترك وريثاً يخلفه على العرش ، الأمر الذي فسح المجال للتنافس على دفة الحكم (٤) .

قد عقد مجلس المملكة الصليبية فور وفاة الملك بلدوين الأول اجتماعاً لاختيار ملك جديد للمملكة تفادياً لحدوث أي انقسام بين الأمراء ، أو ظهور طموحات من شأنها إضعاف الدولة الصليبية (٥) وحضر ذلك الاجتماع رجال الدولة البارزين ورؤساء الأساقفة ورجال الدين

في القدس " ، ضمن اعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي (جامعة اليرموك ، الأردن : ٢٠٠٠م) ، ج٢ ، ص ٦٢٣ ؛

(1) *H. E. J. , Cowdrey " The Latin Kingdom Of Jerusalem " in History : 1977 : Vol. 57 , P. 229 .*

(٢) محمد بن محمد الكاتب ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق : مصطفى فهمي الكتبي (مطبعة الموسوعات ، مصر : د. ت.) ، ص ١٣ .

(٣) الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ١٠٣ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص٤٧٧ .

(٤) نيكلسون ، " تطور الدويلات " ، ص ١٠٦ .

(٥) الشارتري ، تاريخ الحملة ، ص ١٨٥ .

وبطريرك القدس ارنولف ، فضلاً عن عدد آخر من الأمراء الصليبيين ، وقد طرح المجتمعون آراء مختلفة حول المسألة التي عقد المؤتمر بخصوصها ، وهي ملء الفراغ السياسي لمملكة بيت المقدس الصليبية ، إذ انقسم الصليبيون على انفسهم إلى فريقين متعارضين ، الفريق الأول : رأى أن عليه تأجيل الاجتماع والتريث والانتظار حتى يصل الشقيق الثالث لجودفري وبلدوين الأول ، وهو يوستاس أمير بولونيا ، الذي يعد اكبر الاخوة جميعاً . أما الفريق الثاني : فقد عد أمور المملكة والضرورات الناشئة باستمرار لا تسمح بالتأجيل والتأخير والتباطؤ في اتخاذ الإجراءات لمصلحة البلاد ، وفي حالة نشوء ظرف طارئ لن يكون هناك من يأخذ على عاتقة مسؤولية مهاجمة المسلمين أو تصريف شؤون
المملكة ، وهكذا فان انعدام القائد يعرض المملكة الصليبية للخطر [١] .

والواقع لم يؤيد ولاية يوستاس للحكم سوى عدد قليل من أعضاء مجلس المملكة لامرين ، الأول : إن يوستاس كان يقيم في مقاطعة بولونيا الأوربية بعيداً عن المملكة الصليبية في بلاد الثلم مما يؤدي الى بقاء العرش الصليبي شاغراً شهوراً عديدة [٢] أما الأمر الثاني : فهو إصرار الأمير جوسلين الأول ***Joscelin I*** حاكم طبرية الذي كان من أقوى أعضاء مجلس المملكة نفوذاً وسلطاناً على الإسراع في تعيين ملك ، ولم يكتف بذلك بل رشح بلدوين بورج أمير الرها لكي يشغل هذا المنصب على أمل أن يمنحه حكم الرها خاصة وان بلدوين بورج لاقى تأييداً من بطريرك القدس ارنولف ، واستطاع الاثنان معاً أن يقنعا المجلس باختيار بلدوين بورج [٣] الذي لم يلبث أن وصل الى القدس قادماً من الرها ، وفي اليوم الثاني من نيسان سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨ م توج بلدوين ***Baldwin II*** ملكاً (٥١٢-٥٢٦هـ/ ١١١٨-١١٣١م) لمملكة بيت المقدس الصليبية في كنيسة القيامة ، وكان ذلك بحضور بطريرك القدس ارنولف الذي قام بوضع التاج على رأس الملك [٤] وكان بلدوين الثاني من أقارب بلدوين الأول وحاكم إمارة الرها ، الذي كان

---

[١] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٧١ .

[٢] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص٢٣٠ .

[٣] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص٢٣٠ .

[٤] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٧٤ ؛ كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٥٩ .

في زيارة للاماكن المقدسة في القدس وبيت لحم ، وقد امتاز بالحنكة والخبرة في الحكم ، وكان ضرورياً لمواجهة المسلمين الذين اخذوا بالتوحد ، بعد أن عاشوا في فرقة لسنوات طويلة [١] .

ووصف الصوري شخصية الملك بلدوين الثاني بأنه ((***كان طويل القيامة ، وذا مظهر أخاذ وملامح مقبولة ، وكان شعره الأشقر الرقيق مشوباً بالشيب ...وكان متمرساً في استخدام السلاح وبارعاً جداً في تدبير الخيل ، وكان قد تمرس كثيراً في فن الحرب ، وكان حكيماً في حكم رجاله ناجحاً في حملاته ، على الرغم من انه كان كهلاً فانه يعرف التعب عندما استدعته شؤون المملكة***)) [٢] كما قال ابن القلانسي بشأنه : ((***وكان شيخاً قد عركه الزمان وعانى الشدائد من نوائبه وكوارثه ، ووقع في أيدي المسلمين عدة دفعات أسيرا في محارياته ومصافاته وهو يتخلص بحيلة المشهورة وخدعه المخبورة***)) [٣] .

ووافق أن حدث في بداية سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م وقوع جوسلين الأول في اسر التركمان اثر معركة وقعت بين الطرفين في شمال سورية ، فوقع على عاتق الملك بلدوين الثاني مسؤولية الدفاع عن إمارة الرها ، ولكن من سوء حظه انه وقع هو أيضا أسيراً بيد السلاجقة في ١٨ نيسان سنة ٥١٦هـ/ ١١٢٢م بعد لقي معظم جيشه مصرعهم في المنطقة الواقعة على نهر الفرات ، فتقرر إرساله في حراسة مشددة الى حصن خرتبرت [٤] ليلحق بجوسلين هناك [٥] .

---

[١] نيكلسون ، " تطور الدويلات " ، ص ١٠٦ .

[٢] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٧٤ .

[٣] ذيل ، ص ٢٣٣ .

[٤] حصن خرتبرت : وهو الحصن المعروف بحصن زياد يقع في أقصى ديار بكر ، وبينه وبين ملطلية حوالي (٧٠كم) . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٣٥٥ . أبو الفدا ، تقويم البلدان ، اعتنى بتصحيحه : رينود وماك كوكين ديسلان (دار الطباعة السلطانية ، باريس : ١٨٤٠م) ، ص ٥١-٥٢ ؛ محمد بن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق : احسان عباس (دار القلم للطباعة ، بيروت : ١٩٧٥ م) ، ص ٢٦ ، ٣٤٥ .

[٥] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٩٠-٥٩١ .

ظل الملك بلدوين الثاني أسيرا لمدة ستة عشر شهراً ثم أطلق سراحه في ٢٩ آب سنة٥١٨هـ/١١٢٤م مقابل فدية مقدارها مئة ألف بيزنت ***Bezant*** [١] فضلاً عن إعادة الرهائن من المسلمين الى بلادهم ، وبعد أن أطلق سراحه عاد إلى انطاكية ومنها إلى القدس التي وصلها في بداية نيسان ٥١٩ هـ/ ١١٢٥م [٢] ليواصل من جديد مشاريعه العدوانية ضد المسلمين .

ومن ابرز الأحداث التي جرت في عهد الملك بلدوين الثاني أمران ، الاول : ظهور نشاط هيئات الاسبتارية والداوية [٣] وقد بذل الملك بلدوين للطائفتين كل مساعدة وتأييد واخذوا طوال الحروب الصليبية يعملون على حماية الأماكن المقدسة ومحاربة المسلمين ، وليس هذا فحسب بل اصبح الاسبتارية والداوية هم حماة الكيان الصليبي في بلاد الشام[٤] أما الأمر الثاني : فهو الاستيلاء على مدينة صور سنة ٥١٨هـ /١١٢٤م التي كان احتلالها كسباً كبيراً أدى الى سيطرة الصليبيين على الساحل الشامي وضمان وصول الإمدادات من أوربا [٥] .

وقد استمر الملك بلدوين الثاني في حكم المملكة الصليبية حتى أصيب بمرض شديد وعندما اشرف على الموت استدعى رجال الدولة البارزين وابنته ميليسند ***Melisend*** [٦]

---

[١] البيزنت أو البيزنط : عملة ذهبية بيزنطية سميت بهذا الاسم نسبة إلى بيزنطة (القسطنطينية) ، وكانت هذه العملة متداولة بكثرة في العصور الوسطى حتى منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي على وجه التقريب ، وقسم البيزانت إلى عشرة أقسام ، وهي تعادل حوالي ثلاثة ونصف غرام من الذهب . ينظر : يوسف ، العدوان الصليبي على مصر ، ط٢ ، " هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكو (دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت : ١٩٨١م) ، ص٢١٦ ، هامش رقم (٢) ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ١١٨ ، هامش رقم (٤) .

[٢] الشارتري ، تاريخ الحملة ، ص ٢١٩–٢٢١ ؛ الصوري ، تاريخ الحروب ، ج١ ، ص ٦٢٨ –٦٢٩ .

[٣] سيتم الحديث عنهما في مبحث النظم الدينية ضمن هذا الفصل .

[٤] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٢٤٧–٢٥١ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٢٥–١٢٦ .

[٥] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٦٠ .

[٦] ميليسند : هي كبرى بنات الملك بلدوين الثاني ، تزوجت من الملك فولك الانجوي سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م ، وبعد وفاة زوجها سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م تولت حكم مملكة بيت المقدس الصليبية وصية على ابنها بلدوين الثالث ، وعندما بلغ سن الرشد دخل في نزاع مع والدته حول العرش ، وفي نهاية الأمر اضطرت إلى التنازل عن الحكم والاحتفاظ بمدينة نابلس كإقطاعية خاصة بها مدى الحياة . ينظر : الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٧٣٢–٧٣٣ ، ٧٩٦–٧٩٩ .

وزوجها فولك الانجوي ***Fulk Anjou*** [١] وأمر الحاضرين بتتويجهما ملكين على الصليبيين حال وفاته التي كانت في ٢١ آب سنة ٥٢٦هـ/١١٣١ م ودفن بجانب أسلافه من الملوك الصليبيين السابقين في كنيسة القيامة [٢] وروى ابن القلانسي حال الصليبيين والوضع السياسي المتردي والمتدهور للمملكة الصليبية عقب وفاته وفي ذلك قال : ((***ولم يخلف بعده فيهم صاحب رأي صائب ولا تدبير صالح ، فلم يتسدد في رأيه ولا أصاب في تدبيره ، فاضطربوا لفقده واختلفوا من بعده***)) [٣] .

وفي مملكة بيت المقدس فان التاج الملكي يعد كأنه إقطاع ، وان النساء اللاتي ورثن الإقطاعيات قد استطعن أدارتها الصورة نفسها ، ولكن حقوق المرأة في بيت المقدس لم تكن حقيقية إلا في حالة زواجها ، وفي هذه الحالة تستطيع الحصول على مساعدة الزوج في إدارة الحكومة [٤] .

وبعد مرور ثلاثة أسابيع على وفاة الملك بلدوين الثاني أي في ١٤ ايلول سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م تم تتويج فولك الانجوي وميليسند على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية (٥٢٦- ٥٣٨هـ / ١١٣١ -١١٤٣م) في كنيسة القيامة وبحضور بطريرك القدس وليم ماناسيس ***William Manasses*** الذي وضع التاج على رأسيهما ليبدأ عهد جديد في إدارة حكومة بيت المقدس الصليبية [٥] وهكذا خلف الملك بلدوين الثاني ابنته الكبرى ميليسند وزوجها فولك الانجوي الذي وصفه الصوري قائلا : ((***وكان فولك هذا متورد اللون ...وكان رجلاً مؤمناً ودمثاً ورقيقاً ولطيفاً وشفوقاً ... وكان أميرا قوياً حسب نسبه وحتى قبل استدعائه لتسيير أمور***

---

[١] ذكرته المصادر العربية الإسلامية باسم كندا ياجور ، ينظر ابن القلانسي ، ذيل ، ص ٢٥٩؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص ٢٦٢ ، والانجوي نسبة إلى إقليم انجو *Anjou* في شمال فرنسا الذي ينتمي فولك إلى أسرته الحاكمة . ينظر : كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٦٢ ، هامش رقم (١) . كما اطلق عليه فلك بن فلك . ينظر : اسامة بن مرشد بن منقذ ، الاعتبار ، تحرير : فيليب حتي (مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة : ١٩٣٠م) ، ص ٦٥ .

[٢] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٦٥٠ . ٦٥١ .

[٣] ذيل ، ص ٢٣٣ .

[٤] عبد الحفيظ محمد علي ، مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس وأثرها على تأريخ الحركة الصليبية (دار النهضة العربية ، القاهرة : ١٩٨٤م) ، ص ١٤ .

[٥] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج٢،ص٦٥٦ .

المملكة ، وكان ناجحاً في حكم شعبه ومقاتلاً محنكاً مليئاً بالعبر والحكمة في القضايا العسكرية ، وكان معتدل الطول ومتقدماً في السن ... ومن نقاط الضعف التي كان يعاني منها بسبب العجز البشري هي ذاكرته كانت ضعيفة وسريعة الزوال لدرجة انه نادراً ما كان يتذكر الوجوه اوالأسماء حتى وجوه واسماء أفراد عائلته)) [١] .

ومن أهم الأحداث في عهد الملك فولك الانجوي هو التحالف الذي تم بين مملكة بيت المقدس الصليبية وبين معين الدين انر حاكم دمشق في سنة ٥٣٥هـ/ ١١٤٠م [٢] الذي كان له انعكاسات في تجميد الموقف في وسط بلاد الشام وشل حركة القائد عماد الدين زنكي إلى مدى بعيد وطوال مدة حكمة لم يكف الملك فولك الانجوي عن مواصلة نشاطه لرعاية مصالح الصليبيين ، وتحصين بلادهم والدفاع عن كيانهم فضلاً عن دعم مركز الصليبيين في بلاد الشام وحمايتهم من الأخطار الخارجية التي هددتهم سواء من جانب المسلمين أو البيزنطيين [٣] .

وفي أواخر أيام فصل الخريف سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م ، وبينما كان الملك فولك يتنزه في ضواحي مدينة عكا للاستجمام والصيد ، وفي أثناء مطاردته لإحدى فرائسه تعثر جواده فوقع الملك على رأسه ، وبعد أن اشتد نزيف الدماء حمله الصليبيون من موقع الحادث إلى مدينة القدس وفي الطريق لفظ أنفاسه الأخيرة في ١٠ تشرين الثاني من السنة ذاتها ، ودفن في كنيسة القيامة [٤] .

وقد خلف الملك فولك من زوجته ميليسند طفلين هما بلدوين الثالث في الثالثة عشر من عمره واملريك الأول ***Amalyric I*** الذي كان في السابعة من عمره ، فنصب الأول ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية تحت وصاية أمه ميلسيند [٥] ولاسيما ان حق السيدات في الوراثة والحقوق المعطاة لهن في الوصاية على أطفالهن الصغار كانت مصانة ومحفوظة وان قوانين بيت المقدس لم تحرم النساء من عرش مملكة بيت المقدس في الشرق ، وبذلك طبق الصليبيون مبدأ لم يكن معمولاً به في بلدهم الأصلي ، إذ ان قانون الوراثة في أوربا منع أن تصبح أرض

---

[١] نفسه، ج٢ ، ص٦٥٢ .
[٢] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٦٤ .
[٣] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص٦٠٠-٦٠٢ .
[٤] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج٢ ، ص٧٣١-٧٣٢ .
[٥] نفسه ، ج٢ ، ٧٣٣-٧٣٤ .

الأب ميراثاً للبنات [١] واكد ابن القلانسي الحكم المشترك للدولة الصليبية بين الملك بلدوين الثالث وأمه ميليسند عقب وفاة الملك فولك وفي ذلك قال : ((***بهلاك ملكهم ... أقيم ولده وأمه مقامه في الملك ، ورضى الإفرنج بذلك واستقامت الحال عليه***)) [٢] .

والمعروف أن الملك فولك تولى الحكم لكونه زوجاً لميليسند ، وان حقوق الملكة في وراثة العرش جرى الاعتراف بها كاملة ، غير انه لم يخطر ببال البارونات فكرة انفراد الملكة بالحكم ، فلم تلبث أن نصبت ابنها بلدوين الثالث قسيماً لها في الحكم ، وبذلك تولت مقاليد السلطة في المملكة الصليبية ، وما اتخذته من إجراء يعد بالغ السلامة من الناحية الدستورية ، فأقره مجلس المملكة عندما قام وليم ماناسيس بطريرك القدس بتتويج ميليسند وابنها بلدوين معاً [٣] .

ويرى رنسيمان أن ولاية ميليسند كانت حادثاً خطيراً الحق أضراراً بالمملكة فما كان لملك بيت المقدس من مكانة إلا لكونه سيداً أعلى للإمارات الصليبية تغلبت فيها الناحية النظرية على الناحية العملية ، وليس من الراجح أن يولي أمراء شمال الشام أهمية كبيرة لسيادة امرأة أو طفل ، فحينما كانت المنازعات تنشب بين أمراء انطاكية وبين أمراء الرها بادر ملك القدس القوي مثل بلدوين الثاني بالمضي بجيشه القوي نحو الشمال واجبروهما على تسوية النزاع ، فليس بوسع الملكة أو الملك الطفل أن يفعل ذلك، وما من أحد غيرهم اغفل هذه السيادة [٤] .

ولم يقتصر الأمر على ذلك فحسب بل أصرت الملكة على الاستمرار في الحكم بنفسها لكن ابنها بلدوين الثالث أرغمها بقوة السلاح على التخلي عن السلطة بمجرد بعد بلوغه سن الرشد في سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م [٥] .

وقد وصف الصوري الملك بلدوين الثالث بأنه : ((***كان شاباً صاحب قدرات طبيعية رائعة...وكان متفوقاً على جميع نبلاء المملكة في نشاط العقل وعبقرية الحديث ... وكان يلبي طلب إجراء مقابلة معه إذا ما طلب ذلك منه ونال بهذه الطريقة تأييد رجال الدين والناس حتى انه كان اكثر شعبية مع رجال الطبقتين من أي واحد من سلفه وتحمل المشقات بصبر***

---

[١] علي ، مشكلات الوراثة ، ص ١٤ .

[٢] ذيل ، ص ٢٧٧ .

[٣] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ٣٧٦ .

[٤] تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٣٧٧ .

[٥] ريشارد ، " تكوين المملكة " ، ص١٥١ .

واظهر علـى غرار سيرة افضل الأمـراء حكمـه وبصيره عظيمتـين فـي قضـايا الحـرب المريبـة ، وأبدى ثباتاً ملكياً فـي غمرة المواقف الحرجـة التـي تحملها فـي سبيل توسيع المملكـة ... وكـان مطلعاً بشكل جيد على القانون المألوف الذي حكمت به مملكة الشرق)) [١] .

توفي بلدوين الثالث الملك الصليبي الرابع لمملكة بيت المقدس في مدينة بيروت في ١٠ شباط سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م عن عمر نـاهز الثالثة والثلاثين ، ونقلت جثته وسط حداد شـامل إلـى القدس ليدفن في كنيسـة القيامـة بجانـب أسـلافه السـابقين ، بعد حكـم دام عشـرين سـنة [٢] ونظراً لان لملك بلدوين الثالث قد توفي من دون أن ينجب أطفالاً من زوجته البيزنطية ثيودورا كومنين ***Theodora Comnene*** [٣] فقد حل مكانه أخوه الأصغر املريك الأول [٤] في حكم المملكـة (٥٥٩-٥٦٩هـ / ١١٦٣-١١٧٤م) البـالغ مـن العمـر سبعاً وعشـرين سنـة والـذي كـان أميـرا ليافـا وعسـقلان حتـى ذلـك الحـين بموجـب الحـق الـوارثي وكـان ذلـك فـي ١٨ شـباط سـنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م أي بعد مرور ثمانية أيام على وفاة أخيه بلدوين الثالث ، وتم تتويجه في كنيسـة القيامة من قبل بطريرك القدس عموري نسل ***Amalyric Nesle*** (٥٥٢ . ٥٨٠هـ / ١١٥٧ . ١١٨٠م) الذي وضع التاج على رأس املريك وبحضـور جميع رجالات كنيسة القيامة فضلا عن رؤساء الاساقفة في مملكة بيت المقدس الصليبية [٥] .

واختلـف املريك عـن أخيـه بلـدوين الثالث فـي مسـألتين أولهمـا : إن الأول كـان بـديناً مـن الناحية الجسدية والمسألة الثانية : إن املريك كان اقل علماً من بلدوين الثالث الذي كان متعلماً وبشكل جيد من الناحية الثقافية ، ومع ذلك فإن املريك الأول كان يمتع بذكاء حاد وذاكرة قويـة

---

[١] تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٧٣٤- ٧٣٥ .

[٢] نفسه ، ج٢ ، ص ٨٧٦- ٨٧٧ .

[٣] ريشار ، " تكوين مملكة "، ص ١٥٢ .

[٤] أطلق عليه المؤرخون العرب المسلمون تسمية مري وامري.ينظر:ابن الأثير، الكامل، ج١١ ، ص ٣٠١- ٣٣٥ ؛ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية (دار الجيل ، بيروت : د. ت)،ج١، ص ٢٤٣ ، ج٢ ، ص ٧٥ ؛ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق : محمد حلمي احمد (مطابع الاهرام التجارية ، القاهرة : ١٩٧٣م) ، ج٣ ، ص ٢٧٦ ، كما ورد باسم اماري . ينظر: الأصفهاني ، الفتح القدسي ، ص ١٣ .

[٥] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٧٣٤ ، ٨٧٨- ٨٧٩ .

وحنكة سياسية أفادت في إحكام قبضته على مملكة بيت المقدس الصليبية [١] وقد تميز املريك بنزعة عسكرية فاقت نزعات أسلافه من الملوك الصليبيين ، وبهذا الصدد قال ابن الأثير: ((***ولم يكن للفرنج مذ ظهر بالشام مثله شجاعة ومكراً ودهاء***)) [٢] هذا فضلاً عن كونه واسع الإلمام بالأمور القانونية ، كما انه فاق جميع نبلاء المملكة في حدة الذكاء والعقل وعالج بقوة وحكمة الأزمات المتكررة التي نشأت خلال حكمه المستمرة في توسيع رقعة المملكة الصليبية [٣] .

ومن أهم الأحداث في عهد الملك املريك تبلور سياسة التوسع الصليبي ومد النفوذ نحو مصر [٤] فقد سعى عقب تتويجه ملكاً على مملكة بيت المقدس بشكل حثيث للاستيلاء عليها [٥] وكان غرضه من ذلك تحقيق هدفين أساسين أولهما : ضرب أية محاولة لتوحيد مصر وبلاد الشام لان ذلك يؤدي إلى تقويض وجودهم في المنطقة العربية ، وثانيهما : تحقيق مطامعهم الاقتصادية والإقليمية [٦] .

توفي الملك املريك الأول مريضاً في ١١ تموز سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م وقد ناهز الثامنة والثلاثين ودفن في كنيسة القيامة [٧] وبوفاته فقدت مملكة بيت المقدس الصليبية أخر ملوكها الأقوياء ، وأخذت أحوالها تسير من سيئ إلى أسوأ ، فقد جاء موته في أسوأ الأوقات بالنسبة للصليبيين الذين كانت تواجههم مسألة التوحد الإسلامي الفعلي بين دمشق والقاهرة فضلاً عن انفصام أواصر التحالف الصليبي البيزنطي بعد فشل الحملة المشتركة على دمياط ، مّما أدى إلى إفساح المجال أمام الناصر صلاح الدين لتنفيذ مشروعه في إنهاء الوجود الصليبي في بلاد

---

[١] نفسه ، ج٢ ، ص ٧٣٤ .

[٢] الكامل ، ج١١ ، ص ٣٣٥ .

[٣] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٨٧٩ .

[٤] حول تلك السياسة التوسعية للملك املريك الأول تجاه مصر وحملاته الفاشلة للسيطرة عليها . ينظر : اكرم عبد الرزاق عبود وحيد ، مصر والغزو الصليبي (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة الموصل : ٢٠٠٢ م) ، ص ١٢٧-١٥٠.

[٥] كروسيه، الحروب الصليبية ، ص ٦٩ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٤٨ ؛ يوسف درويش غوانمة ، " رؤية في مفهوم الأمن القومي في عهد صلاح الدين " (مجلة المؤرخ العربي ، بغداد : ١٩٩٠م) ، ع٤٣ ، ص ٩٤.

[٦] البكر ، الحروب الصليبية ، ص١٥٨.

[٧] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص٩٧٣ .

الشام [١] . وفي ١٥ تموز من السنة ذاتها أي بعد مرور أربعة أيام على وفاة الملك املريك ، عقد مجلس المملكة بحضور جميع زعماء المملكة من دينيين وعسكريين لاختيار حاكم جديد ، وعلى وفق رغبات الجميع تم تتويج ابنه

بلدوين الرابع ***Baldwin IV*** [٢]ملكاً (٥٦٩-٥٨١هـ/١١٧٤-١١٨٥م) لمملكة بيت المقدس الصليبية من قبل بطريرك القدس املريك الذي وضع التاج الملكي على رأس بلدوين فضلاً عن حضور رؤساء الأساقفة في المملكة الصليبية [٣] .

وهذا يعني أن الصليبيين نتيجة لاعتمادهم النظام الوراثي في الحكم أدى بهم إلى أن يولوا الحكم من ليس أهلا له ، ويظهر ذلك بعد وفاة الملك املريك الأول وتولي ابنه الملك بلدوين الرابع الذي كان مجذوماً مما أثار سخرية الأصفهاني ، فعلق بهذا الصدد قائلاً : ((***لما هلك اماري بن فلك ...خلف ولداً مجذوما ، وكان مع الوجود معدوماً ، قد أعضل داؤه ، وأيس شفاؤه ، وسقطت أعضاؤه ، وطال بلاؤه ، فوضع الفرنج التاج على رأسه ، وتمسكوا مع أمراضه بأمراسه***)) [٤]وتطرق الصوري تفصيلاً عن حالة المرض الذي أصاب الملك بلدوين الرابع قائلاً : ((***لاحظنا بمرور الزمن وجود علامات على مرض خطير للغاية من المحال شفاؤه ...وهذا ما اتضح فيما بعد تماماً ، عندما بدأ يقترب من سن الرشد كان يعاني من***

---

[١] مارشال بلدوين ، " الدويلات اللاتينية تحت حكم بلدوين الثالث وعموري الأول /١١٤٣-١١٧٤م " ، ضمن كتاب تأريخ الحروب الصليبية، تحرير : سعيد عبد الله البيشاوي ومحمد مؤنس عوض ، ترجمة وتعليق : صلاح حسن العاوور (دار الشروق ، عمان :٢٠٠٤م) ، ج١ ، ص ٢١٤-٢١٥ .

[٢] عرف بلدوين الرابع باسم الملك المجذوم ، وبهذا الصدد قال أبو شامة : ((***وهذا الملك المجذوم وهو ابن اماري بن فلك ... وخلف الملعون هذا الولد المجذوم***)) . ينظر : الروضتين ، ج٢، ص ٧٥ .

[٣] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ٩٧٣ .

[٤] الفتح القسي ، ص ١٣ .

مرض الجذام الخطير ، وازدادت حالته سوءاً يوماً اثر يوم ، فقد هاجم المرض الأطراف والوجه بشكل خاص ، بحيث تأثر خدمه المخلصون شفقة وأثيرت عواطفهم عندما نظروا إليه)) [1] .

وقد مرت السنوات الأولى من حكم الملك بلدوين الرابع دون أية أزمات حقيقية غير ان المشاكل الإدارية فيما بعد نجمت عن عاملين الأول : هو صحة الملك الشاب غير المستقرة والعامل الثاني : بسبب البدايات في سياسة الناصر صلاح الدين الايوبي لتحقيق الوحدة وجهوده الرامية لتحرير البلاد الإسلامية المحتلة [2] .

ومن البديهي أن ذلك المرض أدى إلى عدم قدرة الملك بلدوين الرابع على إدارة دفة الحكم في المملكة الصليبية بشكل فعلي بدليل ما قاله ابن الأثير : ((***فلما توفي [امليك] خلف ابناً مجذوماً عاجزاً عن تدبير الملك ، فملكه الفرنج صورة لا معنى تحتها ، وتولى القمص*** [3] ***ريمند*** [4] ***تدبير الملك واليه الحل والعقد عن أمره يصدرون))*** [1] وليس ذلك

---

[1] تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٩٧٢ .

[2] بلدوين ، " اضمحلال وسقوط بيت المقدس ١١٧٤-١١٨٩م " ، ضمن كتب تأريخ الحروب الصليبية ، تحرير : سعيد عبد الله البيشاوي ومحمد مؤنس عوض ، ترجمة وتعليق : سعيد عبد الله البيشاوي (دار الشروق ، عمان : ٢٠٠٤م) ، ج١ ، ص ٢٦١ .

[3] القمص : مفردها قمص والجمع قمامصة ، والقومص تعريب حرفي للفظة اللاتينية (*Comes*) ، أي : الأمير ، ومعناها في اللاتينية ((الرفيق)) لأنه كان في بادئ الأمر يرافق الملك في حروبه وتنقلاته ، ولفظة (*Comes*) اللاتينية هي التي حورت في اللغة الفرنسية إلى *Comte* ، واعتادت المراجع العربية أن تعربها إلى (كد) أو (كند) و (قند) ويجمعون على كنود . ينظر : جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق : جمال الدين الشيال (مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة : ١٩٥٣م) ، ج١ ، ص ٧٣ ، هامش رقم (١) .

[4] ريمند : هو ريموند الثالث أمير طرابلس *Raymond III* حكم الإمارة عقب مقتل أبيه ريموند الثاني على أيدي الباطنية سنة٥٤٧هـ/١١٥٢م ، استمر في حكم إمارة طرابلس حتى وقوعه أسيرا بأيدي المسلمين سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م ، فتولى الملك امليك الأول الوصاية على عرش الإمارة طوال مدة غيابه ، وبعد أن أطلق سراحه سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، عاد إلى طرابلس ليواصل حكمه من جديد ، غير انه لم يمكث فيها سوى مدة قصيرة إذ أتجه إلى القدس التي كانت تشهد اجواء عصيبة بعد وفاة الملك امليك الأول سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م ، وكان غرض ريموند المطالبة بالوصاية على الملك الصغير بلدوين الرابع ، على اعتبار انه كان يلي أخوات الملك في القرابة الوثيقة بالبيت الملكي أمه هوديرنا من أميرات القدس وخالة امليك ، وقد عقد مجلس المملكة اجتماعاً بحضور بلدوين الرابع ، وبعد جلسة مشاورات استمرت يومين متتاليين ، وافق الملك ويرضى جميع الزعماء الصليبيين على تنصيب ريموند الثالث وصياً على عرش المملكة الصليبية . ينظر : الصوري ، تأريخ

فحسب بل وصف الرحالة ابن جبير حال ذلك الملك الذي احتجب عن الأنظار بسبب جذامه وتفاديه الظهور في الأوساط العامة وفي ذلك قال : ((***وهذا الخنزير صاحب عكة المسمى عندهم بالملك محجوب لا يظهر قد ابتلاه الله بالجذام فعجل له سوء الانتقام قد شغلته بلواه في صباه عن نعيم دنياه***)) [٢] .

ولما لم يكن الملك بلدوين الرابع قادراً على الزواج بسبب مرضه ، فقد تركزت ولاية العهد في البداية بيد أخته سيبل ***Sybil*** التي تزوجت للمرة الأولى في سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م من وليام مونتفرات ***William Montferrat*** [٣] إلا ان وليام توفي في سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م وزوجته حامل وأنجبت ولداً ذكراً هو بلدوين الخامس ***Baldwin V*** الذي يعد وريثاً لعرش المملكة الصليبية [٤] .

وفي سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م ظهر حزبان متخاصمان داخل مملكة بيت المقدس الصليبية ، إحدها الذي يمكن ان يدعى حزب البلاط ***Court Party*** ، وكان يتألف من الأقارب الموالين لاجنيس أرملة الملك املريك الاول وجاي لوزجنان زوج ابنتها سبيل ، ويلتقي هؤلاء مع بعضهم برابطة الدم والزواج والسعي وراء القوة ، وقد سعوا لفرض هيمنتهم على بلدوين الرابع البائس ،

الحروب ، ج٢ ، ص ٩٧٤-٩٧٧ . وظل في منصبه حتى سقوط مملكة بيت المقدس الصليبية سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، وللمعلومات عن تلك الشخصية ينظر :

Marshall Whithed Baldwin , Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem (Princeton University Press , New Jersey :1936) .

[١] الكامل ، ج١١ ، ص ٤١٩ .

[٢] ابو الحسن محمد بن احمد الاندلسي ، رحلة ابن جبير (دار صادر ، بيروت : ١٩٦٤) ، ص ٢٨٢ .

[٣] وليم مونتفرات : هو وليم مونتفرات الملقب بذي السيف الطويل *William Long . Sword* كان الابن الأكبر للمركيز مونتفرات ، قدم من فرنسا إلى بلاد الشام سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م ، وذلك بموجب دعوة من الملك بلدوين الرابع ، وبعد وصوله بأربعين يوماً تزوج من سيبل أخت الملك بلدوين الرابع ، وبموجب هذا الزواج المتفق عليه مسبقاً ، اصبح وليم أميرا لمدينتي عسقلان ويافا البحريتين مع توابعهما ، وارتضاه الملك وجميع نبلاء المملكة وريثاً للعرش الصليبي ، غير انه لم يمض ثلاثة اشهر على زواجه حتى أصيب بمرض خطير أدى إلى وفاته . ينظر : الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٩٨٨ ؛ رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٦٦٣ .

[٤] رنسيمان ، نفسه ، ج٢ ، ص ٦٦-٦٦٣ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٩١ .

أما الحزب الآخر فكان يتألف من البارونات الذين التفوا حول ريموند أمير طرابلس من أجل تولي القيادة ، وقد حاولت كل مجموعة التحكم في السياسة ، إما عن طريق المحكمة العليا أو إمكانية التسليم بإجراء دستوري عادي ، أو كما يبدو لحزب البلاط من خلال كسب الهيمنة على الملك أو التصرف بسرعة [١] .

وإزاء هذا الظرف العصيب أرسل الملك بلدوين الرابع في سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م رسالة إلى أوربا يعرض فيها استقالته عن منصبه ، وقرن ذلك بشرط أن يتولى مكانه الملك الفرنسي أو الإنكليزي ، على أن مسألة تعيين وصي على العرش الصليبي في مملكة بيت المقدس أصبحت في سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م أمراً لا مناص منه ، على الرغم من وقوفه ضده ، وحسب الأوضاع الراهنة لم يرد أحد في الحسبان سوى جاي

لوزجنان[٢] الذي قدم من الغرب لقبول الزواج من الأميرة الأرملة سيبل واعتلاء عرش المملكة الصليبية واحتفل بالزواج خلال أسبوع من وصوله بلاد الشام ، وقد نظر إليه على انه الحاكم القادم وعلى الأقل بمثابة وصي على بلدوين الخامس ، بعد وفاة بلدوين الرابع ، ومع ذلك لم يضع الملك ثقته بجاي ، ولذلك طلب منه أن يحلف اليمين أن لا يأخذ التاج طالما انه على قيد الحياة وعلى هذا الأساس كان بلدوين الرابع يحصل على عشرة آلاف ليرة ذهبية ، ويحتفظ بالقدس بوصفها قاعدة المملكة ، وكل ما تبقى كان للوصي جاي الذي صار له السلطة التامة على مملكة بيت المقدس الصليبية [٣] .

---

[١] بلدوين ، " اضمحلال وسقوط " ، ص ٢٦١ .

[٢] ورد إسمُهُ في المصادر العربية الإسلامية بأشكال مختلفة منها كي أو الملك كي وجفري وابن اغتم . ينظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ٥٢٧ ؛ قوام الدين أبو الفتح بن علي البنداري ، سنا البرق الشامي ، تحقيق : فتحية النبراوي (مطبعة الجبلاوي ، القاهرة : ١٩٧٩م) ، ص ٣١٢ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٧٦ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص ١٧٦ ؛ عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي ، تأريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت : ١٩٧٩م) ، ج٥ ، ص ٣٠٥ .

[٣] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ١٠١٦ ، ١٠٦٨ .

غير أن الملك بلدوين الرابع اكتشف أن جاي لا يصلح للوصاية وشكك في نواياه فقرر عزله عن الوصاية ، فقد سبق أن اشترط الملك بلدوين أن يستولي على دخل مدينة القدس ، إلا انه عاد فيما بعد واراد أن يستبدل القدس بمدينة صور لأنها أصبحت من اخصب مدن المملكة ، غير أن جاي كان غير راض عن إحداث مثل هذا التبادل ، ولم يكتف الملك بلدوين الرابع بذلك بل رتب مسألة ولاية العهد ، واقدم على خطوة غير معتادة ، إذ عين في حياته ابن أخته بلدوين الخامس ملكاً في ٢٠ تشرين الثاني سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م ، وتم التتويج في كنيسة القيامة بموافقة رجال المملكة الصليبية من دينيين وعسكريين [١] ولم تمض مدة قصيرة على عزل جاي عن الوصاية على العرش ، حتى قام الملك بخطوة أخرى تهدف إلى طلاق سيبل من زوجها جاي في ربيع سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م إلا أن المحاولة باءت بالفشل وهذا ما دفع جاي إلى الخروج عن طاعته ، فلجأ إلى كونتية يافا ثم إلى عسقلان ، وبها تخلى عن ولائه للملك بلدوين الرابع الذي احل مكانه ريموند الثالث أمير طرابلس
Raymond III وصياً على بلدوين الخامس حتى يبلغ سن الرشد [٢] .

وفي بداية سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م تعرض الملك بلدوين الرابع أثناء وجوده في مدينة الناصرة إلى حمى بالغة العنف فظل بضعة أسابيع بين الحياة والموت ولازم فراش المرض الذي اضعف بصره وشل أطرافه إلى درجة امتنعت يداه وقدماه عن أداء واجبهما [٣] حتى أراحه الموت في بداية سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ودفن في كنيسة القيامة ، ولم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، بعد حكم دام اكثر من عشر سنوات ، ويعد الملك بلدوين الرابع اتعس من حكم مملكة بيت المقدس من الملوك الصليبيين لأنه كان عاجزاً عن أن يضبط من سرير المرض ما يدور حوله من مؤامرات للإطاحة بعرشه [٤] مما أدى إلى أن تسير دولته في طريق الضعف والانقسام بسبب النزاع على دفة الحكم بين الأمراء الصليبيين [٥] فضلاً عن النزاع مع أخته

---

[١] نفسه ، ج٢ ، ص ١٠٦٨-١٠٦٩ .
[٢] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ١٠٧٤-١٠٧٦ .
[٣] نفسه ، ج٢ ، ص ١٠٥٩ .
[٤] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٧١٧-٧١٨.
[٥] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٨٧ ؛ بلدوين ، " سقوط واضمحلال " ، ص ٢٥٧-٢٥٨ .

ايزابيلا حول العرش الصليبي [١] وليس ذلك فحسب بل كان تأريخ الشرق الصليبي قاتماً بعد وفاة الملك املريك الأول وتولى الحكم ابنه بلدوين الرابع وذلك بسبب ما حل بالصليبيين في معركة حطين [٢] سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وفقدانهم القدس [٣] .

وهكذا تقرر أن يخلف الملك بلدوين الرابع ابن أخته الصغير بلدوين الخامس تحت وصاية ريموند الثالث الذي ((***قام بسياسة الملك وتدبيره لأنه لم يكن للفرنج ذلك الوقت اكبر منه شأناً ولا أشجع ولا أجود رأياً منه ، فطمع في الملك بسبب هذا الصغير***)) [٤] غير أن الملك بلدوين الخامس توفي في صيف سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م في مدينة عكا ، ولم يبلغ التاسعة العمر ، وكانت وفاته إيذانا بصراع حاد بين الأمراء الصليبيين حول الفوز بعرش مملكة بيت المقدس الصليبية [٥] انتهى بتتويج أمه سيبل على العرش وزوجها جاي لوزجنان وفي ذلك قال ابن الأثير: ((***فأتفق أن الصغير توفي ، فانتقل الملك إلى أمه ٠٠٠ ثم إن هذه الملكة هويت رجلاً من الفرنج الذين قدموا الشام من الغرب اسمه كي فتزوجته ونقلت الملك إليه وجعلت التاج على رأسه وأحضرت البطرك والقسوس والرهبان والاستبارية والداوية والبارونية وأعلمتهم أنها قد ردت الملك إليه وأشهدتهم عليها بذلك فأطاعوه ودانوا له***)) [٦] فكان آخر الملوك الصليبيين الذين حكموا مملكة بيت المقدس الصليبية (٥٨٢- ٥٩١هـ / ١١٨٦- ١١٩٤م) التي بسقوطها في سنة ٥٨٩هـ/١١٩٢م ، فقد جاي لوزجنان عرش مملكة بيت المقدس الصليبية

---

[١] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥١ .

[٢] عن معركة حطين ونتائجها على الصراع العربي الإسلامي . الصليبي . ينظر : الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ١٧-٢٣ ؛ بهاء الدين يوسف بن رافع ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المسمى سيرة صلاح الدين الايوبي ، تحقيق : جمال الدين الشيال (الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة : ١٩٦٤م) ، ص ٧٥-٧٩ ؛ دريد عبد القادر نوري ، سياسة صلاح الدين الايوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة (مطبعة الإرشاد ، بغداد : ١٩٧٦م) ؛ زكار ، حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس (دار حسان للطباعة والنشر ، دمشق : ١٩٨٤م) .

[٣] بلدوين ، " اضمحلال وسقوط " ، ص ٢٥٤ .

[٤] ابن الأثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ٥٢٦.

[٥] ابن العبري ، تأريخ الزمان ، ص ٢٠٤-٢٠٥ ؛ رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ٧٢١-٧٢٢.

[٦] الكامل ، ج١١ ، ص٥٢٦-٥٢٧ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج٥ ، ٣٠٥.

، واستبدلها بالسيطرة على قبرص التي أسس فيها دولة إقطاعية جديدة على وفق النمط الأوربي الغربي [١] .

وهكذا شغل الملك الصليبي قمة الهرم من الناحيتين السياسية والاجتماعية ، ويعد القائد العام لجيوش مملكة بيت المقدس الصليبية في زمن الحرب [٢] وهو باذل العطاء في زمن السلم [٣] وكان على تابعيه كافة ***Vassal*** إمداده بعدد معين من الجند في أوقات الحرب ، وعليهم الحضور بأنفسهم إذا دعت الحاجة إليهم [٤] وهو المسؤول عن الإدارة المركزية فيقوم بتعيين موظفيها [٥] .

أما الموارد المالية التي عاش عليها الملك الصليبي فهي عديدة ، منها ما يتحصل من السلب والنهب عن طريق مهاجمة المدن والقرى والضياع والقوافل الإسلامية ، ومنها ما يتحصل من الحقول والمزارع التابعة للصليبيين والمحيطة بهم ، ومنها الضرائب الكمركية المفروضة على الصادرات والواردات فضلاً عن إسهامات الحجاج الأوربيين والإتاوات المفروضة على الإمارات الإسلامية [٦] .

كما كان للملك الصليبي عائدات مالية من رسوم الموانئ والمدن التابعة لمملكة بيت المقدس الصليبية مثل صور وصيدا وعكا ويافا وارسوف وعسقلان وغيرها ، كما حصل من التجارة على رسوم وضرائب وافرة فضلاً عّما يحصل عليه من خراج من الأراضي الزراعية التي يملكها فمن أملاكه مدن القدس ونابلس وعكا والداروم ، فصار الملك يتحكم في الأراضي والموارد ولإقطاعيات التي كانت تئول إليه عادةً عند انقراض كل أسرة إقطاعية ، وفوق ذلك

---

[١] براور ، عالم الصليبيين ، ص ٧٢ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٣٤٦ .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٨٠-٤٨١ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٣٢ .

[٣] العريني ، " نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين بمملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي " (مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة : ١٩٥٨م) ، م ٢٠ ، ج٢ ، ص٤٣ .

[٤] رنسيمان ، المدنية البيزنطية ، ترجمة : صالح احمد العلي (مطبعة وزارة المعارف ، بغداد : : ١٩٥٦م) ، ص ٢١٨-٢١٩ .

[٥] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٨١ .

[٦] فنك ، " تأسيس الإمارات " ، ص ٩٧ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٨٠ ؛ البكر ، " الاستيطان الصليبي " ، ص ٦٢٣ .

كله كان له حق الوصاية الإقطاعية على أصحاب الإقطاعيات أثناء حداثة سنهم [١] ولما كان الملك الصليبي المرجع الأعلى لكافة القضايا الزمنية ، فكان له الحق من ناحية نظرية منع الإقطاعيين من بيع أو رهن أراضيهم [٢] نظراً لما كان له من السيادة على الاتباع ، وجاز له أن يختار الأزواج لمن يرثهم من الإناث في حالة عدم وجود الذكور [٣] وكان من حق الملك الصليبي اعتراف الإمارات الصليبية الثلاث انطاكية والرها وطرابلس بتبعيتها له ، وتتضح حين يقع في إمارة من الإمارات شغور في العرش ، أو كان متولي الحكم حدثاً صغير السن ، أو حين يقع نزاع سواءً في داخل الإمارة أو بين أميرين ، فإذا توفي أمير من الأمراء دون أن يترك وريثاً في سن الرشد صار لملوك بيت المقدس الحق في أن يكونوا أوصياء على الإمارات الصليبية [٤] .

وللتدليل على ذلك هناك بعض الحالات التي تبين كيفية تولي ملك بيت المقدس الحكم على الإمارات الصليبية ، فعلى سبيل المثال تولى الملك بلدوين الثاني الوصاية مرتين على إمارة انطاكية الصليبية كانت الأولى بعد وفاة حاكمها روجر ***Roger*** سنة ٥١٣هـ/١١١٩م [٥] ولاسيما أن الفراغ السياسي الذي عاشته انطاكية شكل خطراً كبيراً على الصليبيين من جهة الشمال ، إذ قام كبار الكهنة والعامة في تلك الإمارة بإعطاء بلدوين تفويضاً مطلقاً بحكمها لثقتهم به [٦] والثانية كانت عقب مقتل أميرها الصليبي بوهيمند الثاني ***Bohemond II*** سنة ٥٢٥هـ/١١٣٠م [٧] وكذلك تولى الملك املريك الأول الوصاية على إمارة طرابلس للفترة الممتدة(٥٦٠-٥٦٧هـ/١١٦٤-١١٧١م) ، اثر وقوع أميرها ريموند الثالث أسيرا بأيدي المسلمين في معركة حارم [٨] سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م [١] ولعل ذلك راجع ليس فقط إلى كونه اقرب الأمراء

---

[١] العريني ، " نمو طبقة النبلاء " ، ص ٤٣ .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٨١ .

[٣] اليوسف ، علاقات ، ص ٨٨ .

[٤] باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٥١ .

[٥] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ١٨٩ ؛ كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٦٠ .

[٦] نيكلسون ، " تطور الدويلات " ، ص ١٠٨ .

[٧] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٦٥٠ .

[٨] حارم : حصن حصين وكورة مهمة تجاه انطاكية ، وهي من أعمال حلب ، اشتهرت حارم بقوة وصلابة تحصيناتها .ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٢٠٥ ؛ وللمزيد من التفاصيل عن معركة

الذكور إلى الملك ، وانما على انه سيده الأعلى [٢] على أن ملوك بيت المقدس عدوا الوصاية عبئاً ثقيلاً لا امتيازاً كبيراً وكان من واجب الملك أن يعمل وصياً ومن واجبه أن يسوي ما يقع من المنازعات في إمارة انطاكية أو الرها ، ومن واجبه أن يوفق بين إمارتي انطاكية والرها كلما نشب النزاع بينهما [٣] فعلى سبيل المثال لا الحصر عندما نشب النزاع الخطير بين بوهيمند الثاني أمير انطاكية وجوسلين الأول أمير الرها ***Joscelin I*** بسبب تعاون الأخير مع المسلمين ضد إمارة انطاكية فاسرع الملك بلدوين الثاني إلى انطاكية وتدخل بنفسه منهياً ذلك النزاع[٤] .

كانت صلاحية توقيع الاتفاقيات مع المدن الإيطالية (البندقية . جنوة . بيزا) والدولة البيزنطية في يد الملك وحده ، وله وحده حق إصدار العملة ، كما كانت له بعض الصلاحيات لإصدار الأحكام ، مثل الحكم على اللصوص من الأحداث ، وفي حدود سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م طالب الملك املريك الأول أن تكون له صلاحيات الموافقة على استقالة رئيس هيئة الاسبتارية ، وفي نهاية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي اصبح للملك الصليبي دورٌ كبير في تعيين بطريرك القدس من خلال اختياره أحد المرشحين الذين يقترحهم رجال الدين في كنيسة القيامة [٥] .

وعلى الرغم من تلك الصلاحيات الواسعة التي كان يتمتع بها الملك الصليبي إلا انه لم يكن له سلطان مطلق في تشريع القوانين أو منح الإقطاعيات ، فقد خضع لقانون المملكة المتمثل بالمحكمة العليا [٦] إذ إن القوانين والقرارات كافة التي يصدرها الملك الصليبي وبضمنها

حارم ونتائجها على الصراع العربي الإسلامي . الصليبي . ينظر : اللهيبي ، مملكة أرمينية الصغرى ، ص ٧٥-٧٦ ؛ محمود سعيد عمران ، " معركة حارم ، التحالف البيزنطي الصليبي الأرميني ضد نور الدين زنكي " (مجلة المؤرخ العربي ، بغداد : ١٩٧٨م) ، ع٨ ، ص ٨٩-٩٩ .

[١] ابن الأثير ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق : عبد القادر احمد طليمات (دار الكتب الحديثة ، القاهرة : ١٩٦٣م) ، ص ١٢٤-١٢٥ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٨٨٨-٨٨٩ .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٨٩ .

[٣] باركر ، الحروب الصليبية ، ٥٣-٥٤ .

[٤] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٦٤٠ .

[٥] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٣٣ .

[٦] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٩٦ .

إعلان الحرب واقرار السلم ينبغي أن توافق عليها المحكمة العليا التي كان يتولى الملك رئاستها [1] وهكذا كان الملك الصليبي انطلاقاً من مركزه الملكي يمارس دور الحاكم الأعلى فوق جميع الأمراء الصليبيين في الشرق [2] .

ب. النظام الإداري

يعد النظام الإقطاعي المستمد من نظام الإقطاع الأوربي أساس الحياة السياسية والإدارية في مملكة بيت المقدس الصليبية ، فقد كان الملك الصليبي هو رأس الدولة في البناء السياسي وشغل مركز الصدارة في النظام الإداري ، ويأتي بالمرتبة الثانية في تسلسل السلم الإداري موظف يدعى النائب أو الفيكونت ***Viscount*** [3] وهو من أهم موظفي الإدارة ينوب عن الملك في إدارة شؤون الوحدات الإقطاعية الكبرى ، ويتولى جباية الضرائب المحلية [4] ويرسلها إلى خزينة الدولة ***Secretum*** بعد استقطاع ما يحتاج إليه منها لتغطية نفقات الحكومة ، وكان مسؤولاً عن المحاكم المحلية وعن حفظ الأمن بوجه عام وغالباً ما يتم اختياره من أسرة نبيلة ، غير أن وظيفته لم تكن وراثية [5] كما كان يتولى إدارة قسم من الأملاك الملكية ويترأس المحاكم البرجوازية [6] ويترأس المحكمة العليا في إقطاعه [7] هذا فضلاً عن مهمته في إسناد الأشراف الإداري على اتباعه في أجزاء اقطاعه [8] .

---

[1] رنسيمان ، المدنية البيزنطية ، ص ٢١٩ .

[2] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢١٣ ؛ بلدوين ، " الدويلات اللاتينية " ، ص ١٩٠.

[3] ويطلق عليه ابن منقذ تسمية (البسكند) ويقول عنه هو (شحنة البلد) ينظر : الاعتبار ، ص ١٣٩ .

[4] تتألف الضرائب المحلية من الرسوم المقررة على القوافل وما يتحصل من الموانئ من المكوس وما يرد من رسوم على القضايا وما تدفعه الإمارات الإسلامية من اتاوات . ينظر : باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٥ .

[5] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٨٨ .

[6] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٤٢ .

[7] النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٥٧ .

[8] اليوسف ، علاقات ، ص ٨٩ .

وكـان يلـي الفيكونـت مـن حيـث المكانـة موظـف يـدعى المحتسـب ***Methessep*** [١] ومنصـب المحتسـب هـذا عربـي إسـلامي وجـده الصـليبيون فـي بـلاد الشـام فعملـوا بـه ، وكانـت اختصاصـاته فـرض النظـام والإشـراف علـى الأسـواق [٢] ومـن الأمـور التـي أنيطـت بالمحتسـب مراقبـة الطرقـات والأسـواق ومراقبـة الموازين والمكاييل ومراقبـة تجـار الحبـوب والخبـازين والجزارين وبـائعي الأطعمـة فضـلاً عـن مراقبـة عمـل كـل مـن معلمـي الصبيـان والأطبـاء ، وكـان علـى المحتسب أن يقدم تقارير منتظمـة إلى الفيكونت عما يجري من أعمال في المدينـة [٣] والنص الآتي يشرح تلك الوظيفة ((***وظيفـة المحتسـب هـي انـه عليـه أن يـذهب كـل يـوم صـباحاً إلـى الساحات والاطـلاع علـى حالـة المسلخ وعلـى وضـعية بيـع الخبـز والنبيـذ والأشـياء الأخـرى وان يكون حذراً من غش باعة الجملـة والمفرق ... وان يراقب وزن الخبـز ، وان يلاحق ما ينبغي ان يحمل التمتعة وخاصة الخبز والنبيذ واللحم والأسماك***)) [٤] .

وقد تركزت الإدارة في أيدي كبار موظفي البلاط الذين كان الملك يختارهم من بين كبار الإقطاعيين في مملكة بيت المقدس الصليبية ، وهؤلاء الموظفون كانوا يساعدون الملك في إدارة شؤون مملكته [٥] وهم حسب تقسيمات النظام الإداري ، وعلى وفق التدرج المناصب الإقطاعية [٦] :

١ .***الصنجيل Seneschel*** [٧] : وهو بمثابة كبير الوزراء ومن اتباع الملك المباشرين وهو المسؤول الإداري الأول في المملكة الصليبية [٨] وبوصفه رئيساً للإدارة المدنية فقد تولى رئاسة الخزينـة والإشـراف علـى عملهـا ، وكـان مكلفـاً بمـا يجـري مـن الاحتفـالات فـي المملكـة ، وبتلـك

---

[١] وهو لقب مشتق من كلمة المحتسب العربية . ينظر : رنسيمان ، المدينة البيزنطية ، ص ٢٢٠ .

[٢] رنسيمان ، تـأريخ الحـروب ، ج٢ ، ص ٤٨٨ ؛ اليـاس القطـار ، " المجتمـع الصـليبي فـي صـور فـي العهـد الفرنجي " ، ضمن أعمال المؤتمر الثاني لتاريخ مدينة صور ٢٤–٢٥ أيار : ١٩٩٧م ، ص ١١٢ .

[٣] النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٥٧–١٥٨ .

[٤] القطار ، " المجتمع في صور " ، ص ١٣٩ .

[٥] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٨٦ ؛ براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٠٠ .

[٦] اليوسف ، علاقات ، ص ٨٩ .

[٧] أطلـق أيضـا عليـه تسـمية القهرمـان . ينظـر : الصـوري ، تـأريخ الحـروب ، ج٢ ، ص ١٠٢٢ ؛ ريشـار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٣ .

[٨] اليوسف ، علاقات ، ص ٨٩ .

الصفة كان يحمل صولجان الملك عند التتويج ويتقدم على الملك في المواكب [١] كما كان ينوب عن الملك في رئاسة المحكمة العليا ، ويدير شؤون المدن والحصون التابعة للتاج الملكي [٢] فعلى سبيل المثال كان جوسلين الثالث ***Joscelin III*** عم الملك بلدوين الرابع وصنجيله [٣] .

٢. ***الكندسطبل Constabler*** : وهو قائد الجيش في مملكة بيت المقدس الصليبية وكان المسؤولون الصغار في الجيش الملكي يتوجهون مباشرةً إليه لتلقي الأوامر فيما يتعلق بالحملات العسكرية اكثر من توجههم للملك ، وهو الذي يقوم بتوجيه الجنود والقيادة أثناء المعارك الحربية [٤] وكان يلي الصنجيل في المكانة ويفوقه في السلطة الفعلية ، وينوب عن الملك في قيادة جيش المملكة وكان مسؤولاً عن كل ما يتعلق بنظامه وإدارته [٥] وفضلاً عن كل ذلك فقد مارس سلطة القضاء العسكري ، وخضع لقضائه جميع العساكر بما فيهم المرتزقة سواءً استأجرهم الملك أو السيد الإقطاعي [٦] وكان الكندسطبل يقوم بإصدار الأحكام بعد استشارة مجلس الحرب المكون من بلاط الملك ، وهو يستطيع أن ينفذ العقوبة بنفسه ضد كل فارس غير نبيل ، إذا أدين بإحدى جرائم الحرب ، لكن الكندسطبل لا يستطيع أن يعاقب الفارس النبيل [٧] .

ويعد يوستاس جارنييه ***Eustace Grenier*** [٨] : من أبرز الشخصيات الصليبية التي تولت منصب الكندسطبل أو قائد جيش مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الأول ، واستمر في وظيفته في عهد الملك بلدوين الثاني حتى وفاته سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م [١] .

---

[١] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ٤٨٦ .

[٢] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٤١ ؛ سعيد عبد الله البيشاوي ، الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية (دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية : ١٩٩٠م) ، ص ٩٩ .

[٣] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ١٠٢٢ .

[٤] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ١٩٤ ، هامش رقم (٤) .

[٥] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٨٦-٤٨٧ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٤٨٢ .

[٦] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٤١ .

[٧] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ١٩٤ ، هامش رقم (٤) .

[٨] يوستاس جارنييه :وهو من ابرز السادة الإقطاعيين في مملكة بيت المقدس الصليبية ، وكان سيداً لإقطاعية قيسارية وبارونية صيدا ، ولم يلبث ان وطد مركزه بزواجه من ايما *Emma* كونتيسة يافا ، وهي ابنة أخت البطريرك ارنولف مالكورون ، وقد عرف بولائه وإخلاصه للملك بلدوين الأول . ينظر : رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ١٣٨-١٣٩ ، ١٥١ .وقد كان خبيراً في الشؤون العسكرية شغل منصب كندسطبل مملكة بيت المقدس الصليبية ، كما اختير وصياً على العرش أثناء وقوع الملك بلدوين الثاني في الأسر ، وبقي سيداً

٣. ***المارشال Marshall :*** وكان يساعد الكندسطبل في تأدية مهامه وينوب عنه في كل الأمور ، ويخضع لأوامره المرتزقة ، وكان عليه أن يؤمن بديلاً عن الخيول التي تقتل [٢] فعلى سبيل المثال تولى جيرارد بوني ***Gerald Bone*** وظيفة مارشال البلاط الملكي في عهد الملك املريك الأول [٣] .

٤. ***الجامبرلين Chamberlain***: وهو الحاجب [٤] وكانت اختصاصاته الإشراف على القصر الملكي ، وهو مسؤولاً عن حاشية الملك الشخصية وامواله ، ويؤدي دور الحارس الشخصي للملك في أوقات الاحتفالات والمواكب ، وكانت تلك الوظيفة من الوظائف التي تعود على صاحبها بوبح مادي وفير نظراً لما يبذله الاتباع له من الهدايا حينما يؤدون يمين الولاء والتبعية للملك [٥] وثمة رواية تطرق إليها الصوري أكدت وجود وظيفة الحاجب في هيكل الجهاز الإداري للمملكة الصليبية ، وقد شغلها شخص يدعى جيرارد في عهد الملك بلدوين الأول [٦] .

٥. ***القسطلان :***وهو مستحفظ قلعة القدس ، ويرجح أن اللفظ معرب عن الكلمة اللاتينية ***Castellanus*** [٧] فعلى سبيل المثال كان انسلم براي ***Ansalm Brai*** قائد قلعة القدس في عهد الملك بلدوين الأول [٨] كما كان روهارد ***Rohard*** قائد قلعة القدس أيضا في عهد الملك فولك الانجوي [٩] .

٦. ***الساقي*** : صاحب الكأس الذي لم تكن اختصاصاته معروفة آنذاك ، ولكن المرجح أن واجباته ارتبطت بالاحتفالات فقط [١٠] وثمة إشارات ذكرتها إحدى المصادر اللاتينية ، أكدت

لإقطاعية قيسارية وبارونية صيدا حتى وفاته . ينظر : الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ١٩٥-٢٠٠ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٩١ .

[١] الشارتري ، نفسه ، ص ٢٠٠ .

[٢] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٤١ .

[٣] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٩٥٤ .

[٤] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٠٠ .

[٥] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٨٧ ؛ المدنية ، ص ٢٢٠ .

[٦] تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٥٣٨ .

[٧] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٠٠ ؛ النقر ، " التغيرات الإدارية " ، ص ٦٥٨ .

[٨] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٥٣٨ .

[٩] نفسه ، ج٢ ، ص ٧٢٤، ٩٥٤ .

[١٠] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٨٧.

وجود تلك الوظيفة التي تولاها باجان ***Pagan*** في عهد الملك بلدوين الأول ، كما عمل يودس سانت أومر ***Eudesde St. Omer*** ساقياً للملك املريك الأول [١] .

٧كبير كُتّاب الإنشاء Chancellor : الذي كانت وظيفته تشبه وظيفة رئيس ديوان الإنشاء عند المسلمين ، وكانت وظيفته تحرير ما يصدر عن الملك من كتب ووثائق وتدوينها وختمها بخاتم الملك، وعادةً كان يختار لتلك الوظيفة من رجال الدين في الكنائس ، وعلى الرغم من أن تلك الوظيفة لم تكن دينية بأي حال من الأحوال [٢] وتجدر الإشارة هنا إلى أن المؤرخ الصليبي وليم الصوري كان أحد رؤساء ديوان الإنشاء في
مملكة بيت المقدس الصليبية [٣] .

وهكذا تعدد الموظفون في مملكة بيت المقدس الصليبية ، بتعدد الاختصاصات واتساع النشاط الإداري [٤] وبطبيعة الحال بقيت الوظائف قائمة على مدى قرنين من الزمن دونما أن يجري عليها تغير ملحوظ خاصة إن تلك الوظائف لم تكن محل نزاع وذلك لان الملك الصليبي كان قد عين من يشغلونها من بين كبار النبلاء ، كما لو كانت الخدمة في هذه الوظائف جزءاً من تربيتهم في الحياة السياسية والعامة [٥] .

---

[١] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٧٢٥، ٩٢٣ .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٢٦٧، ٤٨٧ .

[٣] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٩٧١ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٤٢ ؛ ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٣ .

[٤] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١، ٤٨٢ .

[٥] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٠٠ .

ج. النظام القضائي

لقد اعتمد الطليبيون نظاماً قضائياً ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالنظام الإقطاعي الأوربي واشتمل هذا النظام القضائي على عدد من المحاكم التي عملت على تنظيم شؤون المستوطنين الصليبيين وغيرهم من السكان المحليين في بلاد الشام آنذاك ، وتلك المحاكم هي كما ياتي : .

أولا : المحكمة العليا *Haute Court* [١]

تشكل المحكمة العليا أو محكمة الملك النظام القانوني الرئيس الذي استندت عليه المحكمة الصليبية في بلاد الشام ، وتعد المحكمة أعلى هيئة قضائية في مملكة بيت المقدس الصليبية [٢] تولى الملك الصليبي رئاستها ، وتألفت عضويتها من كبار السادة الإقطاعيين بالمملكة من الذين كانوا يدينون بالولاء المباشر للملك ، كما ضمت المحكمة كبار رجال الدين في كنيسة القيامة ، وممثلين عن الهيئات الدينية الحربية كالداوية والاسبتارية فضلاً عن عضوية المدن التجارية الإيطالية كالبندقية وجنوة وبيزا التيكان لها جاليات أجنبية شكلت جزءاً هاماً في كيان المملكة الصليبية ، وارتبطت معها بمصالح اقتصادية هامة في العديد من مدن المملكة ، فكانت ترسل عنها ممثلين لحضور جلسات المحكمة العليا ، وجميع هؤلاء الأعضاء كان لهم حق التصويت على القرارات التي تصدرها المحكمة [٣] .

أما عن اختصاصاتها فكانت تفصل في القضايا التي تتعلق بالنزاع بين الملك الصليبي وامرائه وفرسانه [٤] كما كانت تقرر انتقال لقب الملك [٥] إذ كان يترتب على الملك عند تنصيبه أداء قسم أمام المحكمة العليا يلزمه باحترام الامتيازات والحصانات الإقطاعية ، وتنظر في جميع القضايا المتعلقة بشؤون النبلاء [٦] وفضلاً عن اختصاصات المحكمة العليا في

---

[١] وتعرف بأسماء أخرى منها محكمة النبلاء أو محكمة المقطعين *liges Court*. ينظر : كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٩٦ .

[٢] براور ، عالم الصليبيين ، ص ٩٩ .

[٣] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ٢، ٤٨٠ –٤٨١ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص٢٣٥ .

[٤] باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٥٩ ؛ ريشار ، " تكوين المملكة " ، ص ١٥٣ .

[٥] باركر ، نفسه ، ص٥٩ .

[٦] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٩٧ .

توضيح القوانين وتفسيرها ، كانت تعمل على إزالة الخلافات بينها وبين التعهدات الإقطاعية [١] وليس ذلك فحسب بل كانت تفرض الضرائب غير الإقطاعية داخل مملكة بيت المقدس الصليبية [٢] .

وفي مجال السياسة والإدارة كانت المحكمة العليا في اصلها هيئة قضائية ، ثم توسعت اختصاصاتها ، فأصبحت تمثل هيئة تشريعية لابد من موافقتها على أي قانون أو تشريع جديد في المملكة الصليبية ، كما كانت تتم استشارتها في المسائل الكبرى التي تتعلق في السياسة إذ وقع على عاتقها مهمة اختيار الوصي على الملك في حالة حداثة سنه أو نائب عنه عند وقوعه في الأسر [٣] .

وبهذا الصدد ذكر الصوري أن الملك بلدوين الثاني ، عندما أصابه مرض خطير دعا الى عقد اجتماع طارئ للمحكمة العليا في مدينة القدس ، حضره كبار النبلاء ورجال الكنيسة فضلاً عن بطريرك القدس ستيفن ، ولما كان بلدوين الثالث صغير السن في العاشرة من العمر فقد تولت الوصاية عليه والدته ميليسند وزوجها فولك الانجوي ، وعهد اليهما بإدارة البلاد حتى يبلغ بلدوين الثالث سن الرشد [٤] كما تم عقد اجتماع المحكمة العليا في عكا لاختيار نائب للملك بلدوين الثاني عندما وقع في اسر بلك في سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م فتم اختيار يوستاس جارنييه الأول سيد إقطاعية قيسارية وبارونية صيدا نائباً لادارة أمور البلاد وكان ذلك الاختيار بتوصية من بطريرك القدس جرموند ***Germond*** (٥١٢-٥٢٢هـ/ ١١١٨-١١٢٨م) وكبار رجال الدولة في مملكة بيت المقدس الصليبية [٥] .

ولم تقتصر المحكمة على ذلك بل كانت وظيفتها الأساسية محاكمة أعضائها عندما يعتدي أحدهم على الآخر ، ولما كانت المحكمة أعلى مرجع قضائي في مملكة بيت المقدس الصليبية ، فلم يعد بإمكان الملك الصليبي إقصاء أحد عن اقطاعه ، الا بعد الحصول على

---

[١] اليوسف ، علاقات ، ص٨٨ .
[٢] براور ، عالم الصليبيين ، ص٩٩ .
[٣] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٨٢ .
[٤] تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص٦٥٠-٦٥١ .
[٥] الشارتري ، تاريخ الحملة ، ص ١٩٥ .

موافقة المحكمة العليا التي خضع الملك لسلطانها [١] وفوق كل ذلك كان للمحكمة العليا رأي مسموع في توجه السياسة العامة للمملكة ، لأنها تحولت بالتدريج من مجرد مجلس استشاري الى عامل سياسي حاسم في المملكة الصليبية [٢] فقد وقع على عاتقها مناقشة أمور السياسة الخارجية للمملكة الصليبية ، وإعلان الحرب والسلم وإصدار أوامر التعبئة العسكرية وغيرها من الأمور الأخرى التي كانت خاضعة لمداولة المحكمة العليا [٣] .

وكانت المحكمة العليا تنعقد عادةً بأمر من الملك وبحضور جميع أعضائها ، ويصح عقد المحكمة بحضور ثلاثة من أعضائها في حالة غياب الأعضاء الآخرين [٤] واتخذت المحكمة مدينتي القدس وعكا مقراً لها زمن الملوك الصليبيين الأولين غير أن العديد من النبلاء حرصوا على حضور جلسات المحكمة العليا ، واخذوا يهملون إقطاعياتهم ، ويلجؤن الى هاتين المدينتين للاستقرار فيهما ، فتطلب ذلك إلا يكون للمحكمة مقر ثابت ، أو زمن محدد بل قد يدعوها الملك للانعقاد كلما دعت الحاجة الى عقدها [٥] .

فعلى سبيل المثال كان الملك بلدوين الرابع قد طلب عقد المحكمة العليا في مدينة القدس لأجل مناقشة مصير مملكة بيت المقدس الصليبية بعد وفاته ، وقد حضر الاجتماع كبار السادة الإقطاعيين ورجال الدين اللاتين في المحكمة ، وأعلن الملك بلدوين الرابع وصيته أمام المجتمعين بأن يخلفه في الحكم ابن أخته بلدوين الخامس ، كما اشرنا سابقاً [٦] .

ومن الجدير بالذكر أن المحكمة العليا لم تكن لها سجلات تدون فيها القرارات والإجراءات التي تصدرها الا في السنوات الاخيرة من حياة مملكة بيت المقدس الصليبية [٧] وقد اعتمدت في حكمها على العرف وخاصةً أن القوانين لم تدون آنذاك [٨] إذ اعتمدت المحكمة

---

[١] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٨٢ ؛ المدنية البيزنطية ، ص ٢١٨ .

[٢] براور ، عالم الصليبيين ، ص ٩٩ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ١٠٠ .

[٣] براور ، نفسه ، ص ٩٩ .

[٤] ماير ، تاريخ الحروب ، ص ٢٣٤ .

[٥] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٨٣.

[٦] بلدوين ، " اضمحلال وسقوط " ، ص ٢٥٦-٢٥٧ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣١٠ ، هامش رقم (٢) .

[٧] ماير ، تاريخ الحروب ، ص ٢٣٥ .

[٨] النقاش العلاقات الاجتماعية ، ص ٣٥ .

أسلوب المبارزة في إجراء المحاكمة بين المتخاصمين ويتحتم أن تنتهي بانتصار أحد أطراف النزاع [١] فعلى سبيل المثال حدث في سنة ٥٢٦هـ /١١٣١م أن رفض هيو بوزيه الثاني ***Hugh II*** أمير يافا تقديم يمين الولاء للملك فولك الانجوي مما جعل والتر الأول حاكم قيسارية ***Walter I*** يوجه لهيو الثاني تهمة الخيانة العظمى والتآمر على قتل الملك ، فانعقدت المحكمة العليا لمناقشة القضية ، وتقرر أن تقوم مبارزة فردية بين والتر الاول وهيو الثاني حسب عادة الصليبيين ، وحدد يوم مناسب للقتال الا أن هيو الثاني لم يحضر موعد المبارزة لذا أدانته المحكمة غيابياً وقررت مصادرة أملاكه [٢] .

ثانياً : المحاكم المحلية ***Civil Courts*** [٣]

ظهرت تلك المحاكم في السنوات الأولى من قيام مملكة بيت المقدس الصليبية ، وكان يتولى رئاستها قاضٍ من السكان المحليين يعرف باسم الرئيس ، ويساعد رئيس المحكمة أثنا عشر عضواً محلفاً ***Jures***[٤] وقد انتشرت تلك المحاكم في مختلف إقطاعيات المملكة الصليبية [٥] .

وكانت اختصاصاتها النظر في جميع القضايا التي تتعلق بالسكان المحليين [٦] كما تنظر في القضايا الصغرى التي لا تشمل من الناحية الجنائية جرائم القتل [٧] فضلاً عن تطبيق

---

[١] ماير ، تاريخ الحروب ، ص ٢٥٥ ؛ اليوسف ، علاقات ، ص ٨٥.

[٢] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٦٧٦ .

[٣] وأطلق عليها أيضا محكمة الريس *Rais Court*. ينظر : كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٩٨ .

[٤] باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٥٩ ، ٦٤ .

[٥] البيشاوي ، " الممتلكات الكنسية " ، ص ١٠٠ .

[٦] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٩٨ .

[٧] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٨٤ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٤ .

القوانين السابقة لمجيء الصليبيين ، وقد تم ذلك في السنوات الأولى للحكم الصليبي في بلاد الشام [١] على أن المحاكم المحلية تضاءل دورها بمرور الزمن نتيجة لاندماجها في محاكم المدن الفرعية [٢] .

ثالثاً : المحاكم البرجوازية Burgesses Courts .

كانت تلك المحاكم خاصة بنزلاء الصليبيين من غير النبلاء أي عامة الصليبيين من البرجوازيين [٣] وتنعقد المحاكم البرجوازية بانتظام ثلاثة أيام في الأسبوع ، هي الاثنين والأربعاء والجمعة ، باستثناء أيام المواسم والأعياد والمناسبات الدينية والمدنية [٤] .

إن اختصاصاتها الفصل في جميع القضايا التي تتعلق بأولئك الذين لا ينتمون لفئة النبلاء [٥] ولاسيما فيما يجري بينهم من معاملات مالية ومدنية فضلاً عما صار لها من نفوذ في القضايا الجنائية [٦] كما تنظر في الدعاوى المقامة من غير النبلاء ، وفي التجاوزات على الأراضي الى جانب معالجتها لشؤون العبيد ، الذين قدموا من الغرب الأوربي مع سادتهم الى بلاد الشام [٧] وكذلك كانت تفصل في قضايا الفرسان إذ ما أرادوا المثول أمامها [٨] وتنظر بالقضايا المتعلقة بشؤون النسب لمن هم من غير الصليبيين ، ولم يقتصر دورها عند هذا الحد بل كانت بمثابة محكمة النقض للمحاكم التجارية (المدن والموانئ) [١] .

---

[١] البيشاوي ، " الممتلكات الكنسية " ، ص ١٠٠ .

[٢] باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٤ .

[٣] البرجوازي : صفة لاحد أفراد الطبقة المتوسطة الذي لا يعمل بيديه خلافاً للعامل والفلاح ، ينظر : مجدي وهبة واخر ، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، ط٢ (مكتبة لبنان ، بيروت : ١٩٨٤م) ، ص ٧٧ . أما الطبقة البرجوازية فهي طبقة نشأت بين الأشراف والزراع ، وهي متوسطة بين طبقتي النبلاء والشعب ، يتميز أفرادها عن غيرهم بثقافتهم ودخلهم ، وممارستهم لإحدى المهن الحرة ، ينظر : جميل صليبا ، المعجم الفلسفي (دار الكتاب اللبناني ، بيروت : ١٩٧١م) ، ج١، ص٢٠٥ .

[٤] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٨٤ ؛ ماير، تاريخ الحروب ، ص ٢٥٥ ؛ اليوسف ، علاقات ، ص ٨٨ .

[٥] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٩٧ .

[٦] باركر ، الحروب الصليبية ، ص٦٠ ، عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٨٢ .

[٧] اليوسف ، علاقات ، ص٨٨ .

[٨] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ١٠٢ .

وقد انتشرت المحاكم البرجوازية في كل مدينة من المدن الصليبية الكبرى في بلاد الشام ، وتولى رئاستها فيكونت المدينة ، ويساعده في أداء مهامه اثنا عشر محلفاً يختارهم الأمير الذي تتبعه المدينة ، وكانوا يؤدون أعمال القضاة إلى جانب انهم كانوا يشهدوا على كل ما يجري في المحكمة من عقود ووثائق [٢] وبلغ عدد المحاكم البرجوازية في مملكة بيت المقدس الصليبية في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ثلاثا وثلاثين محكمة [٣] وهناك من قال أنها سبعٌ وثلاثون محكمة برجوازية [٤] .

وقد اعتمدت المحكمة البرجوازية على أسلوبين في إجراء المحاكمات ، أحدهما كان يتم عن طريق المبارزة ، أما الاخر فكان يتم عن طريق الغوص في الماء [٥] ومما يؤكد ذلك ما ذكره أسامة بن منقذ في وصف أسلوب الاختبار في الماء : ((***عملوا لرجل متهم بالقتل حكم الإفرنج ، بان جلّبوا بتيه عظيمة ، وملاؤها ماء ، وعرضوا عليها دف خشب ، وكتفوا ذلك المتهم ، وربطوا في كتافه حبلاً ، ورموه في البتية ، فان كان بريئاً غاص في الماء ، فرفعوه بذلك الحبل كي لا يموت في الماء ، وان كان له الذنب ما يغوص في الماء ، فحرص ذلك لما رموه في الماء أن يغوص فما قدر ، فوجب عليه حكمهم***)) [٦].

وكان للمحكمة البرجوازية ما للمحكمة العليا من قوانين وان كانت في مجموعها تستند الى العرف والتقاليد المرعية اكثر من كونها قوانين مدونة [٧] وعلى الرغم من ذلك التشابه بين المحكمتين إلا أن المحكمة البرجوازية اختلفت عن المحكمة العليا في حرصها على تدوين كل القرارات والإجراءات التي تصدرها في سجلات خاصة بها [٨] .

---

[١] ماير ، تاريخ الحروب ، ص ٢٥٥.

[٢] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٨٣ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٥٩-٦٠.

[٣] ماير ، تاريخ الحروب ، ص ٢٥٥.

[٤] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ١٠١.

[٥] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٨٤ .

[٦] الاعتبار ، ص ١٣٩-١٤٠ .

[٧] باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٠-٦١ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ١٠٢ .

[٨] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٨٤ .

رابعاً : المحاكم التجارية

شهدت مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك امليك الأول ظهور نوعين من المحاكم ذات الطابع التجاري وهما : محاكم المدن ***Fonde Courts*** ومحاكم الموانئ ***Chaine Courts*** [١] .

١. محاكم المدن *Fonde Courts* [٢]

انتشرت تلك المحاكم في المدن الصليبية الرئيسة التي بلغ تعدادها ثلاثاً وثلاثين مدينة ، وتولى رئاستها موظف صليبي يدعى بالي ***Bailli*** [٣] كان يختاره فيكونت المدينة من بين طبقة الفرسان أو من الطبقة البرجوازية ، ويساعده ستة من المحلفين ، أربعة من السكان المحليين واثنان من الصليبيين ، وكان لمحكمة المدينة سلطان قضائي على جميع الطوائف

الدينية والفئات المختلفة الموجودة في المدينة [٤] .

وكانت اختصاصاتها الفصل في القضايا التي تمس النظام العام ، ومعالجة المشكلات الناشبة بين الرعايا [٥] والنظر في القضايا التجارية المتعلقة بالأوربيين [٦] وتفصل في

---

[١] بلدوين ، " الدويلات اللاتينية " ، ص ٢٠٥-٢٠٦ .

[٢] وتلك المحاكم القضائية التجارية أطلق عليها أيضا محاكم التفويض . ينظر : كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٩٨ .

[٣] بالي : موظف يترأس محكمة المدينة ، وقد ورد اسمه بصور مختلفة منها بيألف *Bailliff* بمعنى مأمور التنفيذ أو الشريف ، وورد باسم *Baillie* أي : (أمين الصندوق أو الخازن *Treasurer*) ينظر : البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ١٠١ ، هامش رقم (١) .

[٤] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٨٤ ؛ ماير، تاريخ الحروب ، ص ٢٥٥ ؛ توفيق ، مملكة بيت المقدس ، ص١١٧ .

[٥] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٣ .

[٦] ماير، تاريخ الحروب ، ص ٢٥٥ ؛ سميل ، الحروب ، ص ٥١ ؛ النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٥٨ .

القضايا البسيطة الخاصة بسكان المدينة على اختلاف انتماءاتهم الطائفية [١] كما كانت تقوم بتسجيل كل الوثائق التجارية المتعلقة بالسكان المحليين مثل البيع والتأجير والرهونات العقارية واراضي المدينة والحدائق والآبار [٢] كذلك تتولى محكمة المدينة إدارة أملاك الملك واستيفاء خراجها [٣] وتسجيل هبات الملك بعد إثبات صحتها [٤] وقد اصبح للمحكمة الحق في إصدار القرارات الخاصة بالجوانب الداخلية في المدينة لحفظ الأمن والنظام ومراقبة الأسعار في الأسواق هذا فضلاً عن مسؤولياتها عن نظافة الشوارع ، وهذا يعني أن محكمة المدينة كانت تقوم بتعيين العمال والمختصين بتلك الأعمال [٥] وفوق ذلك كله تنظر المحكمة في جميع الدعاوي التي يرفعها إليها سكان المدينة للفصل في مشاكلهم المختلفة من قضايا عقارية وضريبية وجمركية وجرائم الجنايات الكبرى كالسرقة والقتل [٦] .

ومن الجدير بالذكر أن الصليبيين قد راعوا أديان الأهالي فيما يتعلق بحلف اليمين في محاكم المدن ، إذ كانت كل فئة تحلف على كتابها المقدس ، فكان المسلمون يحلفون على القرآن الكريم ، بينما يحلف اليهود على التوراة ، أما المسيحيون الشرقيون والغربيون فيحلفون على الإنجيل [٧] وفضلاً عن ذلك كان يسمح للمسلم أن يبرئ نفسه من الدين ويحلف اليمين ، إذ ما فشل الطرف الآخر في إحضار الأدلة حتى ولو كان هذا الطرف من الصليبيين ، أما القضايا التي يكون النزاع فيها بين أجناس مختلفة أو من أديان مختلفة ، فلا يدان المرء إلا إذا شهد شهود إثبات من نفس جنسه ، وهكذا فأن الصليبي إذا قدم شكوى ضد أحد السكان فلابد له من إحضار الشهود [٨] .

---

[١] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٨٤ .

[٢] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٠٢ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ١٠١ .

[٣] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٣ .

[٤] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٨٤ .

[٥] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٠٢-١٠٣ ؛ البيشاوي ، " الممتلكات الكنسية " ، ص١٠١ .

[٦] براور ، نفسه ، ص ١٠٢ .

[٧] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٨٤-٤٨٥ .

[٨] توفيق ، مملكة بيت المقدس ، ص ١١٧ .

٢ .محاكم الموانئ Chaine Courts [١] .

وقد قامت تلك المحاكم في الموانئ البحرية تولى رئاستها القناصل أو وكلاؤهم [٢] وعادة يختار محلفوها من بين التجار والبحارة ، وكانت اختصاصاتها النظر في جميع القضايا المتعلقة بشحن السفن ، وتعد تلك المحاكم سجلاً لما يتحصل من الديوان (الكمرك) وما يتم تقاضيه من رسوم عن رسو السفن في الموانئ [٣] وتحكم في قضايا التجارة وما يتعلق بالملاحة وتفرعاتها [٤] كما تولت معالجة القضايا الخطيرة التي حدثت في الموانئ مثل جرائم القتل والسرقة والتزوير [٥] .

وكانت هذه المحاكم خاصة بتجار المدن الإيطالية (***البندقية . جنوة . بيزا***) وتجري فيها المرافعات حسب قوانين حكوماتهم [٦] وقد تمتعت محاكم الموانئ بامتيازات قضائية ، إذ أنها جعلت من الأحياء الخاصة بالجاليات الإيطالية أشبه بدولة داخل دولة ***Imperia in Imperia*** ، أما الامتيازات المالية فإنها تمتعت بالإعفاء من الرسوم والضرائب [٧] ولما كانت محاكم الموانئ تتناول مسائل القانون البحري والملاحة ظلت المبارزة القضائية كوسيلة للاثبات مستبعدة في هذه المحاكم الخاصة [٨] .

---

(١) وأطلق عليها أيضا محكمة السلسلة *Choeine Court* نسبة إلى السلسلة التي تقفل بها الموانئ . ينظر : باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٤ ، هامش رقم (١) . ؛ ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٣ ؛ النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٥٨ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٥٠ . ويقول براور إن تلك السلسلة كانت تستخدم في المدن الصليبية الساحلية كي لا يستطيع أي إنسان أن يمر بقارب أو بأية وسيلة أخرى لسرقة السفن ، ولمنع سفن العدو من دخول الميناء . ينظر : عالم الصليبيين ، ص ١٠٣ .

(٢) باركر ، نفسه ، ص ٦٤ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٨٢ .

(٣) رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٨٥ .

(٤) النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٥٩ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٥٠ .

(٥) باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٤ .

(٦) اليوسف علاقات ، ص ٨٨ .

(٧) باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٤ .

(٨) ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٥٥ .

وتجدر الإشارة إلى أن محاكم الموانئ بعد انهيار مملكة بيت المقدس الصليبية ظلت قائمة في عهد الأمراء المسلمين ، ويعود ذلك بفضل ما جرى من خضوعها لقوانين بلادهم الأصلية [١] .

خامساً : محاكم الأسواق MarKet Courts .

وهي محاكم مستقلة مختلطة يتولى إدارة شؤونها قضاة من الصليبيين ومن السكان المحليين [٢] تم أنشاؤها في عهد الملك املريك الأول [٣] .

وقد انتشرت في المدن التجارية التي كانت توجد فيها أسواق عامة [٤] ويقال أن محكمة السوق هي نفس محكمة المدينة ، ولكن من المرجح أنها كانت إحدى محاكم المدينة الفرعية [٥] .

وتنعقد محكمة السوق عادة برئاسة فيكونت المدينة الذي كانت مهمته المحافظة على الأوضاع العامة في الأسواق ، وكان يساعده في إتمام تلك المهمة المحتسب أو رئيس الشرطة في المدينة [٦] وكانت اختصاصاتها الفصل في قضايا النزاعات الناشبة بين التجار في السوق [٧] والنظر في جميع الدعاوى التي يكون أطرافها أفرادا من أجناس مختلفة [٨] .

كما كانت تقوم بتسجيل الصفقات التجارية ، هذا فضلاً عن استحصال الضرائب على السلع والبضائع الداخلة إلى سوق المدينة [٩] .

سادساً : المحاكم الاكليركية (الكنسية) EccIesiastique Courts .

---

[١] باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٤-٦٥ .
[٢] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٠٣ .
[٣] زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٥٠ .
[٤] ريشار ، " تكوين مملكة "، ص ١٥٣ .
[٥] البيشاوي ، " الممتلكات الكنسية " ، ص ١٠٢ .
[٦] نفسه ، ص ١٠٢ .
[٧] ريشار ، " تكوين مملكة "، ص ١٥٣ ؛ النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٥٨ .
[٨] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٠٣ .
[٩] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٣ .

وكان لرجال الدين اللاتين محاكمهم الكنسية الخاصة بهم مثلما كان موجوداً في الغرب الأوربي [١] وكانت تلك المحاكم تنقسم إلى قسمين ، الأول : المحاكم الكنسية العليا ، وتنعقد برئاسة بطريرك القدس أو أحد رؤساء الأساقفة الكبار في بطريركية بيت المقدس الصليبية ،وكانت مهامها التصديق على بعض المنح والعقود والامتيازات التي يتم التوقيع عليها من قبل قاضي القضاة ، وهذا المنصب كان يتولاه بطريرك القدس فضلاً عن دورها في الحكم على رجال الدين الذين ارتكبوا جرائم القتل ، على أن تلك المحاكم كانت لا تستطيع فرض الأحكام على المجرمين الذين تسببوا في قتل الناس أو الحاق اضرار في بعض أعضاء جسم الإنسان ولذلك كان قضاة المحاكم الكنسية يتعاونون مع قضاة المحاكم المدنية ،وفي حالات النزاع بين رجال الدين وعامة الناس كان الفيكونت وأعضاء المحكمة البرجوازية يذهبون إلى المحاكم الكنسية ويحضرون جلسات الحكم [٢] أما القسم الثاني من المحاكم الكنسية فكان من اختصاصها النظر في قضايا الحنث بالإيمان وشهادة الزور ، كما اتسعت دائرة نفوذها وأصبحت تنظر في القضايا المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية وما ينشأ من نزاع وتخاصم بين الزوج وزوجته ، وما ينطوي عليه من الطلاق والزنا والوصايا [٣] وفوق ذلك كله كانت تقضي في أمور الهرطقة والسحر والشعوذة والآثام الجنسية التي يقترفها رجال الدين [٤] .

ومن خلال النظر في اختصاصات المحاكم العديدة التي أقامها الصليبيون في بلاد الشام كالمحكمة العليا والمحاكم المحلية والبرجوازية والتجارية (***المدن والموانئ***) ومحاكم الأسواق فضلاً عن المحاكم الكنسية يتضح أن الصليبيين هدفوا من ورائها إقامة نظام قضائي اقرب إلى النمط الأوربي ليتناسب وحياة الجماعات السكانية المختلفة التي استوطنت المملكة الصليبية ولأجل الحفاظ على المملكة وحكومتها .

---

[١] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٩٨ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٤ ، ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٥٠ .

[٢] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٨٦ .

[٣] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٩٩ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٤ .

[٤] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٥٠ .

هـ. النظام الديني

كان من البديهي أن يكون للكنيسة أهمية كبرى في مجتمع ادعى انه قام على أساس الدين وزعم انه يسعى لتحقيق أهداف دينية ، ومهما تكن الدوافع التي جعلت البابوية تدعوا إلى الحروب الصليبية فالمهم هو قيام البابوية فعلاً بتلك الدعوة جعل لها هيمنة عليا على الحركة الصليبية منذ بدايتها حتى نهايتها وعلى الصليبيين جميعاً بالشام [١] وليس ذلك فحسب بل ان هيمنة البابوية امتدت لتشمل النظام السياسي الأوربي برمته ولا سيما ان البابوية كانت في اوج قوتها واخضعت لسلطانها أباطرة وملوكاً أقوياء أمثال هنري الأول ملك انكلترا (٤٩٣-٥٣٠هـ/١١٠٠-١١٣٥م) [٢] .

فبعد الاحتلال الصليبي لمدينة القدس [٣] كان من المتوقع أن تقوم حكومة دينية فيها غير أن ذلك لم يتحقق لثلاثة عوامل الأول : انصياع رجال الدين لقرار الأمراء حول الرئاسة العلمانية لظروف خارج إرادتهم [٤] ولاسيما انه لم تكن هنالك قيادة بابوية منذ وفاة المندوب البابوي ادهمير أسقف بوي ***Adhemar bishoppuy*** في انطاكية سنة ٤٩١هـ/١٠٩٨م [٥] ولكن بعد مرور عدة أيام على انتخاب الأمير جود فري اختير أرنولف مالكورون ***Arnulf Marlkoron*** قسيس الدوق روبرت النورماندي ***Robert Normandy*** بطريركا للقدس في الأول من أب سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م [٦] ويعود سبب هذا الاختيار ان بطريرك القدس قبل الاحتلال الصليبي ويدعى سمعان الأرثوذكسي كان قد ذهب إلى قبرص في مهمة دينية وصادف أن توفي هنالك فظل كرسي البطريركية شاغراً لمدة خمسة أشهر [٧] وقد أشار الشارتري أن الصليبيين عقب احتلالهم للقدس لم يعينوا بطريركا لها على اعتبار أن ذلك لم يكن من اختصاصهم وانما من اختصاص البابا اوربان الثاني في روما [٨] .

---

[١] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١، ص٤٨٣ .

[٢] عاشور ، أوربا ، ج١ ، ص ٥٠٦-٥٠٧ .

[٣] للاطلاع على مدينة القدس في عهد الاحتلال الصليبي وما حوته من مباني دينية . ينظر : شكل رقم (١).

[٤] اليوسف ، علاقات ، ص٧٤ ؛ ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص١٤٩ .

[٥] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٦٤، ٧٧ .

[٦] أعمال الفرنجة ، ص١٢٠ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٤٩ .

[٧] الصوري ، نفسه ، ج١، ص ٤٠٢،٤٦٥ .

[٨] تأريخ الحملة ، ص٧٧.

أما العامل الثاني فكان سوء سيرة دايمبرت البيزي الذي أثار مع بوهيمند أمير انطاكية قضية بطريركية القدس أثر اختيار ارنولف ، إذ عدوا اختياره لهذا المنصب كان بسبب تأثير الأمراء المقربين من جوفري من دون رغبة وموافقة رجال الدين الذين اشترطوا بان البطريرك يجب أن يكون له تدرج وظيفي رسمي في دويلة كرست جهدها من أجل القبر المقدس ، وكذلك أن يكون مدافعاً و مساعداً له ، وقد رغب ارنولف بان يكون المدافع مع جودفري ، بينما أصر دايمبرت وبوهيمند على تنحية ارنولف على الرغم من عدم تأكيد البابا اوربان لذلك مع إمكانية اختيار دايمبرت مكانه [1] علماً أن ارنولف استمر في منصبة لمدة خمسة اشهر فقط ثم عزل ، واختير دايمبرت بدلا عنه في بداية سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م [2] على الرغم من أن دايمبرت لم يبعث كممثل للبابا أو ليكون بطريركا في المستقبل إلا أن أمرين كانا يدعمان موقفه وهما أولاً : الأسطول البيزي ، ثانياً : وقوات بوهيمند المسلحة[3] ونتيجة لذلك حل دايمبرت محل ارنولف في رئاسة كنيسة القدس ، فكان أول بطريرك لاتيني في الأراضي المقدسة [4] الذي تلقى منه جودفري المبايعة في حكم مملكة بيت المقدس الصليبية [5] .

أما العامل الثالث : فإن البابوية رأت أن من مصلحتها عدم قيام حكومة دينية في القدس لان ظهور أحد رجال الدين الأقوياء في مدينة المسيح (عليه السلام) معناه قيام بابوية جديدة في الشرق ، وفي تلك الحالة يستطيع البابا الجديد في القدس أن يطالب بالسيادة على بابا روما ولعل تلك المخاوف هي التي جعلت بابوات روما يؤيدون في بادئ الأمر دايمبرت في خلافه مع ملك القدس ولا يشجعون بأي حال من الأحوال قيام حكومة دينية في الأراضي المقدسة [6] كذلك فان فكرة إقامة حكومة دينية ، كانت فكرة خاطئة منذ البداية ، ولا يمكن تنفيذها ، وإذا أقيمت فلا يمكن لها البقاء لان قيام دولة لاتينية في بقعة بمثابة قلب العالم الإسلامي تحتاج إلى قيادة علمانية للدفاع عنها ضد المسلمين المحيطين بها [7] .

---

[1] فنك ، " تأسيس الإمارات " ، ص ٦٩.

[2] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٤٤٩، ٤٦٥ .

[3] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٨٠ –٨١ ؛ فنك ، تأسيس الإمارات ، ص ٦٩–٧٠ .

[4] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٠٢ .

[5] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٦٦ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٦ .

[6] فنك ، " تأسيس الإمارات " ، ص ١١٢ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٨٤ .

[7] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ١١٣ .

وفي إطار الحياة الدينية استولى الصليبيون على عدد كبير من المساجد وحولوها إلى كنائس ، فقاموا بإجراء تغييرات على المعالم الإسلامية كالمسجد الأقصى وقبة الصخرة لتخدم أغراضهم الدينية [١] فحولوا المسجد الأقصى إلى معبد عرف بمعبد سليمان ***Palatium Salomones Tempelum*** [٢] وقسموه إلى ثلاثة أقسام الأول كنيسة والثاني مساكن لفرسانهم [٣] والقسم الثالث جعله الصليبيون مستودعاً لأسلحتهم والأطعمة والألبسة [٤] أما السراديب التي كانت اسفل المسجد الأقصى فقد جعلوها إسطبلا لحيواناتهم ويتسع الإسطبل الواحد لكثير من الخيول [٥] ومن البديهي أن الصليبيين فعلوا ذلك بهدف إهانة المسلمين وطعنهم في مقدساتهم الدينية .

لم يكتف الصليبيون بذلك بل حولوا مسجد قبة الصخرة إلى كنيسة لاتينية وسموها معبد الرب ***Domini Templum*** أو معبد السيد المسيح (عليه السلام) [٦] ووضعوا فوق قمتها صليباً

---

[١] مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين (دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت : ١٩٧٥م) ، ج٩ ، ق٢ ، ص ١٩٩ ؛ ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص١٦٢ .

[٢] عبد المنعم ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (مكتبة الجامعة العربية ، بيروت : ١٩٦٦م) ، ص ١٥٠ ؛ عبد العزيز حميد صالح ، " الحرم الشريف في ظل الغزو الصليبي " (مجلة المورد ، بغداد : ١٩٨٧م) ، م١٦ ،ع٤ ، ص١٦١ .

[٣] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٥٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ٥٥١ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، م٨ ، ق ١ ، ص٣٩٧.

[٤] الأصفهاني ، نفسه ، ص٥١ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص ٣١٤ ؛ احمد بن إبراهيم الحنبلي ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تحقيق : ناظم رشيد (دار الحرية للطباعة ، بغداد : ١٩٧٨م) ص ١٢٩ ؛ عبد الفتاح أبو علية ، بيت المقدس في ضوء الحق والتاريخ (دار الحرية للطباعة ، بغداد : ١٩٨١م) ، ص ٢١ ؛ فارس محمود ذنون الحموشي ، القدس في القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد ، دراسة سياسية وحضارية (أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة الموصل : ١٩٩٩م) ، ص ٦٥.

[٥] ثيودريش ، وصف الأماكن المقدسة في فلسطين ، ترجمة وتحقيق ودراسة : سعيد عبد الله البيشاوي ورياض شاهين (دار الشروق ، عمان : ٢٠٠٣م) ، ص ٨٧ ؛ عارف باشا العارف ، تأريخ القدس ، ط٢ (مطبعة دار المعارف ، القاهرة : ١٩١٩م) ، ص ٧٤ ؛ ثريا محمد عطية الغانمي ، بيت المقدس في العصر الأيوبي (أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية التربية للبنات بجدة ، السعودية : ١٩٩١م) ، ص ٥٠ .

[٦] ثيودريش ، وصف الأماكن ، ص ٧٩ ؛ العارف ، تأريخ القدس ، ص ٧٤ ؛ يوسف ، العرب والروم ، ص ٢٦٤؛ ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ٦٢ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٦٠ .

كبيراً مذهباً ، وزينت بالصور والتماثيل ، فضلاً عن النقوش اللاتينية على جدرانها [١] واضافوا إلى مبنى الكنيسة مذبحاً وأماكن للتعميد وأماكن أخرى خصصت لاقامة الكهنة الذين يتولون إقامة الطقوس والشعائر الدينية في الأعياد والمناسبات الخاصة بهم [٢] ولعل ذلك العمل عكس هدف الحركة الصليبية الرامية إلى جعل الأراضي المقدسة في فلسطين أرضا لاتينية تدين بمذهب روما الكاثوليكي وليس هذا فحسب وانما لثقتهم بان مذهبهم الكاثوليكي هو المذهب الصحيح .

كما تعدى الصليبيون على الصخرة المقدسة فقطعوا منها أجزاء كبيرة وليس ذلك فحسب بل بيعت في القسطنطينية وصقلية بوزنها ذهباً [٣] كما كان كل ملك صليبي من ملوكهم يحرص عند زيارته لبيت المقدس أن يأخذ منها قطعة بقصد التبرك [٤] حتى ((***أفضى الأمر بها إلى أن يكون حجرها منتهياً فغطاها بعض ملوكهم بالرخام اشفاقاً عليها لئلا تمتد يد ضيم أليها***)) [٥] وقد أكد بعض المؤرخين الصليبيين اهتمام ملوكهم الأولين وحرصهم على العناية بهذا المكان المقدس منذ الفترة المبكرة لاستيطانهم من خلال إنفاقهم الأموال والمنح عليه بسخاء [٦] .

ومن التغيرات التي لحقت ببعض الأبنية الإسلامية أن الصليبيين قاموا بتحويل المدرسة الشافعية في القدس إلى كنيسة القديسة حنة (***سانت آن***) ***The Chuvch St . John*** وهو

---

[١] ابن الأثير ، الكامل ، ج١١، ص ٥٥١ ؛ أبو شامة ، الروضتين ،ج٢ ، ص ١١٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ص ٢٢٩ .

[٢] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٧٢ .

[٣] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٥١– ٥٢ ؛ أبو شامة ، الروضتين ،ج ٢، ص ١١٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٢٩ ؛ احمد بن محمد بن كثير ، البداية والنهاية (دار ابن كثير ، بيروت : ١٩٦٧م) ، ج١٢ ، ٣٢٤ .

[٤] ابن الأثير ، الكامل ،ج١١ ، ص ٥٥٢ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص ٣١٥ .

[٥] البنداري ، نفسه ، ص ٣١٥ .

[٦] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٧٢ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ،ج١ ، ص ٤٥٦ ، ٥٣٧– ٥٣٨ .

الاسم الذي كانت تحمله قبل الغزو الصليبي [١] وتقع تلك الكنيسة شرقي مدينة القدس بالقرب من الباب المسمى بباب الرحمة أو البوابة الذهبية [٢] .

اهتم الصليبيون ببعض الكنائس الشرقية الرئيسة التي كانت موجودة في مدينة القدس قبل قدومهم ، فعلى سبيل المثال كنيسة القيامة (***القبر المقدس***)التي تعد من اعظم الكنائس واهمها في الشرق آنذاك [٣] .

فقد تولى الأمير جودفري البويوني منذ الفترة المبكرة لاحتلالهم للأراضي المقدسة تعيين رجال الدين من الكهنة في تلك الكنيسة واغدق عليهم الأموال والمنح فضلاً عن تخصيص منازل فخمة لهم تقع في المنطقة المجاورة لكنيسة القيامة [٤] ومن جانب آخر قام الصليبيون بتوسيعها فضلاً عن بناء صحن وممرات للقبة التي كانت قائمة في ذلك الوقت [٥] وقد أشار الرحالة دانيال الراهب خلال رحلته إلى الأراضي المقدسة في فلسطين (٥٠٠ – ٥٠١هـ / ١١٠٦ – ١١٠٧م) إلى الأعمال العمرانية التي شهدتها كنيسة القيامة وتوسيع المباني والأماكن المتصلة بها وليس ذلك فحسب بل انه رأى تلك الأماكن قبل أن يقوم

---

[١] ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٣٠ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، ج٣ ، ص ٨٣ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج١٢ ، ص ٣٢٦ .

[٢] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥١٨ ؛ ثيودريش ، وصف الأماكن ، ص ١٠١ ؛ والبوابة الذهبية : تعرف باسم بوابة الرحمة والتوبة ، وهي توجد في ساحة المعبد في وسط السور الشرقي لبيت المقدس ، ولتلك البوابة طريق مزدوج احداهما الجنوبي ويدعى بوابة الرحمة والشمالي يعرف ببوابة التوبة ويطلق المسلمون على هذه البوابة اسم البوابة الأبدية وهم يعتقدون أن هذه البوابة ستفتح يوم القيامة وان المسلمين سوف يمرون على الصراط إلى الجنة عبر وادي قدرون شرقي تلك البوابة . ينظر : زايد ، القدس الخالدة ، ص ٢٤٣– ٢٤٤ .

[٣] إبراهيم شوكة ، تحقيق سورية ولبنان وفلسطين والأردن من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الادريسي (مجلة المجمع العلمي العراقي ، بغداد : ١٩٧٩م) ، م٣٠ ، ص ٧ ؛ ناصر خسرو ، سفر نامة ، ترجمة : يحيى الخشاب (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة : ١٩٤٥م) ، ص ٧٦ .

[٤] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٥٦ .

[٥] جي لسترانج ، فلسطين في العهد الإسلامي ، ترجمة : محمود عمايرة (مطبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، عمان : ١٩٧٠م) ، ص ٣٥ .

الصليبيون بالتغييرات التي أضفت على الكنيسة شكلها الحالي [١] .

ومن ناحية أخرى اهتم الصليبيون ببناء عدد من الكنائس والأديرة في البلاد التي احتلوها لتلبي الحاجات الدينية للسكان الأوربيين الجدد ، فمن الكنائس التي شيدها الصليبيون في القدس كنيسة الألمان الواقعة إلى الشرق من المسجد الأقصى ، أما في حي الأرمن فقد وجدت كاتدرائية القديس جيمس [٢] وقد وصف الرحالة الألماني ثيودريش كنيسة القديس جيمس أثناء رحلته للأراضي المقدسة في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي قائلاً : ((***والكنيسة نفسها مستديرة ، كما أنها واسعة من أسفل ، وضيقة من أعلى ، وهي مدعمة بثمانية أعمدة ومزينة بالرسومات بأسلوب ممتاز***)) [٣] .

كذلك أقام الصليبيون كنائس أخرى متفرقة من مملكة بيت المقدس الصليبية منها كنيسة بئر يعقوب (عليه السلام) والتي تقع على بعد حوالي (٣ كم) شرقي مدينة نابلس [٤] وكنيسة في اللد [٥] حملت اسم القديس جورج ***St . Geovge*** [٦] فضلاً عن كنيسة لاتينية في سبسطية [٧] حملت اسم البشير

---

[١] رحلة الحاج الروسي في الاراضي المقدسة ١١٠٦–١١٠٧م ، ترجمة : سعيد عبدالله البيشاوي وداؤد اسماعيل أبو هدبة (دار الشروق ، عمان : ١٩٩٢م) ، ص ٥٢ .

[٢] النقر ، " التغيرات الإدارية " ، ص ٦٦٧ .

[٣] وصف الأماكن ، ص ٨٤ .

[٤] دانيال الراهب ، رحلة الحاج الروسي ، ص ١٠٧ ، هامش رقم (٥) ؛ ثيوريش ، نفسه ، ص ١٢٦ .

[٥] ابن الأثير ، الكامل ، ج١٢ ، ص ٧٢ ؛ ابن الوردي ، تأريخ ابن الوردي ، ج٢ ، ص١٣٠ . واللد : قرية قرب مدينة القدس . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص ١٥ ، وهي تقع في سهل على بعد (١٢كم) غرب القدس . ينظر : ثيودريش ، وصف الاماكن ، ص ١٢٢ .

[٦] دانيال الراهب ، رحلة الحاج الروسي ، ص ٤٩ ؛ ثيودريش ، نفسه ، ص ١٢٢ .

[٧] سبسطية : وهي بلدة من اعمال نابلس بينها وبين القدس (٤٨كم) ، ويوجد بها قبر زكريا ويحيى (عليهما السلام) وجماعة من الأنبياء والصديقين ، وهي من أعمال نابلس . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص ١٨٤.

يحيى (عليه السلام) [١] وقد زينوها بالصور والتماثيل والنقوش اللاتينية [٢] .

أما عن الأديرة فكانت كثيرة في مدن الشام قبل الاحتلال الصليبي ، وقد اهتم الصليبيون ببعض الأديرة القديمة التي كانت موجودة آنذاك ، منها دير القديس مار سابا **Mar Sabas** الذي يعد من أشهر الأديرة التابعة للنصارى الأرثوذكس ويقع على مسافة حوالي (١٥كم) جنوب شرقي مدينة القدس [٣] وقد أشار أحد الرحالة الغربيين الذي زار الأراضي المقدسة في بداية الغزو الصليبي بين سنتي (٤٩٦- ٤٩٧هـ / ١١٠٢-١١٠٣م) بان ذلك الدير ((***كان بالغ الجمال والاتساع وبه اكثر من ثلاثمائة من الرهبان واليونانيين الذين يعيشون ضمن جماعة ديرانية تخدم الرب***)) [٤].

وقد حظي دير القديس سابا باهتمام بعض الملوك الصليبيين ورعايتهم ، ويشهد على ذلك دانيال الراهب خلال رحلته إلى الأراضي المقدسة ، فقد وجد رجال الدين في ذلك الدير معاملة حسنة من الملك بلدوين الأول [٥] وليس ذلك فحسب بل لقي ذلك الدير الذي يعد من أهم الأديرة التي بقيت في فلسطين خلال عصر الحروب الصليبية اهتمام الملكة ميليسند ودعمها أيضاً ، ونال رجال الدين فيه معاملة طيبة ، فقد اغدقت الملكة ميليسند الكثير من المنح المالية والأراضي [٦] على رجال الدين الأرثوذكس المقيمين فيه لشراء ما يحتاجه الدير من متطلبات ،

---

[١] شوكة ، تحقيق سورية ، ص ٨ ؛ دانيال الراهب ، رحلة الحاج الروسي ، ص١٠٩ ؛ ثيودريش ، وصف الاماكن ، ص ١٢٨ ؛ محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه ، مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق : حسن حبشي (دار النهضة للطباعة ، القاهرة : ١٩٦٨م) ، ص ١٩٠ ؛ مجير الدين العليمي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل (المطبعة الحيدرية ، النجف : ١٩٦٨م) ، ج١ ٣٢٤.

[٢] ابن العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٢٦.

[٣] الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج٢ ، ق٢ ، ص ٥١١.

[4] *Saewulf , The Pilgrimage ,Of Saewulf , Trans , By Bishop of Lifton , (No . P .Newyork : 1971) . P . 24.*

نقلاً عن : النقر ، " التغيرات الإدارية "، ص ٦٦٧

[٥] رحلة الحاج الروسي ، ص ٤١ ، ٧٨ .

[٦] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٥١٥.

كذلك قام الملك املريك الأول بمنحهم قرية ثورا بعد قيامهم ببيع ثلاث جاستينات [١] لرجال الدين في كنيسة القيامة [٢] .

والحقيقة أن أهمية دير القديس سابا جاءت من مكانه مؤسسة القديس سابا الذي يعد من ابرز رهبان الحركة الديرانية الشرقية في العصر البيزنطي وظل النصارى الشرقيون يقصدون الدير من أماكن متعددة ، كما تكدست فيه ثروات هائلة نتيجة الهبات التي كانت تمنح له بين الحين والآخر [٣] .

وقد قام الصليبيون بترميم بعض الأديرة النصرانية وصيانتها منها الدير البندكتي المعروف باسم دير القديسة مريم للاتين ***St . Maria Latina*** [٤] والذي أقيم تكريماً للقديسة مريم العذراء ، وكان يقع وراء كنيسة القيامة جنوباً [٥] .

وفيما يتعلق بالأديرة الجديدة التي بناها الصليبيون في المملكة الصليبية دير جبل صهيون ***Mount Sion*** في جنوب مدينة القدس [٦] على أن ذلك الدير لم تقتصر أملاكه على الممتلكات الواسعة في بلاد الشام في مدن عكا ويافا وصور وقيسارية وعسقلان بل كان له أملاك وثروات هائلة في صقلية وإيطاليا وأسبانيا وفرنسا [٧] كما انشأ الصليبيون دير

---

[١] الجاستينا *Gastina*: لفظة لاتينية تدل على الأرض البور أو غير الماهولة بالسكان ، وتأتى أحيانا كصفة لبعض المواقع ، وتوجد لكلمة جاستينا بعض المفردات اللاتينية مثل *Vastus ,Dasertus , Vistitas , Vastina*. ينظر : البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص١٥٧.

[٢] نفسه ، ص ٣٧١ .

[٣] النقر ، " التغيرات الإدارية " ، ص ٦٦٧.

[٤] دير القديسة مريم للاتين : هو أحد الأديرة البندكتية القائمة في مدينة القدس قبل الغزو الصليبي لبلاد الشام ، وقد أسسه أهالي أمالفي في سنة ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م .وكان مركزاً للحجاج اللاتين الذين كانوا يزورون الأراضي المقدسة ، هذا فضلاً عن كونه ملجأً للحجاج الذين كانوا يفقدون نقودهم أثناء السفر ، ينظر : الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٨٣١ – ٨٣٢ .

[٥] دانيال الراهب ، رحلة الحاج الروسي ، ص ١٥٤– ١٥٥ ؛ ثيودريش ، وصف الأماكن ، ص ٧٨– ٧٩.

[٦] شوكة ، تحقيق سورية ، ص ٧ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٤٣٦ ؛ ابن العبري ، تأريخ الزمان ، ص ٢٢٠ .

[٧] باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٦ .

آخر في المنطقة الواقعة بين القدس وعين كارم [١] عرف بدير الصليب [٢] ومن المرجح أن تشييد ديري جبل صهيون والصليب كان بداية الغزو الصليبي للأراضي المقدسة كذلك أقاموا ديراً لاتينياً في سبسطية أثناء فترة حكم الملك بلدوين الأول [٣] ومن بين الأديرة الهامة دير بيثاني ***Bethany*** [٤]الذي تم إنشاوهُ في عهد الملكة ميليسند جنوب مدينة القدس ، وقد أغدقت عليه الأموال والمنح [٥] ولم يكتف الصليبيون بإقامة الكنائس والأديرة بل قاموا بإنشاء أسقفيات لاتينية جديدة مثل أسقفية بيت لحم التي تم إنشاؤها بفضل جهود الملك بلدوين الأول وليس ذلك فحسب بل أمر بأن تكون الكنيسة في مدينة عسقلان عند احتلالها خاضعة للمقر الأسقفي في بيت لحم .

اما في عهد الملك بلدوين الثاني تم انشاء أسقفية كاثوليكية في سبسطية سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م ، وقد أصبحت تابعة للمركز الأسقفي في قيسارية وكان بلدوين أول أسقف لاتيني لسبسطية ، كما أقيمت أسقفية الخليل في سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٨م أيام الملك إملريك الأول كذلك أجرى رجال الدين اللاتين في المملكة الصليبية بعض التعديلات في الحدود الكنسية بين بطريركية القدس وبطريركية انطاكية عندما ضموا أسقفيات عكا وصور وبيروت وبانياس إلى بطريركية القدس ، وكان ذلك بمساعدة بعض الملوك الصليبيين وبقرار من البابا باسكال الثاني***II***

---

[١] عين كارم : قرية من قرى فلسطين المشهورة سميت بهذا الاسم نسبة إلى عين ماء قريبة منها كانت تسمى عين كارم . ينظر : حسين لوباني الداموني ، معجم اسماء المدن والقرى الفلسطينية (مركز باحث للدراسات ، رام الله : ٢٠٠٣م) ، ص ١٨٥ . وتعد عين كارم إحدى قرى فلسطين ، تقع على بعد حوالي (٧كم) جنوب غرب القدس ، وكانت تشتهر بجمال طبيعتها بسبب ما تحتويه أراضيها من الينابع والبساتين المزروعة بأشجار الزيتون والعنب وغيرها من الأشجار المثمرة . ينظر : الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج٨ ، ق٢ ، ص ١٥٧ .

[٢] الدباغ ، نفسه ، ج٨ ، ق٢ ، ص ٥٩ .

[٣] دانيال الراهب ، رحلة الحاج الروسي ، ص ١٠٩ ؛ أبو شامة ، الروضتين ،ج٢ ، ص ٨٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٣ ، ص١٥٩ .

[٤] بيثاني : وهي قرية ريفية صغيرة تقع على بعد حوالي (١٢ كم) ، جنوب شرق مدينة القدس . ينظر : دانيال الراهب ، نفسه ، ص ٦٣ .

[٥] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٩٩ ، ٥٨٣ ؛ الدباغ ، بلادنا ، ج٢، ق٢ ، ص ١٤٢-١٤٣؛ *Grousset , Histoire des Croisades , Vol , II , P . 161 .*

Paschl (٤٩٢- ٥١٢هـ / ١٠٩٩- ١١١٨م) ، وبتأكيد من البابا هنوريوس الثاني ***II Honorius*** (٥١٨- ٥٢٥هـ / ١١٢٤- ١١٣٠م) ، بعد أن كانت هذه الأسقفيات تخضع لسلطة بطريركية انطاكية قبيل الغزو الصليبي ، وهذا يعني أن الحدود الكنيسة لبطريركية القدس تم ربطها مع الحدود السياسية للمملكة الصليبية ومن الناحية الدينية تخضع لحكم بطريرك القدس (١) .

أما عن التنظيم الكنسي في بلاد الشام بصورة عامة وفي مملكة بيت المقدس الصليبية بصورة خاصة فقد كان امتداداً لما جرى منذ القرن الأول الهجري / الرابع الميلادي وهو أن يكون بتلك البلاد كرسيان بطريركان كبيران يترأسان الادارة الكنسية ، أحدهما في القدس والآخر في انطاكية وقد ظل هذا الوضع قائماً في العصر الصليبي (٢) وفيما يتصل ببطريرك القدس فقد خضعت لسلطته الكنيسة بمملكة بيت المقدس على أن بطريرك القدس ضعف مركزه أمام قوة نفوذ الملك الصليبي عقب الفشل الذي لحق بدايمبرت البيزي (٣) فقد أطلقت البابوية يد الملك بلدوين الأول في البطريركية بعد اقالة دايمبرت عن منصبه سنة٤٩٥هـ/١١٠٢م وقضى ذلك على أية فرصة لتحويل بيت المقدس إلى إمارة كنسية يحكمها بطريرك يعد السيد الأعلى ويتم الدفاع عنها بوساطة حام معين (٤) كما أدت المحاولة الفاشلة للبطريرك دايمبرت في فرض سيطرة الكنيسة على مملكة بيت المقدس إلى ارتباط الكنيسة صميماً بكنيسة روما التي بدورها مارست سيطرتها بوساطة مبعوثين وقضاء موفدين لإدارة شؤون الكنيسة للمملكة الصليبية (٥) .

وبذلك أصبحت هيئة رجال الدين في كنيسة القدس تتولى ترشيح شخصين لإشغال منصب البطريرك ثم تعرض على الملك ليختار أحدهما (٦) فعلى سبيل المثل رشحت الهيئة في سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م شخصين هما أبلين آرال ***Gibelin Arles*** وارنولف مالكورون

---

(١) البيشاوي ، " الممتلكات الكنسية " ، ص ١٤٢ ، ٢٣٣- ٢٣٤ .

(٢) الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٦٢ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٤٨ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١، ص٤٨٥ .

(٣) رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٩٨ .

(٤) فنك ، " تأسيس الإمارات " ، ص ٧٥ .

(٥) ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٤٨ .

(٦) رنسيمان ، تأريخ الحروب ،ج٢ ، ص ٤٩٨ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٨٥ .

الذي جرى ترشيحه للمرة الثانية ، فاختار الملك بلدوين الأول ارنولف بطريركاً للقدس [١] .

وفيما يتصل بالمؤسسة الكنسية القائمة في مملكة بيت المقدس الصليبية ، فقد كانت تتألف من بطريرك القدس الذي يقف على قمة الهرم الكنسي ويليه في التسلسل الهرمي رؤساء الأساقفة فالأساقفة ، ثم رؤساء الكنائس والأديرة يليهم القساوسة وصولاً إلى قاعدة الهرم التي تتألف من الرهبان والشمامسة والكتبة وغيرهم من صغار رجال الدين اللاتين العاملين في مختلف المؤسسات الكنسية في المملكة الصليبية [٢] .

وكان يتبع بطريرك القدس رؤساء الأساقفة الأربعة في مدن صور وقيسارية والناصرة والكرك ، وكذلك اسقفيات الرملة واللد وبيت لحم وسبسطية وطبرية وبيروت وعكا وبانياس والخليل [٣] وقد أكد الصوري تبعية جميع الكنائس والأديرة لسلطة كنيسة بيت المقدس وان يقدم أساقفة كنائس المدن التي تم احتلالها طاعتهم لبطريرك القدس ، وكان ذلك بموجب مرسوم أصدره الملك بلدوين الثاني في حزيران سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م [٤] أما بطريرك انطاكية فقد خضع لسلطته كنائس إمارات انطاكية والرها وطرابلس بمعنى انه كان يتبعه رؤساء أساقفة طرابلس وطرطوس وجبيل والبارة والمصيصة فضلاً عن الرها [٥] .

وهكذا كانت القيادة الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية تتخذ مقرها في كنيسة القيامة على الرغم من أن مدينة القدس وجد فيها سبع وعشرون كنيسة وقتذاك [٦] وفي المدن الكبيرة كانت تتخذ الكنيسة كمقر ديني مثل صور التابعة للمملكة الصليبية ، ولكن بعد تحرير القدس سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، على يد الناصر صلاح الدين الأيوبي ، أضحت صور مدينة ملكية ونتيجة لذلك أصبحت صور أول مركز لرئيس أساقفة المملكة يلي بطريركية القدس ، وبعد أن كان تتويج كل ملك صليبي يتم على يد بطريرك القدس أصبحت هذه المسؤولية يتولاها رئيس أساقفة صور الذي كان الشخصية الثانية في الترتيبة الكنسية ، وكان وليم الصوري من بين

---

[١] فنك ، " تأسيس الإمارات " ، ص ٧٤ .

[٢] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٢٢٤ .

[٣] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٤٨ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٥١ .

[٤] تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٦١ –٥٦٢ .

[٥] نفسه ،ج٢ ، ص ٦٧١ ؛ رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٩٨ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٩٨ .

[٦] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٤٨– ٢٥١ .

رؤساء أساقفة صور [١] كما كانت عكا من بين المدن الكبيرة الأخرى التي اتخذت الكنيسة كمقر للتنظيم الكنسي على الرغم من أن عكا كانت تظم ثماني وثلاثين كنيسة وقتذاك [٢] .

أما عن التنظيم الكنسي في الريف فكان أقل وجوداً من المدينة وتعود ندرة التنظيم الكنسي إلى عادات استيطان الصليبيين فقد تركزوا في المدن ، و إذ ما أستقر الصليبيون في الريف فكانوا يعيشون في قرى مغلقة لا يخالطون فيها نصارى الشام ولا مسلميها ، وهذا يعني عدم الحاجة إلى الكنيسة إلا في مواضع قليلة [٣] .

وقد شهد النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ظهور ما يسمى بالطوائف أو الهيئات الدينية الحربية التي كان لها شأن كبير في رسم سياسة الصليبيين في بلاد الشام نظراً لتأثير تلك الهيئات على المستوى السياسي والعسكري والاقتصادي[٤] وهذه الهيئات هي :

أولا . : هيئة الفرسان الاسبتارية *Knights Hospitallr*.

تعد هيئة الاسبتارية من اقدم الهيئات الدينية الحربية التي شهد الوجود الصليبي في بلاد الشام قيامها ، وكانت الأنموذج الأول الذي تأثرت به كافة الهيئات الدينية الحربية الأخرى لذا فقد كان أمرا ضرورياً أن نتناولها قبل غيرها من الهيئات والتنظيمات[٥] ويعود الفضل في تأسيسها إلى مجموعة من تجار امالفي ***Amalfi***[٦]وذلك عندما قامت في سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م بإنشاء مستشفى للعناية بالحجاج النصارى الغربيين القادمين إلى الأراضي المقدسة [٧] .

---

[١] القطار ، " المجتمع في الصور " ، ص ١١٤– ١١٥ .

[٢] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٥١ .

[٣] نفسه ، ص ٢٥١ .

[٤] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ٢٤٨ ؛ سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٢٦ .

[٥] محمد مؤنس عوض ، تأريخ الحروب الصليبية التنظيمات الدينية الحربية في مملكة بيت المقدس اللاتينية القرنين ٦–٧هـ/١٢–١٣م (دار الشروق ، عمان : ٢٠٠٤ م) ، ص ٣١ .

[٦] امالفي : هي احدى المدن الرئيسة في منطقة غرب البحر المتوسط ، وتقع على بعد حوالي (٣٤كم) إلى جنوب غرب مقاطعة سالرنو *Salerno* في ايطاليا . ينظر : نفسه ، ص ٦٣ ، هامش رقم (٤٢) .

[٧] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ١٠٠ ؛ براور عالم الصليبيين ، ص ١٤٢ ؛ ديورانت ، قصة الحضارة ، ج١٥ ، ص ٢٧ ؛

Stevenson , The Crusaders , p. 136 , note (4).

وعن فكرة التأسيس ذكر الصوري أن مجموعة من الامالفيين قدموا من الغرب إلى بلاد الشام بمثابة تجار لتصريف السلع والبضائع التي كانوا يتاجرون بها ، كما قام هؤلاء التجار بزيارة الأماكن المقدسة ، وفي الوقت الذي كانوا يمتلكون فيه أماكن في المدن الساحلية الشامية ، لكنهم لم يكونوا يملكون أي منزل في القدس لكي يتمكنوا من الإقامة فيها خلال فترة الزيارة ، فقد جمع هؤلاء التجار عدداً كبيراً من المواطنين الامالفيين لينفذوا هدفهم المنشود من زمن مبكر ، وهو تأسيس دار خاص لهم في القدس ، ومن أجل ذلك قاموا بزيارة الخليفة الفاطمي الظاهر بالله (٤١٢-٤٢٧هـ/١٠٢١-١٠٣٥م) في القاهرة ، وتقدموا إليه بطلب إنشاء الدار فحصلوا على موافقة الخليفة التي تتوافق مع رغباتهم ، وتقضي بتخصيص منطقة واسعة في مدينة القدس ليشيدوا عليها المباني الخاصة بهم [(١)] .

وفي سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م أسس الامالفيون ديراً ليكون مركزاً لحياتهم الدينية وارسلوا إليه من مدينة امالفي أسقفا وبعض القساوسة للإشراف عليه ، وتقع المنطقة التي أقاموا عليها الدير بين شارع السوق بالمدينة المقدسة وكنيسة القيامة بها ، كما أقيم بجوار ذلك الدير مستشفى وكنيسة باسم ***Sancta Maria Parva*** لرعاية المرضى من النساء الحاجات على أن الدير الامالفي كان يستقبل كلاً من الرجال والنساء في بادئ الأمر ، ولكن سرعان ما أقيم مبنى آخر على شكل مستشفى لرعاية المريضات من النساء باسم مستشفى القديسة مريم المجدلية بإشراف راهبات لرعاية السيدات [(٢)] .

أما عن المستشفى الامالفية فقد تقرر تدشينها باسم القديس يوحنا المتصدق [(٣)] ***Hospital Saint JeanJerusalem*** وكان المقدم الأول لتلك الدار غداة الاحتلال الصليبي لمدينة القدس رجلاً اسمه جيرارد المبارك ***Blessed Gerard*** [(٤)](٤٩٢-

---

(١) تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص٨٣١ .

(٢) نبيلة إبراهيم مقامي ، فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (مطبعة جامعة القاهرة ، القاهرة : ١٩٩٤م) ، ص ١١ .

(٣) القديس يوحنا : هو من أهالي جزيرة قبرص ، عرف بالتقوى والاحسان ، وبسبب مؤهلاته اصبح بطريرك الإسكندرية في القرن الأول الهجري /السابع الميلادي ، وقد اتخذت هيئة الاسبتارية في بداية نشأتها اسمه رمزاً لاعمال الخير التي تقوم بها الهيئة . ينظر : الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٨٣٣ .

(٤) جيرارد : هو أول رئيس لهيئة الاسبتارية ، وقد أطلقت عليه الكنيسة لقب قديس لما اشتهر به من التقوى والسعي في أعمال الخير تجاه الحجاج النصارى ، كما عرف بعدة أسماء وردت في مرسوم بابوي صدر في

٥١٤هـ/١٠٩٩-١١٢٠م) [١] الذي قام بنفيه الأمير فخر الدولة حاكم القدس مع جميع النصارى خارج المدينة ، إذ كان لدرايته بأحوال البلاد أهمية عند الصليبيين ، فحث الحكومة الصليبية الجديدة في القدس بان تخصص لتلك الدار أموالا لتغطية نفقاتها ، ونظراً لدوره المعنوي فقد انحاز إليه عدد كبير من الحجاج إلى هيئته التي لم تلبث أن تحررت عن ولائها للسلطة البندكتية وطاعتها في فلسطين ، وأصبحت طائفة مستقلة بذاتها ، واتخذت اسم الاسبتارية وتدين للبابا مباشرةً بالطاعة [٢] .

وقد اقترح جيرارد على زملائه أن تكون تلك الهيئة رهبانية منظمة يهبون انفسهم لخدمة المرضى من الحجاج النصارى ، بحيث يلقب كل منهم بلقب ***Hospitaller*** أي ممرض ، وان يلبسواجميعاً زياً موحداً عبارة عن رداء اسود طويل يتصف بالبساطة ، وأن جيرارد هذا اكتسب لقب حامي فقراء المسيح ***Guardien pauvres Christ*** وذلك لأنه قام بأعمال خيرية تجاه الفقراء [٣] .

اقتصر نشاط تلك الهيئة في بداية الأمر على الأعمال الدينية الخيرية ، تمثلت في إغاثة الفقراء من الحجاج النصارى الذين كانوا ينفقون معظم نقودهم بمجرد وصولهم إلى القدس ، كذلك إيواء هؤلاء القادمين من الغرب سواء كانوا مرضى أم معافين في المكان الذي خصص لاقامتهم فضلاً عن المأوى توجب توفير الطعام والشراب لهم [٤] وقد قامت هيئة الاسبتارية التي نشأة من الدير الامالفي على أساس ثلاثة مبادئ أساسية اقسم أعضاء الهيئة على التمسك بها مدى الحياة وهي الفقر والعفة والطاعة ***Poverty , Chastity Obedience*** [٥] .

سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م ، منها مؤسس *Founder* وعميد *Profost* ورئيس *Rector* ، توفي في ٣ أيلول سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م . ينظر : مقامي ، فرق الرهبان ، ص ١٣ . وقد وصفه الصوري بأنه : ((***كان رجلاً صاحب سيرة مستقيمة ، قدم تنفيذاً لأوامر راعي الدير والرهبان خدمة مخلصة إلى الفقراء لفترة طويلة من الزمن في ذلك الموقع***)) . ينظر : تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٨٣٤ .

[١] الصوري ، نفسه ، ج٢ ، ص ٨٣٣ .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٢٤٩ .

[٣] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ١١ .

[٤] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٨٣٢ – ٨٣٣ .

[٥] مونرود ، تأريخ الحروب ، ص ١٩٤ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ١٨٤ ؛ مقامي ، فرق الرهبان ، ص ١٤ ؛ عوض ، تأريخ الحروب ، ص ٤٠ ؛

Tanner , The Cambridge , Vol . V , p . 306.

وكانت الهيئة قد أطلقت اسم القديس يوحنا على مقرها ، ولكن سرعان ما بدلت الهيئة راعيها ، واتخذت القديس يوحنا المعمداني ***Saint Jean Baptiste*** راعياً للهيئة ، وقد اصدر البابا باسكال الثاني مرسوماً بابوياً في ١٥ شباط سنة ٥٠٧هـ / ١١١٣م اعترف فيه رسمياً بالهيئة الجديدة ، كما وضعها تحت الرعاية المباشرة للبابوية في روما ، كذلك إقراره ما للهيئة من أملاك في كل من الشرق والغرب فضلاً عن امتيازات جديدة منحت لها[١] .

وبذلك جعل المرسوم البابوي الهيئة تحت الحماية والرعاية البابوية ، الأمر الذي أدى إلى نتائج هامة أخرى ، وهي أن الهيئة اصبحت تدين بالولاء للبابوية ، ولم تكن توجه ولاءها قط لملك صليبي ، ومن جهة أخرى كانت تلك الامتيازات لها دورها في تزايد قدرها ونفوذها السياسي [٢] وهذا ما جعل أحد الباحثين المحدثين يرى في تلك الهيئة أنها تشكل على أساس امتيازها " دولة داخل دولة " ، في وسط الكيان الصليبي الطارئ في الشرق [٣] .

وبعد وفاة جيرارد في أيلول سنة ٥١٤هـ / ١١٢٠م ، تولى خليفته الفرنسي ريموند بوي ***Raymond Puy*** وهو المقدم الثاني للاسبتارية (٥١٤-٥٥٦هـ/١١٢٠-١١٦٠م)[٤] وشهدت المنظمة في عهده تحولاً خطيراً من العمل الخيري العلاجي إلى العمل العسكري وذلك عندما قرر انه لا يكفي أن يقتصر عمل المنظمة على إرشاد الحجاج النصارى وإيوائهم ، بل ينبغي أن تكون وظيفتها الأساسية إقامة طائفة من الرهبان الفرسان ، تتعهد بان يكون أسلوب حياتها قائماً على المبادئ الثلاثة الفقر والعفة والطاعة إلى جانب مبدأ رابع وهو أن ينذروا انفسهم لقتال المسلمين [٥] وهذا يعني أن الاسبتارية أضافوا إلى نذورهم الدينية نذور الفروسية ، فتوحدت بذلك الغايتان في الظاهر غاية الراهب وغاية الفارس [٦] .

ومن جانب آخر اتخذ الفرسان الاسبتارية زياً عسكرياً عبارة عن رداء احمر نقش

---

[١] مقامي ، نفسه ، ص ١٤ .

[٢] عوض ، تاريخ الحروب ، ص ٣٥ .

[٣] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٢٦ .

[٤] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ١٠٠ ؛

Steveson , The Crcrusaders , p . 136 , note . (4).

[٥] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ٢٤٩ .

[٦] قدري قلعجي ، صلاح الدين الأيوبي ، قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي ، ط٥ (دار الكتاب العربي ، بيروت : ١٩٧٩م) ، ص ١٨٤ ؛ هامش رقم (١) .

عليه صليب ابيض جعلوه على سترتهم التي يرتدونها [١] أما في أيام السلم فكانوا يرتدون رداء اسود طويل نقش عليه صليب ابيض له ثمان زوايا [٢] .

ولم يكتف الفرسان الاسبتارية بذلك بل ادمجوا مبنى المستشفى الذي كان يتبع تجار امالفي في مجموعة من مباني المستشفى التي سرعان ما امتدت لتشغل حياً كاملاً من أحياء مدينة القدس لا سيما أنها مقر المملكة الصليبية التي كانت في حالة حرب يزورها آلاف الأوربيين في كل عام فكانت العناية بالمرضى والجرحى ضرورة ملحة وتحتاج إلى دعم مادي مستمر ، وما لبثت أن وصلت الهبات والمنح من الحجاج النصارى والأسر الملكية والنبيلة من الغرب الأوربي لدعم منظمة الاسبتارية [٣] .

ثانيا: هيئة الفرسان الداوية Knights Templars [٤]

أما عن هيئة الداوية التي ظهرت في مدينة القدس فكان تأسيسها سنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م في ظروف تختلف عن تلك الظروف التي نشأت فيها هيئة الاستارية لأن هيئة الداوية نشأت بعد استقرار الصليبيين في بلاد الشام عندما ظهر لحجاجهم ورعاياهم مشكلة الطرق غير الآمنة نتيجة هجمات المسلمين عليها وسطو قطاع الطرق عليهم لغرض السلب والنهب [٥] .

---

[١] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ١٠٠ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٢٧ ؛ اليوسف ، علاقات ، ص ٩١ .

[٢] كروسيه ، نفسه ، ص ١٠٠ ؛ مقامي ، فرق الرهبان ، ص ١٤ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٥٩ .

[٣] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٤٣ .

[٤] ورد لفظها أيضا بالديوية ، ينظر : المقريزي ؛ السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق ؛ محمد مصطفى زيادة ، ط٢ (مطبعة لجنة التأليف الترجمة والنشر ، القاهرة : ١٩٥٦م) ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٨٥ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ، ٣٣ . كما عرفت في بعض المراجع الأجنبية بعدة أسماء منها جنود السيد المسيح (عليه السلام) ، *Poor Knights Christ* أو فرسان المعبد الرب *Kinghts Timple Solomon* وغيرها من الأسماء . ينظر : زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٥٨ ؛ *Tanner , The Cambidge , vol . v , P . 306 ; Stevenson , The Crusaders , P . 131* .

[٥] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ١٦ .

وقد أشار دانيال الراهب إلى الهجمات والكمائن التي قام بها المسلمون على طريق الحجاج بين مدينتي يافا والقدس ، وخاصة عند منطقة تنتشر فيها ينابيع المياه إذ كانت محطة استراحة للحجاج النصارى القادمين من أوربا إلى الأراضي المقدسة ، كما أن الطريق بين طبرية والناصرة الذي كان يمر فيه الحجاج الروس في طريقهم لزيارة الأماكن المقدسة في منطقة الجليل كان هو الآخر غير آمن أيضا ، فقد وصف هذا الطريق بأنه: ((***متعب ، ضيق ، وخطر لوجود المسلمين الخطرين الذين تنتشر قراهم فوق الجبال والسهول .. انه لمن الخطر أن تعبر خلف المناطق دون حراسة جيدة***)) [١]و فضلاً عن ذلك كان الطريق من القدس إلى ما وراء الأردن ((***طريق خطرة ومتعبة وخالية من الماء وتتواصل هجمات قطاع الطرق في هذه الجبال الوعرة والممرات المخيفة***)) [٢] . وترجع حالة انعدام الأمن الذي ساد خلال العقدين الأولين من عمر المملكة الصليبية إلى الحدود التي كانت تفتقر إلى وسائل الدفاع والتحصينات ، فقد كان الشعور بانعدام وجود العامل الأمني مسيطراً تماماً داخل حدود المملكة لان معظم سكان القرى والأرياف كانوا من المسلمين ولم تكن الدولة الصليبية قادرة على فرض سيطرتها على السكان إلا بقدر ما لديها من قوة [٣] .

وعلى الرغم من أن الملك بلدوين الأول تمكن من إخضاع بدو الصحراء في سنة ٥٠٤ هـ / ١١١٠م ، إلا أن حامية عسقلان المصرية المتقدمة التي كانت وقتذاك في أيدي الفاطميين ظلت تشكل خطورة على الوجود الصليبي في بلاد الشام مما جعل ملوك القدس يعملون جادين على تأمين الجانب الأمني وذلك بإقامة القلاع والحصون في أنحاء مختلفة من المملكة الصليبية [٤] وهذا ما سنورده في الفصل الثالث ، كما اهتم الملك بلدوين الثاني بمشكلة تامين طرق الحجاج النصارى ، وذلك من خلال تشجيع بعض الفرسان المتحمسين بتشكيل هيئة هدفها حماية وحراسة الحجاج ، وهي الهيئة التي أصبحت فيما بعد تشكل اكبر هيئة عسكرية في الشرق التي عرفت باسم هيئة فرسان الداوية [٥] .

---

[١] رحلة الحاج الروسي ، ص ٤٩ ، ١٢٢ – ١٢٣ .

[٢] نفسه ، ص ٦٩ .

[٣] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٤٣ – ١٤٤ .

[٤] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ١٧ .

[٥] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٧٦–٥٧٧ ؛

وهكذا بدأت مجموعة من الفرسان تسعى لتنفيذ فكرتهم في تأسيس هيئة حربية جديدة خلال زيارتهم للأراضي المقدسة ، وقد أسهم في تأسيسها فارسان فرنسيان وهما هيو باينز ***Hugh Payans*** [(١)] المقدم الأول للداوية (٥١٢- ٥٣١هـ / ١١١٩- ١١٣٦م) ورفيقه جفري جفري سانت اومر ***Geoffrey St . Omer*** [(٢)] اللذان كونا مجموعة صغيرة مؤلفة من ثمانية فرسان في صيغة رابطة متطوعة تقدم خدماتها بشكل قوافل مسلحة تدافع عن الحجاج النصارى ضد الهجمات التي كانوا يتعرضون لها من جانب المسلمين بعد قدومهم من أوربا إلى الأراضي المقدسة [(٣)] وبعد وصول هؤلاء الفرسان إلى الأراضي المقدسة حصلوا في سنة ٥١٢هـ/١١١٨م على تصريح من الملك بلدوين الثاني وبطريرك القدس جورموند بتكوين منظمة عسكرية مهمتها محاربة المسلمين وحماية طرق الحجاج النصارى ، ولانهم لم يكن لديهم كنيسة ولا مكان ثابت للسكن فيه فقد خصص لهم الملك بلدوين الثاني مقر إقامة في القصر الملكي في الجهة الشمالية من (***المسجد الأقصى***) ، ومن هنا جاءت تسميتهم بفرسان المعبد ، كما خصص لهم رواقا في المسجد الأقصى ، لكي تتمكن المنظمة الجديدة من ممارسة واجباتها وفضلا عن ذلك فقد منحهم الملك بلدوين الثاني ونبلاؤه والبطريرك جورموند وأساقفة الكنائس بعض الإقطاعيات من ممتلكاتهم الخاصة التي كان لها مردودات مالية جيدة لهؤلاء الفرسان ، إذ أسهمت بتلبية احتياجاتهم من الأطعمة والألبسة على أن بعضاً من تلك المنح كانت ملكاً دائماً إلى الأبد بينما البعض الآخر كان لفترة زمنية محدودة [(٤)] .

Tanner , The Cambridge , Vol , V , p . 306 ; Pernoud , The Crusaders , P . 151.

[(١)] هيو باينز : هو أحد الفرسان الصليبيين المشهورين من منطقة بيرغندي ، قدم حاجاً إلى القدس بعد الحرب الصليبية الأولى منذ وصوله إلى ارض بلاد الشام سعى للحصول على مكان داخل المسجد الأقصى لأجل الاستقرار فيه وقد اقنع نفسه بالقليل من الطعام وتعهد بأداء اليمين أن يؤم اتباعه التكاليف الكاملة للخيول وللسلاح واستطاع بواسطة التبشير والصلوات وبكل الوسائل الممكنة للتأثير على جميع الحجاج واقنعهم بالبقاء وتكريس انفسهم بشكل دائم لخدمة الرب . ينظر : زكار ، الموسوعة الشاملة لتاريخ الحروب الصليبية (دار الفكر ، دمشق : ١٩٩٩م) ، ج٣ ، ص ٣٨٤ – ٣٨٥ .

[(٢)] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٧٦ ؛ كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ١٠٠ ؛
Stevenson , The Crusaders , P . 113 .

[(٣)] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٤٣ ؛ عوض ، تأريخ الحروب ، ص ٣٩ – ٤٠ ؛
Tanner , The Cambridge , Vol , V , PP . 305 – 306 .

[(٤)] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٧٧ .

وفي سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م أرسل الملك بلدوين الثاني هيو باينز إلى الغرب الأوربي لطلب المساعدة وإرسالها إلى مملكة بيت المقدس الصليبية ، وعلى اثر ذلك عقد مجمع ترويس ***Troyes*** الديني في فرنسا في السنة ذاتها ، وقد حضر الاجتماع رؤساء أساقفة كل من مقاطعتي الرايمز والسنز مع أساقفتهم المساعدين وممثل البابا برعاية القديس سان برنارد الكليرفوري ***St . Bernard Clairvaux*** [١] الذي كان يمثل أعلى سلطة روحية في ذلك الوقت [٢] وترجع أهمية مجمع ترويس إلى انه كان أشبه بمظاهرة دينية لتأييد قيام هيئة الداوية الأمر الذي ضمن لها البداية القوية والمساندة من جانب الأوساط الكنسية في الغرب الأوربي لامد طويل ثم انه خلال انعقاد المجمع تم وضع القوانين الخاصة بالهيئة وقد حددت دور كل عضو من الأعضاء التي كونت الهيئة [٣] وقد أسفر الاجتماع عن تحقيق ثلاثة نتائج الأولى : إقرار المجمع الهيئة الرهبانية الجديدة . والثانية : انخراط ثلاثمئة فارس لمنظمة الداوية بعد ان كان عددهم لا يتجاوز تسعة فرسان عند بداية تشكيلها والثالثة : اتخاذ الرداء الأبيض كزي خاص بفرسان الداوية [٤] مقلدين في ذلك الستيرستين [٥] وفيما بعد اتخذ الرداء الأبيض ونقش عليه الصليب الأحمر كعلامة مميزة تميزهم عن منظمة الاسبتارية [٦] وكان هذا الزي الخاص

---

[١] سان برنارد الكليرفوري : هو رئيس دير كليرفو في فرنسا ، ومنذ توليه رئاسة الدير في سنة (٥٠٩هـ / ١١١٥م) وهو في الخامسة والعشرين من عمره وحتى وفاته بعد نحو أربعين سنة ظل يسيطر على الحياة الدينية والسياسية في غرب أوربا ، اظهر اهتماماً باوضاع النصارى في الشرق ، واسهم في سنة ٥٢٢هـ / ١١٢٨م ، بتأسيس منظمة الداوية . ولم يقتصر دوره على ذلك بل عهد إليه لويس السابع ملك فرنسا (٥٣٢– ٥٧٦ هـ / ١١٣٧ – ١١٨٠م) ، بتنظيم الحملة الصليبية الثانية عقب سقوط الرها سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م نظراً لسطوته الدينية التي فاقت سلطة الملك فضلاً عن فصاحته وحماسته وما اشتهر به من الشجاعة والنشاط . ينظر : رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٠٦ .

[٢] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٧٧ .

[٣] عوض ، تأريخ الحروب ، ص ٤١– ٤٢ .

[٤] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٧٧ .

[٥] الستيرستين : وهم اتباع طريقة رهبنة كاثوليكية تدعى دير ستيرسيوم الواقع بالقرب من منطقة ديجون بفرنسا . ينظر : ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٢٥ ، هامش رقم (١) .

[٦] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٧٧ ؛ كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ١٠٠ .

بالهيئة قد منحه لهم البابا اوجين الثالث ***Eugen III*** (٥٤٠– ٥٤٨هـ / ١١٤٥ – ١١٥٣م) اثر الاجتماع الذي تم عقده في باريس سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م [١] .

وقد لقيت تلك المنظمة مساندة معنوية من مؤسسها القديس برنارد الكليرفوري عندما وضع كتاباً عنها عنوانه (في مديح الفروسية الجديدة) ***De Laude Novae Milicae*** قام فيه بالرعاية الضخمة لهيئة فرسان الداوية وقارن بينهم وبين فرسان العصور الوسطى ، كما اظهر خلال المقارنة المميزات التي ميزت الهيئة الجديدة عن حقبة الفرسان المعروفة فاشاد بقوتهم وخشونتهم وإيمانهم وزهدهم ، وذكر كثيراً من طبائعهم ونظمهم ، وقد وافق البابا هنوريوس الثاني على القانون الجديد الذي وضعه القديس برنارد لهيئة الداوية ، وفي سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م ، اصدر البابا هنوريوس الثاني مرسوماً اعترف فيه رسمياً بهيئة الداوية [٢] غير ان علاقتها مع البابوية لم تستمر طويلاً إذ تحرر اتباع هيئة الداوية من سيطر البطريرك وليس ذلك فحسب بل أحدثوا انشقاقاً داخل التنظيم الكنسي للاسقفيات لان كل اسقف كان ملزماً كنسياً ان يختار قساوسة الهيئات من دون أن يمنعهم من الانخراط في الهيئة [٣] وتألفت المنظمة من ثلاث مجموعات ، الأولى : مجموعة الفرسان التي تقتصر على النبلاء الذين يمثلون القيادة والثانية : مجموعة عموم المحاربين الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى ، أما المجموعة الثالثة : فهي التي تضم رجال الدين من الرهبان والقساوسة [٤] .

وقد حقق التنظيم الجديد نجاحاً كبيراً نظراً لاهتمام الملك بلدوين الثاني والنبلاء المحليين لأنه كان يلبي حاجة المملكة الصليبية من القوة العسكرية المسلحة لديمومة الوجود الصليبي على ارض الشام ، وربما كان نجاح التنظيم متوقعاً لأنه ادمج الأيديولوجيتين الكبيرتين في ذلك العصر الرهبنة والفروسية [٥] وبذلك أضاف الداوية إلى نذورهم العسكرية
نذور الدين فتوحدت بذلك الغايتان في الظاهر غاية الراهب وغاية الفارس [٦] .

---

[١] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٢٥ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٥٩ ؛ عوض ، تأريخ الحروب ، ص ٤٢ .

[٢] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٤٤ ؛ مقامي ، فرق الرهبان ، ص ١٩ .

[٣] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٢٦ .

[٤] نفسه ، ص ١٢٥– ١٢٦ ؛ اليوسف ، علاقات ، ص ٩٠ .

[٥] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٤٥ .

[٦] عاشور ، الحروب الصليبية ، ج١ ، ص ٥٠٢ ؛ قلعجي ، صلاح الدين ، ص ١٨٤ ، هامش رقم (١) .

وهكذا كان تأسيس الهيئات الدينية إحدى الحوادث المهمة في تأريخ مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني والتي كان لها نتائج ملموسة أثمرت في تبلور القوة العسكرية المسلحة للدفاع عن الوجود الصليبي في بلاد الشام ولا سيما ان الهيئتين الاسبتارية والداوية كانتا عمليا القوة الوحيدة التي لها جيش فاعل في مملكة بيت المقدس الصليبية [١] وليس ذلك فحسب بل كانت افضل مصادر الجندية التي كانت تزود الصليبيين بالمقاتلين في بلاد الشام الذين كان هدفهم الأول والأخير هو مقاتلة المسلمين [٢] وبذلك ضمن الكيان الصليبي مدداً دائماً من ((***العساكر الأتقياء المحترفين***)) هذا الوقت الذي لم تكلف تلك الهيئات الحكومة الصليبية مسؤولية تغطية نفقاتها [٣] وفوق ذلك كله كانت المنظمتان بمثابة حملة صليبية تتجدد بانتظام من دون توقف ، كما مثلت أيضا جيشين ملحقين ومرتبطين بقسم ديني لحماية الأراضي المقدسة والدفاع عنها ضد المسلمين والتي كانت الغاية التي كرست من أجلها منظمات الفرسان المترهبين كل طاقاتها [٤] .

والواقع أن منظمتي الاسبتارية والداوية سدتا فراغاً كبيراً من حياة الصليبيين في بلاد الشام ، فمن الناحية الدينية كان هناك العديد من الأتقياء الذين عز عليهم أن تحرمهم حياة الزهد والعبادة في ظل الكنيسة أو الدير من المشاركة في محاربة المسلمين ، وهؤلاء وجدوا ضالتهم في الانضمام إلى تلك المنظمات الجديدة [٥] التي جمعت الفروسية والديرية أو بعبارة أخرى بين الحياتين الدينية والحربية [٦] . أما من الناحية السياسية فقد قام فرسان الاسبتارية والداوية بجهد كبير في حماية الكيان الصليبي في بلاد الشام والدفاع عنه وفي محاربة المسلمين ومهاجمة بلادهم ودفع هجماتهم ، في وقت قل فيه عدد المحاربين الصليبيين بالشام نتيجة المرض والوفاة أو العودة إلى الغرب الأوربي [٧] .

---

[١] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٢٥ .

[٢] سميل ، الحروب الصليبية ، ص ١٠٠ .

[٣] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٢٥١ ، ٥٠٠-٥٠١ ؛ حسين مؤنس ، نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق (مطبعة مصر ، القاهرة : ١٩٥٩م) ، ص ٣٠٥ .

[٤] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٩٩ ؛ مقامي ، فرق الرهبان ، ص١٥- ١٦ .

[٥] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١، ص ٤٨٦ .

[٦] مقامي ، فرق الرهبان ، ١٦ ؛ فرح ، تأريخ أوربا ، ص ٢١٩ .

[٧] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٨٦ .

ومنذ منتصف ثلاثينات القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي لم يقم التنظيمان فقط بإمداد المملكة بالفرق العسكرية بل أنيطت لهما مهمة الدفاع عن المواقع العسكرية الرئيسة ، فالنقط القوية والأبراج والحصون سلمت جميعها للتنظيمين هذا فضلاً عن انه منذ النصف الثاني من القرن المذكور ومع تفاقم التهديد الإسلامي تمركز فرسان الاسبتارية والداوية في القلاع والحصون الضخمة التي كانت تحمي حدود مملكة بيت المقدس ، فتعهدوا بحراستها والدفاع عنها ضد أخطار الهجمات الإسلامية [١] ويشهد تأريخ الحروب الصليبية بالشام على أن فرسان الاسبتارية والداوية كانوا من اثبت فئات الصليبيين على القتال وأجلدهم عوداً وأكثرهم شجاعة ، ولولا الجهود الحربية التي بذلها أولئك الفرسان ، لانتهى الوجود الصليبي بالشام قبل نهاية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي [٢] فقد كانوا بشهادة اغلب المؤرخين المعاصرين من اشد الصليبيين حقداً وبغضاً للمسلمين [٣] .

ولم يقتصر نشاط منظمات الفرسان بالشام على المجالين الديني والعسكري بل شمل ما بذلوه من جهود كبيرة في المجال الاجتماعي بدليل أن الاسبتارية ظلوا يولون اهتماماً بالغاً بالأعمال الخيرية ، فقد كان ملجأ الاسبتارية في القدس يتسع لإيواء ألف حاج ، وتولوا الإنفاق على المستشفى المخصص لعلاج المرضى ، كما درجوا على توزيع الصدقات اليومية على الفقراء الصليبيين مما أثار ذلك السخاء دهشة الزائرين [٤] فضلاً عن تولي الاسبتارية والداوية حراسة الطرق التي يسلكها الحجاج النصارى الأوربيين إلى بيت المقدس ، خاصة الطريق الرئيس من يافا إلى القدس [٥] .

---

[١] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٤٦ .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٥٠١ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٨٦ .

[٣] الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٥١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ٥٥١ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ١٠٩ .

[٤] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٥٠٢ .

[٥] النقر ، " التغيرات الإدارية " ، ص ٦٦٠ .

أما عن نشاطهما المالي والمصرفي فقد بدأ بتقديم تسهيلات ائتمانية للحجاج الوافدين من الغرب ، ولم يتخذ هذا النشاط شكلاً استغلالياً إلا بعد ذلك في أواخر العهد الصليبي ، مما أثار ضدهم سخط الكثيرين [١] كما مارس أعضاء تلك المنظمات العمل التجاري وحاكوا الإيطاليين في الحصول على امتيازات تجارية واسعة مما ضاعف ثروتهم وممتلكاتهم من جهة وأثار روح التنافس والبغضاء بين بعضهم البعض من جهة أخرى [٢] .

وقد تطورت تلك المنظمات في المرحلة اللاحقة من حيث نطاق أعمالها فأصبحت تقوم بأعمال لصيرفة ، من خلال إقراض الأموال للتجار مقابل فوائد مالية كبيرة ، هذا فضلاً عن امتلاكها المخازن والسفن المخصصة للأغراض التجارية [٣] ولم تنقض سنوات طويلة

حتى تغلبت المصالح التجارية على الغرض الصليبي ، فاصبح لا هم للحجاج الذين يفدون تباعاً من غرب أوربا إلى الأراضي المقدسة سوى مباشرة النشاط التجاري والعودة إلى بلادهم محملين بالثروة والأموال [٤] .

وإزاء الأهمية المتزايدة لنظم الرهبنة العسكرية ، ازدادت قوتها وثروتها من خلال الامتيازات والهبات فقد كان الداوية لا يقلون ثراء عن الاسبتارية ، إذ انهم اصبحوا صيارفة أوربا في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وأخذوا ينافسون الأسر المالية في إيطاليا بل ومع اللومبارديين اشهر مرابي العصور الوسطى ، فمن ناحية كانت سلامة قلاعهم وحصونهم وأبراجهم ذات الحراسة القوية والمسماة بالمعابد تضمن أمن الودائع ، كما أن مكانتهم كأعضاء في الكنيسة حولت أملاك المنظمة إلى ملاذ آمن وملجأ ضد التدخل العلماني ومن ناحية أخرى سهلت فروع التنظيمات العديدة عملية نقل الالتزامات والديون من مكان إلى آخر دون نقل المال نفسه عبر الطريق والبحار المحفوفة بالمخاطر ، فالودائع والمنقولات كانت تستثمر تدريجياً فضلاً عن استثمار رأس المال المتراكم في إقراض الملوك والأمراء وعلى الرغم من الثناء الذي لقيته منظمة الداوية في أوربا والمديح الذي كان يوجه إلى شجاعة أعضائها ومهارتهم العسكرية

---

[١] عاشور ، أوربا ، ج١ ، ص ٤٥١ .

[2] *Hussein , ‘‘ The Imperialstic , p. 491 .*

[٣] عاشور ، أوربا ، ج١ ، ص ٤٥١ .

[٤] اليوسف ، علاقات ، ص ٧٠ .

وإخلاصهم للعالم المسيحي إلا أن هذا الثناء كان يقابله انتقادات مريرة بسبب ثراء تلك المنظمة وأطماعها وصراعها مع منظمة الاسبتارية ، الذي كان يضعف من استقرار المملكة الصليبية ويؤثر على استمرارها في الوجود [١] .

وعليه يمكن القول أن النشاط الحربي للاسبتارية والداوية كان واضحاً ومهماً في فترة الحروب الصليبية ، وان نشاطهم الحربي لم يكن موجهاً ضد المدن الإسلامية في بلاد الشام بل امتد إلى أعالي الجزيرة ومصر والحجاز وهذا كلهجعل الهيئات العسكرية تهتم اهتماماً كبيراً بقلاعهم وحصونهم الحربية وهذا ما سوف نتطرق اليه في الفصل الثالث من الأطروحة .

---

[١] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٤٦ –١٤٧ .

الفصل الثاني : الاستيطان في مملكة بيت المقدس الصليبية

أولا : النظام الإقطاعي

ثانيا : السياسة الاستيطانية في المملكة الصليبية

أ. نقص العنصر البشري وتشجيع الهجرة

ب. دور الملوك الصليبيين في تأسيس المستوطنات

ج. دور رجال الدين الصليبيين في تأسيس المستوطنات

الفصل الثاني : الاستيطان في مملكة بيت المقدس الصليبية

أولا : النظام الإقطاعي

كان من أهم خصائص القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي في أوربا بلورة النظام الإقطاعي الذي كانت مؤسساته أخذة في التطور والنمو منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي [١] وقد قام ذلك النظام بشكله التقليدي الذي عرفته فرنسا آنذاك على أساس ثلاثة عناصر ، الأول علاقة السيد الإقطاعي ***Lord*** بتابعه ***Vassal***، وقد اصطلح عليه تسمية السيادة والتبعية ***Lord Vassalage*** ، والعنصر الثاني : هو حيازة الإقطاع ***Fief*** في مقابل تقديم الخدمة العسكرية المناسبة في جيش السيد الإقطاعي ، أما العنصر الثالث : فهو لامركزية القضاء ، وقد أتاح ذلك العنصر الأخير حقوقاً قضائية للسادة الإقطاعيين على حساب سلطة الملك المركزية وفضلاً عن ذلك كله كان الإقطاع يشكل نظاماً قيمياً وأخلاقياً واجتماعياً في أوربا الغربية [٢] .

ويمكن عدُّ الفترة الممتدة من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي إلى القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي المرحلة التي اكتمل فيها نمو النظم الإقطاعية وتطورها في أوربا ثم انتقالها عن طريق الحروب الصليبية إلى مملكة بيت المقدس الصليبية [٣] .

فقد جلب الصليبيون معهم إلى الأراضي المقدسة نظاماً إقطاعياً ، كانت السلطة الملكية تفوض فيها مالكي الإقطاعيات ممارسة أعمال القيادة والحماية والقضاء تاركة لهم أمر جباية الضرائب العامة لمنفعتهم مقابل مطالبتهم بأداء الخدمة العسكرية ومما لا شك فيه أن ذلك النظام كان جديداً على البلاد التي أقام الصليبيون فيها [٤] .

وقد قام الأمير جودفري البويوني بوضع أسس النظام الإقطاعي الصليبي في فلسطين على غرار ما كان سائداً في أوربا الغربية من نظم إقطاعية من أجل الدفاع عن الكيان الجديد

---

[١] سيدني بانتر ، " أوربا الغربية عشية الحروب الصليبية " ، ضمن كتاب تأريخ الحروب الصليبية ، تحرير : سعيد عبدالله البيشاوي ومحمد مؤنس عوض ، ترجمة وتعليق : سعيد عبد المحسن (دار الشروق ، عمان : ٢٠٠٤م) ، ج١ ، ص ١٧ .

[٢] كوبلاند ، الإقطاع ، ص ١٦ ؛ قاسم ، ماهية الحروب ، ص ٦٩ .

[٣] العريني ، الحضارة والنظم الأوربية في العصور الوسطى ، ط٢ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة : ١٩٦٨م) ، ق ١ ، ص ٣٥-٣٦ .

[٤] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٦٣ ؛ سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٩٥ .

وتنظيم الوجود الصليبي [١] لا سيما أن تلك المنطقة تقع في محيط إسلامي يتحفز للانقضاض على الصليبيين وإخراجهم من البلاد ، وعلى الرغم من أن جودفري اصبح حائزاً لجميع الأراضي التي استولى عليها الصليبيون في فلسطين لان الحاكم الصليبي يملك جميع الأراضي التي تخضع للسيطرة الصليبية إلا انه لم يحتفظ لنفسه إلا بمساحة معينة ، وهي كل ما يمثل ثروته العقارية ، أما بقية الأراضي فكان يمنحها على شكل إقطاعيات لطبقة النبلاء من أمثال كبار البارونات وقادة الجيش الصليبي الذين شكلوا حاشيته [٢] هذا فضلاً منافستهم الملك بما كان لديهم من كبار الموظفين [٣] أما الفرسان فكان لكل فارس أهميته وهو مسؤول عن سلاحه وخراج إقطاعه [٤] .

وقد سهلت طبيعة التركيبات الاجتماعية في بلاد الشام وفلسطين عملية تطبيق نظام الإقطاع الصليبي ، إذ شهدت تلك البلاد تطبيق نظام الإقطاع العسكري على يد الأتراك السلاجقة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي أي قبيل مجيء الصليبيين إلى بلاد الشام ولذلك فقد اصبح من السهل أن يحل الفارس الصليبي محل سلفِهِ الفارس التركي من دون أن يحدث اضطراباً خطيراً في أوضاع البلاد . وبطبيعة الحال لم يجد الصليبيون صعوبات كبيرة في تطبيق ما عرفوه من نظم إقطاعية في أوربا في البلاد التي خضعت لسيطرتهم في المنطقة العربية وذلك لان السكان كانوا قد اعتادوا مثل ذلك النظام زمن الأتراك السلاجقة وحكمهم لبلاد الشام هذا فضلاً عن أن الصليبيين حرصوا على أن يكون النظام الإقطاعي ملائماً لطبيعة التركيبات السكانية في بلاد الشام [٥] .

واعتمد النظام الإقطاعي الصليبي في بلاد الشام على بعض المقومات البارزة التي يمكن نسبتها للأمير جودفري البويوني أو لاحد ورثته المباشرين مثل قانون الخدمة العسكرية الذي لم

---

[١] فنك ، "تأسيس الإمارات" ، ص ٦٩ .

[٢] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٦٢-٦٣ .

[٣] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٧٥ .

[٤] العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ص ٢٨٧ .

[٥] زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٣٢ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص٦٣ .

يحدد مدة الخدمة الحربية بفترة محدودة من السنة هذا فضلاً عن بعض الأحكام المطلوبة منها [١] .

ومن الجدير بالذكر هنا أن الفترة المبكرة من الاستيطان الصليبي في بلاد الشام كانت الإقطاعيات والمنح التي أعطاها الملك للنبلاء قليلة جداً ، إذ كان من الصعب ضمان ولاء الأسياد الإقطاعيين عن طريق منحهم اقطاعات كبيرة من الأراضي وانما كان يتم ذلك من خلال الدخل النقدي فضلا عن خشية الملك من ظهور قوى إقطاعية متنافسة مما أدى إلى الحد من توزيع الإقطاعيات [٢] .

وفضلا عن ذلك كله فقد كانت مساحة الأراضي التي احتلها الصليبيون لا تزال صغيرة في بداية استيطانهم في بلاد الشام ، ولكن بعد استيلائهم على مدينة القدس بفترة قصيرة تم استدعاء جميع الفرسان وكبار الأمراء الصليبيين ليقدموا بياناً شاملاً عن أسلحتهم واقطاعاتهم وكل ما حصلوا عليه من عائدات المدن التي خضعت للسيطرة الصليبية ، وعقب ذلك تم انتزاع يمين الولاء والتبعية من جميع الفرسان وكبار رجال الدولة الصليبية في مملكة بيت المقدس [٣] .

وعلى الرغم من ذلك فان الملك الصليبي واتباعه من كبار الأمراء وصغارهم كانوا يتعهدون بتبادل الأمانة والصدق مع بعضهم البعض ، إذ كان لكل طبقة امتيازاتها الخاصة يصونها الشرف وذلك هو المبدأ الرفيع وسط النبلاء ويقود الجميع لصد أي أذى أو ضرر يصيب شخصاً بمفرده ، و ذلك جزء من التقليد الإقطاعي الذي نقله الصليبيون من أوربا إلى الشرق [٤] .

وقد اعتاد ملوك القدس على منح الإقطاعيات والضياع والقرى والأراضي لاتباعهم لكي يضمنوا لهم دخلاً يمكنهم من القيام بواجباتهم العسكرية ويساعدهم على أن يعيشوا حياة تتناسب مع مكانتهم في المجتمع [٥] وكان الملك الصليبي يقوم بمنح الهبات والاقطاعات لكبار قادة

---

[١] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٦٦ .

[٢] براور ، عالم الصليبيين ، ص ٩٧ .

[٣] فنك ، "تأسيس الإمارات" ، ص ٦٩ .

[٤] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٦٧ .

[٥] براور ، عالم الصليبيين ، ص ٩٧ .

الجيش حتى لو كان القائد لا يرتبط بروابط معينة من روابط النبالة أو الخضوع بصفة مسبقة ، و هذا يعني أن الملك الصليبي كان يعطي المنح والهبات للقادة والفرسان على الرغم انهم لا يعتبرون من اتباعه [١] ومن ابرز تلك الشخصيات الأمير تانكرد الذي منحه الأمير جودفري البويوني إمارة الجليل لتكون إقطاعا كاملاً له مدى الحياة اثر مطالبته للأمير جودفري بان يمنحه إمارة الجليل كاملة [٢] وكان لمبادرة الأمير جودفري بمنح إمارة الجليل للأمير تانكرد قبل خضوعها للسيطرة الصليبية دورها في تشجيع تانكرد على التحرك بسرعة من أجل الاستيلاء على الإمارة ، على الرغم من أن تانكرد لم يكن من اتباع الأمير جودفري وانما بقي إلى جانبه في الأراضي المقدسة [٣] .

وخلال سنة واحدة تمكن الأمير تانكرد من السيطرة على مدن شمال فلسطين نابلس وطبرية وبيسان وحيفا ، وأصبحت تلك المدن تشكل ما يعرف باسم إمارة الجليل [٤] وبذلك كانت تلك الإمارة أولى الإقطاعيات الصليبية الكبيرة التي تأسست في عهد الأمير جودفري البويوني [٥] وبموجب تلك الإقطاعيات اصبح تانكرد تابعاً رسمياً للأمير جودفري [٦] .

و ذلك يعني أن الصليبيين الأولين اعتمدوا على قاعدة في التوزيع الإقطاعي ، يتضمن ذلك التوزيع معنى اقتسام الغنيمة ، فجعلوها للقادة الأولين أي لأنفسهم الحق الكامل في كل حصن أو بلد أو إقليم يضعون يدهم عليه [٧] .

ولم يقتصر الإقطاع الصليبي على ذلك فقط ، فبعد احتلال الأمير جودفري البويوني مدينة القدس حاول أن يوسع نفوذه في مناطق أخرى ، إذ كان قد استولى الصليبيون على مدينة الخليل ***St. Abraham*** [٨] فمنحها الأمير جودفري البويوني إقطاعا للأمير جيرارد افسنيز

---

[١] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٦٧ .

[٢] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص٤٦٣ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٣٨ .

[٣] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٦٩ .

[٤] فنك ، "تأسيس الإمارات" ، ص ٦٩ ؛ رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٤٢٩–٤٣٠ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٠١ ؛ العريني ، الشرق الأوسط ، ج١، ص ٢٨٦ .

[٥] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١، ص٤٦٣ ؛ كروسيه ، الحروب الصليبية ، ٥١ .

[٦] فنك ، "تأسيس الإمارات" ، ص ٨٧ .

[٧] طرخان ، النظم الإقطاعية ، ص ٤٧ ؛ العريني ، " نمو طبقة النبلاء " ، ص ٣٧ .

[٨] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٠١ .

Gerard Avesnes [١] كما أن جودفري كان قد وعد أحد اتباعه ويدعى الأمير روبرت ابوليا ***Robert Apulia*** ، بمنحه إقطاعية أرسوف ، على الرغم من أنها لم تكن قد خضعت للسيطرة الصليبية ، وبذلك اتسعت إمارة بيت المقدس وامتدت مساحة الأراضي الخاضعة لسلطة الأمير جودفري من مدينة نابلس في الشمال إلى مدينة الخليل في الجنوب والى الأردن والبحر الميت شرقاً [٢] فضلاً عن مدينتي القدس ويافا والقرى المحيطة بهما [٣] وقد أشار ستيفنسون إلى أن المناطق الريفية التي استسلمت للصليبيين ، اعتاد سكانها المحليون على السادة الأجانب وعاشوا في قرى صغيرة كان من السهل إجبار رؤسائها على الطاعة [٤] .

والى جانب قيام الأمير جودفري البويوني بتوزيع جميع الأراضي حسب العرف الإقطاعي على كبار الأمراء والفرسان [٥] فقد قدم المنح والإقطاعيات للكنائس والأديرة ، إذ منح إحدى وعشرين قرية في حدود بيت المقدس إلى كنيسة القيامة [٦] .

غير أن مجريات الأمور في بداية الاستيطان الصليبي في بلاد الشام ، لم تكن تجري على وفق حسابات الأمير جودفري ، فالبطريرك دايمبرت طالب بمدينتي القدس ويافا وما يحيط بهما من أراضٍ وقرى ، أما تانكرد فقد قام بضم مدينة حيفا لإمارته من دون موافقة جودفري ّمما يعد خروجاً على التقاليد الإقطاعية ، واستغلالاً للنزعة الدينية التي اتصف بها جودفري [٧] . عليه يمكن القول إن الأمير جودفري كان واضع اللبنة الأولى للنظام الإقطاعي الصليبي في بلاد

---

[١] جيرارد افسنيز : هو أحد الفرسان الصليبيين الذين شاركوا الأمير جودفري في حصار مدينة ارسوف ، وقد أرسله جودفري إلى سكانها لغرض الاتفاق على تسليم المدينة للصليبيين غير انه وقع في قبضة رجال ارسوف ، وبعد انتهاء الحصار الصليبي الفاشل لارسوف قررت سلطات المدينة إطلاق سراح جيرارد ، فتم إرساله إلى القدس بعد أن تم شفاؤه من الجراح التي أصيب بها للدلالة على حسن نيتها . ينظر : رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٣٣٤-٣٣٦ .

[٢] فنك ، "تأسيس الإمارات" ، ص ٦٩؛ رنسيمان ، نفسه ، ج١ ، ص ٤٢٨-٤٢٩ ، ٤٣٦ ؛ العريني ، الشرق الأوسط ،ج١ ، ص ٢٨٦-٢٨٧ .

[٣] باركر ، الحروب الصليبية ، ص٣٨ .

[4] *The Crusaders , P. 37.*

[٥] العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ٢٨٩ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٧٣ .

[٦] البيشاوي ، " دراسة مقارنة " ، ص ٩٦ .

[٧] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٦٣ ، ٤٦٧ .

الشام غير أن السمات البارزة لذلك النظام لم تظهر في عهده بسبب قصر مدة حكمه التي لم تتجاوز بضعة شهور .

أما في عهد الملك بلدوين الأول فقد بدأت تتضح ملامح النظام الإقطاعي في مملكة بيت المقدس الصليبية ، وذلك بفضل الجهود التي بذلها الملك بلدوين الأول من أجل توطيد أركان المملكة الناشئة وجعلها في قبضة يده خلال حكمه الذي دام ثماني عشرة سنة ، وقد اتضح ذلك عندما قام بتقسيم إمارة الجليل التي تعد من اكبر الإقطاعيات والتي ظلت سنوات من دون أمير [١] وتم ذلك التقسيم اثر رحيل الأمير تانكرد إلى انطاكية في سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م [٢] فمنح الملك بلدوين إمارة الجليل إلى هيو سانت اومر ***Hugh Saint. Omer*** [٣]إقطاعاً يحتفظ بها بحق وراثي [٤] وذلك بعد أن فصل عنها مدينتي حيفا ونابلس [٥] .

---

[١]رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ١٦٢ ؛ العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ص ٣٢٠-٣٢١.

[٢]ذكر الشارتري أن الملك بلدوين الأول عقد اجتماعا مع تانكرد في مدينة حيفا في جمادى الأولى سنة ٤٩٤هـ/ آذار ١١٠١م ، وقد تقرر في ذلك الاجتماع أن يتخلى تانكرد عن البلاد الخاضعة له (إمارة الجليل) ، وذلك عندما أرسل إليه أهل انطاكية وفداً يطلبون منه القدوم بالسرعة الممكنة إلى المدينة ليتولى الحكم فيها بسبب وقوع حاكمها بوهيمند في الأسر اثر المعركة التي خاضها ضد المسلمين قرب ملطية . ينظر : تأريخ الحملة ، ص ١١٣.

[٣] هيو سانت أومر : أحد النبلاء الصليبيين المشهورين في عهد الملك بلدوين الأول ، كان قد خلف تانكرد في حكم إمارة الجليل ، ونال حظوة كبيرة عند الملك بلدوين الثاني فيما بعد ، اشتهر بعدائه للمسلمين وهجماته المستمرة على مدينة صور ، ويعود له الفضل في تشييد قلعة تبنين سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م ، وفي أحدى الهجمات أصيب بجراح مميتة اثر رمية سهم أودت بحياته . ينظر : الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٨٩، ٥٢٥-٥٢٦ .

[٤] نفسه ، ج١ ، ص ٤٨٩ .

[٥] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص٧٥ .

أما جالديمار كاربنيل [١] فقد منحه الملك بلدوين إقطاعية في حيفا [٢] أما جنوب الجليل فقد تم تقسيمه إلى إقطاعيات ربما كانت ترتبط بالتاج الملكي مباشرةً [٣] وبالنسبة للملك بلدوين الأول فقد احتفظ لنفسه بملكية المدن الرئيسة كالقدس ونابلس وعكا وعدد من القرى فضلاً عن بعض القلاع لكون ملك القدس كان من أكبر الإقطاعيين في مملكة بيت المقدس الصليبية [٤].

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد بل قام الملك بلدوين الأول بتقسيم مملكة بيت المقدس الصليبية إلى إقطاعيات منَح معظمها إلى كبار الأمراء والنبلاء في دولته ، فقد منح إقطاعية قيسارية إلى يوستاس جارنييه سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م [٥] كما أعطي بارونية صيدا كحق موروث سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م [٦] وكذلك منح الملك بلدوين الأول جزءاً كبيراً من نابلس كإقطاعية لاحد كبار أسرة ميللي ويدعى باين ميللي ***Payen Milly*** [٧] في سنة ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م ، ومّما يؤكد أن الملك كان يثق بيوستاس جارنييه انه سارع إلى منحه بارونية صيدا بعد الاستيلاء عليها مباشرةً مما يدل على أن يوستاس جارنييه كان من كبار الأمراء الصليبيين في مملكة بيت

---

[١] جالديمار كاربنيل : هو أحد الفرسان الصليبيين الذين حضروا مع الأمير ريموند الصنجيلي إلى الأراضي المقدسة ، وكان من بين الفرسان الذين اشتركوا مع سائر أفراد الجيش الصليبي بالاستيلاء على حيفا ، وعندما رأى جالديمار أن تانكرد قام بضم حيفا إلى إمارته ، ونتيجة لعدم قدرته على الوقوف بوجه تانكرد ، اضطر إلى مغادرة المدينة متجهاً إلى الخليل ، وهناك رفع شكوى للملك بلدوين الأول طالب فيها إرجاع مدينة حيفا التي سلبها منه تانكرد ، فاستجاب الملك لطلبه وبعد أن تسلمها بفترة وجيزة قتل في معركة الرملة الأولى سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م . ينظر : البيشاوي : الممتلكات الكنسية ، ص ٧٣ ، هامش رقم (١) .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ١٢٣ ؛ فنك ، "تأسيس الإمارات" ، ص ٧٦ ؛ ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٤٩ ؛ العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ص ٢٩٤ ؛
Grousset , Histoire des Croisades , Vol. II , p. 218.

[٣] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٧٥ .

[٤] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥١ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص١٤١ .

[٥] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ١٣٨ ؛ فنك ، "تأسيس الإمارات" ، ص ٧٥-٧٦ .

[٦] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٩١ ؛
Grousset , Histoire des Croisades , Vol. II , p. 257

[٧] باين ميللي : يعرف باسم باين بوتيلير *Payen Bouteillere* ، وهو ينتمي لإحدى الأسر النبيلة ، التي استقرت في فلسطين بعد قدوم الصليبيين ، وترجع أسرة ميللي في اصلها إلى العنصر الفلمنكي ، حصل على جزء كبير من نابلس كإقطاعية في عهد الملك بلدوين الأول ، وقد آلت إقطاعية نابلس بعد وفاة باين إلى ابن أخيه فيليب ميللي . ينظر : البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص٧٨ ، هامش رقم (٢) .

المقدس فضلاً عن تمتعه بثقة الملك بلدوين الاول ، أما ما يتعلق بحصول باين ميللي على جزء من نابلس ، على الرغم من أنها كانت من أملاك التاج فيعود إلى أن عائلة ميللي كانت من العائلات النبيلة التي حظيت باهتمام الملك بلدوين الأول وغيره من الملوك الصليبيين الذين اعقبوه في الحكم ولولا ذلك لما تخلى له الملك بلدوين عن إحدى المناطق القريبة من عاصمته القدس [١] وعلى أية حال فقد سيطر الملك بلدوين الأول على معظم الأراضي ، وأبقاها بيده وضمن مقاطعته وهو النهج الذي سار عليه خلفاؤه من ملوك القدس فيما بعد [٢] .

ففي مملكة بيت المقدس الصليبية كان الملك على رأس الهرم الإقطاعي ، وتألف أملاكه الخاصة (الدومين) من ثلاث مدن رئيسة هي القدس وعكا ونابلس ، ثم أضيف إليها الداروم [٣] ويلي الملك أربعة من كبار السادة الإقطاعيين تولوا شؤون الإدارة والإشراف على الإقطاعيات الأربع الكبار التي أسندت إليهم ، واولئك الأمراء هم سيد بارونية صيدا ، وأمير الجليل ، وأمير كونتية يافا ، وأمير إقطاع الكرك والشوبك ، وكان أصحاب تلك الإقطاعيات ينافسون الملك بما كان لديهم من كبار الموظفين ، وعلى الرغم من أن إقطاعية قيسارية كانت تعد من الإقطاعيات الثانوية إلا أن حاكمها الإقطاعي كان لا يقل أهمية عن سائر الأمراء الصليبيين الكبار [٤] وخير دليل على ذلك أن إقطاعية قيسارية كانت من اكبر الإقطاعيات في مملكة بيت المقدس الصليبية فضلاً عن أن سيد إقطاعية قيسارية كان نفسه سيد بارونية صيدا خلال المدة الواقعة بين سنتي (٥٠٤-٥١٦هـ/١١١٠-١١٢٣م) [٥] .

ومن الجدير بالذكر أن الإقطاعيات الكبيرة كانت تقسم إلى وحدات اصغر تتألف

منها القرى والدساكر والمزارع ، وكان للفلاحين في كل وحدة مرجع إداري وهو الرئيس أو المختار [٦] وكانت القرية أو الضيعة تشكل وحدة القياس الأساسية بالنسبة للإقطاعيات [١] .

---

[١] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٧٨-٧٩ .

[٢] فنك ، "تأسيس الإمارات" ، ص ٧٦ .

[٣] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٧٩ ؛ " ملامح المجتمع الصليبي في بلاد الشام " (مجلة المستقبل العربي ، بيروت : ١٩٨٧م) ، ع١٠٢ ، ص ٣٠ .

[٤] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٧٥-٤٧٦ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٤٠ .

[٥] فنك ، "تأسيس الإمارات" ، ص ٧٦ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٧٨ .

[٦] النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٧٠ .

وضمت مملكة بيت المقدس الصليبية إلى جانب الإقطاعيات الكبيرة آثنتي عشرة إقطاعية صغيرة [٢] هي اللد ونابلس والخليل وحيفا وبيسان وقيسارية والقيمون وتبنين وبانياس واسكندرونة والداروم وبيروت ، وقد منحت تلك الإقطاعيات الصغيرة لإثني عشر أميراً إقطاعيا تولوا إداراتها والإشراف على مختلف جوانب الحياة فيها ، وقد خضعت جميع الملكيات والأراضي في مملكة بيت المقدس الصليبية لأنظمة الحكومة مما أدى إلى التكامل في ظل حكومة مؤهلة لحكم البلاد دعيت باسم قوة التاج [٣] .

وكانت الإقطاعيات الدنيوية كتلة متماسكة في الغالب ، أما الإقطاعيات الكنسية والإقطاعيات التابعة للهيئات الدينية العسكرية (***الاسبتارية والداوية***) التي يرجع نموها وازدياد أملاكها من خلال المنح والهبات أو نتيجة دواعٍ استراتيجية ، فقد حصلت على أراضٍ في كل مقاطعة صليبية [٤] .

وقد كان ملوك بيت المقدس وكبار رجال الإقطاع في المملكة الصليبية أسخياء فيما بذلوه من اقطاعات ومنح للكنائس والهيئات الدينية في المملكة [٥] فقد بلغ عدد القرى التي حصلت عليها كنيسة القيامة في حدود بيت المقدس حوالي سبعين قرية عن طريق المنح والهبات المقدمة من الملوك والبارونات ومختلف الشخصيات في مملكة بيت المقدس

الصليبية [٦] أما الهيئات الدينية المحاربة فقد منحت ضياعٍ أراضٍ وأسواقاً ومواشيَ وليس ذلك فحسب بل امتلكت العديد من المدن والقلاع والحصون من أجل حماية الكيان الصليبي في بلاد

---

[١] بانتر ، " أوربا الغربية " ، ص ١٣ ؛ رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٧٦ ؛ ريشار ، " تكوين مملكة " ، ١٦٤ ؛ العريني ، الحضارة و النظم ، ص ٨٥ ؛ القطار ، " المجتمع في صور " ، ص ١٣٠ .

[٢] باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٥٥ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٤٠ ؛ عاشور ، " ملامح المجتمع " ، ص ٣٠ .

[٣] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٧٩ .

[٤] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٧٦ ؛ رنسيمان ، المدنية البيزنطية ، ص ٢١٨ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٨٦ .

[٥] رنسيمان ، نفسه ، ج٢ ، ص ٤٧٥ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٥١– ١٥٤ .

[٦] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٨٣ ؛ " دراسة مقارنة " ، ص ٩٦ .

الشام متعهدة بالدفاع عنها ضد المسلمين [1] وعلى الرغم من تزايد تسلمهم للقلاع وما يتبع بعضها من أراضٍ إلا انهم لم يصبحوا جزءاً من نظام الإقطاع ، إذ حظر على فرسان الداوية منذ سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩م ، وعلى فرسان الاسبتارية منذ سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م أن يتلقوا إقطاعا من أي جهة [2] وهكذا حصلت الهيئات الدينية المحاربة على معظم ممتلكاتها وإقطاعياتها من خلال المنح والهبات التي بذلها الملوك الصليبيون وكبار السادة الإقطاعيين في المملكة الصليبية [3].

وكان نظام الإقطاع الصليبي نظاماً وراثياً في اغلب الأحيان ، فعلى سبيل المثال لا الحصر فقد استمر أفراد أسرة يوستاس جارنييه يرثون إقطاعية قيسارية وبارونية صيدا حتى حررها العرب المسلمون [4] كما أن الملك بلدوين الثاني كان قد منح يافا وتوابعها إقطاعا لهيو بوزيه الأول ***Hugh I*** [5] وبعد وفاته سنة ٥٢٧هـ/١١٢٣م ورثه ابنه هيو الثاني في حكم كونتية يافا [6] وكذلك جعل الملك بلدوين الثاني إمارة الجليل من

---

[1] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص٤٨٦ .

[2] ماير ، الحروب الصليبية ، ص ١٢٦ .

[3] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٠٠-٥٠١ .

[4] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٩١ .

[5] هيو يوزيه الأول : هو أحد النبلاء الفرنسيين صاحب قلعة لي بويزيه في مقاطعة اورليانا ، كان قد اشترك مع البارونات لمعارضة ملك فرنسا لويس السادس ، الذي قام في سنة ٥١٢هـ/١١١٨م ، بتدمير قلعة لي بويزيه ، مما أدى إلى حرمانه من اقطاعه ، فاضطر إلى التوجه للشرق وبصحبته زوجته ماميليا *Mamilia* وابنها هيو الثاني ،في الوقت الذي اصبح فيه بلدوين الثاني ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية . ينظر : رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٣٠٣ .

[6] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٦٧٤ .

نصيب وليم بور ***William Bures*** [1] فظلت في أيدي أسرته عقب وفاته [2] أما فيليب ميللي ***Philippe Milly*** [3] فقد ورث إقطاعية نابلس [4] بعد وفاة عمه باين ***Payen*** حوالي سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م [5] .

بينما يرى رنسيمان أن الإقطاعيات الصليبية لا تُعدُّ وراثية في بداية الاستيطان الصليبي في الأراضي المقدسة ، ويدعم وجهة نظره هذه بما وصلت إليه الأمور في إمارة الجليل التي تعد من اكبر الإقطاعيات الصليبية التي ظلت سنوات من دون أن يكون لها أمير عقب مقتل حاكمها هيو سانت اومر ، إذ جرى الاعتقاد أن شقيقه جيرارد سانت اومر ***Gerad St. Omer*** سوف يحل محله في حكم الإمارة لو أن صحته سمحت بذلك غير أن حق جيرار لم يكن مطلقاً ، على الرغم من أن الملك بلدوين الأول وضع الدستور ، وصبغ مملكته الصليبية بالصبغة الإقطاعية ، وجعلها خاضعة لسلطته وقسمها إلى إقطاعيات منحها لكبار رجال الدولة في مملكة بيت المقدس الصليبية [6] .

---

[1] وليم بور : أحد الفرسان الصليبيين القادمين من الغرب الأوربي ، منحه الملك بلدوين الثاني إمارة الجليل وتولى قيادة جيش مملكة بيت المقدس أثناء وقوع الملك بلدوين الثاني في الأسر ، وبوصفه وصياً على المملكة ، فقد ناب عن الملك في توقيع الاتفاقية مع جمهورية البندقية في مدينة عكا أوائل سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م لأجل إسقاط مدينة صور . ينظر : الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٢٠٠ .

[2] العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ص ٣٥٢ .

[3] فيليب ميللي : ولد في فلسطين ، وكان والده يدعى جأي ووالدته استيفاني فلامنيج *Estefenie Flamengue* ، وكان عمه باين ميللي أول سيد إقطاعي تولى حكم إقطاعية نابلس . ينظر : البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٨٩ ، هامش رقم (٣) .

[4] كانت نابلس قد اقطعت في بادئ الأمر لاسرة ميللي *Milly* واول من تولاها باين ، وبعد وفاته اقطعت لفيليب ميللي الذي ظل سيداً لاقطاعية نابلس حتى تنازل عنها للملك بلدوين الثالث سنة ١١٦١م ، مقابل الحصول على الكرك والشوبك . ينظر : ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥١ ، هامش رقم (١) ، وفي حدود سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م بعد وفاة زوجته انخرط للعمل في صفوف فرسان الداوية ، فانتقل حصنا الكرك والشوبك إلى ابنته اتيين ، وكان من البديهي أن يتصرف في أملاكها السادة الذين تزوجوا منها ، وهم همفري الثالث صاحب تبنين الذي اخضع له من سنة ٥٦٣-٥٦٨هـ/ ١١٦٧-١١٧٢م ، ثم ميلو فانسي من ٥٦٨-٥٧٠هـ/١١٧٢-١١٧٤م ، ثم رينو شاتيون من ٥٧٣-٥٨٣هـ/ ١١٧٧-١١٨٧م . ينظر : العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ص ٨٠٠ ، هامش رقم (٢) ؛
Grousset , Histoire des Croisades , Vol. II , pp. 699-700 , note (2) .

[5] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٩١

[6] تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ١٦٢.

وعلى الرغم من أن النظام الإقطاعي الصليبي كان وراثياً في معظم الأحيان إلا انه كان هنالك بعض الحالات الاستثنائية يتم فيها مصادرة أملاك بعض السادة الإقطاعيين إذا اخلوا بفروض الولاء والتبعية للملك الصليبي ووجهت إليهم تهمة الخيانة العظمى والتآمر على قتل الملك وتعريض أمن البلاد للخطر [١] ولم يكن بوسع الملك أن يعزل أي أمير عن اقطاعه أو مصادرة أملاكه إلا بعد موافقة المحكمة العليا في المملكة الصليبية [٢] فعلى سبيل المثال ذكر الصوري انه عندما رفض هيو بوزيه الثاني كونت يافا تقديم يمين الولاء والتبعية للملك فولك الانجوي ، كما أصر وبعناد على رفض الانصياع لأوامره مما جعل والتر صاحب قيسارية يوجه لهيو الثاني تهمة الخيانة العظمى والتآمر على قتل الملك في أحد الاجتماعات في البلاط الملكي ، وكان ذلك بتحريض من الملك فولك ، وتطلب الأمر اللجوء إلى المحكمة العليا للنظر في القضية ، وأثناء انعقادها نفى هيو الثاني الاتهام الموجه إليه وادعى انه بريء ولم يرتكب أيَّ ذنب ، فتم تحديد موعد آخر لمناقشة القضية إلا أن هيو الثاني لم يحضر في الموعد المحدد لجلسة المحكمة لكي يرد على الاتهامات وبناءاً على ذلك أدانته المحكمة غيابياً بالتهمة الموجهة إليه وقررت مصادرة أملاكه ، وعندما علم هيو بتلك الإدانه توجه إلى مدينة يافا للاحتماء بها ، وما أن علم الملك فولك بذلك حتى توجه بالجيش الملكي وبوصوله إليها فرض حصاراً شديداً عليها مما اضطر هيو الثاني إلى الاستسلام ، وعلى اثر ذلك نفي هيو الثاني خارج حدود البلاد لمدة ثلاث سنوات ، وكان ذلك سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م وبذلك عادت كونتيه يافا للسيادة الملكية [٣].

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد بل حاول رومان بويه ***Roman Puy*** سيد إقطاع الشوبك وإقليم ما وراء نهر الأردن مسانده هيو بوزيه ضد الملك فولك الذي اتهمه بالخيانة العظمى لخروجه عن طاعة الملك فقام سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣١م بانتزاع إقطاعيته ، وقرر حرمان ابنه راؤل من وراثته ، ثم بذل فولك الإقطاع إلى باجان الساقي أحد كبار موظفي

---

[١] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٩٢.

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٧٦.

[٣] تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٦٧٥-٦٧٦.

البلاط الملكي [١] .

أما عن الخدمة الحربية في مملكة بيت المقدس الصليبية فلم تكن محددة بموسم معين أو أيام معدودة في السنة كما هو الحال في الغرب الأوربي [٢] فقد تطلبت ظروف إقامة الصليبيين في بلاد الشام وما كان بينهم وبين المسلمين من حروب شبه مستمرة أن تكون الخدمة العسكرية غير محددة ولا سيما أن الصليبيين كانوا دائماً معرضين لهجمات المسلمين الذين كانوا يسعون لاسترجاع بلادهم المغتصبة [٣] فضلا عن أن الملك الصليبي كان في حاجة دائمة لخدمة الفرسان والجنود من أجل شن الهجمات على البلاد الإسلامية المجاورة والتوسع على حساب المسلمين ولكي يتمكن من صد أية هجمة إسلامية مفاجئة على حدود مملكته . ومن البديهي أن الصليبيين أدركوا حقيقة وضعهم في الأراضي المقدسة ، ورأوا أن الضرورة تحتم عليهم بعدم تحديد الخدمة العسكرية بمدة معينة من السنة لان الحرب كانت قائمة ومستمرة ، ومعنى ذلك أن ملك وأمراء القدس استطاعوا التكيف مع الوضع في الأراضي المقدسة فيما يتعلق بالخدمة الحربية وجعلها على مدار السنة ، وفي الوقت ذاته حدّد القادة الصليبيون عدد الفرسان والجنود المفروض على كل سيد إقطاعي أن يقدمهم لملك بيت المقدس [٤] فكان على كل من أمير الجليل وسيد بارونية صيدا وكونتية يافا وعسقلان أن يقدموا للمملكة مائة وخمسين فارساً بكامل عدتهم في وقت الحرب ، كما أن إمارة الكرك والشوبك كانت تقدم ستين فارساً [٥] أما إقطاعية الخليل فكانت تقدم عشرين فارساً ، وقيسارية خمسة وعشرين فارساً ، ويبنى خمسين فارساً ، بينما كانت إقطاعيةبيروت تقدم واحداً تقدم وعشرين فارساً في حين كانت أسقفية اللد والرملة تقدم عشرة فرسان ورئاسة أسقفية الناصرة

---

[١] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٣٧٠ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٣١ ؛ العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ص ٣٧٥ .

[٢] كانت مدة الخدمة العسكرية التي يؤديها الاتباع في أوربا الغربية تقتصر على أربعين يوماً في السنة . ينظر : باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٥٧ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٤٣ . وحين تكون الإقطاعية في خطر كان يتحتم على الاتباع الاستمرار في الخدمة طوال المدة التي تتطلبها الأحوال . ينظر : بانتر ، " أوربا الغربية " ، ص ١٩ .

[٣] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٧٩ ؛ " ملامح المجتمع " ، ص ٣٠ .

[٤] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٩٤ .

[٥] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٧٦ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٧٩ .

ستة فرسان [١] .

أما فيما يتصل بالمدن التابعة للتاج الملكي ، فقد التزمت بتقديم خدمات الفرسان ، وفقاً لثروتها من الأراضي والإقطاعيات النقدية ، فكان على مدينة القدس أن تقدم واحداً وستين فارساً ، بينما تبذل نابلس خمسة وسبعين فارساً ، وتقدم عكا ثمانين فارساً [٢] وكان على صور أن تقدم ثمانية وعشرين فارساً ، أما الداروم فكانت تقدم فارسين فقط [٣] .

أما بالنسبة للكنيسة فعلى الرغم من المنح والهبات التي حصلت عليها من أراضي المسلمين التي استولى عليها الصليبيون إلا أنها لم تكن تقدم خدمات الفرسان بل كانت تمد المملكة الصليبية بالأموال [٤] .

ولم يقتصر دور المدن التابعة لمملكة بيت المقدس الصليبية على خدمات الفرسان بل أسهمت أيضا في تقديم خدمات السرجندية ***Sergeants*** [٥] للجيش الملكي [٦] فكانت مدينتا القدس وعكا تقدمان خمسمئة سرجندي [٧] بينما تقدم نابلس ثلاثمئة سرجندي ، ويافا مئة سرجندي وعسقلان مئة وخمسين سرجندياً ، وطبرية مئتين سرجندي أما قيسارية وارسوف

---

[١] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٩٤-٩٦ .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٧٧-٤٧٨ .

[٣] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٩٦ .

[٤] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٩٨ ؛ العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ص ٣٢١ .

[٥] السرجندية : أشار الأصفهاني في حوادث سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠م ، إلى لفظة سرجندي : أي كرار ، ويبدو أن كلمة كرار تعني الفارس الخفيف التسليح يستخدم للهجوم أثناء القتال .ينظر : الفتح القسي ، ص ٤٠٣ ؛ كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٩٨ ؛ بلدوين ، " اضمحلال وسقوط " ، ص ٢٧٠ . وقد ذكر رنسيمان أن السرجندية هم في الأصل مشاة الجيش الصليبي الكاملي التسليح .ينظر : المدنية البيزنطية ، ص ٢١٧ ؛ ويتفق سميل مع رنسيمان على ان السرجندية كانوا جنوداً مشاة ، ويدعم وجهة نظره هذه بالقول أن الرجل المعد للقتال كفارس كان من المعدات الباهضة التكاليف برغم ثراء الكنيسة والطبقة البرجوازية ، مع الأخذ بنظر الاعتبار أن خدمة اثنين من السرجندية مساوية لخدمة فارس واحد .ينظر : الحروب الصليبية ، ص ٩٧ . وعلى الرغم من أن الاراء المختلفة حول السرجندي ، ولكن الراجح انه كان من فئة الفرسان الذين كانوا يحملون الأسلحة الخفيفة في المعارك ضد المسلمين .

[٦] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٧ ؛ سميل ، نفسه ، ص ٩٧ .

[٧] سميل ، نفسه ، ص ٩٧ .

وحيفا فكان كل منها يقدم خمسين سرجندياً ، في حين التزمت كل من الرملة ورأس العين ويبنى بتقديم مئة وخمسين سرجنديا ، وكانت جنين تقدم خمسة وعشرين سرجندياً هذا فضلا عن قيام بطريرك بيت المقدس ورؤساء الأساقفة ورؤساء الكنائس والأديرة بتقديم خدمات السرجندية لملك بيت المقدس [١] إذ التزم البطريرك وهيئة رجال الدين في كنيسة القيامة بتقديم خمسمائة سرجندي بينما تعهد أسقف بيت لحم بتقديم مائتي سرجندي ، وتولى رئيس أساقفة صور تقديم مئة وخمسين سرجندياً ، وسار على نهجه رئيسا ديري القديسة ماريا يوسيفات وجبل صهيون [٢] .

ومما يجدر ذكره أن أصحاب الإقطاعيات أو مستأجريها كانوا يقدمون خدمات الفرسان على أساس العلاقات الإقطاعية ، ومقابل ما تحت أيديهم من اقطاعات نقدية أو عينية وبذلك شكلت خدمات الفرسان التي كان يقدمها هؤلاء الإقطاعيون أو مستأجرو الأراضي العمود الفقري لجيش مملكة بيت المقدس الصليبية [٣] .

أما فيما يتعلق بالطبقة البرجوازية فكانت تقدم خدمات السرجندية كالتزام على أساس الملكية التي يحتفظون بها وليس على أساس العلاقات الإقطاعية ، كما أن أفراد الطبقة البرجوازية لم يكونوا مرتبطين بسادة الإقطاعيات بالالتزامات نفسها التي كان يفرضها النظام الإقطاعي ، إذ لم يقع على عاتقهم مسؤولية تقديم الخدمة العسكرية ، فقد كانوا يعقدون الاتفاقيات مع السادة الإقطاعيين يمنحون بموجبها الإعفاء من الخدمة العسكرية [٤] وعلى الرغم من ذلك إلا أن الطبقة البرجوازية كانت ملزمة بتقديم خدمات السرجندية عند استدعائها في حالة الطوارئ [٥] فقد كانوا يقدمون خمسمئة سرجندي لجيش المملكة الصليبية [٦] خاصةً إن الحرب كانت مستمرة بين الصليبيين والمسلمين ، وكانت حدود ملكة بيت المقدس معرضة بصورة دائمية

---

[١] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٩٧-٩٨ .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ٤٩٨-٤٩٩ ؛ سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٩٧ .

[٣] سميل ، نفسه ، ص ٩٥ .

[٤] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٩٨ .

[٥] سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٩٧ .

[٦] النقر ، " التغيرات الإدارية " ، ص ٦٧٤ .

لهجمات المسلمين ، وهذا يعني أن خدمات السرجندية التي تقدمتها الطبقة البرجوازية كانت مستمرة لأن جيش المملكة كان في حالة طوارئ بصورة دائمة [١] .

أما عن طبيعة العلاقة بين الملك الصليبي وبين اتباعه السادة الإقطاعيين فقد كانت تحكمها حدود وأبعاد العلاقات والروابط الإقطاعية التي عرفها الغرب الأوربي في العصور الوسطى ونقلها الصليبيون معهم إلى بلاد الشام ، فقد كان السادة الإقطاعيون يقدمون يمين الولاء والطاعة إلى الملك الصليبي فضلا عن الالتزامات الإقطاعية الواجبة عليهم وخاصة الخدمة العسكرية [٢] إذ كان من حق الملك أن يطالبهم بأدائها في أي وقت من السنة [٣] .

وكان يتوجب على السيد الإقطاعي أن يحلف يمين الولاء وان يركع أمام الملك ويضم يديه ويضعها بين يدي الملك [٤] وكان اولئك السادة الإقطاعيون يملكون القلاع المهمة بصفة اقطاعات ينعم بها الملك عليهم ، وكان بعضهم يملك أراضٍ واسعة مثل كونتية يافا وعسقلان وإمارة الجليل وأراضي ما وراء نهر الأردن (الكرك والشوبك) وإقطاعية صيدا ، وكان لهم اتباع من أمراء القلاع اقل أهمية وفرسان تلقوا اقطاعات على هيئة قرى وأراضٍ هذا فضلا عن انهم يتمتعون بالحقوق المدنية والقضائية الكاملة [٥] وقد اصبح لاولئك السادة الإقطاعيين نفوذ ومكانه في مملكة بيت المقدس الصليبية نافست سلطة الملوك فلا تصدر التشريعات القانونية ولا تبذل الإقطاعيات إلا بمواقفهم [٦] كما أن السادة الإقطاعيين كانوا ملزمين بتقديم الخدمة الحربية بان يبذلوا للملك عدداً معيناً من العساكر كلما طلب منهم ذلك [٧] .

ولما كان الملكُ مقيداً في كثير من المسائل المهمة برأي أمرائه ورأي المحكمة العليا فلم يكن بوسعه أن يعزل أي أمير عن اقطاعه إلا بعد موافقة المحكمة العليا [٨] التي تألف من كبار

---

[١] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٩٨ .

[٢] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٣٢ – ٢٣٣ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٧٩ .

[٣] زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٤٢ .

[٤] بانتر ، " أوربا الغربية " ، ص ٢١ ؛ العريني ، الحضارة والنظم ، ص ١٠ – ١١ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٨٠ – ٨١ .

[٥] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٤ .

[٦] باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٥٦ .

[٧] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٧٦ ؛ ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٤ .

[٨] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٨١ .

الإقطاعيين في المملكة الصليبية والذين دانوا بالولاء المباشر للملك ، وعلى الرغم من أن الملك كان زعيم النبلاء ورئيس المحكمة العليا إلا انه خضع للقانون الذي جعل مكانته مساوية لمكانة سائر أفراد المجتمع الصليبي في بلاد الشام [١] .

ومن الجدير بالذكر هنا أن فكرة المساواة بين الملك ونبلائه لم تلبث أن أدت بمرور الزمن إلى ملكية وراثية فإذا كان الملك قد حاز مملكته على أنها إقطاع شأنه في ذلك شأن النبلاء ، فان ما يسري على الإقطاع من قوانين التنازل يجري أيضا على المملكة ، وتلك القوانين قضت بوراثة الإقطاع [٢] .

وقد حصل العديد من السادة الإقطاعيين على اقطاعات نقدية والمقصود بذلك انهم حازوا خراجاً نقدياً ثابتاً من بعض المدن والقرى ، وتلك المنح أي الإقطاعيات النقدية يصبح توارثها ويكاد يكون متعذراً على الملك إلغاؤها وكل ما كان بوسع الملك أن يفعله مثلما يحدث في اقطاعات الأراضي عند وفاة حائز الإقطاع من دون أن يترك ورثة أو على الأقل لم يترك سوى ابنته ، إذ كان للملك الحق في أن يختار لها زوجاً أو أن يصر على أن يقع الاختيار على واحد من بين ثلاثة يرشحهم للزواج منها [٣] ومع ذلك إلا أن الملك كان لا يستطيع إكراهها على الزواج من دون رغبتها ، فعلى سبيل المثال عرض الملك بلدوين الثالث في سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م ، على كونستانس أميرة انطاكية بعد وفاة زوجها ريموند أن تختار زوجاً آخر ، واقترح عليها واحداً من بين ثلاثة رجال تقدموا لخِطبتها ، كان المرشح الأول ايفز نسل [٤] بينما كان المرشح الثاني والتر فولكنبيرغ [٥] أما المرشح الثالث فكان رالف ميرل [١] غير أن كونستانس

---

(١) رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٨١ – ٤٨٢ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٥٥ .

(٢) باركر ، نفسه ، ص ٥٥ .

(٣) رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٧٧ ؛ عاشور ، " ملامح المجتمع " ، ص ٣٠–٣١ .

(٤) ايفز نسل : هو أحد النبلاء الفرنسيين المشهورين كان كونتا لمقاطعة سواسون ، وتمتع بنفوذ كبير في فرنسا ، قدم إلىفلسطين في أعقاب الحملة الصليبية الثانية ووصف بانه كان رجلاً لامعاً حكيماً . ينظر : الصوري ، تأريخ الحروب ج ٢ ، ص ٨٠٤ .

(٥) والتر فولكنبيرغ : هو أحد النبلاء الصليبيين ينتمي إلى أسرة سانت اومر وكان صاحب قلعة القديس اومر ، وبعد قدومه إلى بلاد الشام اصبح حلكاً لامارة الجليل ، وكان رجلاً عاقلاً وحكيماً في المشورة وجريئاً في الحرب . ينظر: نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٠٤ .

اعترضت على الزواج ولم توافق على أي من هؤلاء المرشحين . ويرجع الصوري أسباب رفضها الزواج لخوفها من عبء الزواج وأنها كانت تفضل حياة دون قيود فضلاً عن نصيحة بطريرك انطاكية للأميرة كونستانس برفض الاقتراح حتى لا تضعف سلطته [٢] غير أن تلك الأسباب لا تبدو مقنعة والراجح ما ذكره ماير بان سبب إمتناع الأميرة كونستانس عن الزواج يتمثل في عدم توافر المرشح المناسب لها من حيث المكانة الاجتماعية ، وكان من الممكن أن يتفق عليه الملك بلدوين الثالث ووالدته ميليسند ، ولكن موافقتها على الزواج يعني ان انطاكية ستفقد دعم نصف مملكة بيت المقدس [٣] .

أما عن واجبات الملك الصليبي تجاه السادة الإقطاعيين ، فقد وردت بوضوح في قوانين مملكة بيت المقدس ***Assizes Jerusalem*** ، فالقسم الذي حلفه الملك لرجاله يلزمه باحترام حقوقهم والمحافظة عليها ولتلك الحقوق من الأهمية ما للواجبات المفروضة عليهم فإذا شعر المقطعون بان الملك لم يحافظ على القسم الذي قطعه على نفسه فلهم شرعاً وقانوناً الحق في أن يرفضوا ما هو مطلوب منهم من خدمة عسكرية وان يقوموا بثورة ضده [٤] كما كان على الملك أن يقوم بتعويض السادة الإقطاعيين عن خسائرهم في الحروب فضلا عن واجبه في توفير الحماية للإقطاعيات ضد خطر الهجمات الخارجية ، وإقامة التحصينات والقلاع اللازمة لحمايتها ، ولذلك قام الملك بلدوين الأول ببناء قلعة نابلس ، وشيَّد برجاً أمامها عرف باسم نابلس ***Turris Beapolitana*** وظيفته الدفاع عن المدينة ضد أي خطر خارجي [٥] .

---

[١] رالف ميرل : هو احد ابرز بارونات كونتية طرابلس . ينظر رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٥٣٤ . ويعد أحد النبلاء المشهورين ، ينحدر في أصوله إلى أسرة ميرل التي كانت تمتع بمكانة سامية عرف عنه خبرته في الشؤون العسكرية ، فضلا عن تمرسه على استخدام مختلف الأسلحة . ينظر : الصوري ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٨٠٤

[٢] نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٠٤ – ٨٠٥ .

[٣] تأريخ الحروب ، ص ١٦٧ .

[٤] باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٥٦ .

[٥] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٨١ .

وقد أشار ابن شداد إلى وجود حصنين في مدينة نابلس سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م [١] وكان أيضا من بين الواجبات المهمة لملك بيت المقدس تطبيق القوانين وحماية الكنائس والحفاظ على أرواح الناس هذا فضلا عن قيادة الجيوش [٢]

وقد حاول الملوك الصليبيون الحد من نفوذ السادة الإقطاعيين وذلك من خلال قوانين التبعية الاقطاعية [٣] . فقد أصدر الملك بلدوين الثاني قانوناً أجاز له حرمان أحد الاتباع من اقطاعه [٤] عرف ذلك القانون بقانون بلدوين ***Etablissement du Roi Bauduin*** تضمن اثنتي عشرة حالة محددة بدقة يحق للملك أن يصادر اقطاعات من دون أي محاكمة أو موافقة المجلس الإقطاعي على أن تطبيق ذلك القانون لم يكن على أساس ارتكاب جنحة في ضوء قانون الإقطاع وانما لأخطاء ارتكبت ضد الدولة الصليبية التي يمثلها الملك والتي أدت إلى انخفاض في الموارد المالية مثل تزوير النقد وسك عملة خاصة والخروج على قوانين الدولة بخصوص التجاوزات في الموانئ والطرق هذا فضلا عن ما ذكرناه سابقاً حول مصادرة الإقطاع ، إذا ارتكب صاحبه جرائم سياسية مثل الخيانة العظمى والتآمر على قتل الملك والامتناع عن تقديم يمين الولاء والتبعية [٥] .

أما الملك املريك الأول فقد حاول أن يعزز مركزه في حكم مملكة بيت المقدس الصليبية ، فأصدر خلال السنة الأولى من حكمه أي سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٣م قانوناً عرف باسم قانون التبعية ***Assises Sur La Ligece*** [٦] الذي يعد من أهم القوانين التي صدرت في زمن الصليبيين في الشرق لما أحدثه ذلك القانون من تغيرات بالغة الأهمية في قوانين تجزئة الإقطاع

---

[١] النوادر السلطانية ، ص ٦٧ .

[٢] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٨٢ .

[٣] كاهن ، الشرق والغرب ، ص ٢٠١ .

[٤] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٥ .

[٥] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٣٣ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٤٦ .

[٦] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٥٨٦ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٣٤ ؛ العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ص ٦٥٣ . على أن قانون التبعية الذي أصدره الملك املريك الأول لم يكن المحاولة الأولى من نوعه إذ جرى صدور قانون يحمل احكاماً مشابهة لقانون التبعية في عهد ملك انكلترا وليم الأول (٤٥٩-٤٨٠هـ/ ١٠٦٦-١٠٨٧م) . ينظر : بلدوين ، " الدويلات اللاتينية " ، ص ٢٠٥ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٥٦ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٤٦ .

بالمملكة [١] وقد أعلن ذلك القانون أن الملك هو السيد الأعلى بالنسبة لجميع الإقطاعيين في مملكة القدس الصليبية [٢] اجاز للتابع الالتجاء إلى المحكمة العليا لعرض شكواه ضد السيد الإقطاعي وتضمن مطالبة اتباع الاتباع أي اتباع السادة الإقطاعيين بان يؤدوا يمين الولاء والتبعية مباشرةً للملك [٣] في الوقت الذي يقسم برجوازيو المدن الحصينة له اليمين بعدم استخدام تلك المدن ضده ، وكان ذلك الإجراء احتياطاً لإحباط مخططات الأعيان [٤] .

وكان صدور ذلك القانون عقب النزاع الذي حدث بين الملك املريك الأول وبين أمير صيدا جيرار بسبب قيام أمير صيدا بانتزاع إقطاع أحد الاتباع من دون سبب أو مبرر من دون موافقة الملك أو المحكمة العليا فساند الملك املريك التابع وأرغم جيراد على أن يعيده إلى اقطاعه [٥] .

والواقع إن الغرض الأساسي لقانون التبعية هو ربط الإقطاعيات الصغيرة في إطار اتحاد الإقطاعيات بالملك مباشرةً عن طريق أداء اليمين . إذ حاول من خلالها الملك املريك البحث عن دعم لدى صغار النبلاء ضد كبار النبلاء وإدخالهم في نطاق السلطة الملكية [٦] مما أدى إلى تضاؤل سلطة كبار المقطعين مقابل ازدياد في قوة الملك الذي اخضع لسلطانه المحكمة العليا [٧] .

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها الملك املريك للاتصال المباشر باتباع الاتباع بموجب قانون التبعية إلا أن محاولته لم يكتب لها النجاح إذ لم يتم تحالف حقيقي بين الملك

---

(١) العريني ، " نمو طبقة النبلاء " ، ص ٥٣ .

(٢) زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٤٦ .

(٣) رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٥٨٦ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٥٦ .

(٤) ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٥ .

(٥) العريني ، " " نمو طبقة النبلاء " " ، ص ٥٤ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٤٦ .

(٦) ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٣٤ .

(٧) رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٥٨٦ ؛ بلدوين ، " الدويلات اللاتينية " ، ص ٢٠٥ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٤٦ .

وبين صغار النبلاء ضد طبقة كبار النبلاء التي تليه مباشرةً في المكانة ، فظلت طائفة كبار السادة الإقطاعيين تحد من سلطة الملك وأضحت موافقتهم لازمة لصدور التشريعات القانونية ومنح الإقطاعيات [١] .

---

[١] باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٥٦ .

ثانيا: السياسة الاستيطانية في المملكة الصليبية

أ. نقص العنصر البشري وتشجيع الهجرة

لقد كان نجاح الغزو الصليبي وتواصل الامداد من الغرب الأوربي للدفاع عن الكيانات الصليبية يعتمد بشكل مباشر على عنصر القوة البشرية وقد أظهرت تلك المشكلة اكثر من غيرها الفشل الأكبر للصليبيين ، كما برهنت على كونها السبب الجوهري في الفشل المطلق للكيانات الصليبية في الشرق (١) فبعد أن حققت الحملة الصليبية الأولى هدفها المعلن وهو احتلال القدس غادر بعض كبار القادة الصليبيين إلى أوربا مثل روبرت دوق الفلاندر و روبرت النورماندي (٢) بينما ظلّ العدد الأكبر من القادة الآخرين أبرزهم جودفري البويوني وبلدوين الأول وبلدوين الثاني ، وريموند كونت تولوز وتانكرد متواجدين في بلاد الشام فقد كان عليهم أن يقوموا بمهمة الإدارة الاستعمارية الاستيطانية ، ولانهم كانوا اقل كثيراً في عددهم مقارنة بالعرب المسلمين أصحاب البلاد (٣) فقد حاولوا قدر المستطاع أن يشجعوا الهجرة من أوربا إلى فلسطين لدعم وجودهم فيها ، ومن ناحية أخرى كانت أخبار النجاح الذي حققته الحملة الصليبية الأولى ، قد شجعت عناصر أوربية جديدة على القدوم إلى بلاد الشام رغبةً في الحصول على نصيب من المغانم والمكاسب التي شاعت أخبارها في الغرب الأوربي مع العائدين من فلسطين (٤) .

فبعد احتلال القدس أصبحت المدينة المقدسة خالية من السكان بسبب سلوك الصليبيين الهمجي ، وفي المقابل لم تكن أعداد الصليبيين تكفي لملء شارع واحد من شوارع مدينة القدس حسب قول الصوري (٥) وبقيت المشكلة الرئيسة التي واجهت الصليبيين هي نقص العنصر

---

(١) براور ، عالم الصليبيين ، ص ٩٤ .

(٢) حدد الصوري أسباب رحيل القائدين روبرت دوق فلاندر وروبرت النورماندي إلى بلادهما بوصف أن رحلة الحج التي كانا قد بدأها قد انتهت بنهاية ناجحة باحتلال مدينة القدس وبانتهاء المهمة أبحرا باحدى السفن إلى القسطنطينية ، حيث استقبلهما الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين بحفاوة ومنحهما الهدايا ثم توجها منها إلى أوربا . ينظر : تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٦١ .

(٣) الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٧٩ ؛ براور ، عالم الصليبيين ، ص ٩٤-٩٥ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٠٠ .

(٤) قاسم ، ماهية الحروب ، ص ١٣١ ؛ البيشاوي ، " دراسة مقارنة " ، ص ٩٥ .

(٥) تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٦٠ .

البشري وعدم تناسب ذلك النقص مع سعة المنطقة التي أُستُحوذَ عليها [١] وقد انتبهت السلطات الصليبية لتلك الظاهرة وحاولت معالجتها منذ بداية وجودهم في بلاد الشام فالامير جودفري البويوني الذي يعدُّ واضع قواعد التنظيم الإداري الاستيطاني على أسس مشابه للتنظيم الإقطاعي الأوربي اتخذ بعض الإجراءات بهذا الصدد ، فقام بتوزيع الأرضي التي أُفرِغت من أهل مدينة القدس من المسلمين والنصارى واليهود كما اقر مبدأ الاستملاك الذي كان الصليبيون قد اتفقوا عليه قبل احتلالهم المدينة والذي أعطى بموجبه كل صليبي يضع يده على منزل أو ارض الحق في ملكيتها مطلقاً [٢] كما عمد إلى طرد من ظلوا على قيد الحياة من السكان الاصليين ، وذلك بهدف مزدوج : تأمين حماية المواقع بإزالة العناصر القابلة للتحالف مع مهاجم محتمل ، وتخليص المدينة المقدسة وانتزاعها من حكم المسلمين [٣] .

ولم يكتف الأمير جودفري بذلك بل طلب أثناء توديعه لبعض من قادة الصليبيين العائدين إلى أوربا أن يبذلوا قصارى جهدهم لتشجيع الأوربيين للقدوم إلى الشرق بهدف (القتال من أجل الصليب) مذكراً إياهم بالوضع الحرج الذي اصبح عليه باقي الصليبيين ولاسيما وان الأخطار بدأت تهددهم وتحيط بهم ، وعندما توجه كل من بوهيمند وبلدوين ومعهم أعداد كبيرة من الصليبيين قادمين من انطاكية للحج إلى القدس حاول الأمير جودفري أن يقنع قسماً منهم على البقاء في فلسطين مقابل منحهم الضياع واستطاع أن يحقق بعض النجاح بهذا الخصوص [٤] .

وعندما اصبح بلدوين الأول ملكاً لمملكة بيت المقدس الصليبية سنة ٤٩٤هـ / ١١٠١م لم يكن هناك من القوة البشرية ما يكفي لتثبيت أركان المملكة الناشئة ، إذ كانت معظم المواني البحرية الهامة لا تزال خاضعة لسيطرة المسلمين ، كما أن الأراضي التي استولى عليها الصليبيون كانت لا تزال بحاجة إلى دعم [٥] .

---

[١] محسن يوسف ، " سكان القدس في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي " (مجلة المؤرخ العربي ، بغداد : ١٩٩٩م) ، ع٥٧ ، ص ٩٤ ؛

Grousset , Histoire des Croisades , Vol. I , pp. 218-219

[٢] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٧٦ .

[٣] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٤٨ ،

[٤] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٢٠ ، ٤٢٦ – ٤٢٨ ؛ سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٣٠ .

[٥] قاسم ، ماهية الحروب ، ص ١٣١ .

ففي القدس واجه توطين المدينة بالسكان إشكاليات على الرغم من أن كل جهود الحملة الصليبية الأولى وجهت إلى تلك المدينة التي قتل معظم سكانها في سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م ولم يغير الصليبيون تلك السياسة تجاه سكان المدن الشامية إلا بعد احتلالهم مدينة صيدا في سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م ، ومن دون شك أن القدس كانت عاصمة المملكة الصليبية ونظمت فيها الإدارة السياسية والكنسية إلا أنها كانت تفتقر إلى جميع الركائز الاقتصادية باستثناء ركيزة الحج فلم يوجد فيها إنتاج أو تجارة خارجية [١] ونظراً لظروف الحياة الصعبة في المدينة وانعدام الأمن فيها لم يتجاوز سكان القدس في بداية عهد الملك بلدوين الأول بضع مئات من المستوطنين الصليبيين [٢] وهذا يعني أن الصليبيين لم يشكلوا سوى أقلية لأجل الاستيطان في المدينة وأريافها التي هجرها أهلها المسلمون بأعداد كبيرة [٣] .

وقد أدرك المؤرخ الصليبي الشارتري أهمية العنصر البشري في عملية الاستيطان وعدَّهُ عنصراً رئيساً لعمليات التوطين الصليبي في الأراضي المقدسة منذ الفترة المبكرة لوجودهم فيها إذ قال ((***بقي بعضهم بعد ذلك في الأراضي المقدسة وعاد الاخرون إلى مواطنهم ، وقد بقيت أراضي القدس خالية من السكان لهذا السبب ، ولم يتوفر فيها من الناس من يدافع عنها ، لو أن الشرقيين (المسلمين) جرؤوا على مهاجمتنا***)) [٤] ومن أجل معالجة الأزمة وتعويض النقص الحاد في عدد السكان الذي تعانيه المدينة المقدسة لجأ الملك بلدوين الأول إلى سياسة تشجيع الهجرة والاستقرار في القدس [٥] على أن تكون تلك الهجرة الاستيطانية ذات كثافة كافية بما يكفل المستقبل الزراعي والاقتصادي لمملكة بيت المقدس الصليبية [٦] .

---

[١] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٢٧ .

[٢] نفسه ، ص ٢٢٥ .

[٣] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٥٨ .

[٤] تأريخ الحملة ، ص ١١٢ ؛ وقارن مع ما ذكره الصوري بهذا الصدد ((***لاحظ الملك (بلدوين) بقلق كبير أن المدينة المقدسة كانت خالية من السكان تقريباً ، حيث لم يكن هنالك عدد كاف من الناس لمواصلة المشاريع اللازمة للمملكة ، وبالفعل لم يكن هنالك عدد كاف لحماية المداخل إلى المدينة وللدفاع عن الاسوار والابراج من خطر هجمات معادية مفاجئة***)) . ينظر : تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٦٠ .

[٥] الصوري ، نفسه ، ج١ ، ص ٥٦٠ – ٥٦١ .

[٦] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٥٨ .

ففـي السـنوات الأخيـرة مـن حكمـه أمـر الملـك بلـدوين الأول بنقـل النصـارى الشـرقيين (الأرثـوذكس) مـن القـرى الواقعـة فيمـا وراء نـهر الأردن إلـى مدينـة القـدس ، وعنـدما قـدموا إليهـا استقبلهم الملك بلدوين وزوجاتهم وأطفالهم ومنحهم أجزاءاً من المدينة المقدسة ووفر لهم المساكن للإقامـة فيها ، كما جرى تخصيص أماكن لقطعانهم ومواشيهم [١] هذا فضـلا عن توفيره فرصـة العمل لهم في الأراضي الزراعية التي تركها المسلمون اثر استيلاء الصليبيين عليها [٢] وجاءت تلك لهجرة بنـاءاً علـى عـاملين ، الأول : لأن المدينـة المقدسـة كانـت بـأمس الحاجـة إلـى سكان يمـلأون فراغهـا المـوحش ، ولعـل ذلـك الأمـر ينطبـق علـى معظـم المـدن الشـامية التـي أحتلهـا الصليبيون [٣] أما العامل الثاني الذي ساعد على جذب المستوطنين للاستقرار فيها فهو روعة المدينة ومكانتها الدينية لدى عموم النصارى الشرقيين والغربيين [٤] وقد أدت تلك الهجرة تدريجياً إلـى حدوث زيادة ملحوظـة فـي عدد سكانها حتـى وصـل العدد إلـى حوالي عشرة آلاف شـخص استقروا فيها بشكل دائم ، وبدورها أدت تلك الزيادة المضطردة في عدد السكان إلى خلق مشكلة أخرى تتعلق بتزويدهم بالطعام [٥] لذا قام خليفة الملك بلدوين الثاني بإصدار مرسوم في سنة ٥١٢هـ / ١١٢٠م تضمن إعفاء التجار الصليبيين من الضرائب والرسوم التـي كانت تفرض علـى السلع والبضائع سواءً المستوردة الداخلة إلى المدينة المقدسة أو المصدرة الخارجة منها مهما كان نوعها كما منح النصارى من جميع الطوائف كالسريان والاغريق والأرمن امتياز يحق لهم استيراد الحبوب من القمح والشعير وغيرها وجلبها إلى مدينة القدس من دون ضريبة هذا فضـلاً عن إلغاء الضـريبة التـي كانـت تفرض علـى الأوزان والمكاييـل ، وقـد جـاءت محاولـة الملـك بلـدوين الثـانـي لكسب ود السكان ومن أجل تحقيق غرضـين ، الأول : اقتصـادي لتنشيط الفعاليات الاقتصـادية عـن طريـق تـوفير المـواد الغذائيـة فـي المدينـة بشـكل افضـل إذ أصـبحت إمكانيـة جلـب السـلع والبضائع من الخارج أمرا سهلاً ما دامت معفوة من الضرائب ، أما الغرض الثاني : فهو إداري استيطاني ، فقد سار الملك بلدوين الثاني علـى نهج أسلافه الملوك الصليبيين في زيادة عدد

---

[١] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ١٦٣ – ١٦٤ .

[٢] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٦٠– ٥٦١.

[3] *Prawer , "The S ettlement ," PP . 490 - 491.*

[٤] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٦١ .

[٥] النقر ، " التغيرات الإدارية " ، ص ٦٥٧ .

سكان مدينة القدس التي كانت بحاجة للعنصر البشري في خدمة مشروع الاستيطان الصليبي آنذاك [١] .

أما الملك املريك الأول فقد حاول أن يستقدم إلى مملكة بيت المقدس حوالي ثلاثين ألف شخص من الأرمن ، وكانوا سيجلبون إليها مقابل أن يؤدوا الخدمة العسكرية في جيش المملكة الصليبية ولكن محاولته باءت بالفشل الذريع لأن الكنيسة طالبت بعشر خاص بها كانت تفرضه على كل مورد من الموارد في حين اعفي المسلمون من ذلك العشر [٢] .

أما البابوية فقد كان لها دور بارز أيضا قي تشجيع الاستيطان في الشرق وذلك من خلال ما أصدرته من تعليمات تعدّ فيها مسألة السفر والإقامة في الأراضي المقدسة من باب التكفير عن الذنوب [٣]وبناءاً على ذلك فقد كان بعض الآلاف من الحجاج النصارى يأتون كل عام لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين وبمجرد وصولهم إليها كان بعضهم يستقر فيها [٤] كما توافدت أعداد من الفرسان من أوربا لتأدية نذورهم للخدمة في فلسطين سنة أو سنتين [٥] وجاء ذلك التشجيع نتيجة لأنباء الانتصارات وطلبات التعزيز التي كانت تصدر عن الشرق فعقد العديد منهم العزم على المشاركة في العمليات العسكرية وكان من بينهم أيضا من يشارك لاول مرة [٦] ولم يقتصر دور البابوية لهذا عند ذلك الحد بل استمر دعمها في توجيه الحملات الصليبية ، وعلى الرغم من ان بعضاً من تلك الحملات لم تحقق نجاحاً ملموساً مثلما حققته الحملة الصليبية الأولى بدليل انه لم ينظم إلى المستوطنين الأولين سوى أعداد قليلة [٧] ويعود سبب ذلك إلى الخسائر الفادحة التي تعرضت لها الجيوش الصليبية في سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م على يد

---

[١] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٨٨ .

[٢] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٣٢ .

[٣] نفسه ، ص ٣١، ٤٦ – ٤٧ .

[٤] ريشار ، تكوين المملكة ، ص ١٥٧ .

[٥] بنيامين بن يونا التطيلي ، رحلة بنيامين ، ترجمة : عزرا حداد (المطبعة الشرقية ، بغداد : ١٩٥٤م) ، ص ١٠٠ .

[٦] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٠٦.

[٧] باركر ،الحروب الصليبية ، ص ٦٨ .

الدانشمنديين [١] وكذلك خسائرهم على يد المسلمين في الحملة الصليبية الثانية [٢] سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م فكان لتلك الأمور دور في تقليص الاستيطان الصليبي في مملكة بيت المقدس وفوق ذلك كله نظرة الشك والريبة للمستوطنين الأولين تجاه القادمين الجدد بوصفهم منافسين لهم ولذلك لم يرحبوا بالإمدادات التي جاءت لمساعدتهم وعدوا مجيئهم لتحقيق أطماع ومكاسب تتمثل بإقامة إمارات جديدة خاصة بهم في بلاد الشام [٣] .

أما بالنسبة للمدن الإيطالية الثلاث البندقية وجنوه وبيزا فقد أسهمت في تنفيذ فكرة الاستيطان الصليبي ، إذ قامت بدور فاعل في ربط إمارات الشام الصليبية بالغرب الأوربي كما بذلت المساعدة للصليبيين ولم تفعل ذلك بسبب وازع ديني وانما طلبت نظير ذلك امتيازات تجارية هامة وحصلت عليها [٤] فعلى سبيل المثال أدركت البندقية أن استيلاء الصليبيين على مدن بلاد الشام في الحملة الصليبية الأولى سيفتح لها منفذاً إلى تجارة الشرق لذا سارعت البندقية إلى مباركة الحركة الصليبية ، وتقديم كل مساعدة ممكنة للصليبيين مقابل الحصول على امتيازات تجارية في المدن التي استولى عليها الصليبيون في الشرق كما سنرى فدخول البندقية دائرة الحروب الصليبية تحكمت فيه مطامعها الدنيوية ورغبة في إقامة مستعمرات في بلاد الشام [٥] .

---

[١] وهي الحملة التي منيت بهزيمة ساحقة على يد الدانشمنديين بالقرب من مدينة سيواس ، ويقدر ابن الأثير حجم الخسائر البشرية للصليبيين في تلك الحملة قائلاً ((***فلم يفلت أحد من الفرنج ، وكانوا ثلاثمائة ألف ، غير ثلاثة الآلاف هربوا ليلاً***)) . ينظر : الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٠٠ .

[٢] كانت الحملة الصليبية الثانية قد اتجهت من أوربا إلى بلاد الشام عقب تحرير الرها من قبل الأمير عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م ، وتألفت من الجيش الالماني الذي قاده الإمبراطور الألماني كونراد الثالث (٥٣٣-٥٤٧هـ/١١٣٨-١١٥٢م) بالاشتراك مع الجيش الفرنسي بقيادة الملك لويس السابع(٥٣٢-٥٧٦هـ/١١٣٧-١١٨٠م). ينظر : ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ٨٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١ ، ص ١١٢ . وقد تعرضت تلك الحملة إلى خسائر فادحة في أعالي الشام بسبب الظروف الطبيعية القاسية التي واجهت الصليبيين من حيث تضاريس المنطقة وصعوبة مسالكها وسوء الاحوال الجوية هذا فضلاً عن الهجمات الإسلامية التي اربكت تقدمهم نحو العمق الإسلامي . ينظر : رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٤٣٢ – ٤٣٨ .

[٣] باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٨ .

[٤] نعينع ، " الاهمية التجارية " ، ص ٨٩-٩٠ .

[٥] عفاف سيد صبرة ، العلاقات بين الشرق والغرب ، علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من١١٠٠-١٤٠٠م (دار النهضة العربية ، القاهرة : ١٩٨٣م) ، ص١٩ .

كما ساهم الجنويون في الحملة الصليبية الاولى منذ بدايتها لخوفهم على مكاسبهم التجارية في مصر التي هددها الخطر السلوقي الذي اوصد اسواق الشرق امامهم وحرمهم من الثروة الطائلة التي كانت تنصب في ايدي جالياتهم من جراء تعاملهم التجاري الناجح من سلع الشرق في كل من مصر وحلب وبغداد وغيرها من مدن والموانيء الشرقية ، وهذا يعني انهم اشتركوا في الغزو للحصول على امتيازات نظير مساعدتهم لابناء جلدتهم من الصليبيين وهذا ما تم تحقيقه بالفعل[١].

ففي الوقت الذي استطاع فيه الصليبيون السيطرة على الجزء الشرقي من البحر المتوسط كان التجار الايطاليون هم اصحاب القيادة في نقل السلع والبضائع الشرقية بين موانيء الشرق وموانيء الغرب وكان من البديهي امتلاك المدن على الساحل الشامي الامر الذي يعد مسألة حياة او موت بالنسبة للوجود الصليبي ، فكان امتلاكها وحده يضمن لتلك الدول اتصالها بالغرب الاوربي حتى تصل الامدادات البشرية والمعونات المادية الضرورية في ديمومة الاستيطان وبقائها في بلاد الشام[٢] .

وبناءاً على ما تقدم فقد ازدهرت حركة الاستيطان الصليبي في مملكة بيت المقدس في المرحلة اللاحقة وذلك عندما تمكن الصليبيون من السيطرة على المدن الساحلية امثال ارسوف وقيسارية وعكا التي اصبحت فيما بعد عاصمة لمملكة بيت المقدس الصليبية ، ويرجع ذلك الى ازدهار نشاطها الاقتصادي ذي الطابع التجاري[٣]خاصة وانها امتلكت ميناءاً كبيراً صالحاً لرسو السفن في كل فصول السنة وتلك الميزة جعلت ميناءها يعد الميناء الرئيس للمملكة الصليبية لشحن السلع والبضائع الى الغرب الاوربي[٤] .

فقد استوطنت عكا الطبقة الارستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان ، وعلى الرغم من قلة عددهم الا انهم شكلوا العمود الفقري للمجتمع الصليبي في بلاد الشام ، ويرجع سبب هذا التناقص المستمر في اعدادهم الى الحرب ووقوعهم ضحايا المعارك والاسر وكذلك قلة القادمين من الغرب الأوربي ، كما استقر في عكا قسم من الحجاج الصليبيين إلا أن أعدادهم كانت قليلة جداً لان الغالبية العظمى منهم كانت تفضل العودة إلى أوربا بعد انتهاء موسم الحج [٥] .

---

[١] مصطفى حسن محمد الكناني ، العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الادنى ١٠٩٥ . ١١٧١ م / ٤٤٨ . ٥٦٧هـ (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : ١٩٨١م) ، ص ١١٠ ، ١١٧ . ١١٨ .

[٢] سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٢٦ ؛ نعينع ، " الاهمية التجارية " ص ٩٠ .

[٣] رنسيمان ، تاريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٢٠ ، ٢٦ ، ١٤٤ .

[٤] الشارتري ، تاريخ الحملة ، ص ١٣١ .

[٥] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص٤٩٢ .

وكانت عكا مركزاً تجارياً مهماً جذب الإيطاليين للاستيطان فيها ، فقد حصل الجنويون بموجب الاتفاق مع الصليبيين بعد استيلائهم على المدينة على ثلث العائدات المجموعة في ميناء عكا ومن الواردات المنقولة بحراً ، كما تم منحهم كنيسة وحي خاص بهم يشتمل على شارع وفُرن وطواحين وحمام وغير ذلك من ممتلكات وفقاً للخدمات التي قدموها للصليبيين [١] .

والواقع أن الحرفة الرئيسة لتلك الفئة الإيطالية هي التجارة لذلك شكلوا طبقة مستقلة قائمة بذاتها ، فكانوا يتكلمون بلغتهم ولا يخالطون غيرهم إلا في المعاملات التجارية ، وقد تمتع اولئك التجار بامتيازات عديدة أهمها : الإعفاء من الضرائب ، وهذا ما أدى بطبيعة الحال إلى زيادة أعداد القادمين من أوربا للاستيطان في عكا [٢] هكذا شكلت الجالية التجارية للمدن الإيطالية غالبية سكان المدن الساحلية في بلاد الشام وكانت عكا أنموذجا لذلك هيمن الطابع التجاري على نظمها الاقتصادية والقضائية [٣] .

ولم يقتصر ذلك الاستيطان على الجاليات التجارية فحسب بل أصبحت مدينة عكا على حد قول المؤرخ الفرنسي كروسيه ملجأ لقطاع الطرق والمجرمين والمبعدين من أوربا [٤] ومما يؤكد ذلك ما ذكره الاصفهاني ومن نقل عنه بان مدينة عكا أصبحت ملجأ للنساء الساقطات اللاتي قدمن من مختلف أنحاء أوربا مع الحملة الصليبية الثالثة [٥] إلى بلاد الشام في سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م [١] .

---

[١] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥١٢-٥١٣ .

[٢] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٨ ؛ علي سلطان عباس ، مدينة عكا في العهدين الأيوبي والمملوكي (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة الموصل : ١٩٩٧م) ، ص ١٨ .

[٣] البكر ، الحروب الصليبية ، ص ١٠٩ .

[4] *Crousset , Histoire Croisades , Vol . III , p . 980 .*

[٥] أثارت الانتصارات التي حققها الناصر صلاح الدين الأيوبي في شمال الشام وجنوبه وعودة بيت المقدس إلى الحكم العربي الإسلامي موجة غضب شاملة عمت أوربا آنذاك بملوكها وامرائها ورجال دينها مما دعا الغرب الأوربي إلى إعداد حملة جديدة ضد المسلمين عرفت بالحملة الصليبية الثالثة تزعمها ريتشارد (قلب الأسد) ملك انلكترا وفيليب اغسطس ملك فرنسا وفردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا الذي كان يتطلع إلى قتال المسلمين وفي أثناء سيره بجيشه الألماني الضخم بسهل سلوقيا وفي محاولته اجتياز نهر هنالك لقي حتفه في حزيران سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م ، أما الملك ريتشارد وفيليب فقد سارا بقواتهما حتى وصلا بلاد الشام ، فحققا بعض النجاح باستيلائهم على مدن عكا ويافا وارسوف ، غير أن الحملة فشلت في استعادة مدينة القدس التي

وقد توسعت رقعة الاستيطان بعد أن سيطر الصليبيون على معظم مدن الساحل الشامي ولم يبق من تلك المدن الساحلية سوى مديني صور وعسقلان وكان الملك بلدوين الثاني قد طلب المساعدة من البنادقة للتعاون المشترك للاستيلاء على هاتين المدينتين (٢) .

وفي بداية سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م تم عقد معاهدة في مدينة عكا حضرها عن الجانب الصليبي وليم بور الوصي على مملكة بيت المقدس والبطريرك جرموند ، فضلاً عن مستشار المملكة باجان بينما حضر دوق البندقية دومينيكو ميشيل ***doge Domenico Michiel*** لتوقيع المعاهدة من جهة أخرى (٣) .

وتتجلى بوضوح صورة الاستيطان في نص المعاهدة التي تضمنت في حالة إسهام البنادقة إسهاماًرئيساً في الاستيلاء على المدينتين يصبح ثلث كل منهما ملكاً خاصاً لهم بينما يبقى الثلثان الآخران للملك (٤) كما جاء ضمن بنود المعاهدة طلب البنادقة منحهم شارعاً وميدانَ كنيسة وفرناً وطاحونة وحماماً في كل مدينة تابعة إلى الملك أو لأحد باروناته وذلك من دون إعطاء أي تعويض يذكر للجانب الصليبي وفضلاً عن طلبهم بان يخصص لهم في مدينة القدس حّياً يماثل حيَّ الملك حرص البنادقة على عدم تعرضهم للمنافسة من جانب المدن التجارية الأخرى فاشترطوا إلا تقوم مملكة بيت المقدس بتخفيض الضرائب المفروضة على سائر الجاليات والهيئات من دون الرجوع إليهم ، وقد وعدهم بطريرك القدس جورموند واقسم على ذلك غير أن الملك بلدوين الثاني بعد رجوعه من الأسر لم يوافق على ذلك الشرط الأخير الذي يجعل المملكة وتجارتها حِكراً للبنادقة (٥) .

وأخيرا فقد قدر عدد المستوطنين الصليبيين في مملكة بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م من نبلاء ورجال دين وبرجوازيين بحوالي مائة وعشرين ألفا ، كان ثلاثون ألفا منهم قد

كانت الهدف الأساس الذي خرجت من أجله . ينظر : ستانلي لين بوول ، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس ، ترجمة : فاروق سعد أبو جابر (مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة : ١٩٩٥م) ، ص ٢٠٩ – ٢١٠ ؛ العريني ، الشرق الأوسط ، ج٢ ، ص ٩٢٢ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٩٣ – ١٩٥ .

(١) الفتح القسي ، ص ١٦٩ – ١٧٠ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ص ١٤٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٣٠٨ .

(٢) رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ١٥٢ ، ٢٦٥ .

(٣) الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٢٠٦ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٦٠١ – ٦٠٢ .

(٤) الشارتري ، نفسه ، ص ٢١٧ – ٢١٨ .

(٥) الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٦٠٢ – ٦٠٥ .

استوطنوا في مدينة القدس بينما استقر اربعون الفاً في مدينة عكا في حين استوطن ما بين خمس وعشرين إلى ثلاثين ألفا في مدينة صور . أما باقي العدد الآخر من الصليبيين فقد توزعوا للاستيطان في مدن أخرى للمملكة الصليبية [١] .

وهذا يعني أن مركز الثقل الصليبي لمملكة بيت المقدس الصليبية كان موزعاً بين القدس بصفتها العاصمة الإدارية والدينية والعسكرية وبين مدن الساحل بصفتها الاقتصادية ولكن بعد التحرير الإسلامي للقدس انتقل الزخم البشري والإداري والاقتصادي والعسكري والسياسي أولاً إلى صور ثم توزع بينها وبين عكا التي أصبحت العاصمة الجديدة للمملكة الصليبية بعد استعادتها من الأيوبيين [٢] .

ومن جانب آخر كان لعامل المناخ وعدم تكيف الصليبيين له وقلة الطعام واستمرار حالة الحرب والحصار بشكل دائم اثرها في تقليص موجات الهجرة التي لم تكن كافية لان تجعل من المستوطنات كيانات سياسية حية ولا سيما ان نسبة الصليبيين داخل حدودهم بالقياس إلى إعدادهم كانت واحدا إلى خمسة تقريباً وقد برهن ذلك التقييم الإحصائي على أن الصليبيين فشلوا في الاستعمار الاستيطاني كما أن ذلك التقييم كان اكثر أهمية عند النظر إليه من خلال الإطار الجغرافي السياسي للشرق الإسلامي إذ لم يكن ربع المليون أوربي يواجهون السكان المسلمين داخل مناطق سيادتهم فحسب وانما كانوا يواجهون ملايين المسلمين في الشام والعراق ومصر [٣] .

ب. دور الملوك الصليبيين في تأسيس المستوطنات

أسهم الملوك في مملكة بيت المقدس الصليبية في إقامة العديد من المستوطنات في الأراضي التي خضعت لسيطرتهم ، وجاء تشييدها لاعتبارات عسكرية وإدارية واقتصادية ودينية أحاطت بالمملكة الصليبية آنذاك .

---

[١] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٣٠ .
[٢] القطار ، " المجتمع في صور " ، ص ١١٢ .
[٣] براور ، عالم الصليبيين ، ص ٩٥ – ٩٦ .

فقد قام الملك فولك الانجوي ببناء مستوطنة في بيت جبرين سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م[١] بالقرب من مدينة عسقلان [٢] وتظهر صورة الاستيطان بوضوح في تلك المستوطنة سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م فقد بلغ عدد الأسر الصليبية التي استوطنت فيها اثنتي وثلاثين أسرة ، كانت ست أُسر منها في الأصل من المستوطنين القدامى في أراضي فلسطين قبل انتقالها إلى المستوطنة ، أما سائر الأسر فكانت من القادمين الجدد من الغرب الأوربي ومن مناطق مختلفة أمثال اوفرني وكسكوني ولومبارديا وبواتو وقطالونية وبورغند وفلاندر ، وقد منحت كل أسرة من تلك الأسر مساحة قدرت بحدود ٤٢هكتاراً (أي ما يعادل ١٠،٠٠٠م^{2}) من أراضي المستوطنة لأجل زراعتها ، ومقابل زراعة تلك الأراضي توجب عليهم أن يدخلوا الحرب وان يشاركوا في القتال مع الصليبيين ضد المسلمين ، كما كان عليهم أن يدفعوا ضريبة العشر على المحاصيل الزراعية طبقاً للعرف المتبع في جميع الأراضي الزراعية التابعة للمملكة الصليبية [٣] .

أما العامل الثاني الذي دعم عملية الاستيطان في بيت جبرين وساعد على جذب السكان فتمثل في إلغاء ملكية الأراضي التي اشترتها هيئة فرسان الاسبتارية ، فأصبحت الأرض تنتقل إلى إقطاعي مقابل ضريبة معتدلة ، وفوق ذلك كله كان لدى المستوطنة محكمة خاصة بها [٤] . وقد كان بعض المتعهدين يفاوض السادة الإقطاعيين لاجتذاب مستوطنين وتوطينهم في بيت جبرين للعمل في الأراضي الزراعية مقابل الإعفاء من الضرائب مّما أسهم ذلك في رفع قيمة الأراضي الزراعية [٥]

---

(١) لم تشر المصادر العربية واللاتينية المعاصرة إلى قيام مستوطنات صليبية قبل ذلك التأريخ ، أي في عهد الملوك الذين سبقوا الملك فولك الانجوي ، ولعل ذلك يعود إلى اهتمام حكامهم الأولين بتوسيع النفوذ الصليبي في البلاد العربية اكثر من اهتمامهم بالاستقرار .

(٢) الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٦٨٣ ؛

Stevenson , The Crusaders , P . 136.

(٣) ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٢٩ ؛ مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٧٨.

(٤) ماير ، نفسه ، ص ٢٢٩.

(٥) ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٨.

أما مشروع الاستيطان الثاني في عهد الملك فولك الانجوي فكان تأسيس مستوطنة صفد [١] في سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م [٢] وقد بلغ عدد المستوطنين الصليبيين في تلك المستوطنة حوالي عشرة آلاف نسمة يتوزعون على مئتين وستين قرية وعلى سفح المستوطنة كان يوجد اكبر قرية من تلك القرى وفيها سوق يمارس فيها السكان مختلف الأنشطة والفعاليات الاقتصادية [٣] .

وتقدم المستوطنة صورة عن الزراعة وتربية الحيوان وصيد الأسماك مما شجع ذلك على إنجاح عملية الاستيطان في المنطقة ، وبهذا الصدد اشتهرت المستوطنة بإنتاج العديد من المحاصيل الزراعية مثل الحبوب (القمح والشعير) والرمان والزيتون [٤] ذلك فضلاً عن اشتهارها بزراعة الكروم(العنب) [٥] .

كما كانت المستوطنة تنتج العسل ، وكان هنالك نظام لارواء الأراضي الزراعية عن طريق مياه الآبار وصهاريج المياة داخل قلعتها . ومن جانب اخر كان للمستوطنة نوعان من المطاحن لطحن الحبوب ، الأول : مطاحن هوائية أو تلك التي تديرها الحيوانات داخل المستوطنة ، أما النوع الثاني : فهي المطاحن المائية وموقعها خارج المستوطنة التي بلغ عددها اثنتي عشرة طاحونة مائية ، هذا في المجال الزراعي . أما بالنسبة للنشاط الاقتصادي التجاري فقد وجد في المستوطنة أنواع من الأحجار الكريمة التي كان يستغلها المستوطنون لأغراض تجارية [٦] .

ومن جانب آخر كان لأهمية ذلك الاستيطان احتواء تلك المستوطنة على جداول مياه الشرب للسكان ولارواء الأراضي الزراعية التي كانت منتشرة باتجاه مدينة طبرية لذا ظهرت عدة

---

[١] صفد : مدينة في جبل عامل مطلة على حمص بالشام ، وهي من جبال لبنان . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٤١٢ .

[2] *Stevenson , The Crusaders , P. 146 ; R.obin Fedden and John Thomson , Crusader Castles (No . p. , London , 1957) , p. 19 .*

[٣] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٢٨ ؛ مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٧٠ .

[٤] ماير ، نفسه ، ص ٢٢٨ .

[٥] المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص ٦٨

[٦] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٢٨.

أحياء سكنية شغلت مساحة واسعة بلغت ثلث المساحة الكلية للمستوطنة ، كما اتسع نطاق الاستيطان فيها بدليل ظهور نواحي انتشرت في المناطق المحيطة بالمستوطنة [١]

وقد كانت مستوطنة صفد مركزاً ومعقلاً لطائفة فرسان الداوية [٢] ويبدو أن الهدف من بناء المستوطنة كان عسكرياً في الحيلولة دون عبور المسلمين لنهر الأردن ومنعهم من القيام بهجمات عسكرية تجاه الصليبيين في مدينة عكا ، وبذلك كانت تقدم الحماية للزراعة والاستيطان [٣] .

ومن المستوطنات الصليبية الأخرى التي شيدها الصليبيون في عهد الملك فولك الانجوي في جنوبي غربي مدينة القدس المستوطنة التي أقيمت في تل الصافية [٤] سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م ، وبعد اكتمال العمل وإنجاز بناء المستوطنة وضعها الملك فولك الانجوي تحت حمايته الخاصة ، وزودها بما يكفي من الأطعمة والأسلحة وعهد بها إلى رجال كان لهم خبرة طويلة في شؤون الحرب ، وموثوق بإخلاصهم وولائهم للملك [٥] .

وعلىالصعيد العمراني شهدت مستوطنة تل الصافية تطوراً استيطانياً ملحوظاً ، إذ انتشرت حولها أرباض وضواحٍ كثيرة استوطن فيها أعداد كبيرة من الأسر الصليبية إلى جانب الفلاحين الذين يعملون في الأراضي الزراعية ، وأصبحت المنطقة بأسرها اكثر أمنا لتوافر المؤن والإمدادات بتلك المستوطنة [٦] .

وكان تشييد مستوطنة تل الصافية لتؤدي أغراضاً منها العسكرية والاقتصادية والدينية ، فالغرض العسكري لأجل توفير الحماية لمدينة القدس من خلال التصدي لأي خطر خارجي

---

[١] أبو الفدا ، تقوم البلدان ، ص ٢٤٣.

[٢] ابن الأثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ٥٥٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٤٦ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج١٢ ، ص ٣٣٠.

[٣] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٢٩.

[٤] تل الصافية : كان ذلك الموقع يسمى باللغة العربية باسم تل الصافية بمعنى التل أو الجبل الواضح . ينظر : الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٧٢٩ . وتل الصافية من أعمال فلسطين قرب بيت جبرين من نواحي الرملة . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٢ .

[٥] الصوري ، نفسه ، ج٢ ، ص ٧٢٩ .

[٦] نفسه ، ج٢ ، ص ٧٢٩ .

تتعرض له من قبل المسلمين [١] كما كانت المستوطنة مركزاً لجميع السكان الذين يلجأون إليها عند الخطر [٢] أما بالنسبة للغرض الاقتصادي ، فكانت أراضي المستوطنة تنتج بعض المحاصيل الزراعية ، وأصبحت تلك الأراضي اكثر إنتاجا للمنتجات الزراعية نظراً لدور المستوطنة في توفير الأمن للقرى والأرياف المحيطة بها [٣] وفوق ذلك كله كانت المستوطنة مركزاً للإدارة المحلية تتولى مهمة جمع الضرائب والرسوم من الفلاحين والقوافل التجارية المارة عبر طريق المستوطنة [٤] أما فيما يتصل بالغرض الديني فكانت مقراً لفرسان الداوية [٥] .

أما الملك بلدوين الثالث فقد قام في سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م ببناء مستوطنة امبرت [٦] الصليبية التي سميت بذلك الاسم نسبة لاحد النبلاء الصليبيين [٧] شمالي مدينة عكا بحوالي (٦كم) على الطريق المؤدي إلى مدينة صور [٨] بينما أشار أحد المؤرخين المحدثين إلى أن بناَءها كان في سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م أي في عهد الملك بلدوين الثاني [٩] والراجح أنها شيدت في سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م ولاسيما انه لا توجد أي إشارة عن بناء أية مستوطنة خلال حكم الملك بلدوين الثاني .

أمّا الملك املريك الأول فقد اقام في سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م مستوطنة ذات طابع عسكري في منطقة الداروم [١٠] الواقعة في أقصى جنوب فلسطين [١] وذكر الصوري أن الملك امليك

---

[١] البيشاوي ، " دراسة مقارنة " ، ص ٩٨-٩٩ .

[٢] عوض ، الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية (دار الشروق ، عمان : ١٩٩٩م) ، ص ٨٩ .

[٣] سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٢١٦ .

[٤] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ٣٦٩ ؛ العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ص ٣٧٤ .

[٥] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٩٠ .

[٦] يقع موضعها في الوقت الحاضر عند بلدة الرشيدية التي قامت بمحيطها مستوطنة نهاريا الإسرائيلية . ينظر : كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٨٥ هامش(٣) .

[٧] البيشاوي " دراسة مقارنة " ص ٩٨ .

[٨] ثيودريش ، وصف الاماكن ، ص ١٤٧ – ١٤٨ .

[٩] العريني ، " نمو طبقة البلاء " ، ص ٤٦ .

[١٠] داروم : اطلق عليها (دار الروم) ، نسبة إلى دير كان قد بناه الروم في ذلك الموقع في فترة سابقة . ينظر : الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٩٤٩ ؛ ويقال لها الدارون أيضا تقع بعد غزة تجاه مصر مطلة على

أنشأها لكي تصبح مدينة كبرى تسهم في توسيع حدود المملكة الصليبية ، وكان في ذهنه أن يكون لها وضع افضل ، وتصبح مليئة بالسكان خلال السنوات اللاحقة ، ففي بادئ الأمر استوطن فيها عدد غير قليل من الفلاحين للعمل في الأراضي الزراعية فضلاً عن بعض التجار وبذلك شكلوا مستعمرة صغيرة ، وفيما بعد توسع الاستيطان في مستوطنة الداروم من خلال تشييد قرية وكنيسة لرجال الدين الصليبيين في موقع قريب من قلعة المستوطنة [٢] وقد جاء ذلك التوسع عقب استقرار طائفة الفرسان الداوية التي تولت مهمة الإشراف وادارة شؤون المستوطنة والدفاع عنها ضد خطر الهجمات الخارجية [٣] .

وهكذا فقد أنشأ الغزاة الصليبيون عدة مستوطنات [٤] في مناطق مختلفة من بلاد الشام امتاز بعضها بالطابع العسكري من أجل توفير الحماية للتواجد الصليبي في الأراضي المقدسة بينما امتاز بعضها بالطابع الاقتصادي ، وقد أسهمت تلك المستوطنات في زيادة الرقعة الزراعية في الأراضي المقدسة ، فضلاً عن تنظيم الأراضي الزراعية تنظيماً يتفق مع حاجة الغزاة من المحاصيل الزراعية ، ومن أمثلة تلك المستوطنات الرام ***Aram*** [٥]
وقلندية [٦] وعطارة [١] وغيرها كما أن بعض المناطق كانت تزخر بالمستوطنات الصليبية وكانت تشكل كثافة سكانية عالية مثل منطقة قيسارية التي كانت تضم حوالي سبع وسبعين مستوطنة حسب تقديرات أحد المؤرخين المحدثين [٢] .

البحر الأبيض المتوسط . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٢٤ ؛ عز الدين بن محمد بن علي بن شداد ، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق : سامي الدهان (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت : ١٩٦٣م) ، ج٢ ، ص ٢٦٤ ، هامش رقم(٤) .

[١] أبو شامة الروضتين ، ج١ ، ص ١٦٩ ؛
M. C. Lyons and D.E.P. Jackson , Saladin : The Politics of the Holy War , (No.P , Cambridge : 1986-1988) , P . 42.

[٢] تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص٩٤٩ .

[٣] سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٥٩ .

[٤] لم تذكر المصادر العربية أو اللاتينية المعاصرة شيئاً عن تلك المستوطنات وتاريخ قيامها .

[٥] الرام : قد يكون اسمها تحريفا من الرامة بمعنى المرتفعة عرفت بذلك الاسم في العهد الروماني ، وذكرها الصليبيون باسمها الذي حرفه العرب إلى الرام . ينظر : حسين بوباني الداموني ، معجم أسماء المدن والقرى الفلسطينية (مركز باحث للدراسات ، رام الله : ٢٠٠٣م) ، ص١١٦ .

[٦] قلندية : ذكرها الصليبيون باسم *KaIendie* وهو اسمها الحالي . ينظر : نفسه ، ص ٢٠٣ .

وهكذا كانت الأرض هي الأساس الجوهري للسيادة الصليبية فتركزت سياسة الملوك الصليبيين على امتلاكها ، واستخدمت الحرب وسيلة سياسية من أجل التوسع أو الدفاع عن ممتلكاتها في المنطقة العربية [٣] .

ج. دور رجال الدين في تأسيس المستوطنات

لقد كان لرجال الدين الصليبيين دورٌ هامٌ في السياسة الاستيطانية ويبرز ذلك الدور بوضوح عندما قام الأمير جودفري البويوني بمنح كنيسة القيامة اكثر من عشرين قرية في حدود بيت المقدس ، وقد استغل رجال الدين الصليبيين في كنيسة القيامة تلك المنحة بإنشاء مستوطنات صليبية دينية في بعض تلك القرى ، فكانت قرية البيرة [٤] الهدف الأول الذي اختاروه لإنشاء أولى مستوطناتهم مكانها ، على الرغم من أن القرية لم تكن مهجورة من سكانها المسلمين ، وبطبيعة الحال قام رجال الدين في كنيسة القيامة بتهجير من بقي من سكان القرية المسلمين إلى مناطق أخرى قبل الشروع بتأسيس المستوطنة ، وقد تم إنشاء تلك المستوطنة على وفق تدرج مرحلي إذ إن رجال الدين في كنيسة القيامة قاموا بتوطين مجموعة من الأوربيين في البيرة وزودوهم بقطع من الأرضي لكي يقوموا بزراعتها مقابل دفع ضريبة العشر لرجال الدين في كنيسة القيامة واقتسام المحاصيل التي تنتجها أراضي البيرة من المستوطنين [٥] ويبدو أن مستوطنة البيرة قد اكتملت سنة ٥٠٩هـ / ١١١٥م إذ قام روجر أسقف الرملة ***Roger Bishop Ramlch*** بمنح دير القديسة مريم قطعة أرض تقع أمام مستعمرة البيرة إلى جانب منزل يقع

---

[١] عطارة : أطلق عليها الصليبيون *Atara Beret* . ينظر : نفسه ، ص ١٧٧ .

[٢] البيشاوي ، " دراسة مقارنة " ، ص ٩٩ .

[٣] هيثم كيلاني ، " الصليبية والصهيونية : دراسة مقارنة " (مجلة شؤون عربية ، تونس : ١٩٨٧م) ، ع٥٢ ، ص٢٩ .

[٤] قرية البيرة : حدد ياقوت الحموي الموقع الدقيق لقرية البيرة بين مدينتي القدس ونابلس . ينظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٥٢٦ ؛ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج٢ ، ص١٤٣ ، هامش (١) ؛ عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي ، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق : علي محمد البجاوي (دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت : ١٩٥٤م) ، ج١ ، ص ٢٤١ . وتقع على بعد حوالي (٦كم) شمال القدس . ينظر : ثيودريش ، وصف الاماكن ، ص ١٢٤ . أما الصوري فاكتفى بالإشارة إلى موقعها بالقرب من القدس . ينظر : تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٩٥١ .

[٥] البيشاوي ، " دراسة مقارنة " ، ص ٩٦ .

داخل اسوار المستوطنة ، وهذا يفيد أن بناء المستوطنة كان قد اكتمل خلال تلك المدة بدليل وجود الأسوار والقلعة والمنازل وجميع متطلبات الحياة داخل البيرة [١] .

والواقع أن معظم المستوطنين الذين استقروا في البيرة مدة طويلة كانوا من فئة الحجاج النصارى الذين قدموا من أوربا إلى الأراضي المقدسة الذين لم تتوافر لهم النقود الكافية من أجل العودة إلى بلادهم ، ومن ثم شهدت مستوطنة البيرة توسعاً في الاستيطان الصليبي إذ بلغ عدد مستوطنيها حوالي مئة وأربعين أسرة ، هذا فضلاً عن المسلمين الذين سكنوا معهم في الجهة الجنوبية الشرقية من المستوطنة وعملوا في الزراعة مقابل دفع ضريبة على المنتجات الزراعية [٢] .

وقد امتازت مستوطنة البيرة بتنظيمها الإداري ، ومن ابرز عناصر الكادر الإداري الرقيب ***Dispensator*** الذي كان عيناً ساهرة على جميع الأعمال في المستوطنة ، وكان يقوم بأداء مهامه بتكليف من السيد الإقطاعي في المستوطنة ، وتمثلت صلاحياته بمعاقبة المخالف إما بدفع غرامة مالية وإما بسحب الأرض منه ، وفي بعض الأحيان كانت العقوبة صارمة تصل حد الطرد من المستوطنة وذلك بالاتفاق مع هيئة الإدارة المحلية في المستوطنة [٣] .

ومما يجدر ذكره ههنا أن مستوطنة البيرة كانت محاطة بالأسوار كما جرى بناء قلعة من أجل حمايتها من الأخطار الخارجية التي قد تتعرض إليها من قبل المسلمين ، وقد أطلق الصليبيون على مستوطنة البيرة ***Magna Mahumeria*** بمعنى منطقة التعبد الكبرى أو المستوطنة الكبرى ، وكانت سياسة رجال الدين الاستيطانية هي التي جعلت مستوطنة البيرة مستمرة في التوسع من حيث الأهمية طُوال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي [٤] .

وعلى الرغم من الأسوار والتحصينات التي تم إنشاؤها حول مستوطنة البيرة إلا أنها لم تستطع الصمود أمام الهجمات الإسلامية ففي سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م قامت حامية عسقلان الإسلامية بمهاجمة مستوطنة البيرة وتمكنت من اسر الكثير من سكانها [٥] .

وكان الغرض من إنشاء تلك المستوطنة القيام بالمهام العسكرية ومصداق ذلك ما ذكره الصوري عن انضمام قوة مؤلفة من خمسة وستين رجلاً من مستوطنة البيرة إلى الجيش الصليبي

---

[١] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ١٨٥-١٨٦ .

[٢] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٢٩-٣٣٠.

[٣] نفسه ، ص ٢٢٩ .

[٤] البيشاوي ، " دراسة مقارنة " ، ص ٩٦ .

[٥] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٢١٤ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٦٢٠.

المرابط في مدينة غزة لمحاربة الناصر صلاح الدين الأيوبي ، وأثناء هجوم القوات الإسلامية على مدينة غزة كانت قوة البيرة مكلفة بحراسة الباب الخارجي للمدينة والدفاع عنه غير أنها لم تتمكن من الصمود والمقاومة أمام الهجوم الإسلامي العنيف فقُتِل عدد كبير منهم ، وأصيب آخرون بجروح [١] أما بالنسبة للغرض الاقتصادي فان أراضي المستوطنة كانت تزرع بعدة محاصيل ، أما فيما يتعلق بالغرض الديني فيكفي أنها كانت خاضعة لرجال الدين الصليبيين الذين قاموا بإنشاء كنيسة ومحكمة كنسية داخل المستوطنة [٢] حرصاً منهم على مصالح المواطنين الصليبيين المقيمين في البيرة ، أقام لهم رجال الدين محكمة عرفت بآسم محكمة كنيسة القيامة ***Curie Sancit Sepulcre de Mahumeria*** ، وكانت اختصاصاتها معالجة القضايا المتعلقة بأفراد الطبقة البرجوازية الذين يعيشون في المستوطنة لدرجة أنها عرفت بالمحكمة البرجوازية ، وكانت تلك المحكمة تعقد برئاسة المسؤول عن تدبير شؤون كنيسة القيامة في المستوطنة ، وهو الرقيب الذي كان يقيم في المركز الإداري أو البيت الرئيس المعروف بالكوريا ***Curia*** [٣] .

أما فيما يتعلق بفئات السكان الذين استقروا في مستوطنة البيرة فكان معظمهم من الأوربيين الذين شاركوا في الحملات الصليبية ولا سيما من فرنسا وإيطاليا وأسبانيا وفي سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م تم إحصاء نحو تسعين عائلة أوربية تقطن في مستوطنة البيرة أي ما يقارب ثلاثمئة وخمسين شخصاً ، كما زاد عدد المستوطنين في المدة الواقعة بين سنتي ٥٥٠-٥٨٣هـ/١١٥٥-١١٨٧م ، إذ استقرت خمسون عائلة جديدة في البيرة وبذلك اتسعت المستوطنة وحازت على شهرة واسعة ، وكان هؤلاء المستوطنون يعملون في جميع المهن وخاصة الحدادة والتجارة وصناعة الأحذية والبناء والصاغة فضلاً عن المزارعين الذين عملوا في الحدائق والبساتين [٤] .

---

[١] تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٩٥١.

[٢] البيشاوي ، " دراسة مقارنة " ، ص ٩٦ – ٩٧.

[٣] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٢٨٦ .

[٤] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٢٨٧ .

ومن المستوطنات الأخرى التي أقامها رجال الدين الصليبيين مستوطنة القبيبة [١] في موضع يبعد حوالي (١١كم) شمال غرب مدينة القدس [٢] وهناك من قال (١٤كم) وبلغ ارتفاعها حوالي (٧٧١م٢) عن سطح البحر [٣] .

وقد عرفت باسم ***Parava Mahumeria*** بمعنى منطقة التعبد الصغرى أو المنبر الاصغر والتي تمتعت بموقع استراتيجي هام نظراً لموقعها على الطريق الرئيس المؤدي من السهل الساحلي إلى مدينة القدس ، ولذلك فقد كانت تقع على طريق الحجاج [٤] وكان بناؤها بعد سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م وقيل بعد سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م [٥] .

أما فيما يتعلق بفئات السكان الذين استقروا في مستوطنة القبيبة ، فكانوا من المواطنين الاوربيين الذين ربما جاءوا من المناطق نفسها التي جاء منها سكان مستوطنة البيرة ، ولعلهم كانوا يعملون في حرف مختلفة كالحدادة والتجارة وصناعة الأحذية والبناء فضلاً عن العمل في مجال الزراعة والعناية بالحدائق والبساتين على أن ذلك لا يمنع من وجود بعض السكان من المسلمين والنصارى الشرقيين الذين كانوا يقيمون في المنطقة قبيل إنشاء مستوطنة القبيبة [٦] .

وقد أقام رجال الدين اللاتين في كنيسة القيامة بعض المنشآت في مستوطنة القبيبة إذ تم الكشف عن مبنى كبير مزود بمخزن للحبوب ، ويبدوا انه كان المركز الإداري في المستوطنة ، ومقر إقامة الرقيب المسؤول عن شؤون رجال الدين في القبيبة وليس ذلك فحسب بل انشأ رجال الدين اللاتين كنيسة في مستوطنة القبيبة ، وكانت تماثل كنيسة مستوطنة البيرة ، إذ إن أجزاَءها

---

[١] القبيبة : اسم مصغر لكلمة القبة واطلق عليها قرية قبة القدس . ينظر : الداموني ، معجم أسماء ، ص ٢٠٠ . وقد تم إنشاؤها على أراضي قرية بيت سوريك ، ويوجد فيها الان كنيسة صليبية مهدمة ، وتشتهر قرية القبيبة بزراعة أشجار الزيتون والتين والعنب ، وتمتلك الأديرة في الوقت الحاضر نحو ثلث أراضي القرية . ينظر : الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج٨ ، ق٢ ، ص ٩٨-١٠٠ .

[2] *Lyons , Saladin , p. 272.*

[٣] الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج٨، ق٢ ، ص ٩٨ .

[٤] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٨٨ ؛ " دراسة مقارنة " ، ص ٩٧ .

[٥] ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج٢ ، ص ١٣٩، ١٤١ .

[٦] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٢٨٨ .

الثلاثة كانت نصف دائرية فضلاً عن صحن الكنيسة والجناحين ، وكما قام رجال الدين بإنشاء محكمة كانت تعقد برئاسة الرقيب أسوة بتلك التي شيدت في البيرة [١] .

أما بالنسبة للأغراض التي أقيمت من أجلها المستوطنة فليس لدينا دليلٌ قاطع يُثبت ذلك ، ولكن من المرجح أنها كانت تقوم بمهام عسكرية واقتصادية ودينية كما هو الحال في مستوطنة البيرة .

ولم يقتصر دور رجال الدين على إقامة المستوطنات فقط بل اسهموا بشكل أو بآخر في عملية تهجير السكان الاصليين من قراهم إلى مناطق أخرى والدليل على ذلك عندما أصروا على ترحيل سكان قرية كفر مالك [٢] إلى قرية بيت فوريك [٣] وقد استجاب الملك الصليبي لطلبهم ، وأمر بتهجير سكان القرية بعد أن حصلوا عليها كمنحة من الملك ، ولم يكتفُ بذلك بل قاموا بتوطين مستوطنين أوربيين في قرية كفر مالك بدلاً من سكانها الأصليين وبطبيعة الحال فان عملية التهجير لم تتم بسهولة ، فقد حدثت مقاومة أدت إلى مقتل بعض سكان قرية كفر مالك الذين تصدوا للمستعمر الصليبي [٤] .

وأخيراً فان عملية الاستيطان الصليبي في الأراضي المقدسة كانت قد بدأت بعد فترة من السيطرة الصليبية على تلك الأراضي ، والواقع انه لم يكن في حسابات الصليبيين أو في تخطيطهم الإقامة الدائمة والاستيطان في تلك البلاد منذ بداية خروجهم من بلادهم ، ومن المرجح أن جميع القوى الصليبية في مملكة بيت المقدس اتفقت على أهمية الاستيطان ونفذت المشاريع الاستيطانية المختلفة في جميع البقاع ، ومن المحتمل أن اختيار الصليبيين لمواقع الاستيطان لم يكن اختياراً عفوياً وانما جاء بعد دراسة متأنية لكي تؤدي كل مستوطنة الدور الذي

---

[١] البيشاوي ، " دراسة مقارنة " ، ص ٩٧ .

[٢] كفر مالك : قرية ذكرها الصليبيون باسم *Caphar Meleck* ، وسبب التسمية غير معروف . ينظر : الداموني ، معجم أسماء ، ص٢١٥ . وتقع في أقصى حدود إقطاعية نابلس الجنوبية ، وهي تبعد عن نابلس حوالي (٣٣كم) ، وتشتهر قرية كفر مالك بحقول الزيتون والعنب واثمار اللوز والتين ، فضلاً عن الحبوب والخضراوات بأنواعها المختلفة . ينظر : الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج٨ ، ق٢ ، ص ٣٠٩-٣١١ .

[٣] بيت فوريك *Beit Furik* أو بيت فوريق ومعناها بيت الزرع . ينظر : الداموني ، نفسه ، ص ٤٥ . وتقع تلك القرية في الجنوب الشرقي من مدينة نابلس وتشتهر بزراعة الحبوب والقطن والخضراوات ، ويهتم سكانها بتربية الماشية . ينظر : الدباغ ، نفسه ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٣٩٢ .

[٤] البيشاوي ، " دراسة مقارنة " ، ص ٩٧ .

رسم لها ، ومما يؤكد ذلك كان اختيار موقع مستوطنة القبيبة على الطريق المؤدي من الساحل إلى مدينة القدس ، ربما كان من أجل خدمة الحجاج النصارى هذا فضلاً عن الخدمات الحربية والاقتصادية التي تؤديها المستوطنة ، أما عن إقامة المستوطنة في موقع الداروم فكان الهدف منه مراقبة الحدود المصرية [١] وفضلاً عن ذلك كله كان وجود المستوطنات الصليبية في الشرق يعتمد على أوربا ليس فقط من أجل الهجرة وإنما من أجل العامل المادي للحصول على الأموال ، فقد ذهب العديد من الأوربيين إلى الشام ليتخلص من قيود العبودية والرق ورغبة في العيش بظل حياة جديدة في أرض غير مألوفة لديهم [٢] فاستقروا في مستوطنات كانت بمثابة قواعد لترسيخ السيطرة الاستعمارية في المنطقة العربية من أجل تطوير النشاط الاقتصادي فضلاً عن أنها مساكن للإقامة والعيش ومراكز إدارية وثكنات للجيش ومراكز للسلطة والقيادة [٣] .

---

[١] نفسه ، ص ٩٩ – ١٠٠ .

[٢] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٠٤ .

[٣] سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٢٧.

الفصل الثالث : النظم العسكرية

أولا : دوافع الصليبيين لتشييد قلاعهم وحصونهم في بلاد الشام

أ. الموقع الجغرافي للوجود الصليبي في بلاد الشام

ب. مواجهة نقص العنصر البشري في صراعهم ضد المسلمين .

ج. تامين طرق الحج للنصارى إلى الأماكن المقدسة في فلسطين

د.تمزيق وحدة السلمين السياسية وإسقاط مدنهم

هـ .العامل الإداري

ثانيا: بناء القلاع والحصون في مملكة بيت المقدس الصليبية

أ.عهد الملك بلدوين الأول

ب.عهد الملك بلدوين الثاني

ج.عهد الملك فولك الانجوي

١.القلاع الشمالية

٢.القلاع الجنوبية

الفصل الثالث : النظم العسكرية

باحتلال الصليبيون عندئذ وجدوا انفسهم وسط محيط غالبيته من المسلمين لذا توجب عليهم أن يثبتوا وجودهم وسط ذلك المحيط الإسلامي عن طريق قواتهم المحاربة ومعاقلهم العسكرية ولجأوا إلى سياسة بناء القلاع والحصون التي اصبحت ضرورة ملحة ، فهي وسيلة رئيسة لحماية الحدود وإدارة الإقطاعيات وإيداع الغنائم والإمدادات والأسرى ، وباستيطان الصليبيين في بلاد الشام افادوا من تلك المعاقل التي وجدوها ، كما حولوا بعض الآثار القديمة إلى قلاع ، ثم تطور بهم الأمر إلى بناء حصون كاملة مستخدمين في ذلك الأيدي العاملة من أرمن وبيزنطيين وأسرى المسلمين [١] .

وقد أثرت طبيعة الاستيطان في أساليب الصليبيين العسكرية ولا سيما أن اولئك الصليبيين تكيفوا مع البيئة الشرقية ، ووطدوا مركزهم في المنطقة التي حكموها ، فالبناؤين الصليبيون تأثروا بالأبنية البيزنطية والعربية التي شيدوها آنذاك [٢]فضلاً عما جاءوا به من أوربا ، فكانت القلاع والحصون التي شيدوها مثالاً للعمائر الحربية الأوربية المأثورة عن القرون الوسطى [٣] .

وذلك يعني أن تكتيك الصليبيين في بناء القلاع الحصون قلما اختلف عما هو عليه في أوربا ، واهم مميزات تلك المعاقل ، كانت تقوم في قوة وصلابة الجدران وواستراتيجية الموقع على أن مهمتها الرئيسة كانت ذات طبيعة قتالية ودفاعية ، ليست لأنها تستطيع أن تمنع دخول القوات المعادية ، وإنما لأنها تؤمن ملجأ للسكان ، وتصبح قاعدة للقيام بهجوم معاكس[٤] .

وما يهمنا في ذلك المجال أن نذكر القلاع والحصون التي تقع ضمن نطاق حدود مملكة بيت المقدس الصليبية وتأريخ بناء كل منها ، ودور تلك القلاع في الحروب ضد المسلمين ، وكيفية تحرير معظمها وتدميرها في النهاية لكي لا يستفيد منها الصليبيون على أن القلاع والحصون التي ستتناولها الدراسة مفصلاً في هذا الفصل كثيرة ، وهي حصن عال وقلاع هونين

---

[١] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٦٨ .

[٢] سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٥٩ ، ٣١٥ .

[٣] بروي ، القرون الوسطى ، ص ٣١٥ ؛ ليفي بروفنسال ، " الشام " ، دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة : احمد الشنتناوي وآخرون (دار الشعب ، القاهرة : ١٩٦٩م) ، ج ١٣ / ٩١ .

[٤] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٤٧-٢٤٨ .

وتبنين والشوبك وسكانداليوم في عهد الملك بلدوين الأول وقلعة غلافينوس في عهد الملك بلدوين الثاني وقلاع شقيف ارنون وصفد وكوكب وارنولد وبيت جبرين ويبنى وتل الصافية وحصن الكرك في عهد الملك فولك الانجوي ، وقلعة غزة في عهد الملك بلدوين الثالث ، وقلعة الداروم في عهد الملك املريك الأول وحصن بيت الأحزان في عهد الملك بلدوين الرابع .

أما بالنسبة للطراز المعماري الخاص بتلك القلاع والحصون ، فقد كان لكل قلعة طرازها وشكلها الخاص بها ولاسيما إذا سلمنا بان الصليبيين بقدومهم إلى بلاد الشام ، احتلوا بعضاً من القلاع البيزنطية ، وتركوا بعض منها على ما هي عليه ، ومنها ما أضافوا إليها بعض ملامح أنماط القلاع الغربية التي اعتادوا عليها في بلادهم الأصلية ، وعلماً أن الصليبيين قد عرفوا قبل قدومهم من القلاع ما يسمى ***keep*** وهو نوع من الحصون التي بنيت على الطراز النورماني اعتمد على ضخامة البناء وقوة الجدران ، بحيث طالما احتمى به المحاصرون ، مدة طويلة لحين وصول الإمدادات ، فضلاً عن كون تلك القلاع صالحة لإيواء عدد كبير من المحاربين ، ناهيك أن الصليبيين اسسوا عدداً من القلاع على ذلك النمط مثل بيت جبرين وتل الصافية [١] على أن حصون الصليبيين في الشرق كانت أوسع من الأبنية المعاصرة لها في أوربا كثيراً ، إذ إن مساحة بعضها كان ضعف مساحة بيرفوند ***Pierrefonds*** وكوسي ***cyCou*** ، وهما أوسع حصنين في فرنسا ، ومثال ذلك حصن الكرك [٢]الذي لازال شبه قائم يبلغ محيطه الخارجي (٢٧٠م) تقريباً كما كلت تلك الحصون قد بنيت بناءاً صلباً متيناً ، وقد استخدمت في بنائها طريقتان : الأولى استعمال احجار صغيرة من الحجر الناري الأسود عادة مساحة الواحدة منها قدم مربعة واحدة تبنى معاً ، كما جرى في قلعة المرقب [٣] أما الطريقة الثانية فهي استعمال

---

[١] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٧٢ ؛

Fedden , Crusader , P. 42.

[٢] للاطلاع على تخطيط حصن الكرك . ينظر : شكل رقم (٢) .

[٣] قلعة المرقب : قلعة حصينة تشرف على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وعلى مدينة بانياس . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص ١٠٨ .

كتل كبيرة من الحجارة ومثال ذلك حصن بانياس استخدمت فيه حجارة تبلغ مساحتها سبعة أقدام مربعة [١] .

وهذا يعني أن الصليبيين تأثروا بما شاهدوا من قلاع في بلاد الشام التي كانت على نوعين : الأول : عبارة عن قلاع ضخمة لها أبراج قوية مهمتها حماية المدن ، أما النوع الثاني : فكان عبارة عن قلاع تقع في أماكن نائية لها أهمية استراتيجية خاصة ، ومهمتها مراقبة الحدود ، كما كانت تمثل أيضا ثكنات عسكرية ضخمة ضمت عدداً كبيراً من الرجال ولكن الصليبيين لم ينقلوا ذلك النمط كما هو بل أضافوا إليه ما عرفوه من قبل وما يلزم للدفاع أمام أعدائهم المسلمين ، ولعلمهم بالآلات حصار المسلمين وأسلحتهم سعوا إلى تطوير القلاع الصليبية ، وبناءاً على ذلك بنى الصليبيون الأسوار الضخمة ، كما أحاطوا قلاعهم بالخنادق ومثال ذلك قلعة شقيف ارنون [٢] .

كانت أسوار القلاع والحصون وأبراجها ، تبنى غالباً بالحجارة الصلبة مّما جعلها أقوى وامنع من تلك التي أحاطت بالقلاع العربية والبيزنطية السابقة ، ولا يلاحظ وجود طراز قياسي موحد ، وأوضح الملامح لتلك القلاع نجدها في المرتفعات الفلسطينية التي تطابق القلاع المعاصرة في المناطق الساحلية الرئيسة واثرها في تطوير العمارة العسكرية في الشرق وتألفت تلك القلاع كما هو حالها في شمال فرنسا وجنوب إنكلترا من برج متعدد الطبقات منيع للغاية وهو البرج المحصن ***Donjon*** يحيط به سور وحيد متطاول ، وفي معظم الأحيان يعزز بأبراج زاوية مع خندق عريض ***Ditch*** أو قناة مائية عريضة ***Fosse*** مثل قلعة تل الصافية [٣] .

على أن كل التحصينات لها ثلاث وحدات دفاعية رئيسة ، وهي عبارة عن الأسوار المحيطة والأبراج والحصن المركزي ، وعادة كانت الدفاعات الخارجية تتألف من خندق وأحيانا من برج خارجي أو نقطة مراقبة ، وكان لتلك التحصينات ستائر بها فتحات ونوافذ بارزة ، واكثر نظم الدفاع تعقيداً الخندق في الماء ، كان يتركز بالقرب من بوابة القلعة الرئيسة التي كانت تبنى

---

[١] هارولد لامب ، شعلة الإسلام ، ترجمة : محمود عبدالله يعقوب (مطبعة الإرشاد ، بغداد : ١٩٦٧م) ، ص ١٤٦ .

[٢] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٧٣ . وللاطلاع على تخطيط قلعة شقيف ارنون . ينظر : شكل رقم (٣) .

[٣] فولفغانغ فينر مولر ، القلاع أيام الحروب الصليبية ، ترجمة : محمد وليد الجلاد ، ط ٢ (دار الفكر ، دمشق : ١٩٨٤م) ، ص١٧ .

بدقة شديدة ، وباتساع حوالي (٤٥قدماً) وعمق يتراوح بين (٣٤-٣٦ قدماً) لتؤدي وظيفتها في منع المنجنيقات أو أبراج الحصار من الاقتراب من الأسوار ومن قاع الخندق تبرز الحوائط الخارجية للحصن ، وكانت قاعدة تلك الحوائط عبارة عن لوح مائل مصقول ثقيل بالقدر الذي يمنع أية محاولة لحفر نفق فيه ، وعلى تلك القاعدة القوية الهرمية الشكل ترتفع الأسوار المنتظمة التي يتراوح ارتفاعها بين (٥٠-٨٠قدماً) من قاع الخندق ، وتبرز منها شرفات مخصصة لأغراض دفاعية ، أما لحصن المركزي فكان يمثل وحدة منفصلة في منتصف القلعة لتكون مقراً للحاكم أو القائد [١] .

وعليه فقد تفاوتت التحصينات الصليبية بين الأبراج الصغيرة المقامة على الطرق والقلاع الضخمة ، إذ كان حجم الحصن يتوقف على موقعه وعلى الأموال المنفقة والقوى البشرية المتاحة ،فضلاً عن الوظيفة المنوطة بذلك الحصن ، فنقطة المراقبة التي تتولى حراسة أحد الطرق أو المركز الإداري للأملاك الشاسعة لأحد التنظيمات العسكرية (الاسبتارية أو الداوية) أو القلعة القائمة في مواجهة تهديد إسلامي مستمر عبر الصحاري الممتدة كلها يجب أن تبنى بشكل يختلف تبعاً لمهامها المختلفة [٢] .

وبذلك كان تشييد القلاع والحصون من أهم عناصر الاستيطان الصليبي في بلاد الشام فقد أحاط الصليبيون مملكة بيت المقدس الصليبية بشبكة من النقاط العسكرية التي الفت الهيكل الحربي للمملكة الصليبية [٣] ويرى براور أن الأقلية التي تسعى إلى حكم أغلبية معادية ليس أمامها من سبيل لضمان وجودها سوى أن تتمركز في أعداد قليلة وفي أماكن حصينة سواء كانت مدناً أوقلاعاً أو حصوناً خاصةً وان قدرات الصليبيين والبشرية لم تكن كافية لإحكام السيطرة على المناطق الريفية ، ولأجل ضمان الاتصالات ، وجعل الوجود الصليبي في الأراضي المقدسة حقيقة ملموسة ، أقام الصليبيون قلاعاً وحصوناً على شبكة الطرق الرئيسة والثانوية في البلاد ا لتي احتلوها ،ّمما أدى إلى سهولة اتصال القلاع والحصون والحاميات من الجبل إلى

---

[١] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٥٢ .
[٢] نفسه ، ص ١٥١-١٥٢ .
[٣] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥١-١٥٢ .

السهل عن طريق الإشارات بالنيران أو الحمام الزاجل وهو أسلوب تعلمه الصليبيون من المسلمين في الشرق [١] .

فقد عمل الصليبيون على أن تكون قلعتي تبنين وشقيف ارنون . اللتين سنتكلم عنهما لاحقاً . متصلتين بإحدى الإشارات ، كما أن حصن الكرك كان يتصل بقلعة داؤد في القدس عن طريق الإشارات بالنيران [٢] ، وبتلك الوسائل كانت الأخبار تصل بسرعة من القدس إلى المدن التابعة لمملكة بيت المقدس الصليبية ، وليس ذلك فحسب بل كانت المواقع الصليبية الحصينة بمثابة مواقع عسكرية ثابتة في حين كان الجيش الصليبي هو العنصر المتحرك فيها [٣] ، وهذا يحتم بطبيعة الحال على كل قوة مسلمة أن تهاجم تلك القلاع ولا تغفل واحدة منها ، ذلك انه عند محاصرة قلعة من تلك القلاع ستقوم الأخرى بمساعدتها ، وتبقى القوة المحاصرة محاصرة هي الأخرى ، وتصبح بين شقي رحى مدافعي القلعة من جهة وفرسان القلاع من جهة أخرى [٤] .

ومما هو جدير بالذكر يتوجب علينا أن نوضح امرين هما :

أولا : دوافع الصليبيين لتشييد قلاعهم وحصونهم في بلاد الشام ويمكن تقسيمها إلى عدة مشكلات :

أ.الموقع الجغرافي للوجود الصليبي في بلاد الشام

ب.مواجهة نقص العنصر البشري في صراعهم ضد المسلمين

ج.تامين طرق الحج للنصارى إلى الأماكن المقدسة في فلسطين

د. تمزيق وحدة المسلمين السياسية وإسقاط مدنهم

هـ.العامل الإداري [٥]

---

[١] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٥١ .

[٢] احمد رمضان احمد ، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية (د. م. ، القاهرة : ١٩٧٧م) ، ص ٣٢٩-٣٣٠ .

[٣] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٥١ .

[٤] احمد ، المجتمع الإسلامي ، ص ٣٣٠ .

[٥] عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٧٧ .

أ. الموقع الجغرافي للوجود الصليبي في بلاد الشام

من المعروف أن مملكة بيت المقدس الصليبية مثلت موقعاً جغرافياً مهماً جعلها بصورة مستمرة عرضة لخطر الهجوم من جانب القوى الإسلامية المجاورة سواء من جهة مصر أو من جهة دمشق والأراضي التي خضعت لسيطرة الصليبيين امتدت من الشمال إلى الجنوب وشملت إمارتي إنطاكية وطرابلس ومملكة بيت المقدس ، وقد تراوح تلك الامتداد الطولي لمناطق النفوذ الصليبي بين (٨٠٠-١٠٠٠كم) ، أما عرضها فقد تراوح بين (١٠٠-١٤٠كم) ، فضلاً عن الجانب الصحراوي لتلك الدولة الساحلية كانت هنالك مدن إسلامية كبرى مثل دمشق وحلب وحمص وحماة لم تخضع للسيطرة الصليبية ، والتي شكلت مصدر الخطر الدائم في مواجهة الوجود الصليبي في المنطقة [١] ، ولذلك نجد أن الصليبيين اتخذوا بنظر الاعتبار المواقع الاستراتيجية كالمرتفعات لإنشاء قلاعهم وحصونهم للإشراف على الأراضي التي حولها أو المواقع التي تتحكم في طرق القوافل التجارية [٢] ، فضلاً عن مهمتها في حماية حدود مملكة بيت المقدس الصليبية وهددت المدن الإسلامية الآنفة الذكر ، كما هددت مصر في الجنوب من قلاعهم الجنوبية [٣] .

وعلى الرغم من دورالقلاع والحصون في الصراع الإسلامي الصليبي ، إلا انه لا يعرف عن المخططات الاصلية لتلك المعاقل ومظهرها لان معظم القلاع التي بناها الصليبيون وقد اعيد بناؤها وترميمها فيما بعد تعرضها للزلازل والهجمات أو بعد أن انتقلت ملكيتها فيما بعد إلى هيئتي الفرسان الرهبان الاسبتارية والداوية [٤] .

---

[١] محمود الحويري ، الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (د. م. ، القاهرة : ١٩٧٩م) ، ص ١٨٤-١٨٥ ؛ البكر ، الحروب الصليبية ، ص ١٣٣ ؛

Fedden , Crusader , p. 14 .

[٢] رنسيمان ، المدنية البيزنطية ، ص ٢٦٥ ؛ لامب ، شعلة الإسلام ، ص ٩٣ .

[٣] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٦٩ .

[٤] مولر ، القلاع ، ص ١٧ .

ب. مواجهة نقص العنصر البشري في صراعهم ضد المسلمين

بعد نجاح الحملة الصليبية الأولى في تحقيق أهدافها في زرع كيانات الصليبيين السياسية في جسم المنطقة العربية عاد الكثير من افرادها إلى الغرب الأوربي [١] ، كما أن قدوم الحجاج النصارى إلىالأراضي المقدسة في فلسطين ، لم يكن يمثل دعماً بشرياً مستمراً ومضموناً لان معظمهم كان يفضل العودة إلى اوربا بعد انقضاء طقوس الحج في الوقت الذي كان قسم منهم يستقر في أراضي فلسطين [٢] .

وكان لضياع الرها من أيدي الصليبيين اكبر الأثر في نقص القوة البشرية التي كانت تفد إلى المملكة الصليبية من تلك الأمارة ، وذلك لان الأرمن مثلوا للصليبيين سيلاً من القوات المساعدة الفعالة ، فضلاً عن تضييق المسلمين الخناق على الصليبيين الذي أدى بدوره إلى انكماش وجودهم في منطقة محدودة بالشام ، لاسيما في مملكة بيت المقدس الصليبية ، مما جعلهم يفكرون اكثر في بناء القلاع والحصون للتغلب على مشكلة قلة الرجال [٣] وفي المقابل كانت سهول ووديان وانهار مصر وبلاد الشام والجزيرة مناطق كثيفة بالسكان تضمن للمسلمين تفوقاً عددياً نسبياً بالمقارنة مع أعدائهم ، وكان العنصر البشري في ذلك الوقت هو الذي يدير آلة الحرب ويستولي على المواقع العسكرية ، ولم تكن الأسلحة قد تطورت بالصورة التي يمكن أن تقلل دور الجانب البشري وأهميته الحربية [٤] .

وقد أدركت القيادة الصليبية خطر تلك المشكلة ، وعملت على تفاديها منذ الفترة المبكرة لوجودهم في بلاد الشام ، وذلك من خلال استقدام عناصر من النصارى الشرقيين والأرمن من مناطق مختلفة للاستيطان في القدس ابتداءًبعهد الملك بلدوين الأول ، وسار على نهجه سائر الملوك الصليبيين [٥] ، ومن جهة أخرى عمل الصليبيون على تثبيت أقدامهم في المنطقة العربية من خلال إقامة العديد من القلاع والحصون المنيعة من اجل تعويضهم عن قلة العنصر البشري قياساً بحجم السكان الأصليين في المنطقة لمواجهة المسلمين [١] .

---

[١] زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٥٧ .

[٢] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ٣٣١ ؛ مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٦٩ .

[٣] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٦٩ .

[٤] عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٧٨ .

[٥] ينظر : ما سبق في الفصل الأول من الدراسة .

ج. تامين طرق الحجاج النصارى إلى الأماكن المقدسة في فلسطين

كانت مكانة القدس الدينية قد جعلها قبلة الحجاج الاوربيين ، فكان الالاف منهم يتوافدون سنوياً إلى الاراضي المقدسة فكان من واجب المملكة الصليبية أن تؤمن لهم الحماية بوصف ذلك وسيلة دعاية سياسية للقيادة الصليبية في أوربا ، ولذلك عمل الصليبيون على تشييد بعض القلاع على الطرق التي يمر بها الحجاج النصارى لتامين الحماية من خطر هجمات المسلمين [٢] ، وخاصة في الطريق الذي يصل بين مدينتي يافا والقدس ، والذي كان يمر عبر طرق جبلية وحافلة بالأخطار لوجود المسلمين الذين كانوا ينصبون الكمائن في الجبال ويراقبون عدوهم الصليبي ليل ونهار لمباغتته وشن الهجمات عليه كلما وجدوا فرصة سانحة [٣] .

ولهذا السبب شيد الصليبيون قلعة ارنولد في عهد الملك فولك الانجوي على الطريق الذي يصل مدينتي يافا والقدس لغرض حماية الحجاج النصارى القادمين من الساحل إلى المدينة المقدسة [٤] فضلاً عن ذلك استخدموا سياسة أخرى ممكن أن تكون أول تطبيق لسياسة الاستعمار الاستيطاني بأسلوب ديني مرموق ، إذ كان الصليبيون يختارون لهم مواقع مهمة في البلاد الإسلامية على أطراف الشام ومصر ، ويشيدون لهم عليها كنيسة ، ويقومون بتحصينها ومن ثم توسيعها حتى تصبح قلعة حصينة ، ويقومون بعدها باستقدام العساكر من أوربا إلى تلك الحصون من اجل حمايتها ومن ثم لشن الهجمات منها على المواقع الإسلامية المجاورة أو لقطع الطرق على التجار والحجاج المسلمين ، والاستيلاء على بضائعهم وأمتعتهم ، وبخاصة أولئك القادمين من شمال افريقيا ، ومثال ذلك قلعة الشوبك في أطراف بلاد الشام ، كما أن حصن الكرك كان من الحصون الصليبية التي أسست بتلك الطريقة [٥] وتلك نورده لاحقاً في هذا الفصل .

---

[١] رنسيمان ، المدنية البيزنطية ، ص ٢٦٥ ؛ احمد ، المجتمع الإسلامي ، ص ٣٢٩ ؛ عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٧٨ ؛ انتوني بردج ، تأريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : احمد غسان سباتو ونبيل الحيرودي (دار قتيبة ، دمشق : ١٩٨٥م) ، ص ١٩٢ ؛

Fedden , Crusader , p.16 - 18 .

[٢] دانيال الراهب ، رحلة الحاج الروسي ، ص ٩٥ .

[٣] سليمان موسى ، رحلات في الأردن وفلسطين (دار ابن رشد ، عمان : ١٩٨٤م) ، ص ١٩ .

[٤] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٦٦٢ .

[٥] نوري ، سياسة صلاح الدين ، ص ٥٥-٥٦ .

د.تمزيق وحدة المسلمين السياسية وإسقاط مدنهم

لقد حرص الصليبيون على استهداف وحدة المسلمين بأي ثمن ، وعملوا على التفريق بين مصر والشام على وجه التحديد من اجل أن تبقى القوى الإسلامية في المنطقة تعاني التفكك والانقسام ، وتتعامل كل قوة منها مع الصليبيين بصورة منفردة بهدف دعيم الاحتلال الصليبي ، وضمان بقاء الوجود الصليبي في المنطقة [١] ، وفعلاً قام الصليبيون ببناء عدد من القلاع الداخلية الحصينة من اجل تحقيق الهدف المنشود في الهجوم على المدن الشامية التي بقيت في حوزة المسلمين ، وتضييق الخناق عليها لإرغامها على السقوط [٢] ومثال ذلك قلعة تبنين وسكانداليوم اللتان شيدهما الصليبيون في عهد الملك بلدوين الأول لأجل تضييق الحصار على مدينة صور ، كما أنشئت قلعة غزة في عهد الملك بلدوين الثالث لاتخاذها قاعدة للهجوم على مصر وقطع الاتصالات بينها وين بلاد الشام ، وسيرد لاحقاً الحديث عنهما .

هـ . العامل الإداري

من المعروف أن القلعة كانت مظهراً مهماً من مظاهر الإدارة في النظام الإقطاعي ، فكان السيد الإقطاعي يحتاج إلى مركز آمن ومحصن يدير منه إقطاعياته المختلفة ، وقد ساعد موقع القلاع في الشام على القيام بذلك العمل ، كما كان لوقوعها وسط أراضي غنية بخيراتها الزراعية ّمما أتاح لها أن تكون مستودعاً مهماً لحاصلات تلك الأراضي [٣] فعلى سبيل المثال كان للعامل الإداري دور بارز في إنشاء قلعة غلافينوس في عهد الملك بلدوين الثاني ، إذا انها تسيطر على الاراضي الزراعية المجاورة ومنها تفرض ادارتها عليها .

وبذلك اختار الصليبيون أماكن قلاعهم لتكون بالدرجة الأولى للأغراض العسكرية والإدارية اكثر منها للأغراض الاستراتيجية ، فلم يكن هدفهم فقط الدفاع بقوة عن جبال لبنان أو عن نهر الأردن ، فقد كان معروفاً لدى الصليبيين أن القلاع ، ما هي إلا قواعد أو ملاجئ للانسحاب إليها وليست مدناً حصينة على الحدود لمنع تقدم المسلمين [٤] .

---

[١] عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٧٩ .

[٢] النقيب ، " عماد الدين زنكي " ، ص ٩٨ .

[٣] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٧٠ .

[٤] احمد ، المجتمع الإسلامي ، ص ٣٢٩ .

ويتضح من جميع الدوافع السابقة الذكر التي كانت تقف وراء تشييد الصليبيين للقلاع والحصون أثناء وجودهم في بلاد الشام أن تلك المعاقل الصليبية قامت بوظيفتين ، الأولى : أن القلعة مثلت سلاحاً حربياً مهما استخدمه الصليبيون في حالتي الدفاع والهجوم ، أما الوظيفة الثانية :إن القلعة كانت تمثل مركزاً إداريا مهماً وسط النظام الإقطاعي الكبير [١] .

وكان هذا الهدف المزدوج للقلاع والحصون معروفاً في أوربا منذ القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي فنقله الصليبيون إلى بلاد الشام ، وقد يصعب أحيانا التفرقة بين ما إذا كانت القلعة أنشئت لتحقيق الهدفين معاً ، فكانت القلعة الواحدة تمثل مركزاً لانطلاق قوة للهجوم على المسلمين ، وفي الوقت نفسه هي مركز يدير منه السيد الإقطاعي أملاكه ويجمع فيها حاصلاته من الأراضي التابعة للقلعة [٢] .

---

[1]*Fedden , Crusader , p. 19 .*

[٢] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٧٠ .

ثانيا: بناء القلاع والحصون في مملكة بيت المقدس الصليبية [1]

أ. عهد الملك بلدوين الأول

يعد الملك بلدوين الأول المؤسس الحقيقي لمملكة بيت المقدس الصليبية ، وقد واجه خلال مدة مشكلات جمة أهمها قضيتان أساسيتان أولهما : قضية نقص العنصر البشري ، وثانيهما : قضية تامين حدود المملكة الصليبية من جهة الغرب من خلال إخضاع المدن الشامية الساحلية المسلمة ، ولمواجهة تلك المشكلات اتجه الملك بلدوين إلى تشييد عدد من القلاع والحصون المنيعة من اجل تثبيت أقدام الصليبيين في المنطقة العربية ، ولتضييق الخناق على المدن التي أراد إسقاطها وانتزاعها من أيدي المسلمين [2] .

فقد كان أهم ما يشغل تفكير الملك بلدوين الأول ، هو أن يجعل لمملكته حدوداً برية ملائمة ، فقام الصليبيون في عهده ببناء حصن عال وقلعتي هونين وتبنين في أمارة الجليل ، كما وجه اهتمامه الرئيس إلى أن يكون لدولته جبهة ساحلية كبيرة في الجهات الأخرى والإفادة من وقوع مملكته بالقرب من الطرق التجارية الرئيسة الممتدة من العراق وبلاد العرب إلى البحر المتوسط [3] .

ولم تمض سنوات قليلة على الاحتلال الصليبي لمدينة القدس وتأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية حتى خضع الشريط الساحلي الشامي للصليبيين باستثناء مدينة عسقلان ، وبدأ الملك بلدوين الأول يولي اهتمامه جنوباً ، فهاجم في سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م منطقة شرق الأردن ، ثم شيد في السنة ذاتها قلعة الشوبك ، لتكون منطلقاً له نحو البحر الأحمر ، ثم قام بتحصين مرفأ ايلة (**العقبة**) [4] وترجع أهميتها إلى كونها محطة للحجاج المسلمين الذين كانوا يقدمون إليها أثناء ذهابهم إلى الحجاز ، فضلاً عن الأهمية البالغة للبحر الأحمر بالنسبة للتجارة الدولية ، فاخذ الصليبيون يتطلعون إلى النفاذ إليه والتحكم فيه ، ولا شك أن ذلك الهدف كان من بين

---

[1] للاطلاع على جميع مواقع تلك القلاع والحصون الصليبية . ينظر : خارطة رقم (٢) .

[2] عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٢٩-٣٠ .

[3] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ١٥٤-١٥٥ ؛ العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ص ٣١٥ .

[4] عن الأهمية الإستراتيجية والاقتصادية لآيلة والبحر الأحمر في العصر الصليبي . ينظر : غوانمة ، آيلة (العقبة) والبحر الأحمر وأهميتها التأريخية والإستراتيجية (دار هشام للطباعة والنشر ، اربد : ١٩٨٤م) ، ص ٧٢ .

الأسباب الرئيسة للحملات الصليبية على مصر لغرض الاستيلاء عليها ، وبالتالي على تجارة البحر الأحمر على اعتبار أن مصر كانت آنذاك المحطة الكبرى لتجارة الشرق الأقصى في طريقها إلى أوربا [1] كما شيد في سنة ٥١١هـ/١١١٧م قلعة سكاندليوم لإسقاط مدينة صور [2] ، تلك هي نظرة عامة عن القلاع والحصون التي جرى تشيدها في عهد الملك بلدوين الأول التي شكلت بمجموعها معاقل عسكرية قوية تنصب في مصلحة الوجود الصليبي في بلاد الشام وفيما يلي عرض مفصل لها .

١.حصن عال *Al* [3]

شيد الملك بلدوين الأول حصن عال على التلال الواقعة إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية [4] وعلى مسافة حوالي (٧٠كم) عن مدينة دمشق[5] وكان الغرض من تشييده ليقوم الصليبيون من خلاله بشن الهجمات ضد المسلمين في الأراضي الواقعة إلى الشرق من أمارة الجليل [6] .

وعلى الرغم من أن بناء ذلك الحصن اكتمل في سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م [7] غير انه لم

---

[1] البكر ، " الصليبيون في البحر الأحمر " (مجلة آداب الرافدين ، الموصل : ١٩٩٧م) ، ع٣٠ ، ص ١١٥ .

[2] مولر ، القلاع ، ص ١٤–١٥ .

[3] كما ورد ذكر حصن عال في المصادر العربية الإسلامية تحت اسم علعال . ينظر : ابن القلانسي ، ذيل ، ص ١٤٩ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٤٦ ؛ البغدادي ، مراصد الاطلاع ، ج٢ ، ص ٩٥٦ .

[4] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ١٥٥ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٣٠٦ ؛ العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ص ٣١٦ .

[5] ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٩٩ .

[6] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٥٥ .

[7] ابن القلانسي ، ذيل ، ص ١٤٩ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ق١ ، ص ١٦.

يبقى في أيدي الصليبيين سوى مدة قصيرة من الزمن [١] إذ أدرك طغتكين [٢] أمير دمشق ما تتعرض له بلاده من تهديد خطير من تلك الجهة لذلك قام بمهاجمة الحصن ، وبالمقابل خرج الصليبيون من حصنهم لملاقاته ، فدارت المعركة بين الطرفين أمام الحصن مالت فيها الكفة لصالح المسلمين واضطر الصليبيون للتراجع إلى داخل حصنهم للاحتماء به ، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد بل تعقب المسلمون فلول المنهزمين الصليبيين ، واصدر طغتكين أوامره بتدمير الحصن ونجح في ذلك المسلمون عندما شنوا هجوماً مباغتاً على الحصن وتمكنوا من هدم جزء من سوره والقوا الأحجار في الوادي حتى لا يستفيد منه الصليبيون إذا أعادوا بناءه مرة أخرى ، أما الصليبيون الذين كانوا بداخل الحصن فكان مصيرهم القتل ، ولم ينج منهم إلا عدد قليل ، فضلاً عن وقوع مئتي أسير من الفرسان بيد المسلمين ، وبذلك امتلك المسلمون الحصن واستحوذوا على كل ما كان فيه من الآلات ومعدات حربية ومؤن وأقوات ، ثم عادوا إلى دمشق ظافرين [٣] .

٢. قلعة هونين *Chateau Neuf* [٤] .

---

[١]رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٥٥ ؛ العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ص ٣١٦

[٢]طغتكين : لفظ تركي معناه الصقر المغير ، وكان لقبه التكريمي ظهير الدين . ينظر : حتي تأريخ سورية ، ج٢ ، ص ٢٠٨ ، هامش رقم (٢) ، وهو أبو المنصور ظهير الدين طغتكين الاتابك ، كان من أمراء السلطان السلجوقي تتش بن ألب ارسلان ، وبعد مقتل السلطان تتش ، وتملك ابنه دقاق اصبح طغتكين مقدم عسكره ، ثم تولى حكم دمشق بعد دقاق ، توفي سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م . ينظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الارنؤوط ، ط٣ ، (مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ، بيروت : ١٩٨٦م) ،ج ١٩ ، ص ٥١٩ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص ٢٣٤ ؛ ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ٦٥-٦٦ .

[٣]ابن القلانسي ، ذيل ، ١٤٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٣٩-٤٠٠ .

[٤]تكتب باللغة العربية هونين وباللغة اللاتينية *Castrum Nerum* أي القلعة الجديدة . ينظر : ثيودريش ، وصف الأماكن ، ص ١٢٣ ؛ جب ، " سيرة نور الدين " ، ضمن كتاب تأريخ الحروب الصليبية ، تحرير :

شيدها الصليبيون في عهد الملك بلدوين الأول بعد سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م [١] فوق مرتفع صخري [٢] يقع في نهاية جبل عامل من الجهة الشرقية مقابل مدينة بانياس [٣] على الطريق الذي يصل ما بين مدينتي بانياس وصور [٤] وبينها وبين بانياس حوالي (١٨كم) [٥] وعلى الطريق الممتد من بانياس إلى تبنين [٦] وقد وصفت القلعة بأنها من امنع قلاع الصليبيين ومعاقلهم في بلاد الشام [٧] .

أما الغرض من بنائها لتكون بمثابة موقع دفاعي لحماية حدود مملكة بيت المقدس الصليبية من جهة الشمال الشرقي والمتمثلة بحدود أمارة دمشق ، وتتحكم في منابع الأردن وسهوله العليا [٨] ولفرض السيطرة على طريق دمشق . صور من خلال قلعة هونين [٩] فضلاً عن أهميتها الاقتصادية وذلك بسبب وقوعها على الطرق التجارية الرئيسية [١٠] ولأجل دعم الاستيطان في هونين أولى الصليبيون اهتماما بالغاً فجهزوها بشكل جيد بالأسلحة وشحنوها

سعيد عبدالله البيشاوي ومحمد مؤنس عوض ، ترجمة وتعليق : محمد مؤنس عوض (دار الشروق ، عمان : ٢٠٠٤ م) ، ح١ ، ص ١٧١ ؛ مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٨١ . وكذلك *Chateau Neuf* أي القصر الجديد . ينظر : رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٦٧٦ ، ٩٢٥ ؛ مولر ، القلاع ، ص ٢١ ؛ الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج٢ ، ق٢ ، ص ١٥٢ ،

Baldwin , Raymond III , p. 49 ; Regine Pernoud , The Crusaders , (Robert Cunningham press , london : 1963) , p. 148 .

(١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج٢ ، ص ١٥٢ ؛

Lyons , Saladin , pp. 136, 204 .

(٢) محمد بن أبي طالب المعروف بشيخ الربوة ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (مطبعة الاكاديمية ، بطرسبورغ : ١٨٦٥ م) ، ٢١١ ؛

B. Lewis , " Art Arabic Account of the Provinceof Safed " in BSOAS : 1953 , Vol. XV , p.481 .

(٣) البغدادي ، مراصد الاطلاع ، ج٣ ، ص ١٤٦٧ ؛ الطراونة ، مملكة صفد ، ص٩٦ .

(٤) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج٢ ، ص ١٥٢ .

(٥) ابن جبير ، رحلة ، ص ٢٧٣ .

(٦) رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٧٤ ؛ بسام العسلي ، فن الحرب الإسلامي أيام الحروب الصليبية (دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت : ١٩٨٨م) ، م ٤ ، ص ١١٧ .

(٧) ابن الأثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ٣٢٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

(٨) عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ٦٩٢ ؛ الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج٦ ، ق ٢ ، ص ٢٣٠ ؛ مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٨١ ؛ عوض ، تاريخ الحروب ، ص ٨٦ .

(٩) سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٢١٢ .

(١٠) مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٨١ .

بالرجال المقاتلين كما أمدوها بكميات كبيرة من المواد الغذائية تكفي لسد احتياجات المستوطنين الصليبيين أطول مدة ممكنة ّمما جعلها تشكل منطقة ملاذ آمن للسكان في حالة استيلاء الصليبيين على مدينة بانياس خاصة ان المستوطنين كانوا يعلقون أمالا كبيرة على تحصيناتها في درء خطر الهجمات الإسلامية [١] .

وقد كانت قلعة هونين والمناطق المحيطة بها تحت حكم أمير الجليل الصليبي هيو سانت أومر ، وذلك منذ سنة ٥٠١ هـ/١١٠٧م ، وفي ظل ظروف غير معروفة حول الإقطاع كله إلى إقطاعية مستقلة تابعة لحاكم بانياس همفري الأول ***Humphrey I*** ، ولكن سرعان ما عجز ذلك السيد الإقطاعي عن الدفاع عن أملاكه أمام هجمات نور الدين المتكررة فقام ببيع نصف هونين سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م ، وكذلك نصف إقطاع بانياس لهيئة الاسبتارية إلا أن هيئة الاسبتارية تخلت عن تلك البقاع ، بعد أن تعرض أفرادها لكارثة أودت بحياة معظمهم على يد نور الدين زنكي سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م [٢] .

وعندما توجه نور الدين زنكي من دمشق لمهاجمة قلعة هونين في سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م ، اضطر الصليبيون الذين ما أن علموا بقدومه إلى التخلي عن قلعتهم ، ولم يكتفوا بذلك بل احرقوا البناء حتى لا يستفيد منه المسلمون ، فلما وصل إليها نور الدين لم يجد فيها أية فائدة ، لذلك أمر بتخريب قلعة هونين وهدم الأسوار المحيطة بها [٣] .

لكن وعلى الرغم من الدمار الذي لحق بقلعة هونين إلا أن الصليبيين أعادوا عملية بنائها مرة أخرى ، أما الناصر صلاح الدين فلم يغب عن تفكيره ما اقدم عليه الصليبيون ، فقرر مهاجمتهم في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، ونظراً لانشغاله بتحرير عسقلان والقدس وتطهيرها من الصليبيين ، فلم يتوجه بنفسه إلى هونين بل جهز قوة عسكرية اتجهت إلى القلعة وحاصرتها من جميع الجهات ، ّمما أدى إلى قطع الإمدادات الخارجية عن الصليبيين المعتصمين داخل القلعة

---

[١] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٨٤٦ .

[٢] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٨٢ .

[٣] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٢٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج١ ، ص ١٤٧ ؛ بدر الدين محمد بن تقي الدين ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق : محمود زايد (مطبعة الأمان ، بيروت : ١٩٧١ م) ، ص ١٧٣ .

، الأمر الذي اضطرهم إلى طلب الأمان مقابل الاستسلام وتسليم القلعة للمسلمين ، فوافق صلاح الدين على طلبهم ، وتسلم قلعة هونين في ٢٣ شوال ٥٨٣هـ/١١٨٧م [١] .

٣. قلعة تبنين Toron

شيدها الصليبيون في سنة ٥٠١هـ/ ١١٠٧م على مرتفع من الأرض أطلق عليه المؤرخون العرب المسلمون تسمية تل المعشوقة [٢] الذي بلغ ارتفاعه نحو (١٠٠٠م) عن مستوى سطح البحر [٣] قام ببنائها هيو سانت أومر الذي خلف تانكرد في حكم أمارة الجليل (طبرية) على بعد حوالي (٢٠كم) إلى الشرق من مدينة صور [٤] على الطريق الذي يربط ما بين مدينتي بانياس وصور [٥] كما تبعد مسافة (٣٥كم) إلى الشمال من صفد [٦] .

أما عن تكوينها المعماري فهي مستديرة الشكل ، ويبلغ قطرها (١٨٠م) ، ومساحتها التقريبية (٢٥٥٠٠م٢) وعدد أبراجها عشرة ، والظاهر أنها من أوسع القلاع اللبنانية مساحة وأوسع أبراجها هو البرج الغربي ، ويقابلها من الناحية الجنوبية الغربية ربض [٧] يبعد عنها قرابة

---

[١] ابن الأثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ٥٥٧ ؛ ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج٢ ، ص ١٥٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٤٧ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص ١٥١ .

[٢] ابن القلانسي ، ذيل ، ص ١٥٩ ؛ ابن الأثير الكامل ، ج١٠ ، ص ٤٥٥ ؛ ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج٢ ، ص ١٥٢ ؛ الذهبي ، سير أعلام ، ج١٩ ، ص ٤٠٧ ؛ دول الإسلام ، تحقيق : فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم (مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : ١٩٧٤م) ، ج٢ ، ص ٣٠ ؛ تقي الدين احمد بن علي المقريزي ، اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق : محمد حلمي احمد (مطابع الاهرام التجارية ، القاهرة : ١٩٧٣م) ، ج٣ ، ص ٣٨ .

[٣] طه ثلجي الطراونة ، مملكة صفد في عهد المّماليك (منشورات دار الافاق الجديدة ، بيروت : ١٩٨٢م) ، ص ٩٥ .

[٤] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٥٢٥ .

[٥] ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٤ ؛ الصوري ، نفسه ، ج ١ ، ص ٥٢٥ ؛ *Pernoud , The Crusaders , p. 151 .*

[٦] غوانمة ، إمارة الكرك الأيوبية ، ط٢ (دار الفكر ، عمان : ١٩٨٢م) ، ص ٦١ ، هامش رقم (٨) .

[٧] الربض : ما حول المدينة من بيوت ومساكن . ينظر : ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج٢ ، ص ٦٩ ، هامش رقم (٢) .

(٢٠٠م) ومساحته لا تزيد على (٦٠٠م) ، له أربعة أبراج يعرف بالحصن بني لغرض المراقبة على تل صغير يوازي علوه علو القلعة [(١)] من اجل تشديد الحصار على مدينة صور التي بقيت ممتنعة على الصليبيين حتى سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م [(٢)] .

وذكر الصوري أن الغرض الرئيس من بنائها هو أن هيو سانت أومر أمير الجليل الثاني كان يقوم بهجمات مستمرة على مدينة صور ومضايقتها واستنزاف قوتها تمهيداً لإسقاطها ، وكان جنده أثناء ذهابهم وإيابهم يتعرضون باستمرار للخطر بسبب عدم وجود قلعة أو موقع حصين بين مدينتي طبرية وصور يستطيعون اللجوء إليه كلما هاجمهم المسلمون [(٣)] .

وقد أدرك المسلمون مدى جسامة الخطر الذي شكله بناء تلك القلعة لذا شنت حامية صور بقيادةوالي المدينة الأمير عز الدين هجوماً ضد الصليبيين ، غير أن تلك الهجمة لم تحقق أهدافها في الحاق أضرار جسيمة في مبنى القلعة سوى ايقاع خسائر بشرية تمثلت بمقتل العديد ممن كان فيها من الصليبيين [(٤)] .

هذا وقد أسهمت قلعة تبنين في عملية الاستيطان ، فمن الناحية العسكرية كانت إحدى القلاع الصليبية المنيعة في بلاد الشام [(٥)] لقوة تحصيناتها وصلابة استحكاماتها [(٦)] استوطنها عناصر فرسان الداوية [(٧)] فكانت وظيفتها حماية الحدود الشمالية لمملكة بيت المقدس الصليبية من جانب دمشق [(٨)] فضلاً عن مساهمة القلعة في توفير الحماية للذاهبين إلى عكا [(١)] . أما من

[(١)] محمد عطاالله دكروب ، " صفحات متنوعة من تأريخ تبنين " ، منشور على شبكة الانترنيت *WWW. Tibneen . Com .*

[(٢)] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٥٥ ، ٢٦٩ ؛ الطراونة ، مملكة صفد ، ص ٩٥–٩٦ ؛ *Pernoud , The Crusaders , p. 149 .*

[(٣)] تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٢٥ .

[(٤)] ابن القلانسي ، ذيل ، ص ١٥١ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، م٢ ، ق١ ، ص ١٩ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص ٢٧ .

[(٥)] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ٥٤٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص ١٢٤ ؛ سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٢١٤ ، زكار ، الموسوعة الشاملة ، ج٢٤ ، ص ٨٨ .

[(٦)] ثيودريش ، وصف الاماكن ، ص ١٤٢ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٥٢٥ .

[(٧)] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٠ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص ١٧٧ ، ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج٢ ، ص ١٥٢ .

[(٨)] ماير تأريخ الحروب ، ص ١٣٧ ؛ سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٢١٤ ؛ مولر ، القلاع ، ص ١٥ .

الناحيــة الاقتصــادية فقـد امتــاز الموقــع بسـيطرة علــى منطقــة خصــبة ملائمــة لزراعــة أشــجار الحمضيات وإنتاج الكروم ، فضلا عن زراعة الحبوب (الحنطة والشعير) نظراً لعناية الفلاحين واهتمامهم بذلك المجال [2] إذ كانت الأراضـي التابعة للقلعة تر دخلاً سنوياً كبيراً [3] أما عن نشاطها الاقتصادي التجاري ، فقد تمتعت تبنين بأهمية تجارية ، فقد ذكر ابن جبير خلال رحلته بان القلعة كانت ((***موضع تمكيس القوافل ، وصاحبته خنزيرة تعرف بالملكة [4] وهـي أم الملك الخنزير صاحب عكا (بلـدوين الرابـع) ، دمرها الله ، ومكس النـاس تمكيساً غير مستقصى والضريبة فيه دينار وقيراط [5] من الدنانير الصورية [6] علـى الرأس ، ولاعتراض علـى التجار فيه لانهم يقصدون موضع الملك الملعون***)) [7] .

وعلى الرغم من الاستيطان الصليبي في تبنين إلا أن ذلك الوجود انتهى بتحرير قلعة تبنين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م إذ انفذ الناصر صلاح الدين ابن أخيه الأمير عزالدين فرخشاه [8] إلى القلعة وعندما وصلها رأى أن حصارها يحتاج لقوة اكبر لذلك أرسل إلى عمه يعلمه بالأمر

---

[1] ثيودريش ، وصف الاماكن ، ص ١٤٢ ؛ *Stevenson , The Crusaders , p. 49 .*

[2] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٥٢٥ .

[3] عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٩٥ .

[4] هي اجنيس كورتيناي ابنة جوسلين الثاني أمير الرها من زوجته بياتريس ، تزوجت اجنيس من الملك املريك الأول ، وانجبت منه طفلين هما بلدوين الرابع وابنه كبرى تدعى سيبل . الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٨٨٣ .

[5] قيراط : والقيراط من الوزن معروف وهو جزء من اجزاء الدينار ، وهو نصف عشرة في الكثير من البلاد ، واهل الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين . ينظر : جمال الدين بن محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب ، ط٣ (دار صادر ، بيروت : ١٩٩٤م) ، م٧ ، ص ٣٧ .

[6] نسبة إلى مدينة صور ، كان اقل من الدينار المصري . ينظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧٦ ، هامش رقم (٦) .

[7] رحلة ، ص ٢٧٤ .

[8] هو الأمير عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، كأن نائباً عن عمه صلاح الدين بدمشق ، واعتماده عليه في كثير من أموره بخلاف سائر اهله وأمرائه ، وكان شجاعاً كريما فاضلاً عالماً بالادب وغيره ، توفي في جمادي الأولى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م . ينظر : اسماعيل بن العباس الغساني ، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ، تحقيق : شاكر عبد المنعم (دار التراث الإسلامي ، بيروت : ١٩٧٥م) ، ص ١٨٧ .

ويحثه على القدوم بالسرعة الممكنة ، وما أن علم صلاح الدين بالخبر حتى توجه إلى تبنين وفرض حصاراً على الصليبيين داخل القلعة الذين اضطروا تحت وطأة الحصار إلى إطلاق سراح معظم أسرى المسلمين ، وبقي الصليبيون خمسة أيام على ذلك الحال ، ولما تيقنوا من عدم جدوى المقاومة أرسلوا إلى صلاح الدين في طلب الأمان مقابل

الاستسلام وتسليم القلعة للمسلمين ، فوافقهم على ذلك الطلب ووفى بعهده وسيرهم إلى مأمنهم [١] ، وكان ذلك في ١٨ جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م [٢] وبذلك حررها الناصر صلاح الدين من دون قتال ثم أمر بتدميرها بعد استردادها بأربع سنوات [٣] .

٤.قلعة الشوبك *Montreal* [٤]

لقد كانت النتيجة الطبيعية لهجمات مصر ضد الصليبيين من ناحية وظهورهم في صورة العاجزين عن زحزحة الصليبيين بعيداً عن مراكزهم التي احتلوها في جنوب بلاد الشام من ناحية أخرى أثرها في دفع الملك بلدوين الأول إلى العمل على تأمين حدود مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب [٥] ولا سيما ان الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٧ - ٥١٥هـ/١٠٩٤-١١٢١م) كان قد اعتمد سياسة ثابتة تجاه المد الصليبي وإيقاف زحفه ، فعمل على استعادة ما

---

[١] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤١-٥٤٢ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص ٣٠٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٠٥-٢٠٦ .

[٢] الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٢٨ .

[٣] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٧٨ .

[٤] تكتب باللغة العربية الشوبك . ينظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٧١ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٣ ، ص ٩٢ . أما الصليبيون فاطلقوا عليها اسم الجبل الملكي *Mons Regalis Montreal* . ينظر : ثيودريش ، وصف الاماكن ، ص ١١١ ، وكذلك عرفت بـ *Le Carc des Montreal* ، للتفرقة بينها وبين حصن الكرك *Crac des Moabites* وحصن الاكراد *Carc des Chevalies* ينظر : حتي ، تأريخ العرب المطول ، ط٤ (مطابع الغندور ، بيروت : ١٩٦٥م) ، ج٢ ، ص ٧٥٩ ، هامش رقم (٢) ؛ ماسينيوس ، " شوبك " ، دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة : احمد الشنتاوي واخرون (دار الشعب ، القاهرة : ١٩٦٩م) ، ج١٣ ، ص ٤٣٨ .

[٥] عاشور ، الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة : ١٩٦٥م) ، ص ٢٦-٢٧ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١١٦.

فقده المسلمون من مواقع من خلال إرسال ثلاث حملات عسكرية منظمة ، كانت الأولى في سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م ، والثانية سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢ ، والثالثة في سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م متخذة من مدينة عسقلان قاعدة متقدمة لانطلاق الهجمات ضد مواقع الصليبيين المختلفة في بلاد الشام [١] ، وكان أن بدأ الملك بلدوين الأول بالسيطرة على وادي عربة من البحر الميت إلى خليج العقبة [٢].

ولأجل تحقيق ذلك الهدف ، شيد الملك بلدوين الأول في سنة ٥٠٩هـ / ١١١٥م ، قلعة على قمة جبل شاهق [٣] بلغ ارتفاعه (١٣٣٠م) عن سطح البحر [٤] وتقع قلعة الشوبك في أطراف الشام بين عمان وآيلة والبحر الأحمر [٥] بينها وبين حصن الكرك حوالي (١٠٥كم) شمالاً [٦] وتبعد حوالي (١٤٠كم) جنوبي مدينة القدس ، وحوالي (١٠٠كم) شمال العقبة [٧] على الطريق المؤدي إلى مصر [٨] .

وبإنجاز العمل فيها أطلق عليها الملك بلدوين الأول تسمية مونتريال ***Montreal*** تخليداً لنفسه لأنه بناها في فترة قصيرة من الزمن وبعدد قليل من الرجال [٩] ، ووضع فيها حامية

---

[١] المعاضيدي ، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي (دار الحرية للطباعة ، بغداد : ١٩٧٥-١٩٧٦م) ، ص ١٣٢-١٣٤ ؛ فهمي توفيق مقبل ، الفاطميون والصليبيون (الدار القومية للطباعة والنشر ، بيروت : ١٩٨٠م) ، ص ٨٤-٨٨ .

[٢] عاشور ، الناصر صلاح الدين ، ص ٢٧ .

[٣] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ١٥٧-١٥٨ ؛ كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٥٨ ؛ فنك ، " تأسيس الإمارات " ، ص ٩٤ ؛

Tanner , The Cambirdge , Vol. V ,p. 304 ; Andrew Ehrenkretz , Saladin , (New York State Universtiy press , New York :1972) , pp. 47 , 158 .

[٤] الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٥١٦ .

[٥] ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٧٠ .

[٦] أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٧ ؛ ماسينيوس ، " شوبك " ، ج١٣ ، ص ٤٣٨ ؛

Stevenson , The Crusaders , p.65 .

[٧] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ١٥٨ ؛

Ehrenkretz , Saladin , p. 47 .

[٨] تأريخ الرهاوي المجهول ، ج٢ ، ص ١٩٢ ؛

Pernoud , The Crusaders , p. 151 .

[٩] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ١٥٨ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٥٦٠ .

عسكرية تألفت من الفرسان والجند المشاة فضلاً عن الأسلحة من اجل حماية المصالح الصليبية في المنطقة [(١)] .

أما عن تكوينها المعماري ، فقد امتازت القلعة بإحاطتها بأسوار مزدوجة قوية وأبراج عالية شامخة [(٢)] وليس ذلك فحسب بل أحيطت الأسوار الخارجية للقلعة بالخنادق تعزيزاً للدفاعات العسكرية [(٣)] ، وقد استخدم الحجر الأبيض في بنائها ، وكان لقلعتها عينان للماء أحدهما تقع يمين القلعة والأخرى في يسارها تخدمان بلدتها ومنها تروى بساتينها المنتشرة في وادٍ غربي الشوبك [(٤)] وتأتي أهمية بناء القلعة لتكون مركزاً يمكن الصليبيين من السيطرة على وادي عربة بأجمعه [(٥)] وقاعدة لمهاجمة بلاد العرب ولمنع التجار من اجتياز الطريق إلا بعد الحصول على أذن وموافقة الملك ، وكيما يفيد منه في رد هجمات البدو [(٦)] ومراقبة مفرق الطرق الموصلة بين القاهرة ودمشق والحجاز ، وللتحكم في الطريق التجاري بين الشام ومصر [(٧)] بدليل قول ياقوت الحموي : ((***وبطل السفر من مصر إلى الشام بطريق البرية مع العرب بعمارة هذا الحصن***)) [(٨)] ، وبامتلاك الصليبيين لتلك الأراضي الصحراوية استطاعوا شطر العالم الإسلامي

[(١)] ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٣٧٠ ؛ الشارتري ، نفسه ، ص ١٥٨ ؛ الصوري ، نفسه ، ج ١ ، ص ٥٥٩ ؛ اسطفانوس الدويهي ، تأريخ الازمنة ، ترجمة : توتل اليسوعي (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت : ١٩٥١م) ، ص ٢٦ ؛ غوانمة ، التأريخ السياسي لشرقي الأردن في العصر المملوكي ، ط٢ (مطبعة الشرق ، عمان : ١٩٨٢م) ، ص ٤٢ .

[(٢)] غوانمة ، إمارة الكرك ، ص ٦٥.

[(٣)] الدويهي ، تأريخ الازمنة ، ص ٢٦ .

[(٤)] أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٧.

[(٥)] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٥٥٩ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١١٦ ؛ عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٣٠ .

[(٦)] العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ص ٣١٧ ؛

Grousset , Histoire des Croisades , Vol.I , p. 243.

[(٧)] كروسيه ، تأريخ الحروب ، ص ٧٣ ؛ لين بوول ، صلاح الدين ، ص ٤٧ ؛ سعداوي ، التأريخ الحربي ، ص ٢٤ ؛ حتي ، تأريخ العرب ، ص ٧٥٨ ؛ الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٥١٦ ؛ احمد ، شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى (المطبعة الشرقية ، القاهرة : ١٩٧٧م) ، ص ١٠٩-١١٠ ؛ غوانمة ، إمارة الكرك ، ص ٦٤-٦٥ ؛

Stevenson , The Crusaders , p. 65 ; Pernoud , The Crusaders , p. 151.

[(٨)] معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٣٧٠.

إلى قسمين وفصلوا أفريقيا عن آسيا الإسلامية وتحكموا بتجارة القوافل ما بين الأمصار الإسلامية [١] .

وتظهر بوضوح أهمية قلعة الشوبك ودورها في نجاح الاستيطان الصليبي ، فمن الناحية العسكرية كانت القلعة محمية بشكل قوي نتيجة لطبيعة موقعها ، وفضلاً عن تحصين الموقع بالأسوار والأبراج كانت الأسوار الأمامية محاطة بخندق تعزيزاً للدفاعات العسكرية ، وشحنت القلعة بالرجال وجهزت تجهيزاً جيداً بالأطعمة والأسلحة والمعدات الحربية ، أما من الناحية الاقتصادية فقد امتاز الموقع بتربة خصبة صالحة للزراعة أسهمت في إنتاج محاصيل وافرة من الحبوب [٢] فضلاً عن اشتهارها بزراعة الزيتون والمشمش وما يفيض من الإنتاج عن الحاجة كان يجري تصديره إلى مصر [٣] ومن جانب اقتصادي آخر أسهم الموقع الاستراتيجي الممتاز في تمكين الصليبيين ليس في حماية حدود المملكة في تلك المنطقة فقط بل فرض إتاوة على القوافل الإسلامية التي تسير من دمشق إلى مصر وبين دمشق ومدينتي مكة المكرمة والمدينة المنورة [٤] . أما من الناحية المناخية فقد اشتهرت الشوبك بموقعها الملائم للاستقرار فيها [٥] .

وقد أدرك المسلمون مدى الخطر الكبير الذي شكله بقاء قلعة الشوبك واستمرار الصليبيين فيها بأعمال القرصنة والسلب والنهب ضد القوافل المارة عبر مناطق النفوذ التابعة لهم ، ففي سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م [٦] حاولت بعض سرايا الناصر صلاح الدين استرداد قلعة الشوبك ، ففرضوا عليها حصاراً غير أنها لم تتمكن من تحقيق أهدافها [٧] بعد أن كان قد اسند مهمة حصارها لقوة عسكرية استمرت في تطويقها مدة سنة حتى نفذت مؤن الصليبيون وذخائرهم الأمر الذي اضطرهم إلى طلب الأمان مقابل تسليم القلعة للمسلمين ، فوافق صلاح الدين على طلبهم

---

[١] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٥٨.

[٢] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٥٦٠-٥٦١.

[٣] أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٧ ؛ لين بوول ، صلاح الدين ، ص١١٧ ؛ لامب ، شعلة الإسلام ، ص ٩٤.

[٤] فنك ، " تأسيس الإمارات " ، ص ٩٤.

[٥] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٥٦٠-٥٦١.

[٦] ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٣ ، ص ٩٢.

[٧] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٢١.

وتسلم القلعة منهم وأمنهم [١] ثم أمر بتدمير قلعة الشوبك لكي لا يستفيد منها الصليبيون في حربهم ضد المسلمين [٢] .

٥ . قلعة سكانداليوم *Scandalium* [٣]

شيدها الملك بلدوين الأول في سنة ٥١١هـ / ١١١٧م على الطريق الساحلي بين مدينتي عكا وصور ، وتقع على مسافة (١٠كم) جنوب مدينة صور التي كانت في حوزة المسلمين والتي كان الملك بلدوين يطمح لجعلها تحت سلطته [٤] ولاسيما أنها استعصت عليهم بفضل مناعتها الطبيعية ومقاومة أهلها للصليبيين فضلاً عن الدعم المصري لها [٥] .

وقد ذكر المؤرخ الصليبي الشارتري أن السبب الحقيقي الذي دفع الملك بلدوين الأول إلى بنائها لكي تكون بمثابة شوكة ضد أهالي مدينة صور ويمكن من خلالها إلحاق الأذى بهم [٦] هذا فضلا عن توفير الحماية لمدينة صيدا [٧] .

ومع إنجاز قلعة سكانداليوم تم تطويق مدينة صور من جهات مختلفة ، فقد كانت صيدا تسيطر فعلاً على المنافذ المؤدية إلى صور من جهة الشمال بينما كانت قلعة تبنين تشرف على الطرق المؤدية إليها من جهة الشرق ، وبذلك احكم الصليبيون سيطرتهم على صور واستطاعوا

---

[١] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٩٨ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزهرة ، ج٦ ، ص ٤٣.

[٢] ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٣ ، ص ٩٢ .

[٣] اتفق المؤرخون الصليبيون في تسمية قلعة سكانداليوم ، ولكنهم اختلفوا في تفسير مدلول ذلك الاسم ، فقد اخطأ الشارتري عندما ذكر أن سكانداليوم تعني (أسد الحقل) . ينظر : تأريخ الحملة ، ص ١٦١ ؛ بينما أشار الصوري إلى أنها سميت بذلك الاسم تيمناً بالاسكندر الكبير الذي يدعى بالعربية اسكندر ، وهو الرأي الراجح والأقرب إلى الصواب . ينظر : تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٦٧ . وسكانداليوم تعرف اليوم باسم خربة اسكندرونة *Kh. Iskanderuneh* ، وهي تقع جنوب صور وشمال قرية رأس الناقورة ، ويحدها من الشمال الشرقي قرية المنصورة ومن الجنوب الشرقي طير حرفا *Teir Harfa* . ينظر : البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٤٠٤ ، هامش رقم (٤) .

[٤] الشارتري ، نفسه ، ص ١٦١ ؛ الصوري ، نفسه ، ج ١ ، ص ٥٦٧ .

[٥] عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٧٩ .

[٦] تأريخ الحملة ، ص ١٦١ ؛ *Stevenson , The Crusaders , p. 66 .*

[٧] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٠ .

تحجيم هجماتها [١] وبالتالي إسقاطها في سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م [٢] هذا في الجانب العسكري ، أما في الجانب الاقتصادي فقد اشتهرت سكانداليوم والأراضي التابعة لها بإنتاجها الزراعي ولاسيما ان تلك الأراضي كانت تروى بشكل جيد بمياه الينابيع [٣] ومن اشهر محاصيلها الزيتون الذي كان يباع في الاسواق الصليبية لاسيما في أسواق القدس إذ كان يدرعلى الصليبيين عوائد مالية جيدة [٤] .

ب / عهد الملك بلدوين الثاني

١. *قلعة غلافينوس* ***Mons Glavianus*** [٥] .

شيد الملك بلدوين الثاني في تشرين الأول سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م قلعة في الجبال الواقعة فوق مدينة بيروت أطلق عليها اسم قلعة غلافينوس [٦] وتبعد حوالي (١٢كم) إلى الشرق من مدينة بيروت [٧] .

أما الغرض من إنشائها أولاً : العامل العسكري لضمان حماية مدينة بيروت الساحلية من جهة الداخل [٨] ثانياً :العامل الإداري لتكون القلعة مركزاً للإدارة المحلية ، وتجنباً لحدوث مشكلة إدارية محتملة الوقوع بين المسلمين والصليبيين كان الحل المناسب هو إنشاء قلعة غلافينوس [٩] ثالثاً : العامل الاقتصادي متمثلاً بإزالة الصعوبات في جمع الضرائب المستحقة على الفلاحين المسلمين في لبنان بخاصة المناطق المرتفعة المطلة على مدينة بيروت [١٠] ،

---

[١] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٦١ .

[٢] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٦٢٠–٦٢٣ ؛ سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٢١٤ .

[٣] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٥٦٧ .

[٤] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٤٠٤–٤٠٥ .

[٥] غلافينوس أو جلافيانوس : لفظة مشتقة من كلمة ديجلاديو اللاتينية والتي تعني (السيف) ، وفي ذلك قال الشارتري ((***من يحكم عليه بالموت في بيروت تقطع رأسه هنا***)) . ينظر : تأريخ الحملة ، ص ٢٢٦ .

[٦] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٢٣ ؛ *Stevenson , The Crusaders , p. 171 .*

[٧] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٢٢٦ .

[٨] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٠ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٣٦ .

[٩] سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٥٩ .

[١٠] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٢٦٦ ؛ *Stevenson , The Crusaders , p. 171 .*

وبذلك تمكن الملك بلدوين الثاني من تنظيم جمع الرسوم بصورة افضل من الفلاحين المسلمين الممتنعين عن الدفع والذين شجعهم على ذلك قرب السلطة الإسلامية التي كانت قد تقاسمت المنطقة مع الصليبيين [١] .

جـ / عهد الملك فولك الانجوي

أولاً : القلاع الشمالية

أن تدهور أوضاع الصليبيين في شمال الشام منذ زمن الملك بلدوين الثاني بسبب تزايد هجمات المسلمين والنزاع الناشب بين بوهيمند الثاني أمير إنطاكية وجوسلين الثاني أمير الرها حول مناطق النفوذ أدى إلى إتباع الملك فولك الانجوي سياسة تكفل له الدفاع عن حدود مملكة بيت المقدس الصليبية ، فأمر بتشييد بعض القلاع والحصون في شمال الشام تحقيقاً لذلك الغرض [٢] وهي كما يأتي :

١ . قلعة شقيف ارنون *Belfort* [٣] .

وهي قلعة في جنوب لبنان [٤] شيدها الصليبيون في عهد الملك فولك الانجوي في سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩م فوق مرتفع من الأرض بلغ ارتفاعه حوالي (٤٥٠م) عن سطح البحر وتطل

---

[١] سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٥٩ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٣٦ .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٢٨٨-٢٨٩ ، ٣٦٧ .

[٣] تكتب باللغة العربية قلعة الشقيف أو شقيف . ينظر : الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ١٣٣ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٣ ، ٣٥٦ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٩٧ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٢٧ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ١٣٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ٢٨٢ . بينما ورد اسم القلعة في المراجع الأجنبية بأشكال مختلفة منها بلفورت *Belfort* وبيفور *Beauvoir* وبوفورت *Beaufort* وبليفورت *Belliforte* ، وتعني الحصن الجميل . ينظر : مولر ، القلاع ، ص ٨٠ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٣٧ ؛
Stevenson , the Crusaders , p. 261 ; Pernoud , The Crusaders , p. 163 .

[٤] لامب ، شعلة الإسلام ، ص ١٤٨ ؛ ماسينيوس ، " شوبك " ، ج١٣ ، ص ٨٩ .

على نهر الليطاني [١] في الشمال [٢] وعلى الطريق المؤدي إلى صيدا ، مما أتاح لها التحكم بالمنافذ الجنوبية لهضبة البقاع الخصيبة [٣] وقد تمتعت تلك القلعة بموقع إستراتيجي هام قرب مدينة بانياس بين دمشق وساحل البحر الأبيض المتوسط [٤] الأمر الذي سهل على الصليبيين الاتصال مع أوربا والحصول على الإمدادات البشرية والمادية لديمومة الوجود الصليبي في بلاد الشام . أما عن طرازها المعماري فقد امتازت قلعة شقيف ارنون باحتوائها على تكوينات معمارية مهمة جعلتها واحدة من احصن القلاع الصليبية في بلاد الشام ، إذ كانت مستطيلة الشكل بلغ طولها (١٧٠م) ، أما عرضها فقد بلغ مئة متر ، وقد حفرت عندها صهاريج المياه لتوفيرها للمدافعين ، كما حفرت آبار في الصخور ، فضلاً عن وجود آبار في داخل القلعة لتوفر المياه عن طريق الأمطار الساقطة [٥] .

تتألف القلعة من قسمين القسم الأول : القلعة العليا التي كان لها برج محصن كبير وسور خارجي ضخم من الحجارة المتداخلة فوق هضبة مستديرة صخرية بارزة [٦] وقد بلغ طول ذلك السور (٣٥قدماً) [٧] أما القسم الثاني : القلعة السفلية التي تتصل بالقلعة العليا من خلال طريق صخري ضيق من جهة الشرق ، وتنفصل ارباض القلعة كلياً عن الهضبة المحيطة بها ،

---

[١] نهر الليطاني : ينبع من هضبة بعلبك ، طوله حوالي (١٧٠كم) ، ويمتد من الشمال إلى الجنوب في مجرى قليل المنعطفات حتى يصل إلى الشرق من بلدة مرج عيون ، ثم ينثني مجراه ويتجه غرباً في مجرى عرضي بطئ الانحدار كثير الثنيان إلى أن يصب في البحر المتوسط عند بلدة القاسمية شمالي صور . ينظر : حسن سيد احمد أبو العينين دراسة في جغرافية لبنان (دار النهضة العربية ، بيروت : ١٩٦٨م) ، ص ٢٢٠ – ٢٢٢.

[٢] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٩٤ ، هامش رقم (٣) .

[٣] ايليسيف ، " المملكة اللاتينية في القدس والحكام المسلمون في القرن الثاني عشر للميلاد خطوط كبرى للعلاقات السياسية " ، ضمن كتاب الصراع الإسلامي – الفرنجي على فلسطين في القرون ، تحرير : هادية شكيل دجاني (مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت : ١٩٩٤م) ، ص ٢٣٦ ؛ العسلي ، فن الحرب ، م٤ ، ص ٤٢٨ .

[٤] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٩٧ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٣٥٦ ؛ المشترك وضعاً والمفترق صقعا (مؤسسة الخانجي ، القاهرة : د. ت.) ، ص ٢٧٦ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص ٧٧ .

[٥] عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٩٢–٢٣ .

[٦] العسلي ، فن الحرب ، م٤ ، ص ٤٢٨ .

[٧] لامب ، شعلة الإسلام ، ص ١٤٨ .

والتـي كـان يوجـد بهـا خنـدق مـائي محفـور فـي الصـخر الأصـم [١] ونتيجـة لتلـك التحصـينات العسكرية كانت القلعة إحدى المعاقل المنيعة في بلاد الشام [٢] . أما في داخل القلعة فقد كان هناك غرف وصـالات متصلة بعضا ببعض ، كما احتوت على عدة حضـائر للخيول ودواب الفرسان [٣] .

أما عن أغراض تشييد قلعة شقيف ارنون ، فهما أولاً : الغرض العسكري لتؤدي وظيفتها فـي الـدفاع عـن مدينـة صـيدا والسيطرة علـى السـهول المحيطـة بهـا ، و فضـلاً عـن التصـدي للهجمات الإسلامية القادمة من جهة دمشق [٤] فإنها قامت بتوفير الحماية لأملاك الصليبيين في المنطقة المجاورة من خطر هجمات المسلمين ، لا سيما وان قلعة شقيف ارنون واقعة بالقرب من مدينـة صـور [٥]ثانياً : الغرض الاستيطاني فيكفي أن قلعة شقيف ارنون كانت مركزاً لاستيطان فرسان الداوية [٦] .

وقد برزت أهمية قلعة الشقيف بصورة خاصة في مرحلة تعاظم هجمات المسلمين على الأراضي التي احتلها الصليبيون ووطدوا وجودهم فيها ، ففي ربيع سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م ، وعندما بدا موسم حركة قطعان الاغنام توجه الملك بلدوين الرابع لاعتراض طريق القطعان المتجه من دمشق نحو سهول بانياس بحثاً عن الكلأ ، وعندما علم الناصر صلاح الدين الخبر ، أرسل ابن اخيه عز الدين فرخشاه لمهاجمة الصليبيين ومنعهم من الاستيلاء عليها ونجح في ذلك عندما انقض فجأة على الجيش الصليبي الذي قاده الملك بلدوين الرابع الذي أخذ على حين غرة وكاد أن يقتل ، ولم يستطع أن يخلص جيشه إلا بفضل

---

[١] مولر ، القلاع ، ص ٨٠ ؛ العسلي ، فن الحرب ، م٤ ، ص ٤٢٨ .

[٢] ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٣٥٦ ؛ أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٥ .

[٣] عوض ، تأريخ الحروب ، ص ٩٢ .

[٤] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٣٧ ؛ العسلي ، فن الحرب ، م٤ ، ص ٤٣٢ .

[٥] عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٨٥ .

[٦] ايليسيف ، " المملكة اللاتينية " ، ص ٢٣٦ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٩٤ .

همفري الثاني حاكم تبنين ***Humphrey ll*** [١] ، الذي استمر مع جنده في مقاومة هجوم المسلمين ، حتى هرب الجيش الملكي من ميدان المعركة التي جرت بين الطرفين قرب غابة بانياس سنة ٥٧٥هـ ١١٧٩م [٢] .

وعلى الرغم من الدور الذي قام به الصليبيون في قلعة شقيف ارنون ، إلا إن وجودهم فيها انتهى بتحريرها على يد الناصر صلاح الدين في سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧م ، فبعد معركة حطين وما أعقبها من تحرير صيدا لم يبق أمام صلاح الدين سوى بعض القلاع والحصون الصليبية وكان من بينها الشقيف ارنون التي وصلها الوقت الذي لجا إليها حاكم صيدا ارناط ***Reynold*** للاعتصام بها ، وقد حاول ارناط بعد أن رأى ما حققه المسلمون من انتصارات على الصليبيين أن يلجا إلى الأسلوب الدبلوماسي لغرض إنقاذ قلعة شقيف ارنون من السقوط ، إذ قد إلى خيمة صلاح الدين واظهر له الطاعة والولاء واعرب له عن رغبته في تسليم القلعة في حالة موافقة صلاح الدين على منحه مدة ثلاثة اشهر كمهلة لأجل تسوية أموره ، فظن صلاح الدين صدقة وأجاب طلبه [٣] .

غير أن ارناط كان مراوغاً ولم يكتشف صلاح الدين إلا بعد فوات الأوان أن ارناط كان يخدعه ، إذ قام صلاح الدين بمرج عيون [٤] ينتظر انقضاء الموعد ، وأثناء ذلك بدا القلق ينتابه

---

[١] همفري الثاني : هو حاكم حصن تبنين شغل منصب كند سطبل في مملكة بيت المقدس الصليبية (٥٤٧-٥٧٥هـ/ ١١٥٢-١١٧٩م) وقد عاصر ثلاثة ملوك صليبيين ، وهم بلدوين الثالث واملريك الأول وبلدوين الرابع ، خاض غمار معارك عديدة ضد المسلمين كان آخرها معركة بانياس التي لقي حتفه فيها . ((***وتعتبر وفاته ضربة بالغة العنف اصابت مملكة بيت المقدس ، إذ كان الرجل الوحيد من شيوخ ساستها الذي اجمع الناس على احترامه وتبجيله***)) . ينظر : رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٧٦. وقد وصفة ابن الأثير : ((***به كان يضرب المثل في الشجاعة والراي في الحرب ، وكان بلاء صبه الله على المسلمين ، فاراح الله من شره***)) . ينظر : الكامل ، ج١١ ، ص ٤٥٣ .

[٢] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٠٠٩-١٠١٠ .

[٣] الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ١٣٣ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٣ ، ص ١٠٨-١٠٩ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ١٣٩-١٤٠ ؛ ابن العبري ، تأريخ الزمان ، ص ٢١٤ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص ٤٢-٤٣ .

[٤] مرج عيون : موقع يطل على ساحل البحر المتوسط . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص ١٠١ ؛ شيخ الربوة ، نخبة الدهر ، ص ٢١١ ، وتعد مرج عيون من اكبر أعمال صفد وأصحها واطيبها . ينظر :

Lewis , " An Arabic Account " , p. 481 .

لقرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين بوهيمند الثالث ***Bohemond III*** [1] فأمر ابن أخيه عز الدين أن يتوجه مع جنده ومن يأتيه من جند المشرق ليكون في مواجهة انطاكية لكي يحرم أميرها بوهيمند من فرصة الهجوم على مواقع المسلمين عند انقضاء الهدنة ، ومّما زاد في انزعاج صلاح الدين وهمومه عندما وصلته معلومات عن اجتماع الصليبيين في مدينة صور والإمدادات التي وصلتهم عن طريق البحر فضلاً عن خشية صلاح الدين من ترك شقيف ارنون وراء ظهره والتقدم إلى صور التي تمركز فيها الصليبيون فينقطع الإمداد عنه ، هذا في الوقت الذي كان ارناط يستثمر مدة الهدنة لشراء الاسلحة و المواد الغذائية ، فضلاً عما كان يشتريه الصليبيون من مستلزمات أخرى لتحصين القلعة وهدفه من ذلك كسب الوقت حتى يخرج الصليبيون من مدينة صور وعندها تظهر حقيقته [2] .

ولما قرب موعد انتهاء الهدنة تقدم صلاح الدين من معسكره إلى مكان قرب قلعة الشقيف ارنون ، واحضر عنده ارناط وبقي من مدة الهدنة ثلاثة أيام وطلب منه تسليم القلعة ، فاعتذر ارناط وطلب تمديد مدة الهدنة ، فأدرك صلاح الدين عندئذ مكره وخداعه فأخذه وحبسه وأمره بتسليم القلعة ، فطلب قسيساً ذكره ليحمل رسالة إلى قائد الحامية المدافعة عن الشقيف ارنون يطلب منه تسليمها ، فأحضروه عنده فهمس إليه بما لم يعلموا ، وتوجه ذلك القسيس إلى الشقيف وطلب من قائد الحامية باللغة العربية أن يقوم بتسليم القلعة ، غير انه طلب منه باللغة الفرنسية أن يقاوم ويمتنع عن التسليم ففعل ذلك واظهر أهلها العصيان عندئذٍ أمر صلاح الدين بنقل ارناط إلى دمشق وسجنه فيها ، ومن ثم توجه صلاح الدين بجيشه إلى الشقيف فحاصرها

---

[1] بوهيمند الثالث : هو ابن كونستانيس أميرة انطاكية من زوجها ريموند بواتييه ، ويعد بوهيمند الثالث الوريث الشرعي لإمارة انطاكية عقب وفاة والده غير انه كان صغير السن ، فتولت والدته حكم الإمارة حتى بلغ بوهيمند سن الرشد . ينظر : عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٦٤٠-٦٤٨ ، ٦٧٨ .

[2] ابن الأثير ، الكامل ، ج١٢ ، ص٢٧-٢٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٣ ، ص ١٠٩-١١٠ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص ١٩٣-١٩٤ .

وضيق على الصليبيين حتى اضطروا إلى التسليم ، وبعد أن تم لصلاح الدين ما أراد وضع حامية تتولى مهمة الدفاع عنها [١] وكان ذلك في سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م [٢] .

٢.قلعة صفد *Safed*

وهي قلعة حصينة أقيمت على قمة جبل شاهق تحيط بها تلال وأودية [٣] وترتفع حوالي (٨٤٠م) عن سطح البحر [٤] ، شيدها هيو سانت اومر أمير الجليل الصليبي في سنة ٥٣٥هـ/١١٤٠م [٥] بأعلى مدينة طبرية جنوبي مدينة دمشق [٦] وتبعد حوالي (٢٠٦كم) عن مدينة القدس [٧] ونحو (٦٠كم) شرقي مدينة عكا [٨] وتعد من أهم مواقع الصليبيين الواقعة بين عكا والأردن ، وتواجه حصن بيت الأحزان [٩] على الطريق الممتد من عكا إلى دمشق [١٠] .

---

[١] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٩٧-٩٨ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ١٤٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٨٩-٢٩٠ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص ١٥٩-١٦٠ ؛ رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٣ ، ص ٥٣،٥٦،٦٣ .

[٢] ابن الأثير ، الكامل ، ج١٢ ، ص ٢٧ ؛ ابن الوردي ، تأريخ ابن الوردي ، ج٢ ، ص ١٤٤ .

[٣] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٩٥ ؛ أبو شامة الروضتين ، ج٢ ، ص١٣٥ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٨٤٨ .

[٤] الطراونة ، مملكة صفد ، ص ٨٤ .

[٥] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص٦٠٠ ؛ العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ص٣٧٣ ؛ مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٨٧ ؛ كرامرز ، " صفد " ، دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة : احمد الشنتاوي واخرون (دار الشعب ، القاهرة : ١٩٦٩م) ج١٤ ، ٢١٦ ؛
Stevenson , The Crusaders , p. 146 .

[٦] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٥٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ ؛ إبراهيم بيضون ، " طبرية في العهد الصليبي في إشكالية الموقع والدور ، " ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي (جامعة اليرموك ، الأردن : ٢٠٠٠م) ، ج١ ، ص ١٤٣ .

[٧] الطراونة ، مملكة صفد ، ص ٨٤ .

[٨] كرامرز ، " صفد " ، ج١٤ ، ص ٢١٥ .

[٩] حصن بيت الأحزان : حصن حصين يقع بين دمشق والساحل . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ،ج ١ ، ص ٥١٩ . وسيرد الحديث عنه بشكل مفصل لاحقاً في هذا الفصل .

[١٠] العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ص ٣٧٣ ؛ الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج ٦ ، ق٢ ، ص٧٨ ؛
Grousset , Histoire des Croisades ,Vol . III , p . 138 .

وقد كانت قلعة صفد من اكبر القلاع الصليبية ، فقد كلفت أموال طائلة ، إذ انفق عليها الصليبيون مبلغ قدره مليون بيزنت ، كما أنها كانت مصممة بطريقة تجعلها قادرة على الصمود باقل ما يمكن من المحاربين [1] ، فقد وصفها أبو الفدا : ((***قلعة قل أن يوجد لها شبيه ، كأنما عليها من الذهب تمويه ، لا تروم السحب إلا من ضبب ويطوف عليها من الشفق مدام عليه من مواقع النجوم جبب ، ولا تجاوز الأرض ألا وهي إذا رامت السماء ولا يعوقها سبب***)) [2] فقد امتاز تكوينها المعماري ببناء جيد وصلب خدمة للأغراض العسكرية [3] لتؤدي وضيفتها كقاعدة لصد الهجمات الإسلامية عن أراضي مملكة بيت المقدس الصليبية من جهة دمشق [4] .

أما الغرض الاستيطاني فيظهر في اتخاذ قلعة صفد معقلاً لفرسان الداوية [5] ولاسيما بعد أن باعها مالكها الأول هيو سانت اومر إلى الملك فولك الانجوي الذي باعها بدوره إلى الداوية في سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م [6] .

وقد شهدت قلعة صفد تطوراً في عملية الاستيطان الصليبي ، ففي أوقات السلم كانت القلعة تستوعب خمسين فارسا من فرسان الداوية وثلاثين من فرسان الاسبتارية وخمسين من الفرسان ذوي التسليح الخفيف (التركبولي) [7] ، وثلاثمئة من حملة الأقواس وثمانمئة وعشرين

---

[1] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٦٨ ، ٨٨ .

[2] *Lewis , " An Arabic Account , " p . 480 .*

[3] أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٣ .

[4] كرامرز ، " صفد " ، ج١٤ ، ص٢١٦ ؛ الطراونة ، مملكة صفد ، ص ٨٦ .

[5] الاصفهاني ، البرق الشامي ، تحقيق : مصطفى الحياري (مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان : ١٩٨٧م) ، ج٣ ، ص ١٧٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٥٨ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص ٣٢٣ ؛ ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج٢ ، ص ١٤٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج١٢ ، ص٣٣٧ .

[6] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٨٧ .

[7] التركبول : تعريب *Turcopole* وهم الأجناد الذين انضموا للخدمة في الجيش الصليبي ، وكانوا يشكلون جزءاً لا باس به من القوة العسكرية الصليبية ، وهؤلاء كانوا من أمهات يونانيات ، واباء من الأتراك والعرب . ينظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٤٩ ، هامش رقم (١) ؛ ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ٥١ ، هامش رقم (٦٥) . ويرجع براور دوافع اعتماد الصليبيين على التركبولي ضمن صفوف جيشهم إلى عامل التحدي الذي واجه الصليبيون والذي أدى إلى انتهاجهم أسلوب الأتراك في القتال ولاسيما ان الصليبيين لم يتميزوا بالمرونة في أساليبهم العسكرية لذلك عولوا على الموهبة المحلية التركبولية ، الذين كانوا يقلدون

رجلاً آخرين وأربعمئة من العبيد [١] أما في أوقات الحروب فكان بوسع القلعة أن تؤمن مأوى لالف وخمسمائة مقاتل [٢] وأحيانا يصل العدد إلى ألفي محارب [٣] وذلك ما جعل الاصفهاني يقول عنها ((***عش البلية***)) [٤] وفي ذلك دلالة على التمركز الصليبي فيها ، ولم يقتصر بنائها على الغرضين العسكري والاستيطاني بل كانت القلعة تستخدم كمخازن وسجون بالنسبة للإقطاعيات الصليبية [٥] .

وعلى الرغم من أن تلك القلعة كان لها شأن كبير في الحروب الصليبية نظراً لموقعها الحيوي ، الذي يشرف على الجزء الشمالي من إقليم الجليل ، إلا أنها كانت من المعاقل الصليبية المهمة التي حررها الناصر صلاح الدين الأيوبي [٦] بعد حصار قاس [٧] ، اضطر أهلها في نهاية الأمر إلى طلب الأمان مقابل الاستسلام وتسليم القلعة للمسلمين ، فوافق صلاح الدين على الطلب وأمنهم ، وتسلمها في ١٤ شوال سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م [٨] ، وباسترداد صفد جعل المسلمون القلعة قاعدة لهم لتصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام .

الأتراك السلاجقة في تسليحهم وأسلوب القتال ، وكان أهم ما يميزهم الخيول السريعة والأسلحة الخفيفة مثل القوس والسهم ، ينظر : عالم الصليبيين ، ص ١٦٣ .

[١] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٢٨ .

[٢] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٥١ .

[٣] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٨٨ .

[٤] البرق الشامي ، ج٣ ، ص ١٧٧ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص ١٦٨ .

[5] *Fedden , Crusader ,p. 19 .*

[٦] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص٦٠١ ؛ الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج ٦ ، ق٢ ، ص٧٨ .

[٧] يذكر ابن الأثير أن صلاح الدين حاصر قلعة صفد ونصب عليها المجانيق لقذف الصليبيين المحاصرين بداخلها بالحجارة الملتهبة واستمر ذلك الحال ليلاً ونهاراً ، وخشي الصليبيون أن تطول مدة الحصار وينفذ ما لديهم من مؤن واقوات فيقتحم المسلمون القلعة . ينظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٢١ .

[٨] الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ١٦٥ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٩٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٣ ، ص ١٠٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص٢٧٢ .

٣ . قلعة كوكب Belvoir [١]

شيدها الصليبيون في عهد الملك فولك الانجوي سنة ٥٣٥هـ/١١٤٠م [٢] ، فوق قمة جبل شاهق [٣] بلغ ارتفاعه (٣١٢م) عن مستوى سطح البحر [٤] ، تقع بين مدينتي طبرية وبيسان [٥] ، وعلى مسافة (١١كم) شمال بيسان [٦] ، وهي مطلة على بحيرة طبرية وتشرف على الأردن [٧] ، ونظراً لموقعها المرتفع فقد وصفها ابن شداد بأنها ((***راسية راسخة شماء شامخة***)) [٨] .

أما عن التكوين المعماري لقلعة كوكب فقد اتسمت عمارتها بصغر الحجم وأحاط بها سور خارجي مربع الشكل تقريباً [٩] ، وكانت تلك القلعة مؤسسة على الطراز البيزنطي على مساحة (٣٨٠ قدم)طولاً وقوس (٣٢٠قدم) عرضاً ، ولها سبعة أبراج كما كان لها تحصين طبيعي من جانب سورها الشرقي ، إذ يقع في ذلك المكان منحدر تلال وادي الأردن ، ولذلك لم تكن القلعة في حاجة إلى تحصينات إضافية ، كما أن أبراجها المربعة الشكل بلغ ضلع كل منها

---

(١)ذكرها المؤرخون العرب المسلمون باسم كوكب أو كوكب الهوا بمعنى نجم في السماء . ينظر : ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٩٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٥٧ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٣ ، ص ١٠١ ؛ ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج٢ ، ص١٦١ . أما عن المراجع الأجنبية فقد أشارت إليها بأسماء مختلفة منها *Beauvoir , Belvoir , Coguet ,* . ينظر :

Stevenson , The Crusaders , p. 227 ; Paldwin , Raymond III . p. 149 ; Lyons , Saladin , p. 219 .

وللاطلاع على تخطيط قلعة كوكب .ينظر : شكل رقم (٤) .

(٢)ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٣٦ ؛

Tanner , The Cambridge , Vol. V , p. 534 .

(٣)ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٤٩٤ ؛ اليافعي ، مرآة الجنان ، ج٣ ، ص ٤٨٧ .

(٤)الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج٦ ، ق٢ ، ص ٥١٩ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية،ص٢٣٦،هامش رقم (٥) .

(٥)سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٢٢٩ ؛

Baldwin , Raymond III , p.149 .

(6)*Lyons , Saladin , p. 168 .*

(٧) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٩٤ .

(٨)الأعلاق الخطيرة ، ج٢ ، ص١٦١ ؛ أبو العباس احمد بن علي القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، تحقيق : محمد حسين شمس الدين (دار الكتب العلمية ، بيروت : ١٩٨٧م) ، ج٤ ، ص ١٥٥ ؛ اليافعي ، مرآة الجنان ، ج٣ ، ص ٤٨٧ .

(٩) عوض ، تأريخ الحروب ، ص ٩٣ .

(٣٠ قدماً) ، وارتفاع من (١٥ قدماً) إلى (٢٠ قدماً) [١] ، وكانت قلعة كوكب من الحصانة والقوة حتى أن الأصفهاني قال عنها ((***كأنها وكر العنقاء ومنزل العواء***)) [٢] ، كما قيل بشأنها كانت ((***حصنناً قويا وفيه رجال شداد من بقايا السيف وميرة عظيمة***)) [٣] .

وفيما يتصل بأغراض بنائها فكان الغرض العسكري لحماية طريق وادي الأردن من خطر الهجمات الإسلامية من جهة دمشق [٤] كما أنها تتصل بقلعة صفد عن طريق استخدام الاشارات ***Fire – Signals*** [٥] وليس ذلك فحسب بل كانت المستوطنة تحوي مخازن للأسلحة والمعدات العسكرية التي افاد منها الصليبيون في حربهم ضد المسلمين [٦] أما الغرض الاستيطاني فكانت القلعة مركزاً ومعقلاً استوطنها عناصر فرسان الاسبتارية [٧] ولاسيما بعد أن باعها مالكها النبيل الفرنسي ايفوفيلوس ***Ivo Velos*** . إلى هيئة فرسان الاسبتارية بمبلغ (١٤٠٠) بيزنت ذهبية ، بذلك استقروا فيها وتوسعت أملاكهم حولها حتى بلغت حوالي (٢٠٠كم٢)شملت تلك المساحة عدداً كبيراً من القرى [٨] .

وعلى الرغم من الاستيطان الصليبي في قلعة كوكب إلا إن ذلك الوجود انتهى في سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م ، عندما توجه الناصر صلاح الدين من عكا إلى كوكب وحاصرها ، ولما رأى حصانها ومناعتها تركها وتوجه إلى صفد واسند أمر كوكب إلى أحد قادة جيشه وهو

---

[١] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٧٩ .
[٢] الفتح القسي ، ص ١٦٦ .
[٣] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٥ .
[٤] حامد غنيم أبو سعيد ، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ، ط٢ (دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة : ١٩٨٤ م) ، ج٢ ، ص ٦٠ .
[٥] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٧٩ ؛ احمد ، المجتمع الإسلامي ، ص ٣٢٩ – ٣٣٠ .
[٦] أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ١٢٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص ١٨٩ ؛ لين بوول ، صلاح الدين ، ص ١٥٠ .
[٧] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص٥٥٨ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص ٣٢٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٤٦ ؛ زكار ، الموسوعة الشاملة ، ج٢٤ ، ص٣١٣
[٨] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٧٩ .

الأمير صارم الدين قايماز النجمي [1] ليتابع حصارها [2] .

وفي الوقت الذي كان صلاح الدين يحاصر قلعة صفد اجتمع الصليبيون في صور لتدارس الموقف والحصار الإسلامي لقلعة كوكب وقالوا ((***إن فتح المسلمون قلعة صفد لم تبق كوكب ولو أنها معلقة بالكوكب ، وحينئذٍ ينقطع طمعنا من هذا الطرف من البلاد***)) ولذلك قرروا إرسال مدد من الرجال والاسلحة إلى قلعة كوكب لنجدة المحاصرين بداخلها ورفع معنوياتهم لاجل الاستمرار في المقاومة لإنقاذ القلعة من السقوط بأيدي المسلمين [3] .

وعندما علم صلاح الدين ما اقدم عليه الصليبيون قرر مهاجمة القلعة مرة أخرى ووجه كتاباً إلى أخيه سيف الإسلام [4] حاكم اليمن يستقدمه إليه معاوناً له على قتال الصليبيين واصفاً له قلعة كوكب بقوله ((***كوكب ، وهي كرسي الاسبتارية ودار كفرهم ، ومستقر صاحب أمرهم ، وموضع سلاحهم وذخرهم ، وكان بمجمع الطرق قاعدا ، ولملتقى السبل راصدا فتغلقت بفتحه بلاد الفتح واستوطنت ، وملكت الطرق فيها وآمنت ، وعمرت بلادها وسكنت***)) [5] .

وخلال فترة الحصار أرسل صلاح الدين إلى قائد الحامية المدافعة عن كوكب ليسلم القلعة مقابل أن يبذل للصليبيين الأمان وتهددهم بالقتل والسبي إن امتنعوا غير انهم أصروا على المقاومة [6] فتطلب ذلك الموقف من صلاح الدين تشديد الحصار على القلعة لارغام الصليبيين على الاستسلام والتسليم ، ولما رأى الصليبيون ألا طاقة لهم على المواجهة وعدم قدرتهم على

---

[1] صارم الدين قايماز النجمي : هو مملوك نجم الدين أيوب بن شاذي والد الملوك الأيوبيين ، كان من كبار أمراء الدولة الصلاحية ، توفي في سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م . ينظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٣ ، ص٢٧

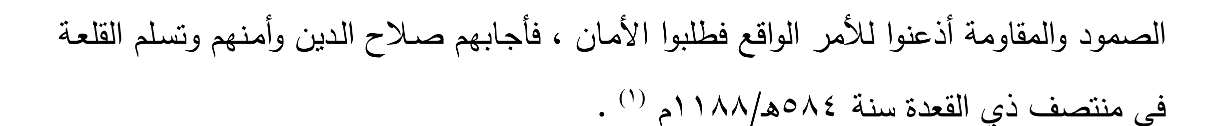
[2] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ٢٢ .

[3] نفسه ، ج ١٢ ، ص ٢٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٧٢-٢٧٣ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص ١٥٣ .

[4] سيف الإسلام ، هو ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ، وهو الأخ الرابع لصلاح الدين الأيوبي ، وناب عنه في دمشق سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ، أثناء خروجه للاستيلاء على حمص وحماة من حكامها النوريين ، وفي سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م ، عينه صلاح الدين لحكم اليمن فبقيت تحت حكمه حتى وفاته سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م .وكان رجلاً شجاعاً كريماً حسن السيرة عرف بإحسانه وبره . ينظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص ٥٢٣ .

[5] أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ١٣٦ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٧ ، ص ٣٤٠-٣٤١ .

[6] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص٢٣ ؛ ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ج٢ ، ص ١٦١ .



الصمود والمقاومة أذعنوا للأمر الواقع فطلبوا الأمان ، فأجابهم صلاح الدين وأمنهم وتسلم القلعة في منتصف ذي القعدة سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م [١] .

ثانيا: القلاع الجنوبية

١ . قلعة ارنولد *Arnould Castle* [٢]

كان لبناء القلاع الشمالية أثرها الملموس على أمن حدود مملكة بيت المقدس الصليبية غير أن الجانب الجنوبي وخاصةً الطريق الممتد من مدينة يافا إلى مدينة القدس لم يكن آمنا حتى اعتلاء فولك الانجوي العرش وذلك لان المسلمين الموجودين في عسقلان لم يكتفوا بمهاجمة الصليبيين القادمين إلى الشام بل منعوا وصول الإمدادات إلى القدس [٣] .

ولتحقيق ذلك الغرض شيد بطريرك القدس وليم ماناسيس قلعة ارنولد [٤] في سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م [٥] بين مدينتي يافا والقدس [٦] فوق هضبة ينحدر سفحها عند مدخل سهل على الطريق المؤدي إلى اللد [٧] وتبعد حوالي (١٠كم) شمال غرب بيت النوبة [٨] على الطريق المؤدي إلى يافا [٩] وهي تقع شرقي مدينة الرملة وتبعد عنها(١٣كم)تقريباً [١٠] .

---

[١] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٩٦ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٣ ، ص ١٠٨ ؛ ابن خلكان ؛ وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص ١٩٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢٧٤ ؛ ابن الوردي ، تأريخ ابن الوردي ، ج٢ ، ص ١٤٣ .

[٢] ذكرت في الوثائق اللاتينية تحت أسم *Arnaldi Castelli* ، وتعرف ايضاً قلعة ارنولد بأسم قلعة البرج *Al-Burg* . ينظر : البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٢٣٩ ، هامش رقم (١) .

[٣] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢، ص ٣٧١-٣٧٢ ؛ الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج ٩ ، ق٢ ، ص ١٧٧ .

[٤] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٦٢ .

[5] *Stevenson , The Crusaders , p. 49 , note (1) .*

[٦] نيكلسون " تطور الدويلات " ، ص ١٢١ ؛ *Pernoud , The Crusaders , P . 151 .*

[٧] اللد : قرية قرب مدينة القدس من نواحي فلسطين . ينظر :ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٥ ، ص ١٥ .

[٨] بيت نوبة : بليدة من نواحي فلسطين . ينظر : نفسه ، ج١ ، ص ٥٢٣ .

[٩] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٦٢ ؛ *Stevenson , The Crusaders , p. 132 , notes (3) .*

[١٠] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٢٣٩ ، هامش رقم (١) .

وقد امتازت القلعة ببنائها المتين خدمة للأغراض العسكرية ، وترتب على إنشائها تحقيق الهدف المنشود في تمكين السلطات الصليبية من حراسة الطريق التجاري وطريق الحجاج من الساحل إلى مدينة القدس ، وبتشييدها اصبح الطريق اكثر أمنا ، وقلما تعرض الحجاج النصارى والمسافرين للخطر أثناء قدومهم من الساحل [١] أما في الجانب الاستيطاني فقد أفادت القلعة بتوفير المساكن للمستوطنين ، أما في الجانب الإداري فقد كانت القلعة مركزاً للإدارة المحلية تخضع لها القرى المجاورة [٢] .

ومن أجل توطيد الحدود الجنوبية لمملكة بيت المقدس الصليبية أقام الملك فولك الانجوي خلال السنوات (٥٣١-٥٣٧هـ/١١٣٦-١١٤٣م) حزاما من القلاع في جنوب مملكته ، وهي بيت جبرين ***Bethgibelin*** ويبنى ***Ibelin*** وتل الصافية ***Blanchgard*** [٣] فقد كانت قلعة بيت جبرين تشرف على الطريق الذي يربط بين مدينتي غزة وعسقلان من ناحية والخليل من ناحية أخرى ، بينما تقع قلعة يبنى على الطريق بين عسقلان من جهة واللد والرملة من جهة أخرى ، ثم قلعة تل الصافية بين بيت لحم وعسقلان [٤] والواقع أن تشييد تلك القلاع الضخمة والحصينة وبالتعاقب على الطرف الجنوبي لمملكته جاء لتحقيق عدن أهداف منها :

أولاً : إقامة خط دفاعي في الجهة الجنوبية من مدينة القدس لكي يوفر لها نوع من الحماية الذاتية وإيقاف الهجمات من مركز عسقلان المصري واتخاذ تلك القلاع كنقاط ارتكاز صليبية جديدة في الجنوب الفلسطيني تنطلق منها العمليات العسكرية ضد عسقلان التي شكلت تهديداً خطيراً على الصليبيين في بلاد الشام [٥] لكونها ميناءًبحرياً مهماً للمسلمين اسهم في إيصال الإمدادات إلى مدن الشام ، وقاعدة برية تتجمع فيها الجيوش الإسلامية لمهاجمة

---

[١] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٦٢ .

[٢] سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٥٨ .

[٣] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٣٦ ؛ سميل ، نفسه ، ص ٢١٤ ؛ مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٧٧-٧٨ ؛ محمد راتب النابلسي ، " القدس عبر العصور التأريخية " ، ضمن أعمال الندوة العالمية حول القدس وتراثها الثقافي في إطار الحوار الإسلامي المسيحي (الرباط : ١٩٩٣ م) ، ص١٢٤ .

[٤] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج٢ ، ص ٦٠١ .

[٥] سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٢١٤-٢١٥ ؛ الزيدي ، عسقلان ، ص ٧٣ .

الصليبيين في فلسطين ، هذا فضلاً عن الهجمات المكثفة التي قامت بها حامية عسقلان فهددت الحجاج الأوربيين أثناء سيرهم من مدينة يافا الساحلية إلى القدس [١] .

فقد كشف الصوري النقاب عن الأسباب الدقيقة لإنشاء تلك المعاقل الصليبية في مقدمتها كبح جماح الهجمات التي كانت تشنها حامية العسقلان ، وان تحقيق ذلك لا يتم إلا بإقامة حصون جديدة تبقى فيها الحاميات الصليبية على استعداد لمواجهة الهجمات الإسلامية بل كان واجب تلك الحاميات أن تواصل هجمات مكثفة وان تقاتل عساكر عسقلان عند غياب حاميتها عن المدينة لإدخال الرعب في نفوس الأهالي ، وذلك يعني انتقال الأسلوب الحربي الصليبي من الدفاع إلى الهجوم في هذا الموضع فكان يمثل الخطوة الأولى للاستيلاء عليها [٢] .

ثانياً : أن ذلك الحزام الأمني جاء لتمكين الصليبيين من تنفيذ عملية توطين الفلاحين وفرض السيطرة على الاراضي الزراعية والاستفادة من الزراعة في حماية القلاع الصليبية الحصينة [٣] .

ثالثاً : إن إنشاء تلك الحصون الصليبية في المناطق التي احتلها الصليبيون هو لتامين الاتصالات بين تلك المناطق المحيطة بحدود مملكة بيت المقدس الصليبية من جهة الجنوب الشرقي [٤] والإفادة من تلك الحصون كعامل مهم ومساعد في تطويق عسقلان والسيطرة على طرق المواصلات بين بلاد الشام ومصر [٥] .

وفيما يلي عرضاً مفصل عن تلك القلاع الصليبية التي أقيمت في الجهة الجنوبية لمملكة بيت المقدس .

٢ .*قلعة بيت جبرين* ***Bethgibelin*** [٦]

---

[1] *Fedden , Crusader , p. 24 .*

[٢] تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٦٨٣، ٧٢٨-٧٢٩ .

[٣] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٣٦ .

[4] *Pernoud , The Crusaders , pp. 147-149 ; R. Harthman and B. Lewis , " Askalan " , The Encyclopaedia of Islam , Second Edition , (No p. , London : 1965) , Vol. I , p. 711 .*

[5] *Ehrenkreutz , Saladin , p. 19 .*

[٦] تكتب باللغة العربية بيت جبرين أو بيت جبريل . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج١ ، ص ٥١٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص٥٤٦ ؛ البغدادي ، مراصد الاطلاع ، ج١ ، ص ٢٣٧ ؛ شيخ الربوة ،

شيدها الصليبيون في عهد الملك فولك الانجوي في سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦م لمراقبة الهجمات الإسلامية المنطلقة من المواقع العسكرية في منطقة عسقلان [(١)]
ويقال سنة ٥٣٢هـ/١١٣٧م [(٢)] على مسافة (٢٤كم) شرقي مدينة عسقلان على الطريق الممتد من عسقلان إلى حبرون ***Hebron*** [(٣)] أي الخليل [(٤)] تبعد حوالي (٧٠كم) عن مدينة القدس واقل من ذلك عن مدينة غزة [(٥)] .

أما عن تكوينها المعماري فقدم الصوري عرضاً موجزاً بقوله انها محاطة بسور على جانب من المناعة من أبراج ومتاريس وخندق ، وتبرز أهمية موقعها لكونها واقعة عند سفح الجبال القائمة تماما عند بداية السهل الممتد من دون إقطاع من تلك الجبال إلى بئر السبع [(٦)] وتجدر الإشارة إلى أن الصليبيين أطلقوا على قلعة بيت جبرين خطأ اسم قلعة بئر السبع [(٧)] .

وقد احتاج الصليبيون في انشائها إلى مساعدة جميع السكان الموجودين في المنطقة هذا فضلاً عن حضور وليم ماناسيس بطريرك القدس والنبلاء الصليبيين [(٨)] وعكس ذلك الحضور أمرين ، الأول : أهمية العمل ذاته لكونه ينصب في مجال تأمين حدود المملكة الصليبية من الجهة الجنوبية ضد هجمات حامية عسقلان المصرية [(٩)] التي كان خطرها كما وصفه الصوري ((***كالتنين ذي الرؤوس المتعددة ... الذي كان يتعاظم دوماً كلما فقد راساً من رؤوسه والذي***

نخبة الدهر ، ص ٢١٣ ؛ بينما تعرف باللغة اللاتينية *gibelin* .ينظر: الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٨٢ .

[(١)] نيكلسون ، " تطور الدويلات " ، ص ١٢١ ؛ مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٧٨ ؛
Stevenson , The Crusaders , p. 136 .

[(٢)] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٥٤٠ ؛
Ehrenkreutz , Saladin , p. 47 .

[(٣)] حبرون قرية تابعة لمدينة القدس . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٢١٢ .

[(٤)] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص٦٨٣ ؛ رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ؛
Grousset , Histoire des Croisades , Vol. II , pp. 157-158 .

[(٥)] ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج١ ، ص ٥١٩ ؛ المشترك صقعاً ، ص ٩٤ .

[(٦)] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٨٣ .

[(٧)] الدويهي ، تأريخ الازمنة ، ص ٤٠ ؛ رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ؛ العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ص ٣٧٤ .

[(٨)] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٨٣ .

[(٩)] عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٨٢ .

كان يولد من جديد كلما تمت ابادته)) [١] أما العامل الثاني : فهو وجود البطريرك نفسه إذ يمثل حافزاً معنوياً دينياً من اجل إنجاز البناء في همة وحماس وبأسرع وقت ممكن [٢] .

وبانتهاء العمل في قلعة بيت جبرين منحت وبموافقة زعماء الصليبيين إلى رهبان منظمة الاسبتارية ، فتولت مهمة الدفاع عن القلعة والمنطقة المجاورة لها [٣] وينظر الباحثون باهتمام كبير لتلك الحادثة بوصفها أول عمل حربي عهد به إلى منظمة الاسبتارية والتي كانت بداية تحول تلك المنظمة المذكورة من مجرد العمل الخيري العلاجي إلى العمل الحربي العدواني ضد المسلمين [٤]وهذا دليل واضح على أن مملكة بيت المقدس الصليبية صارت من الآن فصاعداً تعتمد على عناصر الهيئات الحربية أو الرهبان المقاتلين كالاسبتارية والداوية وهو أمر سيتصاعد فيما بعد حتى تصبح القلاع والحصون يعهد بها إلى تلك العناصر ، وقد جاء ذلك التحول نتيجة تزايد المحيطة بالكيان الصليبي فعهد إلى تلك العناصر المحاربة التي ظهرت كفاءتها في هذا المجال [٥] .

وقد ترتب على إقامة قلعة بيت جبرين نتائج على وضع حامية مدينة عسقلان فعندما اكتملت القلعة من كافة جوانبها قل عنف هجمات المسلمين في ذلك الموقع [٦] ودل ذلك على نجاح خطة الصليبيين في تامين حدودهم الجنوبية ، إذ أن أثرها قد ظهر منذ تشييد أول قلعة في المنطقة ّمما يعكس أيضا أن المكاسب ستتزايد لصالح الصليبيين لتشييد المزيد من القلاع في مواجهة حامية عسقلان [٧] .

وعلى الرغم من الأهمية العسكرية لتلك القلعة إلا أن دورها تضاءل بعد استيلاء الصليبيون على مدينة عسقلان سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م ، ولكنها ظلت قلعة مهمة ومركز للادارة

---

[١] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٨٢-٦٨٣ .
[٢] عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٨٢ .
[٣] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٨٣ .
[٤] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٢٧ ؛ عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٨٢ ؛ *Stevenson , The Crusaders , p. 136 .*
[٥] عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٨٢-٨٣ .
[٦] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٨٣ .
[٧] عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٨٣ .

المحليـة علـى الطريـق تفـرض ضـريبة معينـة علـى القوافـل المـارة بهـا [١] حتـى حررهـا الجـيش الإسلامي بقيادة الناصر صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م [٢] .

٣.قلعة يبنى *Ibelin* [٣]

شيدها الملك فولك الانجوي سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م [٤] فـي المنطقـة الواقعـة بـالقرب مـن مدينـة الرملـة [٥] علـى بعـد حوالي (١٢كم) جنـوب يافـا [٦] وعلـى مسـافة (٢٠كم) إلـى الجنـوب الغربي من اللد في موقع يتحكم في مفترق طريقين يمتدان من عسقلان إلى يافا وإلى الرملة [٧] وقد بنيت على بقايا أنقاض حطـام مدينـة قديمـة تسمى هبلين ***Hibelin*** أو ابلين ***Ibelin*** [٨] وقد اسـتفاد الصـليبيون مـن مميـزات الموقـع المرتفـع الـذي وجـد فـي المنطقـة ، إذ وجـدت هنالـك هضبة مرتفعة ليشيدوا عليها قلعة ذات بنـاء قوي وأسس صـلبة متينـة مع أربعة أبراج استخدم في بنائها نوع من الحجارة الصلبة [٩] .

ومن البديهي أن الصليبيين أدركوا أن سيطرتهم على تلك الهضبة من شأنها التحكم في المنطقة المجاورة بصورة محكمة [١٠] وبعد اكتمال العمل فيها أهداها الملك فولك إلى أحد النبلاء ، ويدعى باليان ابلين الأكبر ***Ballian Ibelin*** المعروف باليان بن بازان الذي بذل جهداً كبيراً

---

(١) الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج ٩ ، ق٢ ، ص ١٧٧ ؛ مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٧٨ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٦ .

(٣) كانت تعرف بأسماء كثيرة منها *Iamnia , Jamnia , Jabneel* . ينظر : عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٩٥ ، هامش رقم (٢) .

(٤) العريني ، " نمو طبقة النبلاء " ، ص ٤٦ ؛ *Ehrenkreutz , saladin , P.47 .*

(٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٤٢٨ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص٧٢٨ .

(٦) البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٩٥ ، هامش رقم (٢) .

(٧) الصـوري ، تـأريخ الحـروب ، ج ٢ ، ص ٧٢٨ ؛ رنسـيمان ، تـأريخ الحـروب ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ ؛ سـميل ، الحروب الصليبية ، ص ٢٢٩ ؛ *Stevenson , The Crusaders , P. 146 ; Grousset , Histoire des Croisades , Vol.II , pp 155-156 .*

(8) *Stevenson , The Crusaders , p. 146 .*

(٩) الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٧٢٨ .

(١٠) عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٧٤ .

في رعاية قلعة يبنى والتي اصبح حكمها وراثياً في أبنائه من بعده ، وهم هيو وبلدوين الأصغر ، ومنه اتخذوا لقبهم ابلين [١] وقد حضي باليان برضى الملك فولك بعد أن سانده ونصره على هيو بوزيه حاكم يافا ، أثناء حادثة سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م التي سبق الحديث عنها في الفصل الأول ، ولكونه قسطلان قلعة يبنى ، فقد ارتقى إلى مصاف كبار السادة الإقطاعيين ورفع إلى مرتبة فارس ، وتزوج من هيليفيس وارثة إقطاع الرملة وأصبحت سلالته اشهر أسرة أرستقراطية في الشرق الصليبي [٢] .

أما الغرض من إنشائها فكان عسكرياً ، وتمثل بإعاقة حامية عسقلان عن التقدم والحيلولة دون قيامها باجتياح المنطقة ومهاجمة الصليبيين [٣] ويظهر الطابع الاستيطاني في قلعة يبنى ليس من الناحية العسكرية في إيقاف الهجمات المصرية التي انطلقت من قاعدة عسقلان فحسب بل كانت القلعة تستخدم لجذب مجموعات هامة أو أُسر قوية للعمل في الأراضي الزراعية وتوطين الفلاحين الصليبيين ، والاستفادة من الزراعة في حماية تلك القلعة التي منحت لعناصر الفرسان الاسبتارية [٤] فضلاً عن توافر مصادر المياه اللازمة من اجل تزويد المدافعين عنها باحتياجاتهم لفترات طويلة وخاصة في حالات الحصار المتوقع للقلعة وقد ذكر الصوري أن الموقع الذي اختاره الصليبيين توافرت فيه عدد من آبار المياه التي افادت أعمال بناء القلعة المذكورة وسد احتياجات الناس [٥] .

٤.قلعة تل الصافية *Blanchgard*

شيدها الملك فولك الانجوي في سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م [٦] في الجهة الجنوبية الغربية لمملكة بيت المقدس الصليبية ، وكان إنشاؤها في موقع تل الصافية المشار إليه آنفا وقد عرفت

---

[١] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ٧٢٨ .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٣٦٨ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٣٦ ؛ ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٦ .

[٣] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢، ص ٧٢٨ .

[٤] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٣٦ .

[٥] تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٧٢٨ .

[6] *Ehrenkreutz , Saladin , p. 47 .*

في اللغة اللاتينية باسم بلانكفورد أو بلانشجارد ***Blanchgard*** وتعني برج المراقبة الأبيض [١]
.

أما عن موقعها فهي تبعد (١٦كم) شرق مدينة عسقلان قريباً من القلعتين السابقتين وهما بيت جبرين ويبنى اللتان شيدتا لاجل مواجهة عسقلان ، وجاء اختيار موقع القلعة من خلال عملية دقيقة بحضور الملك فولك الانجوي وبطريرك القدس ايمري ***Aymeri*** [٢] وجال الكنيسة ، مّما عكس ذلك أهمية ما اقدم عليه الصليبيون [٣] مّما عكس حقيقة هامة ، وهي أن الصليبيين بإقامتهم لثالث قلعة في المنطقة وخلال سنوات قليلة مقابل عسقلان أرادوا تشييد خط دفاعي من القلاع الحصينة يؤدي في النهاية إلى فرض السيادة العسكرية والسياسية الصليبية عليها ، الأمر الذي حدث فيما بعد [٤] .

وقد تطرق الصوري إلى مميزات الموقع الذي شيدت فيه القلعة إذ أقيمت على جبل عالٍ كما وصف الموقع بأنه كان جيد التحصين من الناحية الطبيعية . أما التكوين المعماري للقلعة فقد شيدت من الحجارة المنحوتة على أسس صلبة قوية ، وجعل لها أربعة أبراج ذات ارتفاع ملائم [٥] بلغ ارتفاع كل برج (١٠٠ قدم) ، ولم تدخل الأخشاب في مواد بناء تلك القلعة ، كما كان سائداً في أوربا ، مّما جعل القلعة تقاوم الحرائق والنيران ، كما أن قلعة تل الصافية احيط بها سور مستدير [٦] وحالما أنجز الصليبيون العمل فيها عهد الملك فولك الانجوي إلى ارنولف ***Arnulf*** أحد ألاثرياء في مدينة القدس لتدبير شؤون تلك القلعة الذي اصبح فيما بعد من وأغنى البارونات واقواهم في المملكة الصليبية [٧] .

---

[١] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٧٢٩ .

[٢] ايمري : أحد رجال الدين الصليبيين قدم إلى ارض الشام مع الحملة الصليبية الثانية ، تقلد منصب البطريركية بعد عزل رادولف دومفرون سنة ٥٣٤هـ / ١١٣٩م . ينظر : رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢، ص٦٢٨ .

[٣] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ٧٢٩ .

[٤] عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٨٧ .

[٥] تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٧٢٩ .

[٦] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٩٠ .

[٧] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٣٦٨-٣٦٩ .

وقد زودت القلعة بما يكفي من الأطعمة وشحنت بالأسلحة ، هذا فضلا عن الرجال الذين أنيطت بهم تأدية المهام الحربية ، فكانت تلك الإمدادات عنصراً هاماً من اجل مواصلة الضغط على مدينة عسقلان واعطاء الصليبيين حرية الحركة ضدها في أي وقت شاءوا على نحو قدم لهم ميزة المبادرة العسكرية للهجوم الأمر الذي لم يكن متاحاً لهم قبل تشييد تلك القلاع [1] .

أما نتائج تشييدها فتبدو واضحة حسب قول الصوري ، إذ اصبح من الممكن للصليبيين من دون يلة معوقات النظر من القلعة المذكورة على مدينة عسقلان مباشرةً وبرهنت تلك القلعة على أنها عائق اكثر إزعاجا ومصدر خطر حقيقي لاهالي عسقلان عندما يحاولون الزحف تجاه تل الصافية [2] ويعطي ذلك الانطباع بان قلعة تل الصافية كانت قريبة من عسقلان ، ومن المحتمل أنها كانت اقرب من سائر القلاع الأخرى ، وذلك يدل على أن قلعة تل الصافية اتخذها الصليبيون كوسيلة لرصد تحركات المسلمين في مدينة عسقلان ، لذلك تفوق الصليبيون استراتيجياً افتقد مثيلة المسلمون [3] وليس ذلك فحسب بل كانت تلك القلعة أداة من أدوات الاستعمار وتوسيع السيطرة الصليبية في المنطقة العربية [4] .

وقد كانت القلعة ملكاً للملك فولك ثم انتقلت ملكيتها إلى الملك بلدوين الثالث ثم إلى الملك املريك الأول في سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م ، وبقيت تحت الهيمنة الصليبية حتى حررها الناصر صلاح الدين في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، وأمر بتدميرها [5] لكي لا يستفيد منها الصليبيون عند احتلالهم لها مرة أخرى كمركز عسكري في عدوانهم ضد المسلمين .

---

[1] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٧٢٩ .

[2] نفسه ، ج٢ ، ص ٧٢٩ .

[3] عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٨٨ .

[4] سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٢١٦ .

[5] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٩٠ .

٥.حصن الكرك *Petra Deserti* [١]

على الرغم من اقامة التحصينات في (بيت جبرين . يبنى . تل الصافية) إلا أنها لم تكن محكمة للدفاع عن القدس ، فمازالت هنالك ثغرة تمكن المسلمون النفاذ منها وهي المنطقة الواقعة شرقي البحر الميت ، وقد انتبه إلى ذلك الملك فولك الانجوي ، فلم يقتصر اهتمامه بالجهة الجنوبية الغربية بل اهتم بإحكام دائرة التحصينات حول مملكته الصليبية من الجهة الجنوبية الشرقية [٢] .

ففي سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م اكمل الملك فولك هذا السوار من القلاع بتشييد حصن الكرك [٣] قام ببنائه باجان الساقي ***Paganus Pincerna*** ، صاحب مقاطعة الشوبك ، فوق قمة جبل شاهق [١] بلغ ارتفاعه (٩٦٠م) عن سطح البحر [٢] وتحيط به أودية عميقة [٣]

---

[١] يكتب باللغة العربية حصن الكرك وباليونانية كراكموبا *Chara Chmoba* وباللغة اللاتينية دومنتريال *Crac Montreal* ، وبيترا ديزرتري *Petra Deserti* أي بتراء الصحراء أو صخرة الصحراء . ينظر : مولر ، القلاع ، ص ٥٥ ؛ العسلي ، فن الحرب ، م٤ ، ص ٣٦١ ، هامش رقم (١) . وقد اختلفت الآراء حول اصل تسمية الكرك ، فقد ذكر ياقوت الحموي بأنها كلمة أعجمية . ينظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٤٥٣ . وهنالك من رأى أن تسمية الكرك ذات اصل سرياني من كلمة كاركو Karko التي تعني الحصن . ينظر : رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٠ ، هامش رقم(٢) . في حين عدها حتي لفظة آرامية تعني كرخا ومعناها بلدة . ينظر : تأريخ سورية ، ج٢ ، ص ٢٣١ ، هامش رقم (١) .والراجح أن الكرك لفظة آرامية عربت وادخلت إلى اللغة العربية وعن الآراميين أخذها اللاتين الذين أطلقوا على كل موضع حصين يماثل في حصانته وموقعه الكرك مثل الكرك ، وسموها " كرك مؤاب " *Krak Moabites* " والشوبك " مونتريال " وسموها " كرك مونتريال " *Krak Montreal* ، أو " كرك الشوبك " ، وحصن الاكراد فسموه " كرك الفرسان " *Krak Chevaliers* ، وقلعة صهيون فسموها " كرك صهيون " *Krak Sahyun* . ينظر : غوانمة ، إمارة الكرك ، ص ٤٨-٥٠ .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص٦٠١ .

[٣] لين بوول ، صلاح الدين ، ص ١١٩ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٣٦ ؛ *Stevenson , The Crusaders , p. 146 ; Ehrenkreutz , Saladin , p. 47 .*

من ثلاث جهات : الشرقية والغربية والشمالية ، أما من الجهة الجنوبية فقد حفر فيها خندق كبير [٤] على أن ذلك الجبل تنحدر سفوحه من الجانبين بشدة حتى وادي الست ووادي الفرنجة اسفل المدينة الحصينة تماما [٥]والجدير بالملاحظة أن تلك الوديان التقت معاً قرب عين سارة التي تبعد حوالي (١كم) إلى الغرب من الكرك ، ومثلت مع قمة الجبل انحدارات قوية في جهتي الشمال والشرق اكثر انحداراً منها في جهتي الجنوب والغرب [٦] .

اما ما يتصل بالموقع الجغرافي لحصن الكرك فيقع في الجنوب الغربي من المملكة الأردنية الهاشمية ، ويبعد (١٣٠كم) عن مدينة عمان [٧] وحوالي (٧٥كم) عن مدينة القدس [٨] وكذلك (١٠٥كم) شمالي قلعة الشوبك [٩] وعلى بعد (٣٠كم) أقصى الجنوب الشرقي من البحر الميت في قلب محافظة الكرك الحالية [١٠] ولكونه على أطراف الشام من جهة الحجاز [١١] فقد تحكم في طرق الحجاج المسلمين إلى الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة [١٢] هذا

---

[١] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١١٠٦ .

[٢] وائل الرشدان ، " المدرسة المملوكية في قلعة الكرك " (مجلة دراسات تأريخية ، دمشق : ١٩٩٦م) ، العددان ٥٧–٥٨ ، ص ٢٠١ .

[٣] ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص٤٥٣ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٠٦٦ ؛ شيخ الربوة ، نخبة الدهر ، ص ٢١٣ .

[٤] الرشدان ، " المدرسة المملوكية " ، ص ٢٠١ .

[٥] مولر ، القلاع ، ص ٥٥ ؛ العسلي ، فن الحرب ، م٤ ، ص ٣٦١ .

[٦] عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٩٠ .

[٧] غوانمة ، التأريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي (دار الفكر ، عمان : ١٩٨٢م) ، ص ٢٥٩ ؛ الرشدان ، " المدرسة المملوكية " ، ص ٢٠١ .

[٨] ابن جبير ، رحلة ، ص ٢٦٠ .

[٩] أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٧ .

[١٠] سعداوي ، التأريخ الحربي ، ص ١٢٦ ؛ احمد ، شبه جزيرة ، ص ١١٦ ؛ عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٩٠ .

[١١] ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٥٣ ؛ المشترك وضعا ، ص ٣٧٠ ؛ أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٧ ؛ البغدادي ، مراصد الاطلاع ، ج٣ ، ص ١١٥٩ .

[١٢] عبد الحميد زايد ، القدس الخالدة (مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : ١٩٧٤م) ، ص ٢٢٠ .

فضلاً عن وقوعه على الطريق المؤدي إلى مصر [١] مما هيأ له السيطرة على الطرق الوحيدة السالكة الممتدة من بلاد الشام إلى مصر [٢]ونتيجةً لذلك الموقع المتميز ، فقد عده ابن الأثير من امنع المعاقل العسكرية التي أقامها الصليبيون على طرف البر [٣] وقد استقر فيه عناصر فرسان الداوية ، اتسع لخمسة الاف مقايل وحظيرة اتسعت لاف حصان [٤] .

أما فيما يتعلق بأسباب بناء حصن الكرك ، فيرى ستيفنسون انه يوفر الحماية لقلعة الشوبك من خطر أي هجوم إسلامي من جهة مصر [٥] بينما اتجه لين بوول إلى القول بان بناءه كان لاجل التحكم في طريق القوافل المارة بين الشام ومصر لانه المنفذ الأساسي لسورية وليكون شوكة في جانب العرب المسلمين [٦] والراجح ما ذهب إليه رنسيمان بان باجان لم ينقل مقره من الشوبك إلى حصن الكرك بعد إنجاز بنائه إلا لغرض السيطرة على الطرفين الشمالي والجنوبي للبحر الميت [٧] .

شهد حصن الكرك خلال الفترة الصليبية تعاقب عدد من الحكام ، كان أولهم باجان الساقي في عهد الملك بلدوين الأول الذي عمل على تحصين الكرك مؤاب وربطها ببعض القلاع مثل الشوبك وقلعة وادي موسى [٨] قرب البتراء القديمة [٩] ومنذ ذلك الحين أصبحت الكرك قاعدة لانطلاق الصليبيين من اجل العدوان على منطقة شرقي الأردن ، ومن اجل التعرض لقوافل المسلمين التجارية التي كانت تتحرك ما بين بلاد الشام ومصر [١٠] .

---

[١] تأريخ الرهاوي المجهول ، ج٢ ، ص ١٩٢ .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٠-٣٧١ ؛ لين بوول ، صلاح الدين ، ص ٢٠٨ ؛ اسمث غنيم ، الدولة الأيوبية والصليبيون (دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٨م) ، ص ٣٢ .

[٣] الكامل ، ج١١ ، ص ٣٥٢ .

[٤] سعداوي ، التاريخ الحربي ، ص ١٧٢ ؛ بردج ، تأريخ الحروب ، ص ١٩٢ .

[5] *The Crusaders , P . 146 .*

[٦] صلاح الدين ، ص ١١٩ .

[٧] تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٣٧ ؛ ماير تأريخ الحروب ، ص ١٣٦ .

[٨] قلعة وادي موسى : يقع ذلك الوادي في جنوب القدس بين المدينة المقدسة والحجاز ، وهو وادي جميل مليء بأشجار الزيتون . ينظر : غوانمة ، إمارة الكرك ، ص ٦٥ . أما القلعة فتقع على تل شديد الانحدار يعرف حالياً باسم تل عويرة على أطراف البتراء . ينظر: رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٣٧١ .

[٩] رنسيمان ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧١ .

[١٠] العسلي ، فن الحرب ، م٤ ، ص ٣٦٨ .

وبعد وفاة باجان تولى ابنه مرقيوس ***Mauricius*** [(١)] حكم الكرك [(٢)] ثم جاء بعده رومانوس بوي ***Romanus Puy*** الذي عرف في المصادر الصليبية باسم رومانوس بوديو ***Romanus Podio*** ، وقد منحه الملك بلدوين الثاني إقطاعية الكرك والشوبك وقد تشاجر مع الملك فولك الانجوي ، وأدين بتهمة الخيانة العظمى لانه اشترك مع هيو بوزيه الثاني في مؤامرة ضد الملك فولك الانجوي فتمت مصادرة إقطاعيته ، ومنحت لباجان كبير خدم الملك فولك الانجوي [(٣)] وقد جاء بعده فيليب ميللي (٥٥٧-٥٦٣هـ/١١٦١-١١٦٧م) الذي كان قد اقطع الكرك بدلاً من نابلس في سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م [(٤)] .

والواقع أن فيليب ميللي حاكم إقطاع نابلس كان قد تنازل عن اقطاعه للملك بلدوين الثالث مقابل حصوله على الكرك والشوبك اثر الاتفاق الذي تم بين الطرفين في الاجتماع الذي عقد في مدينة الناصرة يوم الاثنين ٦ شعبان ٥٥٦هـ/ ١١ تموز سنة ١١٦٠م ، ويعود تنازل الملك بلدوين الثالث عن أمارة الكرك والشوبك مقابل الحصول على نابلس لأسباب عدة أولها : إن نابلس كانت إحدى المدن التابعة للتاج الملكي مباشرةً ، وثانيها : إن فيليب ميللي سيد إقطاعية نابلس كان قد وقف إلى جانب الملكة ميليسند أثناء صراعها مع ابنها الملك بلدوين الثالث حول السيطرة على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ، وثالثها : ربما شعر الملك بلدوين الثالث إن فيليب ميللي اصبح يشكل خطراً عليه إذا ما استمر في حيازته لإقطاعية نابلس ، ولذلك قام بإجراء المقايضة ، ورابعها : استهدف الملك من وراء استعادة نابلس ضمان دخل كبير يدخل إلى خزانة الدولة ولكي يحرم فيليب من التمتع بخيراتها الأمر الذي سيعود بالفائدة إلى الخزانة الملكية [(٥)] .

وعلى أية حال فقد شهد حصن الكرك خلال مدة حكم فيليب ميللي تطوراً ملحوظاً في أساليب الدفاع العسكرية تجاه الهجمات الإسلامية ، فقد اتخذ عدة إجراءات لتحصين الكرك

---

(١) لم تزودنا المصادر العربية واللاتينية المعاصرة المتخصصة بدراسة الحروب الصليبية بمعلومات وافية عن مرقيوس سوى انه كان ابن أخ باجان الساقي حاكم الكرك . ينظر : الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٠٦٦ .

(٢) نفسه ، ج٢ ، ص ١٠٦٦ .

(٣) البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ١٩٨ ، هامش رقم(٢) .

(٤) الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٠٦٦ ؛ ماسينيوس ، " شوبك " ، ج١٣ ، ص ٤٣٩ .

(٥) البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٨٩-٩١ .

تمثلت تلك التحصينات بحفر خندق عميق [1] بلغ انخفاضه حوالي (٦٠ذراعاً) [2] في المنطقة الواقعة بين الربض والقلعة ، كما أحيط الحصن بسور من جميع جهاته [3] وله باب واحد نحت مدخله من الحجر الصلب [4] وكان الدخول إلى حصن الكرك يتم بنفقين ضيقين ومنحدرين ومحفورين في الصخر الصلب [5] فضلا عن الخندق شيدت أبراج تعزيزاً للدفاعات العسكرية فجعلت الحصن اكثر قوة ومنعة تجاه الهجمات الإسلامية [6] وبذلك كان لموقع التحصينات ومتانتها والأبراج المنحوتة بأشكال الأسود أهميتها في جعل الاعتداء عليه أمراً صعباً إذ في تركيبته العامة كان حصناً صليبياً قتالياً جهز بالأسلحة والماء والمؤن التي أسهمت في إطالة مقاومة الحصن لحصار بعد حصار [7] .

وقد بقي فيليب ميللي في حكم الكرك حتى عهد الملك امليريك الأول في سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م ، فعندما اصبح رئيساً لمنظمة الداوية تنازل عن اقطاعه لابنته اتنيت ميللي ***Etiennette Milly*** التي شهد عهدها مناوشات عسكرية بين الجانبين الإسلامي والصليبي [8] ونظراً لأهمية الكرك وموقعها الحيوي ، فقد تنافس المسلمون والصليبيون للسيطرة عليها رغبةً في الإفادة منها عسكرياً ، واقتصادياً بحكم هيمنتها على طرق المواصلات بين مصر والشام والجزيرة [9] .

---

(١) الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٠٦٦ .

(٢) الذراع : وحدة قياس قديمة للطول وتساوي (٤٩,٨٧٥ سم)تقريباً . ينظر : فالتر هنتس ، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، ترجمة : كامل العسلي (مطبعة القوات المسلحة الأردنية ، عمان : ١٩٧٠م) ، ص ٦٣ ، س٨٨ .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص٥٠٦ ؛ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج٢ ، ص ٦٩ .

(٤) محمد بن إبراهيم بن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (دار صادر ، بيروت : ١٩٦٤م) ، ص ١١١ .

(٥) لين بوول ، صلاح الدين ، ص ١١٩ .

(٦) الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ١٠٦٦ .

(٧) لين بوول ، صلاح الدين ، ص ١١٩ .

(٨) رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٤٠ ؛ ماسينيوس ، " شوبك " ، ج١٣ ، ص ٤٣٩ .

(٩) احمد عبدالله الحسو وآخر ، " الكرك كما أرخ لها السخاوي " (مجلة المؤرخ العربي ، بغداد : ١٩٩٩م) ، ع٥٧ ، ص ١٥٥ .

ففـي جمـادي الآخرة سنـة ٥٦٥هـ/١١٦٩م هـاجم نـور الـدين زنكـي حصـن الكرك لاجـل تامين مرور قافلة تجارية يرأسها نجم الدين أيوب والد صلاح الدين متجه من دمشق إلى مصر ، وبوصوله فرض حصاراً على الحصن ونصب عليه المجانيق لقذف الصليبيين الذين كانوا بداخله بالحجارة وانتظر خروجهم من الحصن لمباغتتهم غير انهم لم يبرحوا مكانهم في الوقت الذي تمكنت فيه القافلة من المرور بأمان دون إن تتعرض لخطر الصليبيين في الكرك [١] مركز السلب والقرصنة البرية [٢] .

ولم يقف نشاط نور الدين زنكي عند ذلك الحد بل بحث مع صلاح الدين السبل والوسائل الممكنة لتقوية الاتصال بين الشام ومصر الإسلامية لان سيطرة الصليبيين على الأردن ووادي عربة بما فيه حصن الكرك وقلعة الشوبك وغيرها اتاحت للصليبيين امكانية التحكم في صحراء النقب الواقعة بين البحر الميت والبحر الأحمر لاسيما إن آيلة على خليج العقبة كانت خاضعة لهم ، وهكذا صار طريق الاتصال مقطوعاً بين الشام ومصر [٣] ولاجل تحقيق ذلك الهدف فقد وحدا جهودهما واتفقا على مهاجمة حصن الكرك في سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م ، وانتزاعه من أيدي الصليبيين غير إن ذلك التعاون المشترك بين نور الدين وصلاح الدين لم يثمر عن نتائج ملموسة [٤] .

---

[١] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٥٢ ؛ التأريخ الباهر ، ص ١٤٤ ؛ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج٢ ، ص ٧٠ .

[٢] المعاضيدي ، الوطن العربي ، ص ١٢٧ ؛ رايلي ، الغرب ، ص ١٥٠ .

[٣] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧١٥ ؛ عوض ، الحروب الصليبية ، ص ٩١ ؛
Grousset , Historie des Croisades , Vol.I , p. 553 .

[٤] يروي ابن الأثير أن : ((***نور الدين لما وصل إليه كتاب صلاح الدين برحيله من مصر ، سار إلى الكرك فوصل إلى الرقيم وبينه وبين الكرك مرحلتان (٧٠كم) ، فلما سمع صلاح الدين بقربه خافه وجميع اهله ، واتفق رايهم على العودة إلى مصر ، وترك الاجتماع بنور الدين ، لانهم علموا أنه أن اجتمعا كان عزله على نور الدين سهلا***)) ، عندئذٍ اكتفى صلاح الدين بإرسال الفقيه عيسى الهكاري مع الهدايا ليقدم اعتذاره إلى نور الدين ذاكرا له أن تدهور صحة والد صلاح الدين هي السبب المباشر وراء انسحابه . ينظر : الكامل ، ج١١ ، ص ٣٩٢ -٣٩٣ .

وقد برز دور حصن الكرك الصليبي في عهد البرنس ارناط [1] الذي عرف في المصادر والمراجع الاجنبية باسم رينو شاتيون ***Renaud Chatillon*** [2] وهو أحد الفرسان المغامرين فرنسي الأصل قدم إلى بلاد الشام مع الحملة الصليبية الثانية ، ضمن صفوف جيش الملك لويس السابع (٥٣٢-٥٧٦هـ/١١٣٧-١١٨٠م) ، وبقي في فلسطين بعد فشل الحملة الصليبية الثاني وعودة رجالها إلى الغرب الأوربي [3] ثم دخل في خدمة الملك بلدوين الثالث الذي اصطحبه معه في إحدى المرات إلى انطاكية في سنة ٥٤٦هـ/١١٥١م ، وشاءت الأقدار ان تزوج هناك من حاكمة انطاكية الأميرة كونستانس أرملة الأمير ريموند بواتييه ***Raymond Poitou*** (٥٣١-٥٤٤هـ/١١٣٦-١١٤٩م) [4] الذي قتل على يد قوات نور الدين زنكي في معركة أنب [5] سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م [6] .

على إن ذلك الزواج تم بصورة سرية اثر معارضة بطريرك انطاكية ايميري الذي كان ينظر إلى ارناط نظرة شك وارتياب بسبب تطلعاته السياسية ، ونتيجةً لخشية البطريرك على نفوذه وسلطته القوية في انطاكية ، فضلاً عن آرائه المعارضة التي عبر عنها علناً أمام صليبيي انطاكية ، ودخل في مشاجرة مع ارناط انتهت باعتقال ارناط للبطريرك في قلعة انطاكية [7] .

---

[1] هكذا وردت تسميته في المصادر العربية الإسلامية . ينظر : الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٨٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٧٠ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص ٩٤ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٧٩ .

[2] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٨١٤ ؛ جب ، صلاح الدين ، ص ١٣٩ ؛ لين بوول ، صلاح الدين ، ص ١٤٨ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٨٩ ؛ لامب ، شعلة الإسلام ، ص ٩٤ ؛ ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٥ ؛ رايلي ، الغرب ، ص ١٥٠ ؛

Stevenson , The Crusaders , p. 228 ; Tanner , The Cambridge , Vol.V ,p. 308 ; Ehrenkreutz , Saladin , pp. 158-159 .

[3] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٥٥٧ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٤٩ ؛ غوانمة ، إمارة الكرك ، ص ٨٠-٨١ .

[4] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٨١٤ ؛

Tanner ,The Cambridge , Vol. V,P.308 .

[5] أنب : حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٥٨ .

[6] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ١٤٤ ؛ التأريخ الباهر ، ص ٩٨-٩٩ .

[7] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٨٢٤ ؛

ولأجل إضفاء الشرعية على ذلك الزواج أقدمت الأميرة كونستانس التي لم ترغب بإعلان زواجها على الملأ حتى تكون قد ضمنت قرار موافقة ابن خالتها الملك بلدوين الثالث خاصةً ان إمارتها تقع تحت حمايته ، وبناءاً على ذلك أرسلت ارناط إلى الملك بلدوين الثالث الذي كان آنذاك يحاصر مدينة عسقلان ليبلغه نيتها ، وبعد إن حصل على موافقة الملك عاد إلى انطاكية ، وأعلن زواجه رسمياً من الأميرة كونستانس سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م ، وبذلك الزواج اصبح ارناط حاكماً لأمارة انطاكية (٥٤٨-٥٥٥هـ/١١٥٣-١١٦٠م) [١] .

وبذلك حصلت أمارة انطاكية على محارب قوي وفارس صليبي قام بدور هام في محاربة المسلمين ، وذلك المغامر الخطير اتصفت كثير من تصرفاته بالطيش والتهور وعدم مراعاة العهود والجهل بأحكام السياسة وأصولها ، مّما سبب متاعب لا حصر لها للصليبيين في بلاد الشام [٢] فقد هاجم بلاد نور الدين زنكي في شمال الشام ، واستولى على المغانم والأسلاب ، واثناء عودته فوجئ بقوات الأمير مجد الدين أبي بكر بن الداية عامل نور الدين في حلب في سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م فوقع أسيرا في يدها [٣] وقد ظل ارناط أسيرا في قلعة حلب ستة عشر عاماً حتى أطلق الحلبيون سراحه سنة ٥٧١هـ/١١٧٦م مع عدد كبير من أسرى الصليبيين [٤] اثر التعاون الذي حدث بين الصليبيين من جهة والموصليين والحلبيين من جهة أخرى [٥] .

وبعد إن أطلق سراحه عاد إلى انطاكية وعلم ان زوجته كونستانس توفيت منذ مدة وقد اصبح ابنها بوهيمند الثالث ***Bohemond III*** أميراً فيها(٥٥٩-٥٩٨هـ/١١٦٣-١٢٠١م) ، وأزاء ذلك الموقف اضطر إلى التوجه نحو القدس ، في الوقت الذي كانت مملكة بيت المقدس

Jean Richard ," The Political and Ecclesiastical Organization of the Crusaders States in AHistory of the Crusades of setton " (Wisconsin University press , America : 1958) , Vol . V,P.203 .

[١] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٨١٤ .

[٢] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٤٩-٦٥٠ .

[٣] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٨٦٨ ؛

Stevenson , The Crusaders , p. 183 .

[٤] البنداري ، سنا البرق ، ص ٩٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٨ .

[٥] للوقوف على حقيقة ذلك التعاون من عدمه . ينظر : نوري ، سياسة صلاح الدين ، ص ١٧٨-١٨١ .

تعيش في وضع سياسي سيء بسبب انقسام باروناتها نتيجة لوفاة الملك املريك الذي ترك لوراثة العرش لصليبي طفلاً صغير السن لا يتجاوز الثالثة عشر من عمره وهو بلدوين الرابع [١] .

وبوصول ارناط مدينة القدس دخل في خدمة الملك بلدوين الرابع ودعماً لمركزه السياسي زوجه الملك في سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م من انتيت ميللي وريثة بارونية الكرك طمعاً في اقطاعها والتي كان قد مات عنها زوجاها وهما همفري الثالث حاكم تبنين ***Humphrey III*** [٢] وفانسي ***Milo Phancy*** [٣] فاصبح ارناط بذلك الزواج حاكماً لاقطاع الكرك (٥٧٤ـ ٥٨٣هـ/١١٧٨-١١٨٧م) والذي كان افضل من يستطيع الدفاع عن مملكة بيت المقدس الصليبية [٤] .

وشكل إسناد أمارة الكرك إلى ارناط نقطة تحول هامة وخطيرة في دورها السياسي والاقتصادي ، إذ كانت بارونية الكرك من أهم بارونيات مملكة بيت المقدس الصليبية من الناحيتين العسكرية والاقتصادية ، فمن الناحية العسكرية : فهي تمثل خط الدفاع الأول عنها والحارس القوي المنيع الذي يحميها من هجمات المسلمين من ناحية جانبيها الشرقي والجنوبي وفضلاً عن تمتعها بمركز استراتيجي هام بين الشام ومصر كانت تراقب تحركات المسلمين بين جناحي دولتهم دمشق والقاهرة ، أما من الناحية الاقتصادية : فتعد اكبر بارونية يرد منها عائد

---

[١] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٨٩٢،٩٧١ ؛ رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٥٨٨، ٦٥١-٦٥٢ ؛

Tanner ,The Cambridge , Vol. V,P. 313 .

[٢] همفري الثالث : هو ابن همفري الثاني حاكم تبنين ، كان قد تزوج من انتيت ميللي وريثة إقطاع الأردن الذي يعد حصن الكرك حاضرته ، غير أن ارتباطه بها لم يدم إلا مدة قصيرة لوفاته في سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م . ينظر : الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٠٢١ ؛ رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٤٠ .

[٣] ميلو فانسي : هو أحد الفرسان الصليبيين ، ينتمي إلى أسرة فرنسية نبيلة ، غير انه كان منحط الأخلاق بارعاً في إثارة الخلافات بين الأمراء الصليبيين لاجل إضعافهم محاولاً أن ينال الحظوة عند الملك املريك الذي قربه إليه وجعله صنجيل المملكة ، وقد اشترك معه في الحملة على مصر في سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م ، وبعد وفاة الملك املريك سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م ، عهد مجلس المملكة الصليبية إلى ميلو لتدبير شؤون المملكة ولانفراده بالسلطة دون التشاور مع النبلاء الصليبيين دخل في نزاع معهم انتهى بتحريض بعض الرجال بصورة سرية للتآمر على حياته ، فقتل في مدينة عكا سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م . ينظر : الصوري ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٣٣ ، ٩٧٤-٩٧٥ .

[٤] عبد العزيز سالم ، دراسة في تأريخ الأيوبيين والمماليك (مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية : ١٩٩٧م) ، ص ١٠٦ ؛ ماسينيوس ، " شوبك " ، ج١٣ ، ص ٤٣٩ .

اقتصادي للمملكة الصليبية بما تحصل عليها من رسوم تفرض على القوافل التجارية المارة عبر أراضيها ، وبما تفرضه من ضرائب على محاصيلها الوافرة بالغلات الكثيرة وبذلك كانت القلب النابض لمملكة بيت المقدس الصليبية ، وهي بحق مفتاح الطرق العسكرية والاقتصادية للمسلمين [١] .

وقد اتخذ ارناط حصن الكرك قاعدة لانطلاق هجماته العسكرية ضد المسلمين ، فكان يعترض القوافل التجارية وقوافل الحجاج أثناء مرورها بجانب اقطاعه ويسلبها ما تحمله من أموال وسلع [٢] فضلا عما كان يحصل عليه من الأموال المتأتية من الرسوم المفروضة على القوافل التجارية القادمة من مصر والشام والعراق وبالعكس ومن اليمن والحجاز وسواحل الشام [٣] وليس ذلك فحسب بل انه لم يكن يفهم كل سياسة تتعارض مع رغباته ، فبمقتضى شروط الصلح الذي عقد بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م اصبح للتجار المسلمين والنصارى الحرية في اجتياز بلاد الآخر [٤] فوفقاً للدواداري : ((***ووقع الصلح بينهم إلى وقت معين بشرط إن المسافرين يسافرون والقفول لا تنقطع والتجار لا تتعوق من الشام إلى مصر والخفر على الإفرنج***)) [٥] .

غير إن ارناط الذي كان كما وصفه ابن الأثير ((***من شياطين الفرنج ومردتهم ، واشدهم عداوة للمسلمين***)) [٦] واغدر واخبث أمراء الصليبيين وأنكثهم للعهود [٧] نقض الهدنة

---

[١] غوانمة ، إمارة الكرك ، ص ١١٧ .

[٢] ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص٨ ؛ كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٧٣ ؛ غنيم ، الدولة الأيوبية ، ص ٣١-٣٢ .

[٣] غوانمة ، إمارة الكرك ، ص ١٣٢ ؛
Stevenson , The Crusaders , p. 100 .

[٤] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٩٦ .

[٥] أبو بكر عبدالله بن ايبك ، كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور (دار إحياء الكتب ، القاهرة : ١٩٧٢م) ، ج٧ ، ص ٥٠-٥١ .

[٦] الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٧٠ .

[٧] البنداري ، سنا البرق ، ص ٢٨٩ ؛ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج٢ ، ص ٧١ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٧٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

المعقودة بين الطرفين بعد إن ساءه إن يرى القوافل التجارية الوافرة الثروة تسير مطمئنة قرب أمارة الكرك [1] .

فقد تمادى ارناط ووصل به الحال إلى إن ((***شرب ذات ليلة وسكر وأمر الخيالة إن تنزل تقطع الطريق على المسافرين من المسلمين ، فركبت الخيالة ومعه الرجالة ونزلوا فاخذوا خلقاً كثيراً من التجار والفقراء والمسافرين***)) [2] ولم يكتف ارناط بتحصيل رسوم المرور من قوافل الحجاج المارة بحصن الكرك وقطع الطريق على القوافل الآمنة المطمئنة بل ركبه الطيش والغرور وخيل إليه انه بلغ من القوة ما يمكنه من طعن الإسلام والمسلمين بمهاجمة المدينة المنورة [3] .

ففي رجب سنة ٥٧٧هـ/كانون الأول سنة ١١٨١م توجه ارناط بقواته مخترقاً الصحراء العربية جنوباً وتوغل فيها حتى وصل تيماء [4] وهناك هاجم قافلة تجارية كانت متجهة من دمشق إلى مكة وسلبها ما كانت تحمله من أموال وسلع واسر من تمكن من أسره [5] .

ولم تقف الأمور بالصليبيين عند ذلك الحد بل عقدوا العزم على ضرب المسلمين في أهم مقدساتهم ، وذلك بمحاولة الاستيلاء على المدينة المنورة ، ونهب المسجد النبوي والاستيلاء على كل ما فيه من كنوز وذخائر ، فضلا عن قطع طريق الحجاج من مصر إلى الشام [6] ولما علم بالأمر الأمير عز الدين فرخشاه ابن أخ صلاح الدين ونائبه في دمشق جمع العساكر الدمشقية وتوجه بها لمهاجمة أمارة الكرك فنهبها وخربها واكتسح نواحيها ، أما ارناط فما إن بلغة الخبر

---

[1] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٩٦ ؛ لين بوول ، صلاح الدين ، ص ١٤٨ ؛ احمد ، شبه جزيرة ، ص ١١٦ ؛ غنيم ، الدولة الأيوبية ، ص ٣٢ .

[2] الدوداري ، كنز الدرر ، ج٧ ، ص ٥١ .

[3] أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٣ ؛ احمد ، شبه جزيرة ، ص ١١٦-١١٧ .

[4] تيماء : بليدة في أطراف الشام ، بين وادي القرى على طريق حجاج الشام ودمشق . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٩٠٧ .

[5] أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٣ ؛ ابن الوردي ، تأريخ ابن الوردي ، ج٢ ، ص ٩٠ ؛ كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٧٣ .

[6] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٧٠ ؛ احمد ، شبه جزيرة ، ص ١١٧ ؛ غوانمة ، إمارة الكرك ، ص ١٢٣ .

حتى انتابه القلق لما قام به الأمير عز الدين فرخشاه لذلك عاد مسرعاً إلى الكرك في حين رجع فرخشاه إلى دمشق [١] هكذا فشل ارناط في تحقيق غرضه وتصدع مشروعه في الاستيلاء على النواحي الشريفة [٢] .

وعلى الرغم من ذلك إلا إن ارناط انتهز فرصة انشغال صلاح الدين باستكمال جهوده الوحدوية في شمال الشام والجزيرة [٣] واخذ يفكر من جديد في تنفيذ مشروعه القديم بمهاجمة الأراضي المقدسة مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ومحاولة الوصول إلى عدن للسيطرة على تجارة البحر الأحمر [٤]ولاجل تحقيق هدفه قرر ارناط إن يصنع أسطولا خاصاً لتنفيذ تلك العملية الحربية الجريئة ، فاخذ يقطع أشجار غابات الكرك وحملها إلى حصن الكرك للبدء بعملية صنع المراكب [٥] كما عهد إلى صليبيي عسقلان بصنع بعض مراكب الأسطول التي لغ عددها خمس سفن حربية كبيرة وعدد من المراكب الخفيفة [٦] وبعد إن تم صنعها نقلت مفككة على الجمال إلى الساحل بعد إن أغراهم بالمال [٧] ثم قام بتركيب المراكب ودهنها باللون الأسود [٨] وشحنها بالرجال وأدوات القتال ، وعند وصوله أمر بإيقاف مركبين منهما على قلعة آيلة لمحاصرتها ومنع أهلها من استسقاء الماء ، بينما اتجه الباقون في مراكبهم نحو عيذاب [٩] على وجه السرعة [١] .

---

[١] ابن الأثير ، نفسه ، ج١١ ، ص ٤٧٠ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ق ١ ، ص ٣٦٦ .

[٢] زكار ، الموسوعة الشاملة ، ج٢٣ ، ص ٦١ ؛ سعداوي ، التأريخ الحربي ، ص ١٢٦ .

[٣] للمزيد من التفاصيل حول جهود صلاح الدين وابعاده الوحدوية . ينظر : محمود ياسين التكريتي ، الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة (دار الخلود للطباعة والنشر ، بيروت : ١٩٨١م) ، ص ١١٦-١٢٣ ؛ شكيب راشد ارسلان ، الموصل ودورها في التصدي للغزو الصليبي (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة الموصل : ٢٠٠٢م) ، ص ١١٨-١٣٠ .

[٤] احمد ، شبه جزيرة ، ص ١١٨ ؛ غوانمة ، إمارة الكرك ، ص ١٢٧ .

[٥] المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد مصطفى زيادة ، ط٢ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة : ١٩٥٦م) ، ج١ ، ص ٧٤ .

[٦] لين بوول ، صلاح الدين ، ص ١٥٥ .

[٧] ابن جبير ، رحلة ، ص ٣٤ ؛ بردج ، تأريخ الحروب ، ص ١٨٨ ؛
Stevenson , The Crusaders , p. 228 .

[٨] لامب ، شعلة الإسلام ، ص ٩٥ .

[٩] عيذاب : بليدة حسنةوهي مجمع التجار براً وبحراً ، ومرسى المراكب القادمة من عدن إلى الصعيد على البحر الأحمر . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٧١ .

ويصف البنداري ما قام به الصليبيون من أعمال بعد وصولهم عيذاب قائلا : ((***فقطعوا طريق التجار وشرعو في الفتك والنهب والإسار ، ثم توجهوا إلى ارض الحجاز فتعذر على الناس وجه الاحتراز فانه لم يعهد في ذلك البحر طروق الكفار فعظم البلاء واعضل الداء واشرف أهل المدينة النبوية على خطر***)) [٢] ويسترسل ابن جبير ذلك الوصف : ((***فاحرقوا فيه (البحر الأحمر) نحو ستة عشر مركبا ، وانتهوا إلى عيذاب فاخذوا فيها مركباً كان يأتي بالحجاج من جدة ، واخذوا أيضا في البر قافلة كبيرة تأتي من قوص*** [٣] ***إلى عيذاب ، وقتلوا الجميع ولم يحيوا أحد ، واخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن ، واحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة اعزهما الله ، واحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها في الإسلام***)) [٤] .

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد بل واصل الصليبيون نشاطهم بنقل مشروعهم الهدام إلى شاطئ الحجاز في سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م ، وفي ذلك قال المقريزي : ((***وتوجه فرنج الشوبك والكرك نحو مدينة رسول الله (ﷺ) لينبشوا قبره وينقلوا جسده الشريف إلى بلادهم ويدفنوه عندهم ولا يمكنوا المسلمين من زيارته إلا بجعل ، فسارت الفرنج نحو عيذاب فقتلوا واسروا ومضوا يريدون المدينة النبوية على سكانها افضل الصلاة والسلام***)) [٥] على إن وصول الصليبيين إلى الأراضي المقدسة والتماسهم الطريق إلى الحجاز ، ومعرفة معالمه لم يتم إلا بفضل مساعدة البدو المتمردين من الأعراب الذين دلوهم على داخلية البلاد ّمما أتاح لهم التوغل فيها [٦] .

---

[١] سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ق١ ، ص ٣٧٠ ؛ النويري ، نهاية الارب ، ج٢٨ ، ص ٣٩٧ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص ٧٨ –٧٩ .

[٢] سنا البرق ، ص ٢١٢–٢١٣ .

[٣] قوص : هي مدينة كبيرة ، كانت قصبة صعيد مصر بينها وبين الفسطاط مسافة (٤٤٠كم) وهي محط التجار القادمين من عدن ، وتقع في الإقليم الأول ضمن أقاليم العالم السبعة . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤١٣ .

[٤] ابن جبير ، رحلة ، ص ٣٤ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص ٧٩ .

[٥] المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص ٧٩ .

[٦] أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٣٧ .

وقد استهدف ارناط من وراء تلك الحملة تحقيق أغراض اقتصادية وعسكرية ودينية فالغرض الاقتصادي والعسكري هو السيطرة على البحر الأحمر والتحكم في حركة التجارة الدولية المارة فيه ، وتحويل جزء من تجارته إلى خليج العقبة ومملكة بيت المقدس الصليبية [١] أما الغرض الديني فهو قطع طريق الحاج عن حجه وضرب العالم الإسلامي في قلبه ، وطعن المسلمين في قبلتهم [٢] فقد كان يسعى لتدمير كعبة الإسلام المقدسة [٣] فضلاً عن عن دخول المدينة وهدم مسجد الرسول (ﷺ) واخراج جثمانه الشريف من الضريح المقدس ونقله إلى حصن الكرك وعدم السماح للمسلمين بزيارته إلا من خلال فرض رسوم كبيرة على الزائرين [٤] .

ويرجع دافع ذلك إلى روح التعصب البغيض والكراهية التي تعتمل في قلبه فضلا عن تشجيع فرسان الداوية له لتحقيق ذلك المطمع والاستيلاء على مكة والمدينة اقدس مقدسات المسلمين [٥] .

وعندما علم صلاح الدين بما قام به الصليبيون بعث إلى أخيه ونائبه بمصر الملك العادل يأمره بتعمير الأسطول في مصر والإسكندرية ، وقد قام الملك العادل بتنفيذ تعليمات صلاح الدين على أتم وجه وأسرعه ، فعهد إلى قائد الأسطول حسام الدين لؤلؤ [٦] بحمل مراكب

---

[١] قاسم ، ماهية الحروب ، ص ١٤٣ ؛ غوانمة ، " التجارة وسياسة الاعتدال والتسامح بين المسلمين والفرنج في عهد صلاح الدين الايوبي " ، ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي (جامعة اليرموك ، الأردن : ٢٠٠٠م) ، ج ٢ ، ص ٦٣٢-٦٣٣ ؛ غنيم ، الدولة الأيوبية ، ص ٣٣ .

[٢] أبو ، شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٧٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٤١ ؛ احمد ، شبه جزيرة ، ص ١٢١ .

[٣] لين بوول ، صلاح الدين ، ص ١٥٥ ؛ لامب ، شعلة الإسلام ، ص ٩٥ ؛ رايلي ، الغرب ، ص ١٥٠ .

[٤] ابن جبير ، رحلة ، ص ٣٤-٣٥ .

[٥] غوانمة ، إمارة الكرك ، ص ١٣١ .

[٦] حسام الدين لؤلؤ : كان ارمني الأصل ومن جملة أجناد مصر في أيام الفاطميين ، فلما سيطر صلاح الدين على مصر سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م جعله على الأسطول ، فاصبح من كبار قادته ، عرف بانه كان من أشجع الشجعان وأفرس الفرسان ، كثير المبرات واسع الخيرات ، اشترك في العديد من المعارك ضد الصليبيين ، توفي في القاهرة سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م . ينظر : أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٤٠ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص ٨٠ .

مفككة على الجمال إلى آيلة وهناك اشرف على تركيبها وشحنها بالرجال المقاتلة من ذوي التجربة في شؤون البحر وخاصة المغاربة ، كما قسم حسام الدين لؤلؤ أسطوله إلى قسمين ، الأول : أبحر إلى قلعة ايلة فاستولى على مراكب العدو برمتها وقتل معظم مقاتليها [1] أما القسم الثاني : فقد آثر التوجه إلى عيذاب وأطلق الماسورين من التجار ورد عليهم ما اخذ منهم ولم يجد أحداً من الصليبيين هنالك [2] وواصل حسام الدين جهوده في تعقب ارناط كي يمنعه من بلوغ هدفه ، وقد أدركه بعد إن اصبح على مسافة يوم من المدينة النبوية فاوقع بهم هناك وتفرق شملهم واضطر بعضهم بعد إن شاهد الهلاك للخروج إلى البر نحو المرتفعات فتعقبهم في كل مكان وقتل واسر معظمهم [3] أما ارناط قائد الحملة اللعينة فقد استطاع الهرب والعودة إلى حصن الكرك ليواصل مشاريعه العدوانية من جديد ضد المسلمين [4] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أهمية الكرك ودورها في نجاح الاستيطان الصليبي ، فمن الناحية العسكرية منعت أي اتصال عسكري ممكن تحقيقه بين دمشق والقاهرة ، وشكلت حاجزاً منيعاً وقف بوجه أي اتصال بين اجزاء الدولة العربية الإسلامية [5]كما كان الحصن مجهزاً تجهيزاً كاملا بالأسلحة والآلات الحربية المعدة للأغراض العسكرية [6] ومن الناحية الجغرافية امتاز الحصن بموقعه الملائم للاستقرار فيه إذ وصفه ابن جبير بأنه : ((***سرارة (اطيب) ارض فلسطين وله نظر عظيم الاتساع متصل العمارة يذكر انه ينتهي إلى اربع مئة قرية***)) [7] وقد أكد الصوري على نشوء التجمعات السكانية حول حصن الكرك ، منها قرية ملاصقة للحصن ،

---

[1] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٩٠–٤٩١ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص ٢١٣ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج٥ ، ص ٢٩٩ .

[2] أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٥٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص ٧٩ .

[3] الكامل ، ج١١ ، ص ٤٩٠–٤٩١ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ق ١ ، ص ٣٦٩ ؛ النويري ، نهاية الارب ، ج٢٨ ، ص ٣٩٧–٣٩٨ .

[4] لامب ، شعلة الإسلام ، ص ٩٦ .

[5] غوانمة ، إمارة الكرك ، ص ٦٧ .

[6] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٠٦٧ .

[7] رحلة ، ص ٢٦٠ .

كان سكانها قد أقاموا منازل هناك كمركز أمن نسبياً على إن تلك القرية كانت محاطة بسور ليقيها من خطر الهجمات الإسلامية [١] .

أما من الناحية الاقتصادية فقد جهز الحصن بالحبوب من القمح والشعير ، كما زود بالزيت وغيره من الأقوات لديمومة الوجود الصليبي في الكرك [٢] إذ أفادت مملكة بيت المقدس الصليبية من سيطرتها على شرقي الأردن ، فقد أمدتها حقولها الخصبة الوافرة الإنتاج بما تحتاج إليه من غلاة زراعية وفي مقدمتها القمح [٣] فضلاً عن الرسوم التي فرض على القوافل المارة عبر أراضيها من مصر إلى بلاد الشام والعراق شكلت دخلاً جيداً كما انها استطاعت إن تحول القوافل التجارية من جنوب شبه العربية لتصل إلى دمشق ثم إلى عكا [٤] وكان إليها يتجه التجار مع ما يحملون من بضائع مختلفة ، وقد استفادت من تلك الحركة التجارية كثيراً ، وبذلك أصبح يسيطر على حركة النقل والمواصلات بين أجزاء المنطقة العربية الإسلامية وبطريق الحجاج منذ تشييده حتى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م [٥] .

وقد كان الناصر صلاح الدين الأيوبي يرى إن استحواذ الصليبيين على حصن الكرك وبقائهم فيه يشكل خطراً دائماً على القوافل التجارية وقوافل الحجاج القادمة من مصر إلى بلاد الشام ، أو المتجهة من الشام إلى مصر والحجاز [٦] ولذلك عد تحريره لذلك الموقع الحصين إزالة لجميع العقبات بين الشام ومصر التي عززت من ديمومة الاتصال بينهما [٧] لا سيما بعد العمل اللصوصي الذي قام به ارناط واعتدائه على القوافل الإسلامية ، وتهديده لمدن الإسلام

---

[١] تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ١٠٦٦ .

[٢] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٠٦٧ ؛ لين بوول ، صلاح الدين ، ص ١١٩ .

[٣] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٣٧١ .

[٤] غوانمة ، إمارة الكرك ، ص ٦٧ .

[٥] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٧١١ ؛ النقاش ، العلاقات ، ص ١٨٧ ؛ غوانمة ، التأريخ الحضاري ، ص ٤٢-٤٣ .

[٦] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٧١١ ؛احمد ، شبه جزيرة ، ص ١٣٢ .

[٧] ايليسيف ، " المملكة اللاتينية " ، ص ٢٤٤ .

المقدسة (***مكة والمدينة***) ، مّما أدى إلى تأجيج اشد مشاعر الغضب في ضمائر أبناء الأمة الإسلامية ، وسعيهم لتحريره من براثن الصليبيين [١] .

ومن اجل إنهاء الوجود الصليبي في حصن الكرك قاد صلاح الدين اربع حملات لتحريره ، كانت الأولى في سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م عندما كتب إلى أخيه الملك العادل يطلب منه المدد ، فجاءه العادل بعساكر مصر عندما كان صلاح الدين قد وصل إلى الكرك ففرضوا عليه حصاراً ، وتمكنوا من الصعود إليه ونصبوا سبعة مجانيق قذفته بالحجارة ليلاً ونهاراً لارغام الصليبيين بداخله على الاستسلام والتسليم [٢] وكاد ذلك إن يتحقق لولا إن لاح الدين رفع الحصار عن الصليبيين لسببين رئيسين ، الأول : عدم كفاية الآلات الحصار التي احتاجها الجيش لاقتحام ذلك الحصن العظيم والمعقل المنيع ، والثاني : إن صلاح الدين علم بتجمع الصليبيين لدفعه عن الكرك ، فانسحب عائداً إلى دمشق [٣] .

أما الحملة الثانية : فكانت في سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م عندما بعث صلاح الدين إلى أطراف دولته يطلب منهم المدد والعساكر ، فجاء الملك الظاهر بالعساكر الحلبية ، كما وصل نور الدين محمد بن قرة ارسلان صاحب حصن كيفا [٤]وآمد في ديار بكر قادماً بالعساكر الجزرية [٥]وكذلك قدم ابن أخيه تقي الدين عمر نائبه في مصر الذي توجه مباشرةً إلى الكرك

---

[١]كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٧٣ .

[٢]ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠٢ . وقد أكد الصوري وطأة الحصار الإسلامي على الصليبيين في حصن الكرك ، إذ قال : **((استمر الهجوم بشكل لا يعرف التعب ليلاً ونهاراً ، وقذفت أحجار ذات حجم كبير جداً بحيث لم يجرؤ أحد من الموجودين ضمن الأسوار على رفع يد أو على النظر من الفتحات أو تجريب أية وسيلة مقاومة ، واستحوذ الرعب واليأس على السكان البائسين إلى درجة انهم لم يجرؤوا على إظهار أنفسهم حتى عندما تدلى (المسلمون) بوساطة الحبال... إلى داخل الخندق))** . ينظر : تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ١٠٦٩-١٠٧٠ .

[٣]ابن الأثير ، نفسه ، ج ١١ ، ص ٥٠٢ .

[٤]حصن كيفا : بلدة وحصن من الجزيرة الفراتية من ديار بكر يشرف على دجلة بين جزيرة ابن عمر وبين ميفارقين . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ .

[٥]ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠٦ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ق١ ، ص ٣٨٢ ، الغساني ، العسجد المسبوك ، ص ١٩٠ .

للالتقاء بصلاح الدين هناك ، فضلاً عن عساكر سنجار وماردين [1] وهذا ما يعكس أهمية الحصن.

وبعد ان أكمل صلاح الدين استعداداته توجه بجميع تلك العساكر من دمشق قاصداً حصن الكرك ، وعندما وصله ضرب عليه حصاراً ، وأمر بنصب المجانيق لقذفه بالحجارة [2] فقد كانت سياسته تهدف إلى التركيز والاستمرار في قتال الصليبيين الذين داخل الحصن ، كي يتمكن من تحريره بأقل جهد ، وبأقل خسارة ممكنة [3] فأخذت المجانيق ترمي أبراج الحصن وأسواره وستائره حتى تهدمت ، ولم يحل دون دخول المسلمين الحصن سوى خندق واسع يبلغ عمقه حوالي (٦٠ذرعاً) ولا سبيل لاجتيازه ، فأمر صلاح الدين بإلقاء الأحجار والتراب فيه ليطمه ، كما أمر بضرب اللبن وجمع الأخشاب لبناء سراديب تحت الخندق وسرعان ما بنى سراديب مسقفة بالخشب اتخذوها طرقا آمنة يسيرون بداخلها إلى سور الحصن [4] وبذل المسلمون قصارى جهدهم لردم الخندق لولا إن صلاح الدين اصدر أو أوامره بإيقاف العمل [5] .

ويرجع سبب ذلك إلى تزامن الحصار مع حفل زفاف ابن زوجة ارناط الأمير همفري الرابع حاكم حصن تبنين بالأميرة ايزابيلا الابنة الصغرى لملك القدس السابق املريك الأول وأخت الملك بلدوين الرابع ، فأنفذت سيدة الكرك اتنيت وهي زوجة ارناط وأم العريس رسالة إلى صلاح الدين ترجوه عقد هدنة قصيرة حتى يتم حفل الزفاف ، كما تم إرسال هدية من الكعك واللحوم والخبز إلى صلاح الدين معتذره بأنه لم يعط الوقت الكافي ليقدم ما يليق بضيفه الكريم ومكانته ، وبذلك أمر صلاح الدين بوقف العمل فوراً ، واكتفى بان قال حددوا لي برج العروسين كي لا اضربه [6] .

---

[1] أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٥٤-٥٥ .

[2] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠٦ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ق١ ، ص ٣٨٢ .

[3] نوري ، سياسة صلاح الدين ، ص ٢٨٠ .

[4] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠٦ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٥٦

[5] ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص٢٥٤ ؛
Stevenson , The Crusaders , p. 234 .

[6] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ٧١٢ ؛ لين بوول ، صلاح الدين ، ص ١٥٩ ؛ لامب ، شعلة الإسلام ، ص ٩٦-٩٧ ؛ بردج ، تأريخ الحروب ، ص ١٩٠-١٩١ .

غير إن ارناط استغل الفرصة وانفذ رسالة إلى مملكة بيت المقدس الصليبية يطلب المساعدة من الملك ويحثه على مهاجمة المسلمين وإرغامهم على رفع الحصار عن الحصن ، وسرعان ما استدعى الملك بلدوين الرابع الجيش الملكي واسند قيادته إلى ريموند الثالث أمير طرابلس [١] ولما علم صلاح الدين بخبر مسيرهم رحل عن الكرك متجهاً إلى طريق قدومهم ليباغتهم ، ويعود بعد إن يهزمهم إلى الكرك ، وعندما وصلهم أقام على مسافة قريبة من الجيش الصليبي الذي عسكر في منطقة امتازت بخشونة أرضها ووعورة طرقها وضيق المسالك المؤدية إليها ، ممّا اضطر صلاح الدين إلى البقاء في موقعه أياما ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليهاجمهم ، غير انهم لم يغادروا مكانهم خوفاً على أرواحهم ، عندئذ أدرك صلاح الدين انه لن يتمكن من تحقيق هدفه ، فغادر الكرك عائداً إلى دمشق [٢] قبل إكمال مهمته في تحطيم الحصن وخاصة بعد وصول الإمدادات إلى الصليبيين الذين بداخل الحصن ، ممّا رفع معنوياتهم للدفاع عنه [٣] ممّا ادى إلى عدم تحقيق صلاح الدين لاهدافه من الحملة [٤] .

وإزاء الضغط الإسلامي المتكرر ضد حصن الكرك ، اضطر ارناط إلى طلب عقد هدنة مع صلاح الدين ، وفي ذلك قال ابن الأثير : ((***فذل (ارناط) وخضع وطلب الصلح من صلاح الدين ، فاجابه إلى ذلك وهادنه وتحالفاً ، وترددت القوافل من الشام إلى مصر ، ومن مصر إلى الشام***)) ، غير إن روح الغدر كانت متأصلة في نفسه ، إذ نقض الهدنة وهاجم في سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م أمام حصن الكرك قافلة كبيرة كانت محملة بأنواع السلع التجارية قادمة من مصر في طريقها إلى الشام ، فانقض عليها واسر رجالها ونهب أموالها ومتاعها [٥] .

---

[١] رنسيمان ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٧١٢ ؛ احمد ، شبه جزيرة ، ص ١٢٥ .

[٢] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٨ ؛ الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص ١١٤ .

[٣] نوري ، سياسة صلاح الدين ، ص ٢٨٠-٢٨١ .

[٤] ناصر عبد الرزاق الملا جاسم ، صلاح الدين الأيوبي في الدراسات الاستشراقية الإنجليزية والأمريكية (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة الموصل : ١٩٩٢م) ، ص ٢١٠ .

[٥] الكامل ، ج١١ ، ص ٥٢٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

وقد أدت تلك الحادثة إلى تصعيد الموقف الإسلامي تجاه الصليبيين ، فأرسل إليه صلاح الدين يتهدده ويتوعده إن لم يطلق سراح الأسرى والأموال إلا انه أصر على الامتناع فنذر صلاح الدين نذراً إن ظفر به قتله بيده عقاباً لما اقترفته يداه من أعمال عدائية ضد المسلمين ومقدساتهم [١] ففي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م قام صلاح الدين بحملة ثالثة ضد حصن الكرك وأعماله ، فبث سراياه نحوها وقطع المدد عن سكان الحصن ليتسنى له تحقيق ما يهدف إليه ، أما ارناط الذي سمع بقدوم صلاح الدين نحو اقطاعه ، أسرع للتحصن في حصنه
يراقب الأحداث من حوله دون إن يجرؤ على الخروج للتصدي للمسلمين [٢] .

أما الحملة الربعة فكانت في سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م ، حاسمة للامر وخاصةً بعد إن أصبحت البلاد الساحلية من الشمال إلى الجنوب في قبضة صلاح الدين ، ما عدا بعض الحصون مثل الكرك وكوكب وصفد ، إذ قرر صلاح الدين إن لا يبقيها في أيدي الصليبيين لكونها تقع ((***في وسط بلاد الإسلام ، ولا يؤمن شر أهلها ، وان اغفلناهم ندمنا فيما بعد والله اعلم***)) [٣] .

وبناءاً على ذلك عهد إلى القائد سعد الدين الاسدي [٤] حصار الكرك ، وتكليف أخيه الملك العادل منذ تلك السنة إن يقيم بقوة عسكرية كبيرة في تبنين ليكون على مقربة لنجدة القائد سعد الدين [٥] الذي بقيت قواته تحاصر حصن الكرك لمدة طويلة حتى نفذت أقوات الصليبيين وذخائرهم ، واضطروا إلى أكل دوابهم ، بعد إن يأسوا من وصول أية إمدادات صليبية تنجدهم

---

[١] سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ق١ ، ص ٧٥ .

[٢] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٠ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص ٢٩٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ١٨٦ .

[٣] ابن الأثير ، الكامل ، ج١٢ ، ص ٥ ، ٢٠ .

[٤] سعد الدين الاسدي : هو أحد مماليك نور الدين محمود زنكي ، وكان قد عينه نائباً عنه في الموصل سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م ، وظل في منصبه حتى وفاة نور الدين ، إذ اضطر بعد ذلك إلى التوجه نحو حلب ، وهنالك اخذ ينافس الأمراء في دمشق على السلطة . ينظر : ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٤ ، ١٧٦ .

[٥] ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٧١

من السقوط ، وأدى بهم الموقف إلى الرضوخ للأمر الواقع ، فراسلوا الملك العادل في طلب الأمان مقابل الاستسلام وتسليم الحصن للمسلمين ، فوافق على طلبهم وأرسل إلى مقدم العسكر سعد الدين في تنفيذ الأمر ، فامتثل وتسلم الحصن منهم وامنهم [١] في شهر رمضان سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م بعد حصار قاسٍ استغرق ما يقرب سنة ونصف [٢] .

وهكذا انتهت أسطورة حصن الكرك الذي تسبب في إلحاق الضرر بالمسلمين ومنه خرجت أسوأ حملة صليبية قام بها صليبيو بلاد الشام لغزو الحجاز والأماكن المقدسة واليمن وعلى عاتق حاكمه ارناط وقعت مسؤولية نهاية مملكة بيت المقدس الصليبية [٣] وبسقوط حصن الكرك عاد الأمن والسلام إلى ربوع تلك المنطقة ((***وامنت قلوب من في ذلك الصقع من البلاد ، كالقدس وغيره ، فانهم كانوا ممن بتلك الحصون وجلين من شرهم مشفقين***)) [٤] حسب قول ابن الأثير .

د.عهد الملك بلدوين الثالث .

قلعة غزة *Gadres*

شيدت في عهد الملك بلدوين الثالث سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م [٥] في موضع يقع على مسافة (٢٠كم) جنوب مدينة عسقلان [٦] على طريق الساحل المؤدي إلى مصر ، فهي آخر المدن القوية الواقعة على الحدود المصرية من جهة صحراء سيناء [٧] .

---

[١] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٢٠-٢١ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ق ١ ، ص ١٣٤ ؛ النويري ، نهاية الارب ، ج٢٨ ، ص ٤١٠ .

[٢] ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج٢ ، ص ٧٣ ؛ بردج ، تأريخ الحروب ، ص ١٩٢ .

[٣] غوانمة ، إمارة الكرك ، ص ١٦٢ .

[٤] الكامل ، ج١٢ ، ص ٢١ .

[٥] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٧٩٤ ؛
Stevenson , the Crusaders , p. 167 , note (1) ; Grousset , Historie des Croisades , Vol.II , pp. 339-340 ; Ehrenkreutz , Saladin , p. 19 .

[٦] الصوري ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٩٤ .

[٧] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٨٥-٨٦ .

وفيما يتصل بتكوينها المعماري ، فقد ذكر الصوري إن الصليبيين شيدوها على هضبة وجعلوا أساساتها ذات عمق مناسب ، وأحاطوها بسور وشيدوا حوائط أبراج خاصة بها وليس ذلك فحسب بل إن قلعة غزة لم تستمر على ذلك الحال ، وانما أحاطوها بالعديد من الأسوار ، فصارت تمثل جزءاً مهماً وحيوياً في عمارتها [١] وبعد انتهاء العمل فيها أعطيت لعناصر الداوية للاستقرار فيها [٢] .

أما الغرض من بنائها فكان عسكرياً وقد تمثل باستكمال إحاطة قاعدة عسقلان المصرية بقلعة صليبية أخرى من ناحية الجنوب مثلما حوصرت من الجهات الأخرى من الشمال والشرق ، ووضع حد للهجمات الإسلامية التي انطلقت من تلك المدينة التي شكلت مصدر خطر وقلق دائم للصليبيين [٣] كما إن إقامة قلعة غزة كان بهدف قطع الاتصال بين مدينة عسقلان والجنوب المصري ، ومنع وصول أية إمدادات ومؤن إليها [٤] ولا سيما ان عسقلان كانت آنذاك تحت سيطرة مصر ، وتمثل تهديداً محتملاً ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام ، وبمعنى أوضح أنها جاءت مكملة لجهد الصليبيين في بناء قلاع بيت جبرين ويبنى وتل الصافية حول مدينة عسقلان واتخاذها نقاط عسكرية جديدة لمهاجمتها ، فشكلت بمجموعتها شبكة أحاطت بالمدينة من جميع جوانبها ، وأثبتت فاعليتها في ممارسة الضغط على عسقلان [٥] التي كان احتلالها في نظر الصليبيين يعني بقاء مدينة القدس آمنة من أي تهديد عربي إسلامي [٦] .

---

(١) الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٧٩٤ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٦ ؛

Stevenson , The Crusaders , p. 167 , note (1) .

(٣) الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٧٩٤ .

(٤) فرانز زيترستين ، تأريخ سلاطين مصر والسام وحلب وبيت المقدس (مطبعة بريل ، ليدن : ١٩١٩م) ، ص ٢٣٣ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٦٩ .

(5) *Fedden , Crusader , pp. 24-25 .*

(٦) يشكر الباحث مركز تطوير الدراسات الاجتماعية في جامعة انديانا على توفير الصفحات المذكورة من هذا الكتاب أدناه . ينظر :

E. L. Skip Knox , The Crusader , (Boise State University : 1998) , pp. 2-49 .

على إن عسقلان ظلت تشكل خطراً على مملكة بيت المقدس الصليبية ، وتضايقهم وتسبب لهم المتاعب حتى سقوطها سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م [١] وكان سقوطها بداية لصفحة جديدة من صفحات الصراع الإسلامي . الصليبي [٢]وبذلك كانت قلعة غزة عاملاً مهماً اسهم في سقوط عسقلان بأيدي الصليبيين ، فقد عملت حامية غزة الصليبية على تعطيل وصول الإمدادات إلى الحامية العسكرية في عسقلان [٣] وبعد احتلال عسقلان تغيرت وظيفة قلعة غزة فأصبحت تمثل قاعدة صليبية جديدة ساعدت بلدوين الثالث ومن بعده أخيه الملك املريك
الأول على تحقيق اكبر هدف سياسي لهم وهو مهاجمة مصر [٤] .

وقد أدرك صلاح الدين أهمية غزة وخطرها على المسلمين ، فحاول استردادها من الصليبيين ، ففي سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م توجه من مصر إلى الشام فهاجم الصليبيين في غزة واستطاع دخول المدينة [٥] غير أن القلعة التي كانت بقيادة ميلو فانسي استعصت على المسلمين بسبب مقاومة الداوية العنيفة [٦] وفي سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م قاد صلاح الدين هجوماً آخر على قلعة غزة وبوصوله اليها ضرب حصاراً عليها لارغام الصليبيين فيها على الاستسلام وتسليم القلعة للمسلمين ، ولكنه اضطر إلى رفع الحصار نظراً لصمود الداوية ودفاعهم عن القلعة [٧] .

---

[١] ابن القلانسي ذيل ، ص ٣٢١-٣٢٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٨٨-١٨٩ .

[2] *Holt , The Age , p. 45 .*

[٣] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٨٦ .

[٤] باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٧٨ ، رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٥٩٠-٥٩٢ ؛ العريني ، الشرق الأوسط ، ج١ ، ص ٦٣٧ ؛ قاسم ، ماهية الحروب ، ص ١٣٩ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٦٧ .

[٥] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٦٥ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص ٥٧ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ١٩١ .

[٦] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٩٥١ .

[٧] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٨٦ .

وقد انتهى الوجود الصليبي في غزة بتحريرها في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م [١] وتم ذلك عندما حاصرها صلاح الدين بجيشه وامتنعت الداوية عن التسليم ، فأمر جيرار ريدفورد ***Gerard Radefort*** (٥٨٠-٥٨٥هـ / ١١٨٤ - ١١٨٩م) مقدم الداوية الذي كان وقتذاك أسيراً لدى صلاح الدين أثر معركة حطين حامية غزة بالاستسلام والتسليم مقابل إطلاق سراحه وبالفعل سلمت الحامية للمسلمين [٢] .

هـ.عهد الملك املريك الأول

١.قلعة الداروم ***Daron , Darum***

شيدها الصليبيون في عهد الملك املريك الأول في سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م في موضع على مسافة (١٠كم) عن ساحل البحر المتوسط من جهة الغرب ، وتبعد القلعة مسافة (٨كم) جنوب مدينة غزة [٣] وليس (١٤كم) عن غزة حسب ما أشار أحد المؤرخين المحدثين [٤] .

أما عن تكوينها المعماري فكانت مربعة الشكل ، وكان يوجد بها برج في كل ركن من أركانها على أن أحد تلك الأبراج كان اضخم من سائر الأبراج وافضل تحصيناً ، ولم يكن هنالك خندق حول القلعة أو دفاعات أمامية لها [٥] .

---

[١] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٤٨ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٦ .

[٢] الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٥٣ ؛ مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٨٦-٨٧ .

[٣] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٩٤٩ .

[4] *lyons , Saladin , P.42 .*

[٥] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٩٤٩ .

وتمثل قلعة الداروم أسلوبا متطوراً من أساليب بناء القلاع ، فهي مبنية على النمط الروماني ***Castrum*** الذي استخدمه العرب المسلمون والبيزنطيون في بناء قلاعهم ، وبذلك كانت تلك القلعة تمثل مزيجا من طراز العمارة الشرقية [١] .

وقد عكس الصوري بوضوح الأهداف الحقيقية التي كانت وراء إنشاء قلعة الداروم فمن الناحية الجغرافية امتازت القلعة بموقع استراتيجي هام قريب من حدود مصر ، ومن الناحية الإدارية كانت القلعة بمثابة مركز للإدارة المحلية مكنت الملك املريك الأول من تنظيم جمع الرسوم السنوية بصورة اسهل واكثر فاعلية من كل الفلاحين القاطنين في المستوطنة والقرى المحيطة بها ، فضلاً عن استحصال ضريبة ثابتة على القوافل التجارية المارة عبر المناطق الخاضعة لها ، أما من الناحية العسكرية فكان تأسيس القلعة لمراقبة الحدود المصرية والاستعداد لصد الهجمات التي يشنها المسلمون على المواقع الصليبية في الجنوب الفلسطيني [٢] وليس ذلك فحسب بل كانت القلعة قاعدة عسكرية اتخذها الصليبيون في عهد الملك املريك الأول للهجوم على مصر وانتزاعها من المسلمين [٣] هذا فضلاً عن دور القلعة في توسيع حدود مملكة بيت المقدس الصليبية ، وذلك عن طريق إخضاعها مناطق جديدة للسيطرة الصليبية [٤] أما من الناحية الاستيطانية فكانت قلعة الداروم مركزاً لاستيطان عناصر فرسان الداوية [٥] الذين أسندت لهم مسؤولية حماية القلعة في حربهم ضد المسلمين كما كانت القلعة تتسع لإيواء مئتين وخمسين فارساً ونحو الف جندي من المشاة [٦] .

---

[١] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٩١ .

[٢] تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٩٤٩-٩٥٠ .

[٣] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٩٥-٤٩٦ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج١ ، ص ١٦٩ ؛ ايليسيف ، " المملكة اللاتينية " ، ص ٢٣٩.

[٤] سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٥٩ .

[٥] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٦ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٩٨ .

[٦] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٩٤٩ .

ونظراً لأهمية موقعها الحيوي بين الشام ومصر وما شكلته من خطر على المسلمين فقد حاول الناصر صلاح الدين انتزاعها من الصليبيين فتوجه في سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م من مصر إلى الشام ، وعند وصوله إلى قلعة الداروم ضرب حصاراً عليها ، استخدم خلاله المسلمون المجانيق لقذف الحجارة الملتهبة على من بداخلها من الصليبيين لإرغامهم على الاستسلام وتسليم القلعة للمسلمين [١] .

وعلى الرغم من طوق الحصار الإسلامي وشدته إلا أن القلعة صمدت ولا سيما عندما توجه الملك املريك الأول من القدس إلى الداروم ليواجه صلاح الدين لأول مرة فدخل الطرفان في معركة تلقى فيها الملك املريك إمداداته من قلعة غزة ، ثم تقابل المسلمون والصليبيون في موقع بين غزة والداروم أسفر عن دخول المسلمين إلى الداروم ، ثم توجه صلاح الدين إلى غزة ثم منها إلى مصر ، ويبدو انه لم يترك حامية إسلامية في الداروم تتولى مسؤولية الدفاع عنها هذا ما كان سبباً في بقاء الصليبيين فيها [٢] .

وفي سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م توجه الناصر صلاح الدين من مصر لمهاجمة مملكة بيت المقدس الصليبية من جهتها الجنوبية وظهر أمام قلعة الداروم ، ولكن الأمر انتهى بحدوث معركة بين الجانبين الإسلامي والصليبي عرفت بـ (معركة الرملة) في السنة ذاتها التي كانت نتيجتها لصالح الصليبيين ، وعودة صلاح الدين إلى مصر [٣] .

وعلى الرغم من الاستيطان الصليبي في الداروم إلا أن ذلك الوجود انتهى في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م عندما حررها صلاح الدين مع عدد من القلاع الأخرى التابعة للداوية في بلاد الشام [٤] واسند أمر القلعة إلى أحد قادته يدعى علم الدين قيصر [٥] .

---

[١] البنداري ، سنا البرق ، ص ٥٧ .

[٢] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٩١ .

[٣] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٥٢-٥٣ .

[٤] نفسه ، ص ٨٠ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص٥٤٦ .

[٥] الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٣٢٢ .

و. عهد الملك بلدوين الرابع

١.حصن بيت الأحزان Jacobs Ford [(١)]

بعد أن عقد الملك بلدوين الرابع والناصر صلاح الدين معاهدة سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م بعد معركة الرملة ضغط فرسان الداوية على الملك الصليبي واقنعوه بضرورة بناء قلعة لإغلاق المدخل إلى الأردن ، على أن تقوم القلعة الجديدة بمهمة تأمين الممر المؤدي إلى وادي الأردن الأعلى المقابل للجولان [(٢)] .

---

(١) بيت الأحزان : موضع عند بيت يعقوب عرف بهذا الاسم أو باسم مخاضة الأحزان ، لاعتقاد الناس أن النبي يعقوب عليه السلام اعتاد على الانفراد فيه والبكاء على ابنه يوسف عليه السلام . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥١٩ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ق١ ، ص ٣٥٤ ؛ البغدادي ، مراصد الاطلاع ، ج١ ، ص ٢٣٦ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٥٩ ؛ سعداوي ، التأريخ الحربي ، ص ١١٥ .

(٢) مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٩٢ .

أما الملك بلدوين الرابع فقد شرع بتحصين مملكة بيت المقدس الصليبية ، وخاصة من الجهة الجنوبية لدرء خطر أي هجوم إسلامي محتمل عن طريق دمشق ، فشيد حصناً جديداً فيما وراء نهر الأردن ، ويقع على مسافة (٢٠كم) عن مدينة بانياس عرف بحصن مخاضة الأحزان [١] أو مخاضة الأضرار على حد قول ابن خلدون [٢] وهو الحصن الذي صار اسمه ((***جسر بنات يعقوب***)) في نهاية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي [٣] .

وقد تمتع ذلك الحصن بأهمية كبيرة لوقوعه على طرق المدن ، وهو يبعد حوالي (٣٥كم) عن دمشق من ناحية ، وبينه وبين طبرية وصفد (١٢,٥ كم)تقريباً من جهة أخرى [٤] .

وكان تشييده في تشرين الأول سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م على هضبة ذات ارتفاع معتدل وعمق مناسب ، هذا فضلاً عن بنائه الصلب الذي صمم طرازه الهندسي على شكل مربع [٥] ولم يكتف الصليبيون بذلك بل بالغوا في تعميره ، فقدم المؤرخون المسلمون وصفاً لجدار الحصن الذي : ((***عرض حائطه إلى أن زاد على عشرة اذرع ، وقطعت له عظام الحجارة ، كل فص منها على سبع اذرع إلى ما فوقها وما دونها ، وعدتها تزيد على عشرين الف حجر ، وفيما بين الجانبين حشو من الحجارة الصم ، وقد جعلت سقيته بالكلس الذي إذا احاطت قبضته بالحجر مازجه ، واوغر إلى خصمه من الحديد بان لا يتعرض لهدمه***)) [٦] .

وقد أبدى أمراء الناصر صلاح الدين تخوفهم من بناء ذلك الحصن وأشاروا عليه بتدميره ، وقالوا له : ((***متى احكم هذا الحصن تحكم من الثغر الإسلامي الوهن واغلق الرهن***)) ، أما

---

[١] الاصفهاني ، البرق الشامي ، ج٣ ، ص ١٧٦ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٥ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٠٠٨ .

[٢] العبر ، ج٥ ، ص ٢٩٣ .

[٣] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٥٩ ؛ سوبرنهايم ، " صلاح الدين " ، ج١٤ ، ص ٢٧٦ .

[٤] مجير الدين أبو علي عبد الرحيم القاضي الفاضل ، رسائل القاضي الفاضل ، دراسة وتحقيق : علي نجم عيسى (د.م. ، الموصل : ٢٠٠١م) ، ص ١٠٤ ؛ الاصفهاني ، البرق الشامي ، ج٣ ، ص ١٤٥ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٦ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص ٦٧ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٣٧ .

[٥] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٠٠٨ .

[٦] القاضي الفاضل ، رسائل ، ص ١٠٣ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ١٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨٤-٨٥ .

صلاح الدين فلم يحاول وقف بناء حصن بيت الأحزان بسبب انشغاله بحصار بعلبك [١] وكان رده بالتريث حتى يكتمل بناؤه لكي تكون خسارة الصليبيين فادحة قائلاً : ((***إذ اتموه واحكموه ... رحلنا إليه ونزلنا عليه وهدمناه إلى الأساس ، وجعلناه من الرسوم الادارس ، فندعهم الان حتى يستنفذوا فيه أحوالهم ، وينفقوا أموالهم ، ويتعبوا رجاءهم ورجالهم ، فإذا قصدناهم عكسنا آمالهم وانحسنا مآلهم***)) [٢] .

أما الصليبيون فقد وجدوا أن الفرصة في مصلحتهم فسعوا لاستغلالها ، إذ استمروا بالعمل في حصن الأحزان ستة اشهر حتى أتموا بناءه في نيسان سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م [٣] وقد بلغت تكلفة بناء الحصن (٨٠,٠٠٠)ديناراً ذهبياً على ان بناء ذلك الحصن لم يتم بسهولة ، فقد واجه الصليبيون عدة هجمات من المسلمين الموجودين بوادي البقاع الذين غادروا إلى دمشق أثناء العمل بالحصن ، فبدأوا في مهاجمة الصليبيين من دمشق [٤] .

وبإنجازه عهد به الملك بلدوين الرابع إلى فرسان الداوية التي تعهدت بالدفاع عنه فحشدوا فيهالمقاتلين وبذلوا لهم الأموال والنفقات كي يتخذونه مرصداً أو برجاً لمراقبة تحركات المسلمين [٥] اثر تزايد الضغط العسكري الإسلامي من دمشق [٦]وفضلاً عن حماية حدود مملكة بيت المقدس الصليبية ، كانت وظيفة الحصن تامين الطريق البحري من جهة دمشق الذي كان قد اجتاحه المسلمون أثناء تقدمهم نحو الغرب لمهاجمة الصليبيين في طبرية ، كما يمكن من خلاله

---

[١] ذكر الاصفهاني أن صلاح الدين بعد أن حرر بعلبك منحها لابن المقدم ليتولى إدارة شؤونها ، غير أن أخاه شمس الدولة تورنشاه ألح على صلاح الدين في طلبها ، فرفض صلاح ابن المقدم التنازل له عنها ، مّما أدى إلى قيام صلاح الدين بمحاصرتها فاضطر ابن المقدم إلى التنازل عنها وعوضه صلاح الدين بمنطقة أخرى . ينظر : البرق الشامي ، ج٣ ، ص ١٤٤-١٤٥ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧٢ ؛ ابن الوردي ، تأريخ ابن الوردي ، ج٢ ، ص٢٩ .

[٢] الاصفهاني ، نفسه ، ج٣ ، ص ١٤٥ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص ١٥٩ .

[٣] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٠١٤ ؛ سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٢٣١ ؛
Stevenson , The Crusaders , p. 219 .

[٤] مقامي ، فرق الرهبان ، ص ٩٢ .

[٥] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٠١٤ ؛ ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ، ص ٢٥ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٢ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج١٢ ، ص ٣٠٠ ؛ جب ، صلاح الدين ، ١٢٩ ؛ نوري ، سياسة صلاح الدين ، ص ٢٧٥ ؛

Stevenson , The Crusaders , pp. 219-220 .

[٦] سميل ، الحروب الصليبية ، ص ٢١٢ .

مراقبة الفرسان القادمين من بانياس عبر وادي الأردن المفتوح [١] وفوق ذلك كله فقد كان بيت الأحزان من أقوى الحصون الصليبية وخاصة ان الصليبيين اهتموا باستحكاماته الحربية ووضعوا فيه من الأقوات وأنواع الطعام تكفي المدافعين عنه لبضع سنين [٢] ومنه كانت ترسل المؤن والذخائر كإمدادات إلى الجيوش الصليبية في مملكة بيت المقدس الصليبية [٣] .

وقد أدرك الناصر صلاح الدين مدى الخطر الذي لحق بالمسلمين بسبب بناء حصن بيت الأحزان ، فكانت سياسته تجاه الحصن منذ البداية اتباع الطرق السلمية ، وعدم التضحية بالعسكر وتعبئتهم للمواقف الحازمة [٤] ولاجل تحقيق غرضه راسل الصليبيين طالباً منهم هدم الحصن إلا انهم رفضوا الطلب مطالبين صلاح الدين بجميع النفقات التي بذلوها في تشييده وعندما وافق صلاح الدين على طلبهم ، وعرض عليهم مبلغ قدره ستين الف دينار مقابل تخريبه ، فامتنعوا ثم زاد المبلغ إلى مائة الف دينار لكنهم رفضوا ذلك العرض مرة أخرى [٥] وعلق ابن الأثير على أسباب الرفض قائلاً : ((***فلم يفعلوا ضنا منهم ، انه إذا بقي بناؤه تمكنوا به من الكثير من بلاد الاسلام***)) [٦] .

وازاء ذلك الموقف جمع صلاح الدين الأمراء من أصحابه وذوي الرأي والمشورة وشاورهم فيما يفعله مع الصليبيين وامتناعهم عن تسليم الحصن للمسلمين وطلبهم أموال باهضة مقابل هدمه فقالوا له : ((***الصواب أن تعطيهم رضاهم من المال ويهدم الحصن***)) .

---

[1] *Stevenson , The Crusaders , p. 219 .*

[٢] أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ١٣ ؛ ((***وفيه من راتبه الرجال ما بين فارس كبير وغلام ، وراجل وصاحب سلاح وقوت وبناء وتابعة ما يزيد على الف وخمسمائة راجل ، وهذه عدة لم يسمع من قبل بانحصارها في طرف لمرام النوب ، وفيه من الجروح الوثيقة ما يزيد على وطاة المجانيق الشديدة الاثر السديدة الحجر ، وحفر له خندق احاط المدينة سرادقة***)) . ينظر : القاضي الفاضل ، رسائل ، ص ١٠٣-١٠٤ .

[٣] احمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة : ١٩٦٧م) ، ج٥ ، ص ٤٣٧ .

[٤] نوري ، سياسة صلاح الدين ، ص ٢٧٧ .

[٥] أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨٢ ؛ ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ، ص ٢٤-٢٥ ؛ النويري ، نهاية الارب ، ج٢٨ ، ص ٣٩٥ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج ١٢ ، ٣٠٠ ؛

Stevenson ,The Crusaders , P . 220 ; Lyons , Saladin , P . 133 .

[٦] الكامل ، ج١١ ، ص ٤٥٧ .

غير أن صلاح الدين رفض المقترح بمشورة ابن أخيه المظفر عمر الذي أرسل إليه كتابا قال فيه : ((***الرأي أن تصرف هذا المال إلى الأجناد وترغبهم في الجهاد ، وتسير بعساكرك ، وتنزل عليه والله تعالى في معونتك ونصرك***)) وقد اثر ذلك في نفس صلاح الدين ورفع روحه الجهادية فوافق قائلاً : ((***هذا هو الرأي السديد***)) وجمع الأموال ووزعها على جنده [1] وعندئذ قرر صلاح الدين مهاجمة الحصن وتدميره من أساسه [2] لما له من أهمية استراتيجية لتحكمه في الطريق المؤدي إلى مصر [3] .

وبناءاً على ذلك قام الناصر صلاح الدين بمحاولتين لتحرير حصن بيت الأحزان الأولى كانت في سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م ، لكنها لم تثمر عن نتائج ملموسة سوى فرض حصار على الحصن ثم انصرف عنه بعد أن حصل على الغنائم والأسرى [4] ويبدو أن تلك المحاولة كانت استطلاعية غرضها معرفة نقاط قوة وضعف العدو الصليبي واشعارهم بقوته وقدرته على مهاجمتهم متى شاء ، ذلك أن صلاح الدين عاد بعد اجتماع العسكر لديه قاصداً مهاجمة الحصن ، وعسكر عند تل القاضي غربي بانياس ، وهناك اخذ يعد العدة للهجوم على الصليبيين فبعث إلى أخيه العادل في مصر يطلب منه الإمداد [5] في حين كانت سراياه تقوم بهجمات متقطعة على معسكرات العدو الصليبي [6] وفي الوقت الذي جمع الملك بلدوين الرابع قواته وخرج لمواجهة صلاح الدين بعث زعماء تلك السرايا إلى صلاح الدين يخبرونه بذلك التحرك الصليبي ، فسار صلاح الدين بجيشه قاصداً ملاقاة الصليبيين ، وبالقرب من تل القاضي في سهل مرج عيون دارت معركة بين الجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين والجيش الصليبي بقيادة الملك بلدوين الرابع ، انتهت نتيجتها بانتصار المسلمين وهزيمة الصليبيين فضلاً عن اسر عدد كبير

---

[1] ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ، ص٢٥ .

[2] لين بوول ، صلاح الدين ، ص١٤١ ؛ سوبرنهايم ، " صلاح الدين " ، ج١٤ ، ص ٢٧٠ .

[3] التكريتي ، الأيوبيون ، ص ٢٣٨ .

[4] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص٤٥٥ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص٨ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص٦٧ .

[5] أبو شامة ، نفسه ، ج٢ ، ص٨ .

[6] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٦ .

من أعيانهم أمثال باليان ابلين ***Balian Iblin*** حاكم الرملة ونابلس ومقدمي الاسبتارية الداوية وهيو صاحب جبيل وغيرهم [١] .

ولم يغب عن صلاح الدين عقب انتصاره في معركة مرج عيون حصن بيت الأحزان الذي كان يشكل خطراً جسيماً على المسلمين ، لذلك عاد إلى بانياس واخذ يتجهز للتوجه إلى الحصن وتخريبه ، فكانت المحاولة الثانية عندما سار إليه في ربيع الأول في سنة ٥٧٥هـ/ أب ١١٧٩م ، واحاط به من جميع الجوانب ونصبوا عليه المنجنيقات ثم بدء الهجوم على الحصن بطريقتين في آن واحد ، الأولى : القتال زحفا وكان ذلك بمشورة الأمير جاولي مقدم الاسدية والثانية : نقب الأسوار [٢] .

وقد اتبع صلاح الدين خطة عسكرية محكمة لاقتحام الحصن ، فقد وزع جوانب البرج على الأمراء فاخذ الأمير عز الدين فرخشاه الجانب القبلي ، واخذ هو الجانب الشمالي [٣] وشرع النقابون في نقب الأسوار ، ثم أشعلوا فيه النيران فلم يسقط السور لعرضه رغم بقاء النار فيه مدة يومين وواصلوا التوسع في نقب السور حتى أسقطوه يوم الخميس ٢٤ ربيع الأول سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م [٤] فدخل المسلمون الحصن ((***وقتلوا واسروا وغنموا مائة الف قطعة من الحديد من جميع أنواع الأسلحة ، وشيئاً كثيراً من الأقوات وغيرها ... وكان عدة الاسارى نحو سبعمائة***)) [٥] .

---

[١] نفسه ، ج١١ ، ص٤٥٥-٤٥٦ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ١٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص٧٥-٧٧ .

[٢] البنداري ، سنا البرق ، ص١٦٨-١٦٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨٠-٨١ . تعد الطريقة الثانية نقب الأسوار إحدى الطرق الجيدة لاقتحام أسوار الحصون ، استعملها جيش صلاح الدين في جهاده ضد الصليبيين لاول مرة . على ما يبدو . عند حصاره لهذا الحصن . ينظر : سعداوي ، التاريخ الحربي ، ص ١١٩ ؛ سعيد عبد الله الغامدي ، صلاح الدين والصليبيون(دار الندوة ، بيروت : د . ت .) ، ص ١٦٤ .

[٣] الاصفهاني ، البرق الشامي ، ج٣ ، ص ١٧٨-١٧٩ ؛ ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ، ص ٢٧ -٢٩ .

[٤] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٧ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص ١٦٩-١٧٠ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص١١ ؛ نوري ، سياسة صلاح الدين ، ص ٢٧٨ .

[٥] أبو شامة ، نفسه ، ج٢ ، ص ١١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص٨٢ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج١٢ ، ص ٣٠٢ ؛

Stevenson ,The Crusaders , P . 222 .

وأقام صلاح الدين في مكانه حتى هدم الحصن وعفى أثره وألحقه بالأرض [١] فكانت مدة المقام على الحصن أيام تحريره وبعدها أربعة عشر يوماً [٢] وقيل أربعة وعشرون يوماً [٣] قضاها صلاح الدين وجيشه في الموقع حتى اصبح الحصن بمستوى الأرض وليس ذلك فحسب بل اقتلعت أحجاره كي لا يستفيد منها الصليبيون في حربهم ضد المسلمين [٤] .

أما بالنسبة لموقف الملك بلدوين الرابع فبعد أن علم بان صلاح الدين قد حاصر حصن بيت الأحزان ، استدعى قوات المملكة الصليبية وجميع القوات العسكرية الأخرى فضلاً عن قوة إضافية من الفرسان الفرنسيين يقودهم الكونت هنري الثاني كانوا قد وصلوا مؤخراً قادمين من الغرب إلى بلاد الشام ومن ثم توجه الملك بلدوين إلى طبرية ودعا إلى عقد اجتماع هنالك مع جميع زعماء المملكة لغرض إنقاذ الصليبيين المحاصرين في حصن بيت الأحزان وارغام المسلمين على رفع الحصار غير انه فوت الفرصة فلم يهاجم المسلمين بل اجل الهجوم مدة يوم واحد لحين استكمال التحضيرات ووصول الإمدادات [٥] وعندما قدم الملك بلدوين الرابع لرفع الحصار لم يجد سوى اكوام الحجارة التي أحرقتها النيران [٦] وبذلك استولى صلاح الدين على الحصن بهجوم عاصف في ٣٠ أب سنة ٥٧٥هـ /١١٧٩م [٧] ولم يكتف بذلك بل جعل الكنيسة مسجداً [٨] .

ومما يجدر ذكره أن القاضي الفاضل أرسل كتاباً إلى وزير الدولة العباسية ببغداد ظهير الدين بن العطار وزير الخليفة المستضيئ بالله (٥٦٦ . ٥٧٦ هـ / ١١٧٠ . ١١٨٠م) بمناسبة

---

[١] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٧ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص١٧٠-١٧١ ؛ النويري ؛ نهاية الارب ، ج٢٨ ، ص ٣٩٥ .

[٢] أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص١١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨٢ .

[٣] ابن كثير ، البداية ، ج١٢ ، ص ٣٠٣ .

[٤] لين بوول ، صلاح الدين ، ص ١٤٣ ؛ جب ، صلاح الدين ، ص ١٣١ ؛ سوبرنهام ، " صلاح الدين " ، ج١٤ ، ص ٢٧٠ .

[٥] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج ج٢ ، ص ١٠١٤ .

[٦] لين بوول ، صلاح الدين ، ص ١٤٣ ؛ زايد ، القدس الخالدة ، ص ٢٢٠ ؛

Ehrenkreutz , Saladin , p. 183 .

[٧] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٠١٤ .

[٨] سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ق١ ، ص ٣٥٤

تحرير حصن بيت الأحزان [1] كما أن بعض الشعراء هناؤ صلاح الدين وامتدحوه في قصائد اثر هدمه لحصن بيت الأحزان نقتطف منها بعض الأبيات الآتية : فقد انشد الشاعر علي بن محمد بن رستم الساعاتي الدمشقي :

تسكن أوطان النبيين عصبةً تيمن لدى أيمانها وهينظر : تحلف

نصحتكم والنصح للدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

وللشاعر نشو الدولة احمد بن تقادة الدمشقي قصيدة جاء في مطلعها :

هلاك الفرنج أتى عاجلاً وقد آن تكسير صلبانها

ولو لم يكن قد دنا حتفها لما عمرت بيت أحزانها [2]

أما الشاعر نجم الدين محمود العراقي فقال :

هنيئاً صلاح الدين بالفتح والنصر ونيل الأماني العز والفتكة البكر

وما خرت فيها من فخار ومن علا وحسن ثنا يبقى إلى آخر الدهر [3]

---

[1] هنالك تفاصيل دقيقة كثيرة أوردها القاضي الفاضل حول تحرير حصن بيت الأحزان . ينظر : رسائل ، ص ١٠١-١٠٨ .

[2] ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ، ص ٣٠-٣١ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٥٧-٢٥٨ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ق١ ، ص ٣٥٤ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ١١-١٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨٣-٨٤ ؛ النويري ، نهاية الارب ، ج٢٨ ، ص ٣٩٦ ؛ ابن كثير ، البداية ، ج١٢ ، ص ٣٠٣ .

[3] أبو شامة ، نفسه ، ج٢ ، ص ١٢ .

الفصل الرابع : النظم الاجتماعية

أولا : طبقات المجتمع الصليبي

1. الطبقة الأرستقراطية الحاكمة
2. الصليبيون من غير النبلاء والفرسان
3. طبقة التجار الإيطاليون
4. النصارى الشرقيون
5. المسلمون

ثانيا: صفات الصليبيين وطبائعهم وأخلاقهم

ثالثا: العادات والتقاليد

1. الأعياد الدينية والمدنية
2. الزواج
3. الملابس والأزياء
4. الأطعمة والأشربة
5. النظافة والاستحمام
6. الطب

الفصل الرابع : النظم الاجتماعية

لقد كان الصليبيون قبل الحروب الصليبية جزءا من أوربا في العصور الوسطى سكاناً وثقافة ، ولكن بعد وجودهمفي الشرق الذي يعد وجوداً عسكرياً في المقام الأول بسبب وجودهم في ارض غريبة عليهم جعلهم مجتمعاً يختلف قليلاً عن المجتمع الام في أوربا ، على الرغم من تبنيه نظام الإقطاع الأوربي ، وحمله الأفكار الأوربية السائدة آنذاك [١] .

وعندما استقر الصليبيون في تلك البلاد اكتشفوا انهم لكي يعيشوا في بلاد الشام لابد لهم أن يأخذوا بأساليب الحياة الشرقية إلى حدٍ ما ، ولاسيما أن تأثرهم بالسكان الأصليين كان أمرا حتمياً وتجلى ذلك التأثير في حياتهم اليومية وسلوكياتهم على الرغم من تمسكهم ببعض مظاهر تؤكد انتسابهم لثقافة وحضارة المجتمعات البعيدة التي وفدوا منها [٢] ويمكن تبيان ذلك الوجود الطارئ في الأراضي العربية الإسلامية بتوضيح الأمور الآتية .

أولاً : طبقات المجتمع الصليبي

كانت النتيجة الطبيعية لاستيلاء الصليبيين على الأراضي المقدسة ، أنهم اصبحوا سادة المجتمع وحكامه الذي شملته مملكة بيت المقدس الصليبية ، والذي يضم الصليبيين المنقسمين إلى فئات من النبلاء والفرسان ، وغيرهم من عامة الصليبيين الذين لم ينتموا لهاتين الطبقتين ، كما ضم التجار الإيطاليين ، فضلاً عن النصارى الشرقيين والمسلمين ، وعلى الرغم من انقسام المجتمع الصليبي إلى عدة فئات إلا أنهم بقوا الطبقة السائدة والمتنفذة [٣] وهذا يعني أن السكان

---

[١] طه ثلجي الطراونة ، " المرأة الصليبية ، دراسة في تأريخ المجتمع الفرنجي في بلاد الشام " (مجلة مؤته للبحوث والدراسات ، الأردن : ١٩٩٣م) ، م٨ ، ج١ ، ص ٧٠ .

[٢] قاسم ، "بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية " (مجلة عالم الفكر ، الكويت : ١٩٩٣م) ، م٢٢ ، ج٢ ، ص ٣٩٥-٣٩٦ .

[٣] حسين محمد عطية ، " المسلمون في الإمارات الصليبية في بلاد الشام " ، ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي (جامعة اليرموك ، الأردن : ٢٠٠٠م) ، ج١ ، ص ٣٨١ .

الأصليين أصحاب الأرض الحقيقيين اصبحوا في ظل الاحتلال الصليبي الطبقة الدنيا في المجتمع الجديد [١] .

وفيما يتعلق بالمراتب الاجتماعية فيمكن تحديد أهم الطبقات الاجتماعية في مجتمع مملكة بيت المقدس الصليبية بما ياتي .

١ .الطبقة الأرستقراطية الحاكمة

تتألف الطبقة الأرستقراطية الحاكمة من الملك وخاصته وكبار النبلاء أي السادة الإقطاعيين والبارونات والفرسان ، وهم المقاتلون الذين اكتسبوا صفات النبل عن طريق الوراثة [٢] وقد تمتع أبناء تلك الطبقة بمنزلة رفيعة في ظل النظام الإقطاعي لكونهم الفئة الحاكمة والقوة المقاتلة الأساسية [٣] وعلى عاتقهم وقعت مسؤولية حماية الكيان الصليبي في بلاد الشام [٤] وقد تطرق ابن منقذ الذي يعد أحد أهم المصادر العربية المعاصرة التي قدمت معلومات عن تلك الشريحة ، ومكانتها في النسيج الاجتماعي الصليبي في قوله : ((***ولا عندهم تقدمه ولا منزلة عالية إلا الفرسان ، ولا عندهم أناس إلا الفرسان ، فهم أصحاب الرأي ، وهم أصحاب القضاء والحكم .. . فالفارس أمر عظيم عندهم***)) [٥]

وتعد طبقتا النبلاء والفرسان هي الطبقة الحاكمة في مملكة بيت المقدس الصليبية وكانت تشكل العمود الفقري للمجتمع الصليبي في بلاد الشام ، وتحكم عاملان أساسيان في ظهورها ، تمثل الأول : فيما نشب من حروب بين الصليبيين والمسلمين ، أما العامل الثاني : فأساسه الهجرة إلى الأراضي المقدسة ، وتكاد تلك الهجرة لم تنقطع في الثلاثين سنة التالية لقيام مملكة بيت المقدس [٦] على الرغم من أهمية تلك الطبقة إلا إنها ظلت تعاني من نقص كبير في

---

[1] *Prawer , The Settlement , P . 490 .*

[٢] إبراهيم أحمد العدوي ، المجتمع الأوربي في العصور الوسطى (دار المعرفة الجامعية ، القاهرة : ١٩٦١م) ، ص ٦٣-٦٤ .

[٣] النقر ، " التغيرات الإدارية " ، ص ٦٧٣ .

[٤] عاشور ، " ملامح المجتمع " ، ص ٢٥ .

[٥] الاعتبار ، ص ٦٤-٦٥ .

[٦] العريني ، " نمو طبقة النبلاء " ، ص ٣٨ .

العدد ، ويرجع ذلك إلى سببين الأول : قلة القادمين من الغرب الأوربي ، وعلى الرغم من أن سيل الحجاج النصارى لم ينقطع إلى بلاد الشام منذ احتلال مدينة القدس ، ولكن أعدادا قليلة منهم اختاروا الإقامة في بلاد الشام بعد انقضاء طقوس الحج ، بينما كانت الغالبية العظمى منهم تؤثر العودة إلى الغرب الأوربي ، ثم انه إذا كان الصليبيون قد انجبوا الكثير من الأطفال في بلاد الشام ، فانه لم يعش من تلك الذرية إلا نسبة قليلة بسبب الظروف المناخية والصحية التي لم يألفها الصليبيون ، أما العامل الثاني : فهو الخسائر في الحرب لوقوع أبناء تلك الطبقة قتلى في المعارك على أيدي المسلمين [١] ولاسيما في معركة حطين التي قتل واسر فيها معظم أفراد طبقة الفرسان ، ّمما أدى ذلك إلى خلو المستوطنات التي استنزفت طاقاتها البشرية من أولئك المستوطنين [٢] .

على أن اولئك الفرسان لم يكونوا ينتمون إلى الأسر الكبيرة بغرب أوربا لان الأشخاص الذين كانوا ينتمون لتلك الأسر غادروا بلاد الشام بعد الاستيلاء على مدينة القدس مباشرة [٣] وكان من ابرز الأسر الإقطاعية التي تسلمت مقاليد الحكم في مملكة بيت المقدس الصليبية آل بويوني ***Bouillon*** وآل انجو ***Anjou*** ، إلا أن تلك الطبقة من النبلاء سرعان ما تقلص نفوذها ، وحل محلها اسر دونهم في المرتبة الاجتماعية منذ أواسط القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي مثل آل ابلين ***Ibelin*** الذين كانوا من اتباع كونتات يافا ، وقد تزوج أحدهم وهو باليان من ماري كومنين البيزنطية أرملة الملك املريك الأول [٤] .

وعلى الرغم من قلة احتكاك تلك الطبقة وابتعادها عن المشاركة في الحياة الاجتماعية العامة ، إلا أنها اقتبست الشيء الكثير من سمات الترف الشرقي فقد أسرف أبناء تلك الطبقة في هذا الجانب على عكس ما كانت عليه الحياة في غرب أوربا التي غلب عليها طابع البساطة ، فقد شيدوا القصور الفخمة التي زينت جدرانها بالنقوش وسقوفها بالفسيفساء وجرى فرشها بالسجاجيد الفارسية ، وأُسدلت على نوافذها الستائر المصنوعة من الحرير المزركش ، وامتازت

---

[١] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٩٢ .

[٢] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ٧٤ .

[٣] العريني ، " نمو طبقة النبلاء " ، ص ٣٨ .

[٤] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥٤ .

أسرتها وموائدها بالمفروشات البيضاء الناصعة ، فضلاً عن الصحون والأطباق المصنوعة من الذهب والفضة ، وفوق ذلك كله ما كان يجلب من الشرق الأقصى من أدوات المائدة والأواني الخزفية الرائعة وبعض الأطباق الفخارية ، تلك كانت الحياة الفارهة التي عاشتها الطبقة الأرستقراطية ، ولم تقتصر حياة الدعة في القصور فقط وانما في الحصون التي أقيمت في أطراف المملكة ، فتوافر فيها من أسباب الراحة ما توافر بالمنازل في المدينة ، إذ شيدوا الحجرات الجميلة والحمامات المريحة وكل ما تحتاج إليه سيدات البلاط الملكي ، فضلاً عن قاعات الاستقبال الفسيحة الرائعة [١] .

وبمرور الزمن اخذ الصليبيون يكيفون حياتهم الخاصة والعامة حسب مقتضيات الحال والمناخ ، فاتبعوا في بناء بيوتهم وقصور الملوك والأمراء الطراز العربي الملائم مع ظروف بلاد الشام وأجوائها ، فأقاموا الأبنية ذات الأفنية الفسيحة التي تحوط بها الغرف والقاعات تتوسطها ((***البحرة***)) التيتتوسطها نافورة تقذف الماء عالياً في الهواء فتنثر ذراته رذاذاً ليخفف من شدة الحرارة ، ويبعث في النفوس البهجة والارتياح كما يشيع في الأجسام البرودة والراحة ، وهذا هو شان البيوت الشامية [٢] كما احتوت تلك القصور على الأشجار والورود التي اضفت عليها طابعاً جمالياً [٣] .

ومن جانب اخر كانت قصور أبناء الطبقة الأرستقراطية من الأمراء الغربيين في المقاطعات الصليبية غريبة المظهر بما حوته من الفرسان والمشاة المدججين بأسلحة الحرب المختلفة ويتميزون بأجناسهم المتباينة ، فضلاً عما كانوا يحشدون في بيوتهم من خدم رجالاً ونساءاً مع ما يحتاج إليه من الحجاب والكتاب والأطباء [٤]

أما بالنسبة لوسائل التسلية وقضاء أوقات الفراغ ، فقد مارس الأمراء الصليبيون عدداً من الألعاب بعضها اتخذ طابع التدريب على الفروسية بدليل ما قاله ابن منقذ : ((***حضرت بطبرية***

---

[١] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٥٠٨-٥٠٩ .

[٢] النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٤٦ .

[٣] سعداوي ، الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي (مكتبة النهضة العربية ، القاهرة : ١٩٦١م) ، ص ١٧٣ .

[٤] النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٦٤ .

في عيد من أعيادهم ، وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح ، وقد خرج معهم عجوزان فانيتان أوقفوهما في رأس الميدان وتركوا في رأسه الآخر خنزيراً سمطوه وطرحوه على صخرة ، وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحدة منهن سرية من الخيالة يشدون منها ، والعجائز يقمن ويقعن على كل خطوة ، وهم يضحكون ، حتى سبقت واحدة منهن ، فأخذت ذلك الخنزير في سبقها)) [١] وتحدث ابن جبير عن ميدان فسيح للخيل في مدينة عكا ، كان يخرج إليه حاكم البلد صباحاً ومساءاً ، وفيه يجتمع الناس لممارسة العاب الفروسية [٢] ومن الألعاب ووسائل اللهو الأخرى الشطرنج التي تعد لعبة الملوك وكذلك لعبة النرد التي كانت الأكثر شيوعاً عند الصليبيين ، هذا فضلاً عن حفلات السيف ورمي الجريد [٣] .

وإذا كانت الموسيقى والغناء ولعب القمار من ضروب التسلية التي مارستها جميع الطبقات ، فان صيد الضواري كان من اكثر الرياضات انتشاراً بين الفرسان الصليبيين في بلاد الشام [٤] فقد كان أولئك الفرسان يقضون أوقاتهم في الصيد ، وكانوا يطاردون وهم مسلحون بالرماح على ظهور خيولهم حيوانات الصيد مثل الأسود والنمور والذئاب والدبب من اجل المتعة في المطاردة كما اصطادوا الغزلان والأرانب من اجل الطعام ، أما صيد الثعالب فكان يتم بمجموعات كلاب صيادة معدة للقيام بتلك المهمة [٥] .

وقد حاول أبناء تلك الطبقة الحفاظ على أصولهم وتقاليدهم التي كانوا ينتمون إليها لكنهم اضطروا إلى الاحتكاك بالمجتمع الذي كانوا يعيشون فيه ، فبادروا إلى الزواج من بنات نصارى الشرق لقلة نسائهم [٦]هكذا اصبح الزواج بالأرمنيات عرفاً متبعاً لدى معظم السلالات الصليبية الحاكمة في بلاد الشام ، لاسيما منها سلالة آل بويون التي سرعان ما أصبحت أسرة

---

[١] الاعتبار ، ص ١٣٨ .

[٢] رحلة ، ص ٢٧٨ .

[٣] نجيب العقيقي ، موسوعة المستشرقون (دار المعارف ، القاهرة : ١٩٦٤م) ، ج١ ، ص ١٣٧ .

(٤) ف . ج . س . هونشو ، " الحياة الأوربية وأساليبها " ، موسوعة تأريخ العالم ، تحرير : السير أ . هملرتن (مطابع كوستاتسوماتس ، القاهرة : د. ت.) ، م٥ ، ص ١٩٦ .وقد افرد ابن منقذ فصلاً في كتابه عن الصيد وحكايته التي كان بعضها مع الصليبيين . ينظر : الاعتبار ، ص ١٩١-٢٢٧ .

[٥] بردج ، تأريخ الحروب ، ص ١٢٣ .

[٦] العقيقي ، موسوعة المستشرقون ، ج١ ، ص ١٣٧ .

صليبية أرمينة [١] وأكد تلك الحقيقة أحد مؤرخيهم المعاصرين بقوله : ((***واتخذ البعض زوجات لهم لا من بنات جلدتهم بل من السوريات أو الأرمنيات***)) [٢] فعلى سبيل المثال الملك بلدوين الأول تزوج من الأميرة الأرمنية أردا ***Arda*** الأرثوذكسية المذهب التي كان قد تزوجها في الرها عندما كان أميرا هناك [٣] أما خليفته بلدوين الثاني فقد تزوج من الأميرة الأرمنية مورفيا ***Morfia*** الأرثوذكسية المذهب ، عندما كان أميرا للرها ، وانجب مها ثلاث بنات وهن ميليسند واليس وهودرينا ثم ولدت له ابنة رابعة اسمها ايفينا بعد ما اصبح ملكاً لمملكة بيت المقدس الصليبية [٤] وهذا يعني أن تلك الطبقة مهما حاولت أن تبقى نقية الدم وتعزل نفسها عن المجتمع الصليبي في بلاد الشام لتحافظ على أصولها إلا أنها لم تستطع أن تحقق ذلك أمام قوانين الحياة القائمة على الأخذ والعطاء .

أما على صعيد اللغة فقد كانت اغلبية الطبقات العليا تتكلم اللغة الفرنسية الوسطية السائدة في شمال فرنسا التي جاء معظمهم منها ، ويبدو أن تلك اللغة تكلمت بها حتى الأسر القادمة من جنوب فرنسا أو التي كانت من اصل الماني [٥] .

---

[١] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ١٠٣ .

[٢] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٢١٨ .

[٣] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٥١٨ ؛ رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٦٦ ؛ ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٥١ .

[٤] الصوري ، نفسه ، ج١ ، ص ٥٧٤ .

[٥] رنسيمان ، المدنية البيزنطية ، ص ٢١٧ .

٢. الصليبيون من غير النبلاء والفرسان

تعد الطبقة الثانية في المجتمع الصليبي وتدعى المولدون [(١)] كان أهل الغرب يطلقونها على الصليبيين المستقرين في الشرق [(٢)] واولئك هم عامة المحاربين من الصليبيين الغربيين الذين لم ينتموا إلى الفرسان والنبلاء والذين شاركوا في الحروب الصليبية ، وكان معظمهم يؤلفون فرق المشاة في الجيش الصليبي [(٣)] كما كان أبناءُ تلك الطبقة أكثَر عدداً من أفراد الطبقة الأرستقراطية وأوسع انتشاراً واكثر تفاعلاً مع الحياة الجديدة التي عاشها الصليبيون في الشرق [(٤)] .

وبعد استقرارهم في بلاد الشام تزوج أبناؤهم من المسيحيات الشرقيات ، وبخاصة من الأرمنيا والسريانيات ، ولاسيما انهم لم يأتوا إلا بعدد قليل من زوجاتهم ، فضلاً عن أن أبناء الطبقة لم يكن لديهم ما يعتزون به من شرف المولد [(٥)] وبطبيعة الحال فان زواج المستوطنين الأوربيين من المسيحيات الشرقيات أدى إلى ظهور جيل هجين مهجن متوسط بين الجنسين عرف باسم الفتيان أو الأفراخ ***Pullani*** [(٦)] الذين لا يقصد بهم الصليبيين الأولين الذين

---

(١) ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٣١ ؛ بردج ، تأريخ الحروب ،ص ١٢٠ .

(٢) يوسف ، العدوان الصليبي ، ص ١٠٦ .

(٣) عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٩٢ .

(٤) ديورانت ، قصة الحضارة ، ج١٥ ، ص ٣٤ .

(٥) رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٦٩ .

(٦) كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ١٠٢ ؛ براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٠٧ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٢٧١ . ويقول حتي في معرض حديثه عن البولان : ((***ويكثر بين اللبنانيين والفلسطينيين اليوم ، لاسيما في مناطق مثل اهدن (شمال لبنان) وبيت لحم ، وهؤلاء اصحاب العيون الزرقاء والشعر الأشقر ، وقد بقي من تقاليد بعض الأسر ومن أسمائها ما يدل على اصلها الأوربي ، نذكر منها فرنجية (Frankish) وصليبي (Crusading) ودويهي (Douai) وصوايا (Savoie) ، وكذلك قريتين في فلسطين وهما صنجيل (Saint Cilles) والرينة (Reynaud)***)) . ينظر : تأريخ سورية ، ج٢ ، ص ٢٥٨ ، هامش رقم (٢) ؛ سعداوي ، الحرب والسلام ، ص ١٧٣-١٧٤ . وفضلاً عن ألقاب أسرهم التي حورت على أيام أحفادهم ترك الصليبيون بعض الأديار والشعائر الدينية المسيحية . ينظر : العقيقي ، موسوعة المستشرقون ، ج١ ، ص ١٣٨ .

استوطنوا في بلاد الشام ، وانما أحفاد أولئك المستوطنين [١] وسرعان ما كوَّن أبناء ذلك الزواج المختلط نسبة كبيرة من سكان مملكة بيت المقدس الصليبية [٢] .

ومنذ سنة ٥٤٥هـ/١١٥٠م اصبح البولان يؤلفون طبقة مهمة قامت بدورها في خدمة المجتمع الصليبي واندمجوا معه ، كما أخذت أعدادها بالازدياد تدريجياً فقد بلغ عددهم حوالي خمسة آلاف سرجندي في سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م ، ثم تكونت منها طبقتان ، الأولى : سودير ***Sodeer*** ، والثانية : تركبول ***Turcoples*** [٣] وبذلك حلت تلك الطبقة الجديدة تدريجياً محل سابقتها ، وأصبحت العامل الاجتماعي الهام في بناء المجتمع الصليبي [٤] وبمرور الزمن تأثرت الطبقة بحضارة الشرق وتراثه ، ونسي أبناؤها الكثير من موروثها الاجتماعي مقابل الاستفادة من المحيط الذي تعيش فيه ، فأقاموا خلال وجودهم على في بلاد الشام علاقات اجتماعية مع أهل البلاد ، واحكموا افضل العلاقات الثقافية معهم ، فنشأ عن ذلك ولادة مجتمع جديد مزيج بين الشرقي والغربي [٥] .

وقد ازداد تأثر الصليبيين بحياة الشرق حتى إنَّ المؤرخين اخذوا يلمسون فروق الطباع بين الصليبيين القادمين حديثاً والمقيمين ، كما اتضح أن الحجاج الجدد لا يجندون الاختلاط مع المقيمين لانهم في نظرهم أنصاف مسلمين [٦] ومن جانب اخر سهلت اللغة العربية عملية الاندماج اذ كانت وسيلة التفاهم المشتركة رغم ان القليل من الصليبيين تعلموا اللغة العربية التي كانت اللغة الشائعة في الشرق [٧] .

---

[١] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٢١٨ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ٢٣١ .

[٢] ديورانت ، قصة الحضارة ، ج١٥ ، ص٣٤ .

[٣] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٦٩ ؛ المدنية البيزنطية ، ص٢١٧ .

[٤] عاشور ، تأريخ العلاقات ، ص ٣٣١ .

[٥] النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٣٩ .

[٦] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ١٠٢ ؛ النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٣٩ .

[٧] براور ، عالم الصليبيين ، ص١١٦ .

٣. طبقة التجار الإيطاليين

شكل الإيطاليون الطبقة الثالثة المميزة في المجتمع الصليبي إلى جانب طبقة النبلاء والفرسان وطبقة البولان [١] وهؤلاء التجار الإيطاليين تركزوا في مدن مملكة بيت المقدس الصليبية وبخاصة في الموانئ الساحلية مثل يافا وعكا وقيسارية وارسوف وصور وبيروت وحيفا [٢] إذ أن كل مدينة صليبية رئيسة في شرق البحر المتوسط باستثناء مدينة القدس كانت كلها مُدناً بحرية يوجد بها عدة أحياء أو حي واحد على الأقل تعيش فيه الجماعات الإيطالية المختلفة (البندقية . جنوة . بيزا) [٣] ولم تكن تلك المستعمرات سوى مستوطنات توطنتها طبقة إيطالية مستقلة قائمة بذاتها يتكلم أصحابها اللغة الإيطالية ولا يختلطون بغيرهم من فئات المجتمع الصليبي إلا في نطاق المعاملات المالية والتجارية [٤] .

وكانت المستوطنات التي تقطنها مثل تلك الجماعات المستوطنة تشكل نوعاً من المستعمرات داخل المستعمرات ، فهي أقلية تحيط بها أغلبية ناطقة باللغة الفرنسية ، على أن المستوطنات الإيطالية لم تنشأ مباشرةً بعد الغزو الصليبي ، إذ لم يستقر في ساحل الشام سوى عدد قليل جداً من التجار في السنوات الأولى من عمر المملكة الصليبية ، ولكن نواة النشاط الإداري من الموظفين الذين تم إرسالهم من المدن الإيطالية لحماية حقوقها وامتيازاتها أصبحت شكلاً ثابتاً منذ ذلك الحين ، إذ كانت بمثابة موضع قدم لاستيطانهم في بلاد الشام . ومع نمو حجم النشاط التجاري وارتياد الأراضي الإسلامية بدأ التجار الإيطاليين الذين كانوا يستخدمون الموانئ الصليبية كمجرد محطات على الطريق يطيلون مدة إقامتهم في شرقي البحر المتوسط ، وقامت جماعات من التجار الإيطاليين باستيطان جميع الموانئ الرئيسة في الكيان الصليبي في الشرق [٥] .

---

[١] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١١٩ .

[٢] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٩٣ ؛ " ملامح المجتمع " ، ص ٢٩ .

[٣] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١١٩ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص٢٥٤ .

[٤] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص٤٧١ .

[٥] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٢٠ .

فكانت بمثابة مدن إيطالية مستقلة داخل المدن الصليبية في بلاد الشام ، فقد كان لها كنائسها الخاصة وأسواقها ومخابزها وحماماتها ، كما وجدت الإسطبلات لإيواء الخيول والبغال والجمال ، وأماكن السقاية لشرب الإنسان والحيوان ، وكان اكبر مبنى يتألف من ثلاثة طوابق أو أربعة هو القصر ***Paiazzo*** ومحل إقامة القنصل الإيطالي ، وكان ذلك المبنى مقر المجلس الاستشاري لإيطالي أيضاً ، الذي ينظم حياة الإيطاليين وفقاً لقوانين البندقية أو جنوة أو بيزا أو آمالفي ، وكان علم المستوطنة يرفع فوق القصر ليعلن استقلالها السياسي والقضائي [1] إذ كان النشاط التجاري في طبيعة الحال سبب وجود المستعمرات الإيطالية في الشام ، وكان ذلك النشاط يمارس بتعاون وثيق بين المقيمين الدائميين والتجار العابرين الذين استوطنوا في مدن المملكة الصليبية ، فقد استوطن في عكا أفراد من الأسر العريقة في البندقية أمثال كوير يني ***Querini*** وفنيير ***Venier*** وفاسانو ***Vassano*** ، فضلاً عن عدد كبير من العامة أمثال آل بوننسينيا ***Boninsegna*** وبنيديتو ***Benedetto*** وزوفينيه ***Zovene*** وبريزي ***Brivi*** ومرمورا ***Marmora*** [2] .

كما استقر البيازنة أيضاً في الأراضي المقدسة كالمدعو لابرتوس ايبوبان ***Lambertus Loppen*** ، وكان يملك فرناً في مدينة يافا سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، وغويدو بيزانوس ***Guida Pisanus*** ، الذي كان يملك منازل في صور في السنة ذاتها ، وهكذا شكلت شخصيات شهيرة ،أو النازحون مجتمعاً استعمارياً حقيقياً فيما وراء البحر ، يدافع بضراوة عن مصلحة بني قومه التجارية [3] .

وعلى الرغم من أن سكان المستوطنات كانوا مواطنين في مملكة بيت المقدس الصليبية من الناحية النظرية إلا انهم ظلوا مواطنين بمدنهم الأوربية الكبرى ، ومع ذلك لم يتخل أعضاء المستوطنات عن هويتهم الأصلية ، فبعد مرور مئة سنة وحتى بعد مئتي سنة من تأسيس

---

[1] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٢٠ .

[2] ميشيل بالار ، " الجمهوريات الإيطالية والتجارة في الشام _ فلسطين من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر للميلاد " ، ضمن كتاب الصراع الإسلامي – الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى (مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت : ١٩٩٤م) ، ص ٢٠٠-٢٠١ .

[3] نفسه ، ص ٢٠١-٢٠٢ .

المملكة الصليبية والاستيطان في الأراضي العربية كان الإيطاليون لا يزالون يتمتعون بنفس الحقوق والامتيازات التي تمتع بها أولئك الذين شاركوا في غزو البلاد العربية [١] .

ويرجع سبب حفاظ تلك الطبقة الإيطالية التجارية من البنادقة والجنويين والبيازنة على هويتهم اكثر من معظم الصليبيين إلى انهم كانوا من ناحية يقطنون معاً في أحياء اتسعت لهم مع أمراء آخرين كانوا يعقدون معهم اتفاقياتهم ، ومن ناحية ثانية كانوا يسافرون من إيطاليا واليها في مناسباتها التجارية ، وهكذا لم يفقدوا اتصالهم مع مدنهم في وطنهم الأصلي [٢] .

وقد تمتع الإيطاليون الذين استوطنوا في مدن مملكة بيت المقدس الصليبية بالامتيازات نفسها التي تمتع بها أولئك الصليبيون الذين شاركوا في احتلال البلاد وخاصة تمتعوا بالإعفاء من الضرائب والرسوم الكمركية على مدى ثمانية أو عشرة أجيال ، وذلك الوضع المتميز للإيطاليين جعل أية منافسة مع الصليبيين المحليين الذين كانوا يدفعون رسوماً كمركية كاملة أمرا لا يمكن التفكير فيه ببساطة ، ومن دون شك الأميرة هذا الموقف ولد كثيراً من الأحقاد لانه كان من الصعب تفسير سبب تمتع الإيطاليين بوضع متميز دون إسداء أية خدمات ملموسة للمملكة الصليبية ، ومن جانب آخر كان حكام المملكة يحاولون التخلص من تلك الامتيازات الفادحة وإلغائها ، غير الأميرة تلك المستوطنات كانت تكافح بدورها عن طريق البابوية في روما لاجل المحافظة على امتيازاتها التي كانت لها مصلحة واضحة في الأميرة تحتفظ برابطة التحالف مع المدن البحرية الإيطالية ، حتى وصل الأمر أحيانا أن قام البابوات بمهاجمة بعض الملوك الصليبيين مهددين إياهم بالحرمان وغالباً ما كان الحكام الصليبيون يستسلمون للضغوط البابوية [٣] .

---

[١] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٢٣-١٢٤ .

[٢] بردج ، تأريخ الحروب ، ص ١٢٠ .

[٣] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٢٤ .

٤. النصارى الشرقيون

وهم الغالبية الساحقة من السكان في مملكة بيت المقدس الصليبية الذين لم يكونوا ينتمون إلى اصل واحد ويعرفون بالعرب النصارى القاطنين في وسط الشام ، وكان اولئك النصارى يتألفون من طوائف وملل عدة [١] فمنهم اللاتين الأرثوذكس والسريان واليعاقبة والأرمن والأقباط والكرج والموارنة والنساطرة وغيرهم [٢] كما أن جميع النصارى الشرقيين كانوا يتبعون ثلاث كنائس : اليعقوبية (***أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح عليه السلام***) ، والنسطورية : (***أصحاب مذهب الطبيعتين للسيد المسيح عليه السلام***) ، وكنيسة الروم الأرثوذكس ، وكان اليعاقبة هم الغالبية في مملكة بيت المقدس الصليبية [٣] .

وفي الوقت الذي كانت فيه اللغة العربية هي لغة السكان الأصليين في فلسطين ، كان النصارى الشرقيون وخاصة السريان يتحدثون اللغة العربية إلى جانب السريانية التي كانت سائدة في بلاد الشام آنذاك ، ولم تكن اللغة التركية شائعة في فلسطين بل أنها لم تكن معروفة لدى الكثيرين على الرغم من أن الأتراك حكموا بلاد الشام وفلسطين مدة طويلة من الزمن [٤] ومن جانب آخر كانت كل طائفة تختلف عن الأخرى سواء بلغتها أو أسلوب تأدية الطقوس الدينية [٥] .

استوطن النصارى الشرقيون بطوائفهم كافة مناطق عديدة في الأراضي المقدسة وخاصة تركزهم في مدن القدس وبيت لحم والناصرة والقرى المحيطة بها [٦] وظل عددهم في ازدياد حتى اصبحوا يشكلون المجموعة الأكبر من العناصر غير الأوربية التي كانت تسكن في بلاد الشام ،

---

[١] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٤٧٢ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٣١ ؛ عاشور ، تأريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى (دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت : ١٩٧٦م) ، ص ٣٣١ ؛ الجنزوري ، الحروب الصليبية ، ص ٢٦٨ .

[٢] ثيودريش ، وصف الأماكن ، ص ٦٨ .

[٣] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ١٠٢-١٠٣ ؛ براور ، عالم الصليبيين ، ص ٨٢ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٣١ .

[٤] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٢٦٩ .

[٥] ثيودريش ، وصف الأماكن ، ص ٦٨ .

[٦] براور ، عالم الصليبيين ، ص ٩٢ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٧٠ .

وعلى الرغم من أن تعامل الدولة معهم كان قائماً على عدم الثقة بهم خاصة فيما يتعلق بالأعمال العسكرية إلا أن الصليبيين سمحوا لهم بالسكن في أحياء خاصة بهم مثل حي النصارى في القدس ، كما كانت أمور حياتهم تنظمها قوانينهم وشرائعهم التقليدية مثلهم مثل الفئات الدينية العرقية الشرقية الأخرى كالأرمن والكرج [١] وكان كل اولئك النصارى الشرقيين محكومين حسب أعرافهم الخاصة من قبل حاكمهم الخاص الذي كان يسمى الرئيس ***Rais*** [٢] .

أما فيما يتصل بطبيعة العلاقة بين النصارى الشرقيين والصليبيين فكانت سيئة منذ بداية الحكم الصليبي للأراضي المقدسة ، فالنصارى الذين عاشوا في المناطق الصليبية لم يعاملوا معاملة حسنة من الصليبيين الذين عدوهم منشقين وخارجين عن الدين المسيحي ، إذ استولوا على كنائس النصارى الأرثوذكس وحولوها إلى كنائس لاتينية [٣] ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قام بطريرك القدس ارنولف مارلكورن سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م باستبعاد جميع مذاهب النصارى الشرقيين من كنيسة القيامة وسلبها كل حقوقها وامتيازاتها ، كما اتبع خلفه البطريرك دايمبرت سياسة اكثر قسوة منه تجاه النصارى الشرقيين ، فلم يكتف بإبعادهم من كنيسة القيامة فقط بل امتدت سياسته إلى طردهم من أديرتهم ومنشآتهم الكنسية في مدينة القدس [٤] .

ويرجع ذلك التعامل السلبي لعاملين الأول : احتقار الصليبيين الغربيين هؤلاء النصارى الشرقيين عموماً إذ نظروا إليهم نظرة دونية بل أحسوا نحوهم بالكراهية نتيجة الخلافات المذهبية ، والعامل الثاني :هو عدم الثقة بهم خاصة فيما يتعلق بالأعمال العسكرية بسبب تخوفهم الدائم من تآمرهم مع الإمبراطورية البيزنطية ضد مصالح الصليبيين [٥] .

وسرعان ما تحسنت تلك العلاقة بسبب جهود ملوك القدس الصليبيين الذين كانوا بحاجة ماسة إلى النصارى الشرقيين من اجل القيام بالأعمال اليدوية والخدمات التي انف الصليبيون من القيام بها [٦] ولاسيما ان البلاد التي احتلوها لم يكن فيها من الناس ما يكفي للأعمال والخدمات

---

[١] النقر ، " التغيرات الإدارية " ، ص ٦٧٤ .

[٢] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ١٠٣ .

[٣] براور ، عالم الصليبيين ، ص ٨٢ ؛ قاسم ، ماهية الحروب ، ص ٢٠٤-٢١٠ .

[٤] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٣٩-١٤٠ .

[٥] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٩٣ ؛ النقر ، " التغيرات الإدارية " ، ص ٦٧٢ .

[٦] عاشور ، تأريخ العلاقات ، ص ٣٣١ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٧١ .

التي تحتاجها الدولة الجديدة [١] ويرجع الفضل إلى الملك بلدوين الأول فيما قام من علاقات ودية بين الصليبيين وطوائف النصارى الشرقيين ، فرد إلى رجال الدين الأرثوذكس مفاتيح كنيسة القيامة وأعادهم إلى وظائفهم فيها ليمارسوا فيها الشعائر والطقوس الأرثوذكسية [٢] .

كما حظيت الأديرة الأرثوذكسية باهتمام بعض الملوك الصليبيين ورعايتهم لعل أبرزها دير القديس سابا الذي لقي رجال الدين فيه معاملة حسنة من الملك بلدوين الأول فضلاً عن الدعم المالي ومنح الأراضي التي نالها الدير في عهد الملكة ميليسند والملك املريك الأول [٣] على أن استمرار تلك العلاقات الودية بين الصليبيين والأرثوذكس إلى احتفاظ الأرثوذكس بمعظم أديرتهم [٤] وليس ذلك فحسب بل أن ملك القدس لم يكن يسمح للبطاركة والمطارنة من الصليبيين أهل الأرثوذكس بمعاقبة الأديرة الأرثوذكسية أو بمنع الاحتفالات الدينية في المدن والقرى لذلك استمرت الصلوات والطقوس تؤدى بالأرثوذكسية حتى في كنيسة القيامة [٥] ويشهد على ذلك ثيودريش فقال ((***ويوجد لديهم فرق دينية تحتفل في الطقوس الدينية (الصلاة العامة) داخل الكنيسة في بيت المقدس : اللاتين والسريان والأرمن واليعاقبة ، وكل طائفة تختلف عن الأخرى سواءاً باللغة أو بأسلوب تأدية الشعائر الدينية***)) [٦] وهكذا ظل ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية يتودد إلى الأرثوذكس خدمة لمصالحهم في بلاد الشام [٧] .

وفيما يتعلق باليعاقبة والأقباط فقد عاملهم الصليبيون معاملة قاسية لدرجة انهم منعوهم من زيارة بيت المقدس على اعتبار انهم هراطقة خارجين من الدين المسيحي ، أما بالنسبة للفئات

---

(١) النقر ، " التغيرات الإدارية " ، ص ٦٧٢ .

(٢) الصوري ، تاريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٥٣٧-٥٣٨ ؛ رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٣٩-١٤٠ ، ٥١٥ .

(٣) ينظر : ما سبق ذكره في الفصل الأول من الأطروحة .

(٤) ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٥٣ ،

(٥) رنسيمان ، المدنية البيزنطية ، ص ٢٣٦ .

(٦) وصف الأماكن ، ص ٦٨ .

(٧) رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٥١٥ .

الأخرى من النصارى الشرقيين كالموارنة والسريان والأرمن فكانوا افضل حالاً لمساعدتهم الصليبيين ووقوفهم معهم ضد المسلمين [١] .

ويعد الأرمن ابرز تلك الفئات التي أسهمت في نجاح الحملة الصليبية الأولى واقامة إمارة الرها الصليبية ، كما كان لهم دورٌ كبيرٌ في إقامة كيان صليبي في شمال الشام ألا وهي إمارة إنطاكية الصليبية التي ارتبطت مع الإمارات الأرمنية بعلاقات ود وتحالف تارة وحروب ونزاعات تارةً أخرى [٢] وتمثل ذلك الإسهام بتأمين المأوى والطعام لرجال الحملة الصليبية ، وارشادهم إلى طرق بلاد الشام [٣]وفضلاً عن تقديمهم الامدادات العسكرية والمؤن للصليبيين أثناء مدة حصارهم لإنطاكية كانوا يهاجمون الحاميات السلجوقية مّما يسهّل ذلك الطريق أمام الصليبيين للاستحواذ على مناطق أخرى وضمها إلى نفوذهم [٤] ويرجع سبب ذلك التقارب الصليبي الأرمني إلى رغبة الأرمن في التخلص من الأخطار التي تهددهم والتي كانت تمثلها الدولة البيزنطية والقوى الإسلامية [٥] .

وفي مقابل تلك الخدمات حظي الأرمن بعلاقة ودية مع الصليبيين ابتداءًا بملوكهم الأولين كبلدوين الأول وبلدوين الثاني من اجل تحقيق المصالح الصليبية ، فالملك بلدوين الأول شجع الأرمن على الهجرة إلى أراضي المملكة الصليبية ومدنها لمعالجة نقص القوة البشرية بعد أن هجرتها الغالبية العظمى من سكانها المسلمين مّما ساعد على قيام مستعمرات أرمنية صغيرة في المملكة الصليبية التي عاشَ في كنفها الكثير من الأرمن ، وقد قربهم إلى الصليبيين شهرتهم كمقاتلين وتدريجياً اصبح الأرمن يؤلفون تدريجياً قوة مرتزقة في الجيش الصليبي يعتمد عليها الصليبيون في حربهم ضد المسلمين ، ومن جانب آخر فان كنيسة الأرمن أو كاتدرائية سان جيمس في حي الأرمن في مدينة القدس التي كانت تعد اكبر كنائس الأرمن في الأراضي

---

[١] قاسم ، ماهية الحروب ، ص ٢١٠-٢١١ ؛ الجنزوري ، الحروب الصليبية ، ص ٢٦٩-٢٧٠ .

[٢]اللهيبي ، مملكة أرمينية ، ص ٤٦ .

[٣]مروان المدور ، الأرمن عبر التاريخ (منشورات دار الحياة ، بيروت : ١٩٨٢م) ، ص ٢٢٥ .

[٤]حبشي ، الحرب الصليبية ، ص ٤٨ .

[٥]نعمان محمود جبران ، "المصادر الأرمنية وأهميتها .حولية متي الرهاوي نموذجاً " ، ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي (جامعة اليرموك ، الأردن : ٢٠٠٠م) ، ج١ ، ص ١٠٨ .

المقدسة قبل مجيء الصليبيين ثم أعيد بنائها أبان الحكم الصليبي وظلت تلك الكنيسة تؤدي خدماتها للجماعة الأرمنية دونما انقطاع على مدى ثمانية قرون [1] وليس ذلك فحسب بل أشارت إحدى الوثائق إلى استعداد بعض الحكام الصليبيين إلى تغيير عاداتهم وملابسهم واشكالهم الخارجية بما يتوافق مع أوضاع الأرمن أهل حتى إقبال بعض الأمراء الصليبيين على تعلم اللغة الأرمنية ، على أن الدافع وراء ذلك هو حصول الصليبيين على أموال وهبات ومساعدات عسكرية أرمنية وليس لأي غرض آخر [2] .

أما في عهد الملك امليريك الأول فقدشهدت العلاقات الصليبية الأرمنية تطوراً ملحوظاً تمثل بموافقة الملك الأرمني ثوروس الثاني (٥٤٠-٥٦٠هـ/١١٤٥-١١٦٨م) ، على ارسال ثلاثين ألفا من اتباعه الأرمن للاستيطان في الأراضي المقدسة غير أن تلك المحاولة باءت بالفشل كما أسلفنا في الفصل الثاني [3] ولم تقتصر العلاقات بين الطرفين على الجانبين السياسي والعسكري بل امتدت لتشمل الجانب الاجتماعي بدليل نشوء علاقات مصاهرة الملوك الصليبيين والنساء الارمنيات . وسنوضح ذلك لاحقاً . وبعد جيلين من التعايش معاً أدى الزواج المختلط بين الطرفين إلى الأميرة صارت اللغة والعادات الفرنسية عنصراً هاماً وأساسيا في حياة البلاط الأرمني [4] .

٥ . المسلمون

---

[1] براور ، عالم الصليبيين ، ص ٧٥ ، ٨٤ .

[2] جبران ، " المصادر الأرمنية وأهميتها " ، ص ١١٣ .

[3] براور ، عالم الصليبيين ، ص ٨٣ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٣٢ ؛ عطية ، " المسلمون في الإمارات " ، ص ٣٨٠ .

[4] براور ، عالم الصليبيين ، ص ٧٥ .

شكل المسلمون إبان الغزو الصليبي النسبة الغالبة في عموم بلاد الشام ، وهم سكان البلاد الأصليين ، وقد سكنوا في المدن والريف والصحراء ، ومع أن بعض تلك المدن هجرها أهلها من المسلمين ، بسبب المجازر التي خلفها الغزو الصليبي وما أعقبها من عمليات طرد السكان الأصليين إلا كبيرة نسبة كبيرة من المسلمين ظلت قائمة في وسط المجتمع الصليبي وتؤثر فيه [١] .

وفي الوقت الذي كان سكان المدن الآمنين خلف الأسوار والقلاع والحصون كانت معظم قرى المسلمين وحقولهم الزراعية مسرحاً للمعارك الطاحنة بين الجيوش الإسلامية والصليبية ، وقد زادت المعارك بين الطرفين من تعاسة الفلاحين بحكم طبيعة الريف المكشوفة أمام أي هجوم عسكري [٢] وفضلاً عن الفلاحين وسكان المدن من المسلمين كان هناك شريحة أخرى هم البدو الرحل الذين كانوا يتقلون بقطعانهم من المواشي والإبل بحثاً عن الماء والكلأ والذين كثيراً ما تعرضوا إلى الهجمات من قبل الصليبيين [٣] .

ومن جانب آخر أن المسلمين وجدوا أنفسهم في موقف حرج كأقلية محتقرة وغير موثوق بها بالنسبة للصليبيين [٤] وفوق ذلك كله كان الصليبيون يصفون المسلمين بأوصاف غير لائقة منها ((***الكفرة***)) و ((***الكفار***)) و ((***الوثنيين***)) و ((***البهائم المتوحشة***)) [٥] ذلك حصيلة عدائهم للمسلمين الذين كانوا ينتظرون اليوم الذي يتمكنون فيه من التخلص من الصليبيين الذين احتلوا بلادهم وقتلوا إخوانهم واستنزفوا طاقاتهم ، واستولوا على ما تدره أراضيهم من محاصيل وخيرات ، هذا فضلاً عن تدنيسهم للمقدسات الإسلامية [٦] وبهذا اصبح الصليبيون العدو المشترك لأمراء المسلمين كافة وان قتالهم يعد جهاداً وان التهاون في التصدي لهم أمرٌ غير

---

[١] براور ، عالم الصليبيين ، ص ٧٦ ؛ عطية ، " المسلمون في الإمارات " ، ص ٣٧٩ .

[٢] قاسم ، " بعض مظاهر " ، ص ٣٨٤ .

[٣] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٤٩٤ .

[٤] براور ، عالم الصليبيين ، ص ٧٧ .

[٥] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٧٤ ، ٧٨ ، ١١٨ ؛ دانيال الراهب ، رحلة الحاج الروسي ، ص ١٢٩ ، ١٥٥ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٤١٩ ، ٤٣٧ ، ٤٤٢ ، ٥١٦ ، ٥٦١ ، ٦٣٣ ؛ ثيودريش ، وصف الاماكن ، ص ١٠٧ ، ١٠٩ .

[٦] قاسم ، ماهية الحروب ، ص ٢٠٢ .

مقبول إلا في الضرورات الملحة الأمر الذي انعكس بشكل مباشر على قلة النشاط الدبلوماسي مع الصليبيين خاصة ان التعامل مع الصليبيين يُعد أمراً مهيناً لمن يروم التعامل معهم [١] .

وفيما يتصل بطبيعة العلاقات الاجتماعية بين المسلمين والصليبيين ، فقد نشأت بين الجانبين علاقات اجتماعية نتيجةً للاحتكاك والاتصال بينهما في أوقات السلم ، فقد كان هنالك نوعان من العلاقات ، الأول : نشأ بين الصليبيين والمسلمين الذين لم تخضع مناطقهم لسيطرة الصليبيين ، أما النوع الثاني : فقد قام بين المسلمين والصليبيين في البلاد الإسلامية المحتلة فبالنسبة للنوع الأول من العلاقات الإسلامية الصليبية قام بين القادة وكبار القوم من كلا الطرفين ، واتخذ صورة المجاملة والصداقة ، وكان محكوماً بتحقيق المصالح من ناحية وميزان القوى من ناحية أخرى لذلك كان عرضة للتبديل والتغير [٢] فعلى سبيل المثال لا الحصر نشأت علاقات شخصية بين بعض أمراء أسرة بني منقذ [٣] وفولك الانجوي ملك مملكة بيت المقدس الصليبية [٤] وقد أتاحت تلك العلاقات لاسامة بن منقذ لان يسعى في عقد صلح بين الملك فولك الانجوي وجمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري حاكم دمشق (٥٣٣-٥٣٤هـ/١١٣٨-١١٣٩م) وتردد في السفارة بينهما [٥] .

وليس ذلك فحسب بل أن الزيارات المتكررة التي قام بها الأمير أسامة بن منقذ إلى الأرض التي انتزعها الصليبيون أتاحت له أن يتجول فيها وان يخالط افراد المجتمع الصليبي ، ويقيم علاقات شخصية مع بعض فرسانهم لدرجة أن أحدهم لازمه وأنِسَ به ونشأت بينهما علاقة

---

[١] سلطان جبر سلطان ، الدور السياسي للعلماء المسلمين إبان الحروب الصليبية (أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة الموصل : ١٩٩٩م) ، ص ١٣٥ .

[٢] شفيق محمد الرقب ، " صور من الحياة الاجتماعية للفرنجة في النثر الفني زمن الحروب الصليبية (مجلة دراسات للعلوم الإنسانية والاجتماعية ، عمان : ١٩٨٩م) ، م٢٣ ، ج٢ ، ص ٣٤٤ .

[٣] عن تلك الأسرة في عصر الحروب الصليبية . ينظر : البكر ، أسرة بني منقذ ودورها السياسي والحضاري في بلاد الشام ومصر خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين / الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين (أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ١٩٩٦م) .

[٤] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٥٢ .

[٥] الاعتبار ، ص ٨١ .

مودة ومعاشرة جعلت الفارس الصليبي يدعوه ((***أخي***)) ، كما أدى هذا التقارب الشخصي إلى أن طلب الفارس الصليبي من الأمير أسامة أن يرسل معه ابنه إلى أوربا كي ((***يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية***)) ، هذا فضلاً عن نشوء صداقات بين الأمير أسامة وفرسان الداوية الذين قال بشأنهم ((***وهم أصدقائي***)) [١] .

كما نشأت علاقات شخصية أخرى بين الوزير المصري شاور والملك املريك الأول لأغراض سياسية ، فبعد أن أدرك شاور عدم قدرته على مواجهة الحملة العسكرية التي أرسلها نور الدين زنكي إلى مصر في سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م بقيادة شيركوه [٢] إثر النزاع الذي كانت قد شهدته مصر بين كل من شاور [٣] وضرغام [٤]
للاستحواذ على منصب الوزارة [٥] فاتجه للتحالف مع الصليبيين الذين توجهوا إلى مصر بقيادة الملك املريك الأول بهدف إحباط خطط المسلمين وتعطيلها ، وفي ظل تلك الأوضاع الساخنة وجد شاور أن افضل السبل فاعلية ليوطد مركزه السياسي في مصر هو عقد معاهدة مع الملك املريك الأول يتعهد فيها بتقديم مبلغ كبير من المال يكفي لسد نفقاته ونفقات قواته مقابل بقاء القوات الصليبية في مصر وعدم مغادرتها الأراضي المصرية قبل إتمام المهمة التي جاء من اجلها ، فرحب الملك املريك الأول بهذا الاتفاق الذي جعل الصليبيين حماة للفاطميين في مصر

---

[١] الاعتبار ، ص ١٣٤ .

[٢] هو أبو حارث أسد الدين شير كوه بن شاذي بن مروان الأخ الأصغر لنجم الدين أيوب ، وكان من أكابر أمراء نور الدين زنكي ، وكانت حمص والرحبة إقطاعا له . ينظر : الحنبلي ، شفاء القلوب ، ص ٢٥ ، ٤٤ .

[٣] هو أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار ، أول وزير عربي الجنس يلي الوزارة من وزراء السيوف ، وكان الصالح بن رزيك قد ولاه الصعيد الأعلى ثم ندم على توليه ولكنه أوصى ابنه بعدم عزله لعلمه بمدى قوة شاور ، ولكن ابنه خالف وصيته وعزله فثار عليه شاور واعتقله وحل محله في الوزارة . ينظر : محمد حمدي المناوي ، الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي (دار الشعب ، القاهرة : ١٩٧٠م) ، ص ٢٨٨ .

[٤] هو أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن سوار النجمي من أمراء الدولة الفاطمية ، وكان طلائع بن رزيك قد انشأ في وزارته أمراء يقال لهم البرقية ، وجعل ضرغاماً مقدمهم فترقى في الخدم حتى صار صاحب الباب ولما طرد شاور ولي الوزارة مكانه وتلقب بلقب الملك المنصور ، ثم عاد شاور بعد ان زوده نور الدين بجيش بقيادة شيركوه استطاع أن يهزم ضرغام . ينظر: المناوي ، الوزارة والوزراء ، ص٢٨٩ .

[٥] ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص٣٢٤ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٦٢ .

[1] ولم تكن العلاقات بين الصليبيين والمسلمين خارج الأراضي المحتلة مقصورة على العلاقات الشخصية فقط وانما اتخذت في بعض الأحيان طابع العلاقات التجارية بين الجانبين وخاصةً أن الطرق بين المدن الإسلامية والمناطق الخاضعة للسيطرة الصليبية كانت سالكة آنذاك ، وقد عبر الرّحالة ابن جبير عن دهشته لما شاهده من دخول الرعاية والتجار من المسلمين والصليبيين إلى البلاد التي تخضع لحكم الأخر من دون أن يتعرضهم أحد وفي هذا الصدد قال ((***ومن اعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم***)) ، وكرر الرّحالة نفسه ذلك في موضع آخر من رحلته فقال مندهشاً : ((***ومن اعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين***)) [2] وهكذا فان المنافع كانت متبادلة بين الطرفين ، فقد سمح للأفراد بحرية التنقل فلا يجوز اعتراض التجار والأفراد من كلا الطرفين ، وقد نصت الاتفاقيات والمعاهدات [3] التي عقدت بين الجانبين على ذلك فضلاً عن أن الظروف الحياتية واليومية أملت تلك السياسة المعتدلة المتسامحة بما يتناسب ومصالح الرعايا وظروفهم المعاشية والاقتصادية وحاجة الطرفين لانسياب السلع التجارية بسبب مردودها الاقتصادي الكبير [4] .

وقد وضع الصليبيون حدوداً لذلك الأمن الذي تمتع به التجار والرعايا ، فبعد أن انتقل ابن جبير من داريا [5] إلى مدينة بانياس ذكر انه وجد((***شجرة بلوط عظيمة الجرم أعلمنا أنها تعرف بشجرة الميزان فسألنا عن ذلك . فقيل لنا : هي حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحرامية الإفرنج ... من أخذوه وراءها إلى جهة بلاد المسلمين ، ولو بباع أو بشبر اسر ،***

---

[1] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٨٩٩ .

[2] رحلة ، ص ٢٦٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ .

[3] لمعرفة المزيد من التفاصيل عن تلك الاتفاقات ينظر : غوانمة ، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج (دار الفكر ، عمان : ١٩٩٥م) .

[4] غوانمة ، " التجارة وسياسة الاعتدال " ، ص ٦٣٨ .

[5] داريا ، قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص٤٣١ .

ومن أخذ وراءها إلى جهة بلاد الإفرنج بقدر ذلك أطلق سبيله لهم في ذلك عهد يوفون به)) [1] .

ومن جانب آخر كان المسلمون والصليبيون يزرعون بعض الأراضي مناصفة ، وغالباً ما تتناصف تلك الأراضي المناطق التي تخضع لسيطرة كل طرف منهم [2] ومن الأمثلة على الأراضي المتوسطة تلك التي كانت تقع بين مدينة بانياس وحصن هونين الصليبي ، فقد كانت عمالة : ((***تلك البطحاء بين الإفرنج والمسلمين ، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة ، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ، ومواشيهم مختلطة ، ولا حيف يجري بينهما فيها***)) [3] .

أما العلاقات التي قامت بين المسلمين والصليبيين داخل الأراضي المحتلة فإنها لم تكن تجري على وفق إطار واحد ، فثمة روايات أشارت لها المصادر المعاصرة تدل على أن الصليبيين كفلوا حقوق المسلمين ، ولم يتدخلوا في شؤونهم مقابل أموال معلومة كان المسلمون يؤدونها لهم ، فقد تطرق الأصفهاني عن أحوال المسلمين في المدن التي حررها الناصر صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، منها قوله ((***واما نابلس فان أهل ضياعها ومعظم أهلها كانوا مسلمين وفي سلك الرعية مع الفرنج منتظمين ، وفيها افرنج ونصارى مقيمون مدبرون ، وقد اقروا منذ استولى عليها المسلمون على عوايدهم في قضائهم وحكمهم ومشاهدهم ومساجدهم ، وهم يجبون كل عام منهم قراراً ، ولا يغيرون لهم شرعاً ولا شعاراً***)) [4] ، كما تحدث في مكان آخر عن وضع المسلمين في مدن أخرى تابعة لمملكة بيت المقدس الصليبية ، ((***وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين مساكين لمساكنة الفرنج مستسلمين***)) [5] .

وقد ترك الصليبيون للمسلمين أمر الاهتمام والعناية بأراضيهم وزراعتها ، وجعلوا من بينهم مشرفين على تلك الأراضي ، فعلى سبيل المثال ذكر ابن جبير انه نزل في ضيعة من ضياع مدينة عكا فوجد : ((***رئيسها الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الإفرنج على من***

---

[1] رحلة ، ص ٢٧٣ .

[2] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٠٣٩ .

[3] ابن جبير ، رحلة ، ص٢٧٣ .

[4] الفتح القسي ، ص ٢٦ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص ٣٠٢ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٨٨ .

[5] الاصفهاني ، نفسه ، ص ٣٢ ؛ أبو شامة ، نفسه ، ج٢ ، ص ٩٠ .

فيها من عمارها من المسلمين ، فاضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة وأحضرهم صغيراً وكبيراً في غرفة متسعة بمنزله ، وأنالهم ألوانا من الطعام قدمها لهم فعمهم بتكرمه ، وكنا فيمن حضر هذه الدعوة)) [1] .

وعن طبيعة العلاقات القائمة بين الفلاحين المسلمين والإقطاعيين الصليبيين في المنطقة المحصورة بين تبنين وعكا تطرق إليها ابن جبير قائلاً بشأنها : ((***وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة ، وسكانها كلها مسلمون ، وهم من الإفرنج على حالة ترفيه ... وذلك انهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك ، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا ، ومساكنهم بايديهم ، وجميع أحوالهم متروكة لهم ، وكل ما بأيدي الأفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل رساتيقهم كلها للمسلمين وهي القرى والضياع***)) [2] .

وقد أدى انشغال الصليبيين في الحروب ضد المسلمين ونقص الأيدي العاملة في مجال الزراعة إلى أن يترك الصليبيون مسألة زراعة الأراضي بأيدي المسلمين ومصداق ذلك ما قاله الشارتري أن الملك بلدوين الأول بعدما احتل صيدا أمر أن ((***يستبقي في المدينة الفلاحين لفائدتهم في زراعة الأراضي***)) [3] ، كما عمل الفلاحون المسلمون في زراعة قصب السكر كما هو الحال في مستوطنة امبرت شمالي عكا [4] ، ولعل هذا السبب هو الذي جعل الصليبيين يسمحون للمسلمين الذين تركوا بلادهم بالعودة إليها فـ ((***منهم من استهواه حب الوطن فدعاه إلى الرجوع والسكنى بينهم بعد أمان كتب لهم في ذلك بشروط اشترطوها***)) [5] ففي سنة ٥٢٨هـ/١١٣٣م كان أمير الجليل الصليبي يجبر الفلاحين المسلمين على العمل في أرضه يوماً في الأسبوع .

---

[1] رحلة ، ص ٢٧٥ .

[2] نفسه ، ص ٢٧٤-٢٧٥ .

[3] تأريخ الحملة ، ص ١٤٨

[4] عطية ، " المسلمون في الإمارات " ، ص ٣٨٨ .

[5] ابن جبير ، رحلة ، ص ٢٧٩ .

وفي الحقيقة كان التغيير في استراتيجية الحرب الصليبية تجاه مسلمي المدن الشامية التي احتلها الصليبيون يرجع إلى العوامل الاقتصادية والى أدراك الغزاة أهمية العنصر البشري المسلم واعتمادهم على مسلمي تلك المدن كطبقة عاملة في مجالات الزراعة والصناعة والتشييد والبناء ، وكان هذا الاتجاه قد بدأ منذ عهد الملك بلدوين الأول ، أي بعد عودة الكثير من الصليبيين إلى غرب أوربا بعد انتهاء الحملة الصليبية الأولى وانتباه الإدارة الصليبية في مملكة بيت المقدس الصليبية إلى قلة الموارد البشرية وخبرتها في تلك المجالات [1] .

وعلى الرغمّ مما كان من علاقات اجتماعية مختلفة بين المسلمين والصليبيين في الأراضي المحتلة إلا أن الحذر لازم تلك العلاقات خشية الفتنة وتجنباً لكثير من أنماط السلوك السلبي التي اعتاد عليها الصليبيون في البلاد الخاضعة لسيطرتهم ، ولعل ابن جبير كان لسان حال ذلك عندما قال : لم يكن للمسلم ((***عند الله معذرة في حلول بلده من بلاد الكفر إلا مجتازا وهو يجد مندوحة في بلاد المسلمين ، لمشقات وأهوال يعانيها في بلادهم ، منها الذلة والمسكنة الذمية ، ومنها سماع ما يفجع الافئدة من ذكر ما قدس الله ذكره ، واعلى خطره ، ولا سيما من أراذلهم واسافلهم ، ومنها عدم الطهارة والتصرف بين الخنازير وجميع المحرمات إلى غير ذلكّ مما لا ينحصر ذكره ولا تعداده ، فالحذر الحذر من دخول بلادهم***)) [2] .

وكانت سياسة الصليبيين بالأساس قائمة على تفريغ المدن الساحلية من سكانها الأصليين سواء بالقتل أو تحويل البعض منهم إلى رقيق على الرغم من تقديم الوعود والتعهدات بالمحافظة على أرواح المسلمين وممتلكاتهم ، ويرجع سبب عدم الوفاء بالعهد إلى الرغبة الملحة لدى أصحاب السفن الجنوية والبيزية المحملة بآلاف المقاتلين أن يمارسوا عمليات القرصنة وإبادة السكان [3] وهنالك أمثلة عديدة تدل على ذلك ، فبعد الحصار الصليبي لمدينة عكا في سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م الذي لستمر حوالي عشرين يوماً ، اضطر أهلها المسلمون إلى إجراء

---

[1] عطية ، " المسلمون في الإمارات " ، ص ٣٧٨ ، ٣٨٨ .

[2] ابن جبير ، رحلة ، ص ٢٧٩-٢٨٠ .

[3] محمد فتحي الشاعر ، أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية (مطبعة الديواني ، بغداد : ١٩٨٩م) ، ص ٧٠٨ .

مفاوضات الاستسلام وتسليم المدينة للصليبيين بشرط الحفاظ على أرواح المسلمين وممتلكاتهم ، إلا أن هذا الاتفاق لم يتحقق لان الجنويين لم يحترموا تعهد الملك بلدوين الأول بل قاموا بقتل سكان المدينة من المسلمين الابرياء ، واستولوا على جميع ممتلكاتهم ، وابقوا عدداً قليلاً منهم على قيد الحياة [١] كما تعرض سكان مدينة بيروت للمصير نفسه في سنة ٥٠٥هـ/١١١١م ، فعندما اقتحم الصليبيون المدينة قاموا مع حلفائهم الجنويين والبيازنة بقتل الكثير من المسلمين ونتيجة لذلك لم يبق سوى القليل منهم وقعوا في اسر الصليبيين [٢] .

أما عن أحوال المسلمين في بعض المدن التي اضطر سكانها إلى الاستسلام وتسليم مدنهم للصليبيين حقناً للدماء بعد أن تحقق لهم بالدليل القاطع تفوق الصليبيين عليهم من الناحية العسكرية ، فقد سمح لهم الصليبيون بمغادرة مدنهم مع أُسَرهم ، وما استطاعوا حمله من ممتلكاتهم [٣] وقد تطرقت المصادر المعاصرة إلى ذلك ، فذكر الشارتري أن الصليبيين عندما حاصروامدينة ارسوف براً وبحراً سنة ٤٩٤هـ/١١٠١م أدرك أهلها عدم جدوى المقاومة ، ففاوضوا الملك بلدوين الأول في طلب الأمان مقابل التسليم وانتهت المفاوضات بخروج المسلمين من ارسوف بأموالهم وما استطاعوا حمله من ممتلكات إلى مدينة عسقلان [٤]وتشابه مصير سكان عسقلان بمصير سكان ارسوف ، فبعد الاحتلال الصليبي لمدينة عسقلان ، قام الصليبيون بتهجير جميع من فيها من سكانها المسلمين ، وفي ذلك قال ابن القلانسي : ((***فخرج منها من أمكنه الخروج في البر والبحر إلى ناحية مصر وغيرها***)) [٥] .

ويرجع ذلك إلى أن مدينة عسقلان كانت مركز تجمع لكل من أجبرته الظروف القاسية على ترك دياره من المسلمين والإقامة في عسقلان [٦] ويبدو أن العمل الذي اقدم عليه الصليبيون تجاه سكان عسقلان كان نابعا من قناعتهم بأهمية المدينة الاستراتيجية [٧] وهكذا تم إخضاع مدن

---

[١] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ١٣١ .

[٢] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٣٨-٥٣٩ .

[٣] الشاعر ، أحوال المسلمين ، ص ٩ .

[٤] تأريخ الحملة ، ص ١١٣ .

[٥] ذيل ، ص ٣٢٢ .

[٦] الشاعر ، أحوال المسلمين ، ص ١٢ .

[7] *Prawer , The Settlement , p. 490 .*

الساحل الشامي كلها للسيطرة الصليبية بعد مرور حوالي نصف قرن من الحملة الصليبية الأولى [١] .

وفيما يتعلق بالمقاومة الإسلامية في البلاد المحتلة ضد الصليبيين ، فهناك روايات عدة أوردتها المصادر المعاصرة أكدت رفض المسلمين للاحتلال الصليبي مستخدمين أساليب وطرق مختلفة لمقاومة المحتل ، وفي ذلك قال الشارتري : ((***عندما دخلنا بلاد الشرقيين لم نستطع أن نحصل من السكان المعادين على خبز أو أي غذاء نقتات به ، لم يقبل أحد يعطينا أو يبيعنا شيئاً***)) [٢] ، واثناء اقتراب الصليبيين من القدس ((***طم سكان المدينة الينابيع والصهاريج الموجودة بالقرب من المدينة ... حالما علموا بتقدم الجيش المسيحي ، على امل ان العطش سيدفع المسيحيين إلى التخلي عن المدينة***)) ، وعندما دخلت القوات الصليبية القدس : ((***اطلق سكان المدينة المصممون من جانبهم على مقاومة اعدائهم إلى الحد الاقصى وابلا من السهام والقذائف على المسيحيين ، كما سقطت الحجارة المقذوفة بالايدي المنطلقة من آلات القذف الحربية بقوة مخيفة ، لقد حاول (المسلمون) بكل وسيلة منع شعبنا من الاقتراب من السور ... فقد استمروا في بدء ضروب من المقاومة الشجاعة ضد الجهود العنيفة والجبارة التي بذلها المهاجمون ، وبذل (المسلمون) جهوداً يائسة لحرق آلات المسيحيين الحربية فقذفوها بالقذائف المشتعلة والنبال المحملة بالكبريت الملتهب والإسفلت والزيت***)) [٣] .

ولم تقتصر المقاومة على سكان القدس بل شملت أهل القرى المجاورة فهاجموا جماعات الصليبيين الذين راحوا يتجولون فيها بحثاً عن الماء والطعام ، وتمكنوا من إلحاق خسائر بشرية في صفوفهم ، فضلاً عن الاستحواذ على خيولهم [٤] وبذلك كانت هجمات تلك المجموعات الإسلامية ناجحة إلى ابعد الحدود ، إذ إنها اسفرت عن مقتل وجرح العديد من الفرسان والجنود ، ومن حاول الهروب وقع اسيراً بأيدي المسلمين ، وفضلاً عن ان بعض الهجمات كانت تكمن

---

[١] قاسم ، ماهية الحروب ، ص ١٣٩ ؛

Encyclopaedia Britannica , Art : Ashqelon , (No. p. , London : 1994-2000) , No Vol. , No P.

[٢] تأريخ الحملة ، ص ٨١ .

[٣] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٤١٥ ، ٤٢٧ . ٤٢٩ .

[٤] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٢٠ .

بالقرب من الينابيع والآبار ، وتهاجم تجمعات الصليبيين حول مصادر المياه الأمر الذي كان يؤدي إلى مقتل العديد من الفرسان والجنود الصليبيين ، ومن الجوانب المهمة التي تشير إلى المقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الصليبيين ، ما قام به السكان الفلسطينيون من عمليات لاختراق طوق الحصار الصليبي الذي فرضوه على القدس ، وبعد نجاحهم في تنفيذ مهمتهم والدخول إلى القدس من خلال بعض النواحي التي لم تكن محاصرة أسرعوا للانضمام مباشرةً إلى المدافعين عن المدينة ضد الصليبيين ، الأمر الذي اسهم في تعزيز صمود سكانها وحاميتها [١] .

وتصدى سكان مدينة حيفا المسلمون للحصار الذي فرضَهُ الصليبيون على مدينتهم في تموز سنة ٤٩٣هـ/١١٠٠م ، وقاوموا الغزاة مقاومة شديدة ، وافشلوا اكثر من هجوم قام به المحاصرون من أجل دخول المدينة ، وفي المعركة التي دارت رحاها في ميناء المدينة بين المدافعين عنها والأسطول البندقي تمكن الأهالي من تدمير سفينة بندقية ، واجبروا المهاجمين على التراجع منهكين ، وعلى الرغم من الصمود الذي دام مدة شهر من الزمن والمقاومة الباسلة التي أظهرها سكان حيفا للدفاع عن مدينتهم ضد الغزاة الصليبيين ، إلا أن المدينة سقطت بيد القوات الصليبية التي تمكنت من دخولها عنوة في آب من السنة ذاتها [٢] كما قام أهل نابلس بمساعدة القوات الإسلامية التي هاجمت المدينة في سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م كذلك قامت حامية عسقلان بمهاجمة الصليبيين أثناء حصارهم لمدينة يافا سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م [٣] .

وحدثت انتفاضة كبرى في سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م قام بها الفلاحون في مدينة بيروت وفيها امتنعوا عن دفع الضرائب للصليبيين [٤] هذا فضلاً عن رفض بعض الفلاحين المسلمين العمل في زراعة الأراضي لدرجة انهم ((***فضلوا ان يتحملوا أنفسهم المجاعة على ان يزودوا المسيحيين بأي شيء ، ذلك لانهم عدوهم أعداء لهم***)) [٥]

---

[١] البيشاوي ، " المقاومة الشعبية " ، ص ٢١٥ .

[٢] نفسه ، ص ٢١٥ .

[٣] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ١٥٢ ، ١٥٦ .

[٤] زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٣٦ .

[٥] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٧١ .

وفوق ذلك كله صور ابن منقذ مشاعر العداء التي كان يكنها المسلمون للغزاة الصليبيين ، وذكر ايضاً بأن أحداً من المسلمين انتقل لخدمة الصليبيين ، وشارك معهم في الهجمات ضد المسلمين ، فأنكرت عليه زوجته ذلك العمل ونهته فلم ينته فقتلته ، وليس ذلك فحسب بل كان ((***سكان ضياع عكا كلهم من المسلمين ، إذا وصل إليهم الأسير أخفوه واوصلوه إلى بلاد الإسلام***)) [1] .

ومهما يكن من أمر فقد كان لسكان المدن الشامية بصورة عامة والمدن الفلسطينية بصورة خاصة دوراً في مقاومة الصليبيين بكل الامكانات المتاحة لديهم آنذاك ، وقد اتضح مّما سبق ان قسماً من السكان تصدى ودافع عن بلاده من داخل المدن التي كان يقطن بها ، وبينما لجأ قسم من السكان إلى العمل خلف خطوط الأعداء ، كما حدث أثناء الحصار الصليبي لمدينة القدس ، ومن دون شك ان هجمات المقاومة الشعبية الفلسطينية خلف خطوط القوات الصليبية كانت موجعة ومؤثرة ، ويتجلى ذلك بوضوح من خلال الخسائر البشرية والمادية التي ألحقوها في صفوف الأعداء في اكثر من موقع ، وكان الصليبيون يحرصون على عدم وقوع إصابات بشرية لان تعويض العنصر البشري كان من أصعب الأمور التي واجهوها في بلاد الشام [2] .

وكان مـن البديهي ان يعاملَ الصليبيونَ المسلمينَ الذين كانوا تحت سيطرتهم معاملة قاسية ، إذ تعارضت تضرفاتهم مع مصالحهم ، فروي ان شاباً مسلماً كان يتعاون مع أمه على الإيقاع بحجاج الصليبيين ، فقبضوا عليه وحاكموه حسب قوانينهم وقتلوه ، كما تعرض أحد الفلاحين للمحاكمة ، إذ اتهمه الصليبيون انه كان يدل حرامية المسلمين على ضياع نابلس ، وكانت نتيجة المحاكمة قتل ذلك الفلاح [3] ، ويمكن الاستدلال من خلال هاتين الحادثتين أن الصليبيين اجروا المحاكمتين علناً وأمام أعين المسلمين بقصد تخويفهم وإرهابهم .

---

[1] الاعتبار ، ص ٨٢ ، ١٣٩ .

[2] البيشاوي ، " المقاومة الشعبية " ، ص ٢١٩ .

[3] ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٣٨-١٣٩ ؛ عبد الله بن ناصر الحارثي ، " رؤية أسامة بن منقذ الشيزري لبعض طبائع الصليبيين واخلاقهم كما ورد في كتاب الاعتبار " ، ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي (جامعة اليرموك ، الأردن : ٢٠٠٠م) ، ج١ ، ص ٢٨٧.

ولم تكن معاملتهم القاسية مقصورة على ذلك فقط بل امتدت لتشمل المسلمين الذين وقعوا أسرى بأيدي الصليبيين في المعارك التي دارت بين الجانبين ، فعندما حرر المسلون حصن بيت الأحزان وجدوا فيه حوالي مئة أسير جمعهم الصليبيون من اجل العمارة وقطع الأشجار [١] كما اسر الصليبيون عدداً كبيراً من المسلمين في مدينة عكا فقتلوا معظمهم ، ولم يبقوا منهم سوى ((***رجلاً معروفا مقدما ، أو قوياً أيد للعمل في عمائرهم***)) [٢]ولم يكن الأمر مقصوراً على الرجال بل شمل أيضاً النساء ، فعندما احتل الملك بلدوين الأول مدينة قيسارية أمر باستبقاء ((***كثيراً من النساء ، فقد تجدر الإفادة منهن على الأقل في دفع الطواحين***)) [٣] .

ومما يجدر ذكره انتشار أسواق النخاسة في مملكة بيت المقدس الصليبية التي تدر عليهم مكاسب مادية ، ففي مدينة عكا كان تجار البندقية يشترون الأسير بثمن بخس ، فضلاً عن الأديرة التي كانت تشتري بعضاً منهم [٤] ، ويبدو أن تلك الأديرة كانت تقوم بتنصيرهم بدليل أن المسلمين بعد تحريرهم حصن بيت الأحزان وجدوا عدداً من المسلمين المتنصرين وكان ذلك في سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م [٥] .

وبعد هذا العرض عن طبيعة العلاقات بين المسلمين والصليبيين نلاحظ أن ما تركته تلك العلاقات من آثار ونتائج في طبائع الصليبيين واخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وعن هذا التأثير هناك عبارة ذكرها ابن منقذ مفادها ((***ومن الإفرنج قوم تبلدوا (أي اصبحوا من اهل بلاد الشام) وعاشروا المسلمين ، فهم اصلح من القريبي العهد ببلادهم***)) ، وعاد الكاتب نفسه ليكرر كلامه في موضع آخر قائلاً : ((***فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية اجفى أخلاقا من الذين تبلدوا وعاشروا المسلمين ، فمن جفاء أخلاقهم قبحهم الله أنني كنت إذا زرت البيت***

---

[١] الاصفهاني ، البرق الشامي ، ج٣ ، ص ١٨٠ ؛ البنداري ، سنا البرق ، ص ١٧٠ ؛ ابن شاهنشاه ، مضمار الحقائق ، ص ٢٩ .

[٢] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٧٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٦٤ .

[٣] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ١١٥ .

[٤] زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٣٤ .

[٥] أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ١٣ .

المقدس ، دخلت إلى المسجد الاقصى وفيه الداوية ، وهم أصدقائي يخلون لي ذلك المسجد الصغير اصلي فيه)) [١] .

ثا نيا: صفات الصليبيين وطبائعهم واخلاقهم

لقد تطرق عدد من المؤرخين والكتاب العرب المسلمين إلى ذكر صفات وطبائع واخلاق الغزاة الصليبيين في بلاد الشام ، فقد قال بشأنهم أسامة بن منقذ ((***وهم لعنهم الله جنس ملعون لا يألفون لغير جنسهم***)) [٢] ، كما وصفهم الاصفهاني بأنهم : ((***شقر كأنما لفحت النار وجوههم ... زرق كأنما عيونهم من حديد ...***)) ، ويسترسل في توضيح تلك الصفات أثناء حديثة عن الصليبيين الذين احتشدوا حول مدينة عكا فقد ((***خرجوا في كل ذئب امعط وازرق زرقة الموت الأحمر ، وانمشي يمشي واليوم اغبر ، واشقر وهو أشقى ، وابقع إذ غوى في الوغى ما ترك ولا أبقى***)) [٣] .

---

(١) الاعتبار ، ص ١٣٤-١٣٥ ، ١٤٠ .

(٢) الاعتبار ، ص ١٣٠ .

(٣) الفتح القسي ، ص٦ ، ١٩٩ .

كما أوضح ابن منقذ صفة الشجاعة التي تحلى بها الصليبيون ، وفي ذلك قال ما فيهم من فضيلة سوى : ((***فضيلة الشجاعة والقتال***)) وليس ذلك فحسب بل تعجب من شجاعتهم ، حتى انه شبههم بالبهائم في قوة التحمل وفي ذلك قال :((***سبحان الخالق الباري ، إذ خبر الإنسان أمور الإفرنج سبح الله تعالى وقدسه ، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير كما في البهائم فضيلة القوة والحمل***)) [1] وهناك صورة أخرى مثلت صفة الشجاعة عندهم حينما حرر المسلمون القدس آنذاك واجههم الصليبيون ((***اشد قتال ، وناضلوا أجد نضال ، ونازلوا أجد نزال ... ، وقالوا كل واحد منا بعشرين ، وكل عشرين بمئتين ... ودون القمامة [2] تقوم القيامة***)) [3] فوق ذلك كله وصف الاصفهاني الروح القتالية التي تمتع بها أولئك الصليبيون ، إذ ((***خرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت ، وانفروا من وراء البحر يطلبون أمامهم من البر ناشية الصوت***)) ، كما أشار إلى إقدامهم على مواجهة المواقف الصعبة دون هيبة ، فعندما دخل المسلمون مدينة بيروت في ٢٩ جمادي الأولى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م خرج إليهم منها ((***رجال إلى الموت عجال***)) [4] .

والوقع أن تلك الشجاعة ناجمة عن الحماس الديني المتأجج الذي حفزهم على القدوم من غرب أوربا لمهاجمة بلاد المسلمين بدليل ما قاله أبو شامة : ((***قد بلى الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت واستجابوا الصوت وفارقوا المحبوبين : الأوطان والأوطار ، وهجروا المألوفين : الاهل والديار ، وركبوا اللجج ووهبوا المهج ، كل ذلك طاعة لقسيسهم وامتثالاً لامر مركيسهم وغيره لمتعبدهم ، وحمية لمعتقدهم ، وتهالكاً على مقبرتهم ، وتحرقاً على قمامتهم***

---

[1] الاعتبار ، ص ١٣٢ .

[2] المقصود بها كنسية القيامة بالقدس ، وهي أعظم كنسية للنصارى تقع في وسط المدينة ، واصل تسميتها تاريخي يرجع إلى ان القبر المقدس بني على الموضع الذي كانت توضع به القمامة خارج سور القدس وهو الموضع الذي يزعم ان المسيح (عليه السلام) صلب فيه.ينظر :ياقوت الحموي ، معجم البلدان،ج٤،ص ٣٩٦ ؛المقريزي ، اتعاظ الحنفا ،ج٢ ،ص٧٤ ، هامش رقم(٣) وقد أمر الخليفة القاضي الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١٢م/٩٩٦-١٠٢١م) بهدمها في سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م وعرض على النصارى أمرين ، أما ان يسلموا أو يتركوا المدينة ، فاسلم أكثرهم . ينظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ٢٠٨-٢٠٩ .

[3] الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٤١ .

[4] الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص٦ ، ٣١ .

... يتساقطون على نيران الغُلبى تساقط الفراش ويقتحمون الردى متدرعين الصبر متثبتي الجأش ...)) [1] ويصور لنا ابن الأثير أهمية بيت المقدس ومكانته لديهم وحرصهم الشديد على الاحتفاظ به دون المسلمين فكان : ((***كلهم يرى الموت ايسر عليه من ان يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم***)) [2] ، لكونه حسب تعبير ابن واصل : ((***هو بيت معبودهم ، ومحل تجسد ناسوتهم كما زعموا بلاهوتهم***)) [3] .

والى جانب الشجاعة كانت القسوة صفة أخرى امتاز بها الصليبيون فهم قوم ((***قد نزع الله الرقة من قلوبهم ونقلها إلى غروبهم ... فظاظ غلاظ جهنميون ، كلامهم شرر وأنفاسهم شواظ ... خلق الله الخلق من طين ، وخلقهم من حجارة ، منهم المكنى عنهم بوقود جهنم حين قال وقودها الناس والحجارة ، والا فالحجارة لا تستحق الوقود ، إلا ان يراد بها القلوب التي هي كالجلمود في الجمود***)) [4] وعلى الرغم من عنفوان تلك القسوة تراها قي لحظة تمتزج بنوع من الشجاعة متمثلاً بقول الاصفهاني أثناء تحرير حصن

بيت الأحزان ((***ودخلت الحصن فشاهدت العجب وعاينت في الأعداء الشجب ، ورايت فارساً حين القي على النار حصانه وهو راكبه ، ولم يتنكب البلاء والبلاء ناكبه ، فانظر إلى هذه الحمية والنفس الأبية***)) [5] .

كما كان الغدر صفة سلبية من صفاتهم ، فهم قوم لا عهد لهم ولا ميثاق ، فقد ذكر أبو شامة غدر الصليبيين ونقضهم للعهود ، وعدم إيفائهم بالتزاماتهم تجاه المسلمين حسب ما تقتضيه مصالحهم ، إذ انهم ((***هادنوا لما ضعفوا ويفسخون إذا قووا***)) [6] فعلى سبيل المثال ((***كان الابرنس ارناط صاحب الكرك كثير الغدر والخبث ، وكان قد هادن السلطان (صلاح الدين) وسالمه ، فامنت الطريق بين مصر والشام وتواصلت القفول ... ثم انه لاحت له فرصة في***

---

[1] الروضتين ، ج٢ ، ص ١٦١-١٦٢ .

[2] الكامل ، ج١١ ، ص ٥٤٧ .

[3] مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٢١١-٢١٢ .

[4] الاصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٦ .

[5] البرق الشامي ، ج٣ ، ١٨١ .

[6] الروضتين ، ج٢ ، ص٢٠٣ .

الغدر فغدر بقافلة عظيمة فيها نعم جليلة فأخذها بأسرها)) [1] ، كما ذكر ابن شداد حادثة أخرى تبين غدر ريتشارد قلب الأسد ملك إنكلترا ***Richard Coer Lion*** ونكثه للعهد بعد ان آمنهم ((***فغدر بهم الملعون ، واظهر ما كان ابطن ، وفعل ما أراد ان يفعله بعد ان اخذ المال والأسارى على ما اخبر به أهل ملته فيما بعد ... ثم احضروا من الأسارى المسلمين من كتب الله شهادته في ذلك ، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الحبال ... حملوا عليه حملة الرجل الواحد ، فقتلوهم صبراً طعناً وضرباً بالسيف***)) [2] .

وفيما يتصل بأخلاقهم فقد أورد ابن منقذ بعض الحوادث تدل على ان الصليبيين كانوا قوماً ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج واقف بناحية أخرى ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طولت أو تأخرت عليه تركها مع المتحدث ومضى [3] وهنالك صور أخرى أشار إليه في موضع آخر من كتابه توضح حالة التفسخ والانحلال الخلقي الذي ساد أوساطهم في مدن مملكة بيت المقدس الصليبية [4] .

ومن دون شك ان مثل تلك الحوادث تثير الدهشة والاستغراب عند سماعها ، كما أنها تشير إلى المستوى الأخلاقي المتدني عند الصليبيين ، الأمر الذي يدل على انهم كانوا يعيشون في ظلام دامس في الغرب الأوربي ، وعلى الرغم من إقامتهم في بلاد الشام ، إلا انهم تمسكوا ببعض العادات والتقاليد البالية ، التي تتنافى مع العادات والتقاليد والأخلاق الإسلامية التي تتمسك بالفضيلة والشرف [5] ويرجح احد الباحثين ان الصليبيين كانوا يحملون خصائص ثقافية موروثة لم يتخلوا عنها حتى بعد استيطانهم في بلاد الشام [6] .

---

[1] ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

[2] النوادر السلطانية ، ص ١٧٤ .

[3] الاعتبار ، ص ١٣٥ .

[4] نفسه ، ص ١٣٦ .

[5] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٧٩ .

[6] قاسم ، " بعض مظاهر " ، ص ٣٩٠ .

ثالثاً : العادات والتقاليد

تختلف العادات والتقاليد من بلد لاخر وذلك حسب تنوع البلدان ، كما ان لكل شعب عادات معينة تختلف عن عادات الشعوب الأخرى ، فقد كان للصليبيين الذين استوطنوا في مملكة بيت المقدس الصليبية عاداتهم وتقاليدهم الخاصة بهم :

١ .الأعياد الدينية والمدنية

ونظراً لأهمية الأعياد الدينية والمدنية وتأثيرها في أوساط الصليبيين في بلاد الشام ، فقد ارتأينا ان نبدأ بها وهي كثيرة ومتنوعة ، ويأتي على رأس تلك الأعياد الدينية :

اولاً : عيد الميلاد ويقصد به الاحتفال بيوم مولد السيد المسيح (عليه السلام) [(١)] وكان الاحتفال بعيد الميلاد يتم في مدينة بيت لحم ، إذ يقوم البطريرك باقامة الشعائر الدينية في

[(١)] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٨٢ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٤٨٨ ؛ ماير ، تاريخ الحروب ، ص ٢٤٩ .

كنيسة الميلاد ***(كنيسة المهد)*** ***The Church of The Nativity of Christ*** [١] ، احتفالاً بمولد السيد المسيح (عليه السلام) [٢] وقد أشار الشارتري إلى ذلك الاحتفال في فترة مبكرة من استيطان الصليبيين في بلاد الشام قائلاً : ((***في عام ٤٩٤هـ/١١٠١م وفي اليوم الأول من ذلك العام حملنا سعف النخيل بعد ان قطعنا الأغصان في اريحا كما جرت العادة***)) [٣] وكان المحتفلون آنذاك يكثرون من إيقاد المصابيح في الكنائس والمنازل [٤] ، ما كانوا يكثرون من إشعال النيران في ذلك اليوم ، ثم يتوجهون إلى الكنائس لاقامة القداس ، ويعدون الكثير من أنواع الأطعمة والاشربة احتفالاً بتلك المناسبة [٥] .

ثانيا : عيد الفصح وهو من الأعياد الدينية الكبرى لدى الصليبيين الذي كانت تشهده مدينة القدس مقر المملكة الصليبية [٦] ، وزعموا انه في ذلك اليوم ان السيد المسيح (عليه السلام) صعد إلى السماء ووعدهم بإرسال روح القدس [٧] ، وكان موعد ذلك العيد يوم إفطارهم بعد صيام أربعين يوماً [٨] إلا أن الطقوس الخاصة به كانت تقام على جبل الزيتون [٩] عندها يتولى بطريرك القدس اللاتيني إقامة الشعائر الخاصة بذلك العيد [١] .

---

[١] كنيسة الميلاد (كنيسة المهد) : شيدت فوق كهف في مدينة بيت لحم على شكل صليب لها حوالي خمسين عموداً وثلاثة أبواب ويستطيع الشخص النزول إلى باب الكهف المقدس على سبع درجات وعند الدخول من الباب الشرقي يوجد في الجهة اليسرى على الأرض الموقع الذي ولد فيه السيد المسيح (عليه السلام) حسب اعتقادهم ، وفوق ذلك المكان مذبح يحتفلون بالقداس عليه . ينظر : دانيال الراهب ، رحلة الحاج الروسي ، ص ٨٥ .

[٢] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٨٢ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٦٥ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٤٩ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٨٠ .

[٣] تأريخ الحملة ص ٨٣ .

[٤] دانيال الراهب ، رحلة الحاج الروسي ، ص ١٣٥ ؛ شيخ الربوة ، نخبة الدهر ، ص ٢٨١ .

[٥] الغانمي ، بيت المقدس ، ص ٢١٥-٢١٦ .

[٦] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٨٣ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٩٤، ٥٠٢ .

[٧] شيخ الربوة ، نخبة الدهر ، ص ٢٨٠-٢٨١ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٢ ، ص ٤٥٤ .

[٨] دانيال الراهب ، رحلة الحاج الروسي ، ص ٧٧ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٢٥ .

[٩] جبل الزيتون : وهو جبل مرتفع جداً يقع في شمال شرق مدينة القدس ويفصله عن المدينة وادي جوسفات الذي يعرف بأسماء مختلفة منها (وادي القديسة مريم) و (وادي جهنم) و (وادي سلوان) و (وادي النار) و

والحقيقة ان ذلك العيد هو عيد قديم استمر خلال الفترة الإسلامية ، وقد أكد المؤرخ يحيى بن سعيد الانطاكي حرص السلطات الإسلامية على ان يحتفل النصارى بذلك العيد بكل اطمئنان ، فقد أورد ذلك المؤرخ ان النصارى كانوا حين يحتفلون بعيد الفصح يخرج معهم الوالي المسلم ومعه بعض رجاله ليمنع الناس من التعرض لهم باذى [(٢)] كما ذكر المقريزي عيد الفصح في أحداث سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م ((***وفيها خرج النصارى من مصر إلى القدس لحضور الفصح بقمامة على عادتهم في كل سنة بتجمل عظيم كما يخرج المسلمون إلى الحج***)) [(٣)] .

أما طريقة الاحتفال فقد كانت على النحو الآتي : في صباح ذلك اليوم يتوجهون إلى كنيسة القيامة التي تفتح أبوابها لاستقبال الزائرين ، وتنفرد كل طائفة بمكان معين من الكنيسة حيث تقوم بأداء طقوسها ، هم متحلقون حول رهبانهم وشمامستهم ، فيقوم كل شماس بقراءة أسفار من الإنجيل ، كما يقرأ القداس بلغة تلك الطائفة ، وتقام في عيد الفصح الأسواق داخل ساحات كنيسة القيامة حيث تباع أنواع كثيرة من الأطعمة والاشربة وغيرها ، ويظلون على ذلك حيث تضج الكنيسة بأصواتهم وصخبهم وغنائهم حتى منتصف الليل حيث تقرع الأجراس وتستمر الاحتفالات طوال تلك الليلة [(٤)] .

أما في الفترة الصليبية فقد اختلف الاحتفال بعيد الفصح عن الفترة السابقة للاحتلال الصليبي إذ اصبح نصارى القدس يحملون عيدان النخيل واغصان الزيتون في احتفال يبدأ من كنيسة العيزرية في ضواحي القدس ، ويمرون عبر شوارع المدينة رافعي الصليب وهم يترنمون بالأناشيد حتى يصلوا كنيسة القيامة حيث ينتهي الاحتفال [(٥)] .

(وادي قدرون) و (وادي الدموع) ، وسمي جبل الزيتون بهذا الاسم لكثرة أشجار الزيتون المزروعة عليه ، واطلق عليه الصليبيون اسم جبل الأنوار ويدعى أيضاً جبل الطور. ينظر : دانيال الراهب ، نفسه ، ص ٦٧ ، هامش رقم (٢) .

[(١)] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٤٢٥ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٨٠ .

[(٢)] تأريخ يحيى بن سعيد ، نشر مع التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق لسعيد بن البطريق ، تحقيق : لويس شيخو (مطبعة الاباء اليسوعيين ، بيروت : ١٩٠٩م) ، ص ١٩٤ .

[(٣)] اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ٧٤ –٧٥ .

[(٤)] الغانمي ، بيت المقدس ، ص ٢١٦ .

[(٥)] النقر ، " التغيرات الإدارية " ، ص ٦٧٦ .

وقد قدم لنا الرحالةالروسي دانيال الراهب وصفاً دقيقاً لطقوس احتفال عيد الفصح بأنه ((***... قبل شروق شمس يوم الأحد كان يتجمع رجال الدين من جميع كنائس القدس وما حولها من جبل صهيون [(١)] وجبل الزيتون ويتوجهون إلى العيزرية وعلى رأسهم البطريرك وصاحب خزائن كنيسة القيامة وهو يحمل الصليب المقدس وفي ذات الوقت كان سكان المدينة يتجمعون ومعهم الحجاج في ساحة قبة الصخرة وهم يحملون عيدان النخيل واغصان الزيتون ، ثم بعد ذلك يقوم أحد كبار رجال الدين بقيادة المحتفلين من ساحة قبة الصخرة إلى باب أريحا ، ومن ثم يخرجون من ذلك الباب إلى وادي جهنم حيث كان يتم لقاء رجال الدين والبطريرك (ومعه الصليب) مع بقية المحتفلين ، ومن ثم يقود البطريرك الموكب باتجاه البوابة الذهبية (باب الرحمة) ، والذي يفتح خصيصاً كل سنة لهذه المناسبة ثم يعاد سده بعدها وينتهي الاحتفال بدخول الموكب إلى ساحة قبة الصخرة حيث تقام الصلوات ...***)) [(٢)] .

وتجدر الإشارة هنا إلى ان الملك بلدوين الأول حضر عيد الفصح سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م ،لابساً التاج على رأسه وطبقاً للعادات الملكية التي اتبعها الصليبيون ، أقام الملك بلدوين الأول وليمة كبيرة في البلاط الملكي في مدينة القدس ، حضرها الزعماء الدينيون والعسكريون ، فضلاً عن حشد من عامة الصليبيين [(٣)] .

ثالثا : عيد الشموع ***Cndlemas*** الذي كان يحتفل به الصليبيون في الثاني من شباط من كل من سنة [(٤)] ، وقد صور ابن جبير احتفالهم بذلك العيد عندما كان معهم على ظهر مركب في ميناء عكا ينتظر الابحار نحو جزيرة صقلية قائلاً : ((***احتفلوا له في اسراج الشمع ، وكاد لا يخل أحدمنهم صغيراً أو كبيراً ذكراً أو انثى من شمعة في يده وتقدم قسيسوهم للصلاة في***

[(١)] جبل صهيون : هو جبل كبير مرتفع يقع جنوب شرق مدينة القدس ، وقد أقيمت عليه كنيسة تحمل الاسم نفسه . ينظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٤٣٦ .

[(٢)] رحلة الحاج الروسي ، ص ١٣٦ .

[(٣)] نفسه ، ص ١٦٧ .

[(٤)] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٤١٩ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ١٦٩ ، ٣٨٠ .

المركب بهم ، ثم قاموا واحداً واحداً لوعضهم وتذكيرهم بشرائع دينهم ، والمركب يزهر كله واسفله سراجاً متقدة)) [١] .

رابعاً: عيد الصعود والذي كان يحتل به النصارى الشرقيون والغربيون (الصليبيون) في ١٥ آب من كل سنة على جبل صهيون في المدينة المقدسة [٢] .

أما الأعياد المدنية التي استحدثها الصليبيون في القدس الاحتفال بيوم ١٥ تموز من كل سنة ، وهو عيد خاص بمناسبة ذكرى احتلال المدينة المقدسة وتدشين كنيسة القيامة [٣] وكان ذلك العيد قد اقر بمرسوم اتفق عليه كبار القادة الصليبيين سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م ، قضى بان يعد ذلك اليوم يوماً مقدساً تخليداً للاحتلال [٤] ، وقد وصف الرحالة الألماني يوحنا الورزبرجي ***John Wurzburg*** ذلك الاحتفال قائلاً : ((***... ففي الصباح الباكر من هذا اليوم ، كان البطريرك اللاتيني يقود مسيرة من كنيسة القيامة إلى كنيسة السيد (قبة الصخرة) حيث تتوقف الجموع لاقامة الصلوات في الساحة الواقعة بينها (كنيسة السيد) وبين معبد سليمان (المسجد الاقصى) ، وبعد الانتهاء من الصلوات كان المجتمعون يتوجهون إلى خارج أسوار المدينة حيث قبور (الصليبيين) الذين سقطوا أثناء اقتحام المدينة ، وبعد الانتهاء من زيارة (قبور الصليبيين) تعود المسيرة إلى القدس حيث تعبر الشارع العام وتسير باتجاه السور الشمالي للمدينة ، حيث المنطقة التي دخل منها الفرنجة ، وفي هذا المكان كان البطريرك يلقي موعظة بالناس مجتمعين ، ثم تقام صلوات الشكر قبل ان يتفرق الجمع ...***)) [٥] .

---

[١] رحلة ، ص ٢٨٦ .

[٢] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٤٩ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٨٠-٣٨١ .

[٣] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٧٦-٧٧ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٤٤٣ .

[٤] الصوري ، نفسه ، ج١ ، ص ٤٤٢ .

[5] *Description of the Holy Land , By Aubrey Stewart , in Palestine pilgrims text Society , (No p. , New york : 1971) , Vol. V , p. 39 .*

نقلا عن : النقر ، " التغيرات الإدارية " ، ص ٦٧٦-٦٧٧ .

وكذلك الاحتفال بالذكرى السنوية لانتخاب جودفري البويوني كأول حاكم لمملكة بيت المقدس الصليبية [١]، وقد قدم الرحالة يوحنا الورزبرجي وصفاً مقتضباً لذلك الاحتفال فأشار إلى ان سكان مدينة القدس ((***...كانوا يجتمعون في الكنيسة (كنيسة القيامة) ، ثم يخرجون في مسيرة عبر شوارع المدينة حتى يصلون القصر الملكي حيث كانت تقام وليمة كبيرة ...وكان أغنياء القدس يقومون بتوزيع الصدقات الكثيرة على الفقراء في كنيسة القيامة كما كان يفعل جودفري عندما كان حياً ...***)) [٢] .

وقد أكد أحد المؤرخين المحدثين على ان تتويج ملك جديد لمملكة بيت المقدس الصليبية كان من المناسبات الهامة وفيها تقام وليمة كبيرة في القصر الملكي يدعى لها كل نبلاء المملكة الصليبية وفرسانها وكانت العادة المتبعة في تلك المناسبة ان يقوم أفراد الطبقة الوسطى في القدس بإعداد تلك الوليمة [٣] .

٢. الزواج

أما فيما يتصل بموضوع الزواج والقواعد التي تحكمه ، فقد اتبع المجتمع الصليبي في بلاد الشام القوانين والأعراف المرعية في أوربا آنذاك التي عدت الزواج سراً مقدساً ومنحة الهية ، فحرمت فصم عرى هذا الرباط إلا في حالة ارتكاب الزنا ، وقد كان كل من التكافؤ والموافقة مبدأين أساسيين في قانون الزواج عند الصليبيين ، كما قبلوا القاعدة القانونية الرومانية التي حددت سن الثانية عشر كحد أدنى لزواج الفتاة وسن الثالثة عشر كحد أدنى لزواج الفتى [٤] .

وعلى الرغم من تلك الضوابط الاان تطبيقها كان شكلياً وثمة امثلة كثيرة توضح نماذج الزواج القسري التي فيها دلالة على ابتعاد الصليبيين عن مراعاة قوانين الزواج المنصوص عليها آنفا . فقد كان على نساء الأسرة الحاكمة ان يتزوجن مكرهات دون رغبتهن طالما الزواج ينصب في مصلحة المملكة الصليبية ، فعلى سبيل المثال زوجت ميليسند كبرى بنات الملك بلدوين

---

[١] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٧٧ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٤٧٧ ؛ مونرود ، تأريخ الحرب ، ص ٢١١ .

[2] Description , Vol. V , p. 40 . نقلاً عن : النقر ، التغيرات الادارية ، ص ٦٧٧ . .

[٣] النقر ، " التغيرات الإدارية " ، ص ٦٧٧ .

[٤] الطراونة ، المرأة الصليبية ، ص ٥٨ .

الثاني من الملك فولك الانجوي وهو في الستين من عمره لاجل تامين وجود حاكم لمملكة بيت المقدس الصليبية ، كما زوج الملك بلدوين الرابع أخته الكبرى سيبل من وليم مونتفرات سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م لضمان عرش المملكة الصليبية [١] .

ولم يقف الأمر على الزواج القسري بل كان هنالك الطلاق القسري الذي مارسه الصليبيون الذي عانت منه بعض النساء . فعلى سبيل المثال الملك بلدوين الأول اقدم على طلاق زوجته الأرمنية اردا خلافاً لقواعد الكنيسة وذلك لسببين أولهما : أن الملك طلقها لكي يتزوج امرأة أخرى اكثر ثراء وارفع منزلة ، وثانيهما : أن الملكة كانت مهملة وغير مكترثة في الحفاظ على روابط الزواج وبذلك أثارت غضب زوجها [٢] خاصة وانهما لم ينجبا من الأطفال ما يربطهما سوياً ، ولما لم يجد الملك بلدوين الأول أدنى فائدة سياسية بعد بضع سنوات من زواجه بالأميرة الأرمنية طردها من البلاط الملكي بعد أن اتهمها بالزنا [٣] وليس ذلك فحسب بل اجبرها على أن تصبح راهبة في دير القديسة حنة في القدس فعاشت فيه لمدة قصيرة ثم تلقت موافقة الملك على طلبها بالالتجاء إلى القسطنطينية ، حيث تقيم أسرتها هنالك [٤] ، وهنالك مثال آخر على الطلاق القسري فالملك املريك الأول أرغم على طلاق زوجته اجنيس عندما طالب بعرش مملكة بيت المقدس الصليبية بموجب الحق الوراثي عقب وفاة أخيه الملك بلدوين الثالث على ان هذا الطلاق وقع لمعارضة فولشر بطريرك القدس (٥٤٠-ـ ٥٥٢هـ /١١٤٥-١١٥٧م) على اعتبار انهما كانا اقرباء من الدرجة الرابعة من حيث النسب [٥] .

وبعد وفاة الملك بلدوين الرابع سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م انتقل العرش الصليبي إلى أخته سيبل ، وقد كرهت على الانفصال من زوجها الثاني جاي لوزجنان لان مجلس المملكة والقادة الصليبيين رأوا فيه شخصاً غير أهل للعرش بسبب ضعفه الإداري وسلوكه السلبي مع الملك بلدوين الرابع ، ولكن عندما اختلفوا على زوج مناسب لها حسمت هي الخلاف وقامت بوضع

---

[١] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٥٢، ٩٨٨ .

[٢] نفسه ، ج١ ، ص ٥١٨-٥١٩ .

[٣] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٦٦ .

[٤] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج ١ ، ص ٥١٨-٥١٩ .

[٥] نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٨٣ .

التاج الملكي على رأس جاي لوزجنان [١] ، وإزاء ذلك الموقف قال الاصفهاني : ((***وانتقل الملك إليها واجتمع الفرنج عليها فقالت لهم زوجي اقدر وهو أحق بالملك واجدر وأخذت التاج من رأسها فوضعته على رأسه***)) [٢] .

وعلى وفق القاعدة الصليبية التي جرت عقب استيطان الصليبيين في بلاد الشام تمتعت النساء الصليبيات بكامل الحرية في اختيار أزواجهن غير ان تلك القاعدة لم تلبث ان تغيرت فصار ملك مملكة بيت المقدس الصليبية يفرض على الأرامل الزواج بمن يرشحه لهن من الفرسان ، أما من المستوطنين في بلاد الشام أو القادمين من الغرب [٣] ، فعلى سبيل المثال تزوج هيو بوزيه الثاني أمير يافا من ايما أرملة يوستاس جارنييه حاكم قيسارية وصيدا سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م بدعم من الملك بلدوين الثاني [٤] ، كما تزوج مناسيس هيرج من هيلفيس أرملة باليان بارزان حاكم يبنى سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م ، بتأييد الملكة ميليسند لاجل توثيق الصلة بين الملكة وبين ابن عمها الكندسطبل مناسيس الذي اتخذته مستشاراً لها عقب وفاة زوجها فولك الانجوي [٥] .

وتزوج ارناط من الأميرة كونستانس أرملة ريموند وريثة عرش انطاكية في سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م ، كما تزوج ريموند الثالث حاكم طرابلس من ايشفيا أرملة والتر أمير الجليل سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م [٦] ، وقدم الملك املريك الأول انتيت مللي أرملة همفري الثاني حاكم تبنين ووريثة عرش الكرك والشوبك عن أبيها فيليب مللي كزوجة إلى صنجيله ميلو فانسي في السنة ذاتها [٧] ، وفي سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م تزوج باليان ابلين الأصغر ***Balian Ibelin*** من الملكة ماريا كومنين ***Maria Comnena*** أرملة الملك املريك الأول [٨] ، ويبدو ان اتباع الملوك

---

[١] نفسه ، ج٢ ، ص ٧٠٩-٧١٠ .

[٢] الفتح القسي ، ص ١٤ .

[٣] العريني ، " نمو طبقة النبلاء " ، ص ٤٤ .

[٤] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ٦٧٤ .

[٥] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص٣٧٦ .

[٦] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٨٢٤ ، ٩٧٧ .

[٧] نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٧٤ -٩٧٥ .

[٨] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ١٩٠ .

الصليبيين سياسة تزويج أرامل البارونات من فرسان مناسبين كان الحل الأمثل في نظرهم نتيجة للضرورات السياسية لاجل الحفاظ على الكيان الصليبي في بلاد الشام .

وتجدر الإشارة إلى ان العرف الصليبي لم يعترف بزواج الأرملة خاصة إذا كانت حاملاً ما لم تمضِ سنة على وفاة زوجها والا سيكون حدادها على زوجها المتوفي معيباً ، وقد وجد الصليبيون في هذا العرف سلاحاً شهروه في وجه كونت فلاندرز فيليب الألزاسي ***Philip Alsace*** ، الذي قدم من الغرب إلى فلسطين سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م لتزويج ابنتي الملك املريك الأول سيبل وايزابيلا من ولدي أحد اتباعه ويدعى روبرت ، وذلك للسيطرة على مقدرات المملكة من خلال هذا الزواج إلا ان الصليبيين أجهضوا خطة الكونت لان الأميرة سيبل كانت أرملة منذ ثلاثة اشهر اثر وفاة زوجها وليم مونتفرات [١] .

وقد ربط الصليبيون أنفسهم عن طريق الزواج بمحاولات تحالف مع كل من مملكة أرمينية الصغرى وصقلية وبيزنطة لأغراض سياسية ، إذ كانت اراد الزوجة الأولى للملك بلدوين الثاني أرمنية الأصل أما زوجته الثانية فهي الكونتيسة اديليا سالونا أرملة روجر الأول ملك صقلية (٤٥٣-٤٩٥هـ/١٠٦١-١١٠١م) ، وقد تزوجها بلدوين من اجل ثروتها في سنة ٥٠٧هـ/١١١٣م ، ولانه أراد أن يحصل على دعم ابنها روجر الثاني (٥٠٨-٥٢٤هـ/١١٢٩-١١٥٤م) الدبلوماسي والبحري في توسيع نفوذه في بلاد الشام [٢] ، كما تزوج الملك بلدوين الثاني من الأميرة الأرمنية مورفيا ، وفي سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م تزوج الملك بلدوين الثالث الأميرة البيزنطية ثيودورا ***Theodora*** ابنة أخ الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول ***Manuel I*** (٥٣٨-٥٧٦هـ/١١٤٣-١١٨٠م) ، أما أخوه الملك املريك الأول فقد تزوج بالأميرة البيزنطية ماريا كومنين [٣] ، ويرى احد المؤرخين المحدثين أن المصاهرات السابقة ادت إلى توثيق العلاقة بين الصليبيين والارمن والبيزنطيين ودفعت ببلدوين الثالث إلى التخطيط لحلف كبير يضم جميع القوى النصرانية في بلاد الشام لاجل القضاء على نور الدين زنكي واحتلال مصر [٤] .

---

[١] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٦٦٩-٩٧٠ .

[٢] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ١١٤ ؛ الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٥٠-٥٥١ .

[٣] الصوري ، نفسه ، ج ١ ، ص ٥١٨، ٥٧٤ ، ج٢ ، ص ٨٦٠ ، ٩٨٧ .

[٤] نفسه ، ج٢ ، ص١٧٦ .

أما عن الزواج من المسلمين فقد حرم الصليبيون زواج أبنائهم وبناتهم من بنات المسلمين وابنائهم إذ اصدر مجمع نابلس الكنسي سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م قراراً يمنع بموجبه الزواج من المسلمات وحدد عقوبة الخصاء وجدع الآنف لكل من اقدم على خلاف ذلك [(١)] وعلى الرغم من ان الصليبيين كانوا يتشددون في مسألة المصاهرة مع المسلمين إلا انهم لم يلتزموا بتنفيذ ذلك المبدأ بدليل عرض الزواج الذي قدمه الملك الإنكليزي ريتشارد قلب الأسد للملك العادل بن أيوب شقيق صلاح الدين الأيوبي وسعيه لتزويج أخته الملكة جوانا ***Joanna*** ملكة صقلية [(٢)] رغبة في المصالحة والمسالمة ، وكاد ذلك الزواج ان يتم لولا معارضة رجال الدين الصليبيين ، فقد دخلوا ((***على المرأة وخوفوها في دينها وعنفوها ، وقالوا لها ما معناه : هذه فضيحة فظيعة ، وأنت عاصية للمسيح لا مطيعة فرجعت عن ذلك***)) [(٣)] .

أما عن حفلات الزواج عند الصليبيين فقد حضر الرحالة ابن جبير إحدى حفلات الزواج التي أقيمت في مدينة صور ، ووصف لنا مظاهر ذلك الحفل وصفاً دقيقاً فقال : ((***ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدث بها زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء . واصطفوا سماطين (صفين) عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها من يمين وشمال كأنهما من ذوي أرحامها وهي في ابهى زي وافخر لباس تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم وعلى رأسها عصابة ذهب ، وقد حفت بشبكة ذهب منسوجة ، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم ، وهي رافلة في حليها وحللها ، تمشي فترا في فترا مشي الحمامة أو سير الغمامة نعوذ بالله من فتنة المناظر ، وأمامها جلة رجالها من النصارى في افخر ثيابهم البهية تسحب أذيالهم خلفهم ووراءها اكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات يتهادين في أنفس الملابس ويرفلن في ارفل الحلي ، والآلات اللهوية قد تقدمتهم ...***)) [(٤)] .

[(١)] نفسه ، ج٢ ، ص٢٣١ .

[(٢)] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٣ ، ص ١١٦ .

[(٣)] أبو شامة ، الروضتين ج٢ ، ص ١٩٣ .

[(٤)] رحلة ، ص ٢٧٨-٢٧٩ .

وقد ذكر الصوري مثالاً آخر لحفل زواج صليبي آخر في حصن الكرك تم بين همفري الثالث حاكم تبنين وايزابيلا الأخت الصغرى للملك بلدوين الرابع في سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م ، وفي ذلك قال : ((***امتلأت القلعة من داخلها بأعداد كبيرة من الناس من كل نوع وكن كلا الجنسين ...وكان هنالك عدد كبير من الممثلين والبهلوانيين والموسيقيين واناس آخرون ، ممن اندفع إلى هناك من سائر أنحاء المنطقة لحضور المهرجانات المرافقة للزفاف***)) ، غير أن ذلك الحفل عطله ظهور الناصر صلاح الدين فجأة أمام حصن الكرك ((***وأحبطت توقعات هؤلاء جميعاً بشكل محزن لانهم واجهوا معارك عسكرية وأعمالا حربية في الموقع الذي كانوا قد توقعوا ان يجدوا فيه مكاسب ويحتفلوا فيه بالزواج بابتهاج***)) [١] وازاء ذلك الموقف أرسلت والدة العريس ستيفاني أطباقا من أطعمة العرس إلى الناصر صلاح الدين ، الذي أرسل في مقابل ذلك يسأل بأي الأبراج ينزل العروسان ، ثم اصدر أوامره بالا يتعرض هذا البرج للقذف من أدوات الحصار [٢] ويبدو ان طقوس الزواج التي اتبعها المستوطنون الصليبيون في مملكة بيت المقدس الصليبية كانت امتداداً لما كان سائداً في الغرب الاوربي في العصور الوسطى آنذاك .

---

[١] تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ١٠٦٥-١٠٦٧ .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٧١٢ .

٣.الملابس والأزياء

عاشَ الصليبيون في بلاد الشام حياة اقرب إلى الرفاهية على الرغم من استمرار الحروب بينهم وبين المسلمين [١] ، فقد اهتموا بشراء الملابس الثمينة التي تضفي عليهم الفخامة والأبهة ، ولاسيما ان ما اتخذوه من الملابس والأزياء قد اتخذ الطابع الشرقي [٢] خاصة ان الملابس الشرقية كانت تمتاز بحجمها المناسب لجو الشرق ، فضلاً عن ألوانها الزاهية الموشاة [٣] بالحرائر والتطاريز [٤] وقد كانت تلك الملابس مصنوعة من الصوف أو القطن أو الكتان أو الحرير ومتنوعة الألوان ومزينة بشكل متألق بخيوط الذهب والفضة ، ومع مرور السنين تخلى الفرسان عن الأزياء الغربية [٥] فقد كان الفارس الصليبي في أوقات السلم يرتدي برنساً من الحرير ويضع العمامة فوق رأسه بينما في أوقات الحرب كان يرتدي فوق درعه سترة من الكتان لاجل الوقاية من حرارة الشمس أثناء خروجه للقتال ويضع على خوذته كوفية مثل تلك التي يضعها الفارس العربي على رأسه [٦] كما اتخذوا الأثواب الحريرية الناعمة وارتدوا الفراء في موسم

---

[١] توفيق ، مملكة بيت المقدس ، ص ١٣٠ ؛ سعداوي ، الحرب والسلام ، ص ١٦٩ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٧٥ .

[٢] النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٤٧ ؛ قاسم ، "بعض مظاهر " ، ص ٣٩٣ .

[٣] الوشي : قماش من الحرير الملون مثقل بالذهب كان يعمل في اليمن والعراق ومصر . ينظر : ماجد ، العلاقات ، ص ٧٥ ، هامش رقم (١) .

[٤] النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٤٧ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٧٥ .

[٥] بردج ، تأريخ الحروب ، ص ١٢١ .

[٦] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٥٠٩ ؛ المدنية البيزنطية ، ص ٢٢٢ .

الشتاء [١] وبذلك اقلعوا عن لباسهم الأوربي وتعلقوا بالأزياء والملابس الشرقية التي كانت ادعى إلى الراحة [٢] .

أما النساء فقد اعجبن بالأزياء الشرقية وتركن ملابسهن التقليدية واتخذن الأثواب الشرقية والفساتين الطويلة المزينة برقائق الذهب والفضة في فصل الصيف بينما يرتدين الفراء في فصل الشتاء مثلما يفعل أزواجهن ، ويتخذن الحجاب إذا ما خرجن من البيوت ليس احتشاماً أو من منطلق ديني مثل المرأة المسلمة بل لوقاية الطلاء والمساحيق الذي غطى وجوههن ، فضلاً عما جرين عليه من التأنق في سيرهن [٣] ، وليس ذلك فحسب بل رغبة منهن في محاكاة المسلمات ألارقى منهن حضارياً ، وفوق ذلك كله اعتقادهن بان الحجاب يثير حب الاستطلاع عند الرجال ، ويزيد المرأة حسناً بنسيجه الموشى بالذهب [٤] ويبدو ان المرأة الصليبية كانت اسبق من الرجل في الإقبال على مظاهر الترف في الملبس والتنعم بحياة الرفاهية في بلاد الشام [٥]

---

[١] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١١٢ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٦٩ ؛ بردج ، تأريخ الحروب ، ص ١٢١ .

[٢] سعداوي ، الحرب والسلام ، ص ١٧٠ –١٧٧ ؛ العقيقي ، موسوعة المستشرقون ، ج١ ، ص ١٣٧ .

[٣] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٥٠٩ ؛ المدنية البيزنطية ، ص ٢٢٢ .

[٤] عاشور ، بحوث ودراسات في تأريخ العصور الوسطى (مطبعة الأحد ، بيروت : ١٩٧٧م) ،ص٥٢ .

[٥] النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٤٧ .

٤.الأطعمة والأشربة

ترتب على استيطان الصليبيين في بلاد الشام ومجاورتهم للعرب المسلمين واحتكاكهم بهم إلى اكتسابهم الكثير من الذوق الشرقي في الأطعمة والاشربة ، وفيما يتعلق بالأطعمة هنالك إحدى الروايات تشير إلى إعجاب بعض الصليبيين بطرائق المسلمين في إعداد الطعام وامتناعهم عن أتكل لحم الخنزير واتخاذهم طاهيات شرقيات ، فقد دعي ابن منقذ ذات مرة إلى : ((***دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج ... ، فاحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة ، وراني متوقفاً عن الأكل ، فقال : كل طيب النفس ، فانا ما أكل من طعام الإفرنج ، ولي طباخات مصريات ما أكل إلا من طبيخهن ، ولا يدخل داري لحم خنزير***))[١] وهذا يدل على نبذ الصليبيين الأسلوب الغربي في إعداد الطعام وطهيه[٢] وتعلمهم الامتناع عن أكل لحم الخنزير حتى انهم كانوا يؤكدون لضيوفهم من المسلمين انهم لا يجدون على موائدهم أي من المأكولات التي حرمها القرآن الكريم[٣] كما أن أساليب فن الطهي التي جلبها الصليبيون معهم من أوربا كان من العسير عليها أن تنافس الأطعمة المحلية الشرقية[٤] فقد أشار أحد المؤرخين المحدثين إلى أن الصليبيين في الكيانات الصليبية كانوا يأكلون أطعمة افضل بكثير من الأطعمة التي يأكلها أبناء جنسهم في وطنهم بأوربا ، ولم يكن طعامهم غنياً ومتنوعاً فحسب بل كان يطبخه السكان المحليون الذين كانوا بارعين في الطبخ ، فاشتهرت موائدهم بأطباق الدجاج وطيور الحمام ، كما كانت لحوم الأغنام والبقر والجمال والغزلان

---

[١] ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٤٠ .

[٢] عاشور ، بحوث ودراسات ، ص ٥٢ .

[٣] توفيق ، مملكة بيت المقدس ، ص ١٣٠ .

[٤] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١١١ .

والأرانب تطبخ مع الثوم والأعشاب الطيبة ، وفضلاً عن لحوم الأسماك التي كانت طعاماً مترفاً للصليبيين ، تضمنت موائدهم الرز وأنواع من الخضراوات كالباقلاء المطبوخة والخيار والخس وغيرها [١] .

ومن جانب آخر ان الصليبيين بصورة عامة احبوا الطعام العربي ، فألفوه واقبلوا عليه لذلك نجدهم يقبلون على التوابل والمشهيات في الطعام . وهذا شيء لم يألفوه من قبل . حتى اشتهر عن أبناء الغرب الأوربي وبخاصة من الإيطاليين بعد ذلك استخدامهم لتلك الأصناف [٢] واقتبسوا استخدام البهارات في الطعام من المسلمين في بلاد الشام [٣] كما استساغ الصليبيون الفاكهة الشامية بشكل خاص والشرقية بشكل عام مثل البرتقال والليمون والرمان والتفاح والموز والعنب والبطيخ والخوخ والتين واكثر من إضافتها إلى موائدهم ، فضلاً عن اهتمامهم بأكل مختلف أنواع اللحوم والخضراوات على انهم لم ينسوا تلك الأنواع من الأطعمة عقب طردهم من بلاد الشام وحرصوا على تذوقها أو استيراد ما يمكن استيراده منها [٤] .

أما في مجال الاشربة فقد تأثر الصليبيون في الذوق الشرقي ، فتعلموا بوجه خاص كثرة استخدامهم للسكر [٥]إذ عرفوا هذا النبات الذي كان منتشراً في مدن الساحل الشامي ، ولا سيما في مدينة صور ، وقد أفاد الصليبيون من السكر في حياتهم الاقتصادية [٦] فتعلموا صناعة الشراب المصنوع من السكر بل وأضافوه إلى الحلوى وتفننوا في صناعتها وتصنيفها [٧] وكانت

---

[١] بردج ، تأريخ الحروب ، ص ١٢٢ .

[٢] علي السيد علي محمود ، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين (عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الإسكندرية : ١٩٩٦م) ، ص ١٤٠ .

[٣] توفيق ، مملكة بيت المقدس ، ص ١٣٠ .

[٤] بردج ، تأريخ الحروب ، ص ١٢٢ ؛ محمود ، العلاقات الاقتصادية ، ص ١٤٠-١٤١ .

[٥] العقيقي ، موسوعة المستشرقون ، ج١ ، ص ١٣٧ .

[٦] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ٨١ ؛ الصوري ، تاريخ الحروب ، ج٢ ، ٦١٤ .

[٧] محمود ، العلاقات الاقتصادية ، ص ١٤٠ .

القهوة العربية شراب الكثير من الصليبيين [1] كما شربوا الخمور الشامية المسكرة ، التي تفنن في صنعها أهل الذمة المحليين [2] .

٥. النظافة والاستحمام

تأثر الصليبيون الذين استوطنوا في جميع أنحاء مدن مملكة بيت المقدس الصليبية بالكثير من عادات المسلمين أنواع البلاد الأصليين ، كالاستحمام في الحمامات العامة والعناية بنظافة أجسامهم [3] وهذا يعد اكبر تغيير في عاداتهم ومستوى صحتهم الشخصية ونظافتهم بعد ان كان الاستحمام في أوربا مكروهاً [4] وهذه العادة الجديدة استفزت جيمس الفتري الأسقف القادم من أوربا وعاب على الصليبيين انهم اصبحوا معتادين على الحمامات الشرقية والثياب الناعمة ، وزاد من حنقه ان لعنة الذهاب إلى الحمام للنظافة قد أصابت الرهبان والراهبات أيضاً [5] .

وقد أدى هذا التأثير إلى إنشائهم الحمامات العامة خاصة في بعض المستوطنات الصليبية منها على سبيل المثال الحمام العمومي الذي شيده الملك بلدوين الثالث في مستوطنة امبرت [6] ومهما يكن من أمر فقد جذب الاستحمام في الحمامات العامة أنظار الصليبيين ، وشجعهم على الذهاب إليها والاستحمام فيها [7] لدرجة ان بعض الأزواج الصليبيين سمحوا لزوجاتهم بالذهاب إلى الحمام ثلاث مرات أسبوعيا [8] ولم يقتصر الأمر على الاستحمام بل كان

---

[1] سعداوي ، الحرب والسلام ، ص ١٧٢-١٧٣ .

[2] توفيق ، مملكة بيت المقدس ، ص ١٣٠ ؛ محمود ، العلاقات الاقتصادية ، ص ١٤١ .

[3] عاشور ، أضواء جديدة على الحروب الصليبية (مطابع دار القلم ، القاهرة : ١٩٦٤م) ، ص ١٠٨ .

[4] بردج ، تأريخ الحروب ، ص ١٢١ .

[5] قاسم ، " بعض مظاهر " ، ص ٣٩٢-٣٩٣ .

[6] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٧٧ .

[7] ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٣٦ .

[8] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١١٣ ؛ قاسم ، " بعض مظاهر " ، ص ٣٩٣ ؛ بردج ، تأريخ الحروب ، ص ١٢٢ .

يجري في الحمام حلاقة شعر الرأس ، وإزالة الشعر من الجسم ، وكان الحلاق يقوم بإزالة الشعر للرجال بينما كانت تتولى البلانة إزالة الشعر من على جسم النساء [1] كما كانت تلك الحمامات تتيح الفرص للتلاقي والتعارف بين المسلمين و الصليبيين واقامة علاقات شخصية بين الطرفين تحدث ابن منقذ عن بعض منها [2] .

وتجدر الإشارة هنا إلى عادة الصليبيين في الذهاب إلى الحمام مع النساء فقد شاهد ابن منقذ عملية اختلاط الرجال بالنساء داخل إحدى الحمامات في مدينة صور الخاضعة للاحتلال الصليبي آنذاك ، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كانت عادة الصليبيين الاستحمام عراة من دون المئزر ، على العكس من المسلمين الذين يشدون المئزر أثناء الاستحمام في الحمامات العامة من اجل ستر عوراتهم [3] .

ويتضح ّمما سبق ان الصليبيين تأثروا بسكان البلاد الأصليين بالنسبة لعادة الذهاب إلى الحمام والاستحمام في الحمامات العامة ولكنهم اختلفوا عن المسلمين في مسألتين الأولى : انهم سمحوا لزوجاتهم بالاستحمام مع الرجال ، والثانية : انهم استغربوا في وضع المئزر لأجل ستر العورة واصروا على الاستحمام عراة ، ولعل هذا الأمر يشر إلى الفرق الشائع بين القيم الأخلاقية للمجتمع الإسلامي والقيم الأخلاقية للمجتمع الأوربي ، فالقيم الاجتماعية والأخلاقية في المجتمع الإسلامي ترتبط ارتباطاً قوياً بالعامل الديني ، بينما الأمر يختلف بالنسبة للمجتمعات الأوربية في العصر الوسيط [4] .

---

[1] عاشور ، أضواء جديدة ، ص ١٠٨ .

[2] الاعتبار ، ص ١٣٦ .

[3] الاعتبار ، ص ١٣٦-١٣٧ .

[4] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٧٧-٣٧٨ .

٦. الطب

وفيما يتعلق بعادات الصليبيين قي مجال الطب ، فقد آثروا التعامل مع الأطباء الشرقيين والإفادة من خبراتهم وخاصة ان الصليبيين كان يقدرون مهارة الأطباء الشرقيين [١] إذ ذكر ابن منقذ حادثة في هذا المجال أكدت ذلك ، وهي ان أميراً صليبياً طلب من عم أسامة ان يرسل له طبيباً لعلاج بعض الحالات المرضية ، فارسل له طبيباً نصرانياً ، اسمه ثابت دخل البلاد المحتلة فاحضروا له فارساً قد طلعت في رأسه دملة وامرأة قد لحقها نشاف [٢] فجعلهما وشفيا فجاءهم طبيب صليبي فقال لهم : ((***هذا ما يعرف شيء يداويهم ، وقال للفارس ايما احبوا اليك ان تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال اعيش برجل واحدة ، قال : احضروا لي فرساً قوياً وفأساً قاطعاً ، فضربه وانا اراه ضربه ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته ، وابصر المرأة ، فقال هذه امراة في رأسها شيطان قد عشقها احلقوا شعرها فحلقوه ... فاخذ الموس وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر***

---

[١] ديورانت ، قصة الحضارة ، ج١٥ ، ص ٣٤ ؛ العقيقي ، موسوعة المستشرقون ، ج١ ، ص ١٣٧ ؛ توفيق ، مملكة بيت المقدس ، ص ١٢٨ .

[٢] نشاف : والنشاف من جذر نشف يدل على ولوج ندى في شيء يأخذه ، ومنه نشف دخول الماء في الثوب والأرض حتى ينتشفاه . ينظر : احمد بن زكريا بن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ط٢ (مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة : ١٩٧٢م) ، ج٥ ، ص ٤٢٧ ؛ إذا هذا ما يؤكد بان المرأة أصيبت بالجفاف والشحوب الذي أشار إليه ابن منظور بان اصل النشاف : نشف ونشف الماء يبس . ينظر : لسان العرب ، ج٩ ، ص ٣٢٩ .

عظم الرأس وحكه بالملح فماتت في وقتها فقلت لهم : بقي لكم الي حاجة ؟ قالوا : لا ، فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم اكن اعرفه)) [١] .

ومن عجيب طبهم أيضاً ما نقله أسامة عن وليم بور ***William Burs*** حاكم طبرية أثناء مرافقته الأمير معين الدين انر نائب مجير الدين ابق حاكم دمشق (٥٣٤-٥٤٩هـ/١١٣٩-١١٥٤م) في زيارة من عكا إلى طبرية فحدثنا في الطريق قال ((***كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض واشرف على الموت ، فجئنا إلى قس كبير من قسوسنا قلنا تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلانا ؟ قال : نعم . ومشى معنا ونحن نتحقق انه إذا حط يده عليه عوفي ، فلما رآه قال : أعطوني شمعة ، فاحضرنا له قليل شمع ، فلينه وعمله مثل عقد الإصبع ، وعمل كل واحدة في جانب انفه ، فمات الفارس فقلنا له : قد مات ، قال : نعم ، كان يتعذب سددت انفه حتى يموت ويستريح))*** [٢] تلك كانت الوسائل المفضلة في المعالجة التي حاول بها أطباء أوربا عن طريق مسوح الكهنوت والرهبان إنقاذ المرضى وتخلصهم من الالم [٣] ويتضح من هذه الرواية ان فكرة إراحة المريض من المرض الذي لا يرجى شفاءه فكرة قديمة لدى الأوربيين مع انها تتنافى مع تعاليم الاديان السماوية التي تنص على تحريم قتل النفس البشرية التي حرم الله لها إلا بالحق [٤] .

ولم يحاول الأطباء الصليبيون الاستفادة والتعلم من الوصفات الطبية العربية الإسلامية فعندما شعر الملك املريك الأول بالمرض أمر باستدعاء الأطباء السوريين الذين اشتهروا بمهارتهم في الطب فقدموا له علاجاً غير انه رفض العلاج وامر باستدعاء أطباء صليبيين فقدموا له علاجاً إلا انه لم يشف بل ان الدواء أدى إلى استمرار الوضع الصحي السيء للملك فباغتته حمى شديدة أضعفت جسده الأمر الذي أدى إلى وفاته [٥] وعلى الرغم من ان هذا النص يوضح مدى التخلف الحضاري وفشل بعض الأطباء في معالجة قسم من الحالات المرضية إلا ان

---

[١] الاعتبار ، ص ١٣٢-١٣٣ .

[٢] ابن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٣٧-١٣٨ .

[٣] زيغرد هونكة ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة : فاروق بيضون وكمال دسوقي ، ط٢(منتشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت : ١٩٦٩م) ، ص ٢١٨ .

[٤] الحارثي ، " رؤية أسامة بن منقذ " ، ص ٢٨٦ .

[٥] الصوري ، تاريخ الحروب ، ج ٢ ، ص ٩٧٠ .

هنالك البعض الاخر منهم قد برع في استخدام وسائل الطب البدائية ومصداق ذلك ما شاهده ابن منقذ من أن أحد الفرسان الصليبيين كان قد تعرض ساقه لضربة رمح ((***فعملت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعاً والجراح كلما ختم موضع فتح موضع ، وانا ادعوا بهلاكه ، فجاءه طبيب إفرنجي فازال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق ، فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان***)) [١] .

تلك هي أسس الحياة في الشرق حيث كان المقيمون الصليبيون يدركون الاخطار التي تهدد بقاءهم ويعلمون ان المسلمين عازمون على محاربتهم وازالة مملكتهم الصليبية ، ولكنهم كانوا ياملون انه بالمرونة والصداقة والدبلوماسية الماهرة قد يبعدون عنهم اليوم الاسود او قد يستطيعون جعل أنفسهم مقبولين كعامل دائمي في الشرق ، غير انهم لم يستطيعوا العمل من دون إمدادات من الغرب ، وعلى الرغم من ان تلك الامدادت لم تفهم دقة الدبلوماسية الشرقية وكانت كل حملة صليبية تزيد من الوضع سوءاً فوقع على عاتق المسلمين مسؤولية إقصاء أولئك الدخلاء عن الأراضي العربية الإسلامية [٢]

---

[١] الاعتبار ، ص ١٣٣-١٣٤ .

[٢] رنسيمان ، المدنية البيزنطية ، ص ٢٢٧ -٢٢٨ .

الفصل الخامس : النظم الاقتصادية

أولا : الزراعة

ثانيا : الصناعة

ثالثا: التجارة

رابعا: النقود الصليبية

الفصل الخامس : النظم الاقتصادية

أولا : الزراعة

لقد مثلت الزراعة الرافد الأول والحيوي للنشاط الاقتصادي لمملكة بيت المقدس الصليبية ، والحقيقة إن أراضي بلاد الشام تعد من أخصب الأراضي في الشرق العربي ويرجع ذلك إلى وفرة مياه الأمطار إلى جانب وجود العديد من الأنهار والجداول الصغيرة التي ساهمت في تنشيط العمليات الزراعية ، فاشتهرت الأراضي الزراعية بجودة مزروعاتها ومحاصيلها فضلاً عن الأشجار الكثيرة [١] وهو الأمر الذي لاحظه أفراد الحملة الصليبية الأولى عند وصولهم أمام أبواب انطاكية ، إذ شاهدوا العديد من الأراضي المزروعة بأشجار مختلفة وبعض البقوليات التي تنتجها الحقول فضلاً عن محاصيل الحبوب من القمح والشعير والذرة [٢] .

وقد أحدث الاحتلال الصليبي خللاً في الحيازات الزراعية في البلاد الشامية التي احتلوها ، إذ حصل الصليبيون على حصة الأسد من الأراضي الزراعية نتيجة موت أو هرب الكثير من مالكي الأراضي الزراعية من المسلمين ، واغتصاب الأمراء الصليبيين لاراضي الفلاحين المسلمين [٣] كما أن الإبادة التي تعرض لها السكان في المدن والقرى اضطرت قسماً من الزراع المسلمين إلى مغادرة أماكنهم [٤] .

ولأجل معالجة وضع ما هو نادر للمستعمرات الصليبية في بلاد الشام وضرورة تامين عملية إمداد الكيان الجديد الطارئ بالمواد الغذائية اللازمة ، فقد شجع الصليبيون سكان المنطقة ولاسيما النصارى منهم على مواصلة زراعة السهول والوديان والجبال التي اشتهرت بمحاصيلها قبل قدومهم ، وبناءاً على ذلك جرت زراعة السهول الساحلية الضيقة فضلاً عن زراعة جبال

---

[١] إبراهيم بن محمد الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق : محمد جابر عبد العال (دار القلم ، القاهرة : ١٩٦١م) ، ص ٤٦ ؛ محمد كرد علي ، خطط الشام (مطبعة الترقي ، دمشق : ١٩٢٦م) ، ج ٤٣ ، ص ١٥٥ .

[٢] الشار تري ، تأريخ الحملة ، ص ٥٥ .

[٣] حاتم عبد الرحمن الطحاوي، " الصليبيون في بلاد الشام صفحات من النشاط الاقتصادي " (مجلة الاجتهاد ، بيروت : ١٩٩٦م) ، ع ٣٣ ، ص ١٢٠ .

[٤] زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٣٤-١٣٥ .

لبنان عن طريق تقسيمها إلى مدرجات [1] وقد عدها ابن جبير ((***حد بين المسلمين والإفرنج***)) ، ووصفها في مكان آخر بأنها ((***من اخصب جبال الدنيا ، فيه أنواع الفواكه***)) [2] وليس ذلك فحسب بل كان جبل لبنان ينتج أنواع البخور المعطرة إلى جانب مواد صمغية كان يجري استخراجها من بعض الأشجار [3] .

وكان للظروف الأمنية دورٌ كبيرٌ في تحديد أماكن إقامة القرى الصليبية الجديدة ، إذ جاء معظمها فوققمم التلال ، إذ ضمن لهم ذلك الموقع المرتفع تحذيراً مبكراً من هجمات المسلمين ومن هجمات البدو كما كانت هناك قلعة عسكرية في كل قرية تابعة للملك الصليبي كان موقعها في وسط منازل القرية ، كذلك وجد بكل قرية تقريباً كنيسة صغيرة ، ومخازن لتجميع المحاصيل الزراعية كما مثلت الطواحين أحد أهم معالم القرية الصليبية لكونها أحد ابرز مظاهر النظام الزراعي والحقلي الأوربي الوسيط ، وبما ان الطاحونة كانت حكراً إقطاعيا لذا كان على كل فلاح دفع جزء من الدقيق مقابل طحن حبوب القمح والذرة فضلاً عن استخدام الطواحين في عمليات ري الأراضي الزراعية عن طريق رفع مياه الأنهار والجداول إلى قنوات الحقول إلى جانب الآبار التي اعتمدت عليها القرى في إمدادات مياه الشرب [4] .

ومنذ البدايات الأولى لتأسيس القرى الصليبية في بلاد الشام لم تستطع الجهود الاستعمارية للصليبيين أحداث تغيير في التركيب العرقي للفلاحين [5] لان معظم القرى كانت في أيدي أبناء البلاد الاصليين قبل الاحتلال الصليبي وبعده سواء كانوا من المسلمين أم من النصارى [6] فضلاً عن أن الفلاحين ظلوا يمثلون أغلبية سكان القرى الذين حملوا اسم القرويون ***Villani*** التي تعني السكان المحليين والصليبيين من طبقات أدنى اجتماعياً فضلاً عن الفلاحين الأرمن على أن القرى احتفظت في داخلها بالعديد من الفلاحين الصليبيين الذين

---

[1] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١٢٠ .

[2] رحلة ، ص ٢٢٩ ، ٢٦٠ .

[3] دانيال الراهب ، رحلة الحاج الروسي ، ص ١١٩ .

[4] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١٢١ .

[5] براور ، عالم الصليبيين ، ص ٧٧ .

[6] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٦٥ .

جرت معاملتهم اجتماعياً وقانونياً على أساس كونهم (برجوازيين) يتركزون في منازل حول قلعة القرية وفي مرتبة اجتماعية أعلى من الفلاحين المسلمين المحليين والنصارى الشرقيين [١] على أن القرى كانت متباينة من حيث مساحتها ، كما أن عدد سكان القرى كان يتأرجح حسب حجمها بين ثلاث وست وثلاثين أسرة [٢] .

والواقع أن النظام الزراعي الذي أوجده الصليبيون في الأراضي المقدسة ، لم يكن مختلفاً كثيراً عن النظام القائم في بلادهم الأصلية [٣] كما استفاد الصليبيون من النظام الإداري لقرى الشام التي كانت تحت الحكم الإسلامي واضافوا إليه ما فرضته الظروف الجديدة من مستجدات ضرورية نتيجة لعدم وجود السادة الإقطاعيين ملاك الأراضي الزراعية في الريف ، فكان من البديهي أن تكون هناك شخصيات أو وكلاء ينوبون عنهم في التعامل مع جموع الفلاحين فاختاروا كبار رجال القرى ، وكان الواحد منهم يلقب بالريس ***Rays*** أو شيخ القرية الذي تمتع بسلطة وصلاحيات واسعة على الفلاحين بصفته ممثلاً للسيد الإقطاعي ووسيطاً بينه وبين الفلاحين [٤] فقد ذكر ابن جبير أن أحد رؤساء القرى المسلمين في عكا جعله الصليبيون مقدماً على قريته [٥] .

وقد كان السيد الإقطاعي الصليبي يختار بنفسه رئيس القرية [٦] وعادةً أن الرئيس كان يتولى إدارة شؤون القرية في مملكة بيت المقدس الصليبية [٧] الذي عاونه كبار رجال القرية وكانوا ملزمين جميعاً بالإعلان والتأكيد على تبعيتهم للسيد الإقطاعي الصليبي وذلك بتقديم الطعام إليه كلما زارهم ، إذ كان العرف يحتم على الفلاحين الترحيب بسيدهم الإقطاعي عند زيارته لهم ، ويقدمون إليه بضع عملات فضية وبعضاً من القمح والزيتون وهو أمر محبب إلى قلوب رجال العصور الوسطى ، وعندما ينتقل الإقطاع في القرية من سيد إقطاعي إلى آخر فكان

---

[١] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١٢١-١٢٢ .

[٢] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٦٧-٢٦٨ .

[٣] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٦٤ .

[٤] براور ، عالم الصليبيين ، ص ٧٧ ؛ الطحاوي، " الصليبيون " ، ص ١٢٢ .

[٥] رحلة ، ص ٢٧٥ .

[٦] الشاعر ، احوال المسلمين ، ص ٢٠ .

[٧] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ١٠٣ ؛ ماير تأريخ الحروب ، ص ٢٦٧.

الإقطاعي الاول يلزم رئيس القرية وكبار الشخصيات أن يقسموا يمين الولاء لسيدهم الإقطاعي الجديد ، وكان نص القسم يتم وفقاً لشروط الإقطاع بين الإقطاعي واتباعه ، وجرت العادة أن ((***يقسموا على سيف مسلول ، وفقاً لتقاليدهم في الوقت الذي يحدد فيه الترجمان نصوص القسم ثم يعلنون الولاء ، ويقيمون حفل البيعة لسيدهم الإقطاعي***)) [١] .

وفي مقابل الخدمات التي كان رئيس القرية يؤديها لسيده الإقطاعي فقد يحصل على امتيازات معينة ، وبصفة خاصة زادت مساحة الأراضي التي في حوزته عن أي فلاح في قريته ، كما تم إعفاء جزء من أراضيه من الالتزامات المالية ذلك فضلاً عن انه كان يعيش في منزل اكبر من مسكن أي فلاح في القرية [٢] وقد ذكر ابن جبير إن أحد رؤساء القرى التابعة لمدينة عكا أقام في سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م حفلاً لآبن جبير وأصدقائه في غرفة كبيرة في منزله وقدم لهم مختلف أنواع الطعام [٣] .

وفي ظل الحكم الصليبي كان الرئيس يدير وظيفته الوراثية ضمن مجموعته الاجتماعية بوصفه من الأعيان كما كان يترأس محكمة الريس ***Rais Court*** التي تفصل في القضايا البسيطة بين الفلاحين ، غير أنها لا تنظر في الحالات القضائية الكبيرة التي كانت تبت فيها المحكمة البرجوازية [٤] . أما محكمة السيد الإقطاعي فقد كانت مهمتها مزدوجة : مدنية وجنائية ، فقد كانت المحكمة تفصل في الأمور كافة المتعلقة بالملكية كموضوع النزاع والخدمات التي لم يتم تأديتها والغرامات غير المسددة كما كانت تفصل في جرائم الهجوم والتعدي على الاخرين واغتصاب الأرض ، وبذاءة اللسان وتلويث آبار القرية وغير ذلك من الأمور [٥] .

وفضلاً عن الريس فقد مثل الترجمان والكاتب سائر أضلاع المثلث الإداري الصليبي في قرى بلاد الشام ، ولما كان الصليبيون قد ورثوا النظام الإسلامي السابق لإدارة القرى فقد استعانوا بالترجمان ***Dragoman*** وهو الموظف الذي كان يعمل في مساعدة

---

[١] الشاعر ، أحوال المسلمين ، ص ٢٠

[٢] نفسه ، ص ٢١ .

[٣] رحلة ، ص ٢٧٥ .

[٤] ماير ، تأريخ الحروب ، ٢٦٧ .

[٥] كولتون ، عالم العصور ، ص ٩٢ .

القاضي الإسلامي في القرى العربية في بلاد الشام قبل الغزو الصليبي ، وعمل في تلك المهنة العديد من المترجمين من النصارى الذين عرفوا اللغة العربية فضلا عن تعلمهم لغة الصليبيين ، أما الكاتب فهو المساعد الثاني للرئيس ، فكان يجمع الإيرادات ويقوم بكتابة حيازات الفلاحين في القرية [١] .

ومن البديهي أن يكون هناك حافز مادي للمترجم والكاتب مقابل ما يؤديه كل منهما من خدمات للسيد الإقطاعي الصليبي ، فقد كان الإقطاعي يعطي للمترجم الحق في أن يطلب من الأقنان الطعام والشراب لنفسه والعلف لدابته فضلاً عن أن له نسبة ٦% من المحصول العام وقد صارت وظيفة المترجم وراثية فأصبحت تباع مثل أي اقطاعه في القصر الملكي الصليبي ثم تطورت وظيفتا الكتابة ***Scribanagium*** والترجمة ***drugemanagium*** مع الحاجة العملية للإدارة ، وصارت كل منهما وظيفة يدفع عنها راتب أو إقطاعه [٢] .

وقد قام الصليبيون بتقسيم الأراضي الزراعية إلى وحدات عرفت باسم الكاريوكا ***Carruca*** [٣] التي كانت على نوعين الأول : رسمي معتمد من السلطات الصليبية والثاني غير رسمي استمر العمل به كنتيجة لتواجد الصليبيين الغزاة في منطقة زراعية قديمة عرفت العديد من وحدات قياس الأرض منها الفدان العربي الذي كان عبارة عن مساحة من الأرض يستطيع زوج من الثيران حرثها في يوم واحد [٤] وهذا يعني أن الناس في أي قرية لكي يتوافر لديهم ما يكفي من الطعام لابد من أن يعملوا على الاستفادة من كل الأرض التي يمكن حرثها [٥] وتشابهت الكاريوكات الرسمية في أراضي المستعمرات الصليبية بالشام مع المانس

---

[١] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١٢٢-١٢٣ .

[٢] الشاعر ، أحوال المسلمين ، ص ٢٢ .

[٣] ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٦٧ . والكاريوكا أو الكاريوكات *Carrucate* : هي وحدات زراعية محروثة ، ولم تكن مساحتها متساوية ، فبعضها كان يعرف باسم الكاريوكا الرسمية ، وكانت معتمدة من الحكومة الصليبية في مملكة بيت المقدس ، وهي تعادل ثلاثمئة وخمسين دونماً (٣٥٠,٠٠٠ م ^{٢}) ، أما بعضها الآخر فعرف بالكاريوكات غير الرسمية ، وهي تساوي أربعة دونمات (نحو ٤٠٠٠م^{٢}) . ينظر : ألبيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٢٨٨، ٤٦٨ .

[٤] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١٢٤ .

[٥] بانتر ، " أوربا الغربية " ، ص ١٣ .

Mansus في النظام الحقلي للإقطاع في غرب أوربا خلال العصور الوسطى كما جرى استخدامها كوحدة ضريبية إذ يحاسب الفلاح على المحصول الناتج عنها كما استعمل الصليبيون أيضا وحدة قياس لاتينية للحقول الزراعية تعادل مساحة الفدان العربي تدعى جورنات ***Jornate*** [١] .

ولم تكن جميع أراضي الريف الصليبي صالحة للزراعة بسبب المستنقعات التي غطت مساحات واسعة منه فضلاً عن وجود العديد من الأراضي البور ***Gastina*** التي كان أحد أسباب تكوينهاهو هجرة المجتمع السكاني السابق لها إلى إقليم اكثر اتساعاً تاركاً وراءه تلك الأراضي التي دعاها العرب بـ (***الخربة***) [٢] .

أما الأراضي الصالحة للزراعة في مملكة بيت المقدس الصليبية فقد انقسمت إلى ثلاثة أقسام تقريباً في ذلك الحين ، القسم الأول : يشمل الأراضي التي تحيط بالتجمع السكاني في القرية [٣] إذ كانت هنالك الحدائق ومزارع الكروم وبساتين الزيتون في كل أنحاء القرية وكانت تلك المزروعات بمثابة ملكية خاصة لأفراد القرية ، جرت العادة انه لم تكن لرئيس القرية سيطرة كاملة على تلك المزروعات ، على الرغم من انه كان يقوم بتحصيل الضريبة العينية على إنتاجها لصالح السيد الإقطاعي ، أما القسم الثاني : فهي الأراضي التي كانت ترعى فيها ماشية القرية وهي مباحة لجميع الفلاحين في القرية ، وأما القسم الثالث : فهي الأراضي الصالحة للزراعة والتي تخضع للسيد الإقطاعي الصليبي ، ويقوم بتكليف الفلاحين المسلمين بزراعتها ، ثم يُجمع المحصول في مكان واحد ويتم تقسيمه على وفق النسب المتفق عليها [٤] .

وكانت الأرض التي هي ملك السيد الإقطاعي قد تشمل مساحة تبلغ ثلث الأراضي الصالحة للزراعة ، ولكنها عادة تكون اقل من ذلك [٥] على أن تقسيم الأراضي الزراعية الطويلة

---

[١] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١٢٤ .

[٢] نفسه ، ص ١٢٥.

[٣] ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٦٤ .

[٤] الشاعر ، أحوال المسلمين ، ص ١٤-١٥ .

[٥] بانتر ، " أوربا الغربية " ، ص ١٣-١٤ .

والضيقة ، كان يتم بسلاسل من الحجارة ، ربما تجنباً لحدوث أية مشاكل بين أصحاب الأراضي المجاورة ولمنع التربة من الانجراف [1] .

وكان فلاحو الشام يتبعون دورة زراعية تعتمد على نظام الحقلين ، فكان الفلاح يقوم بتقسيم أراضه الزراعية إلى قسمين ، يزرع القسم الأول ويمهد القسم الثاني بالحرث الجيد لكي تصل الشمس إلى باطن التربة ، ثم يقوم بزراعته بعد ذلك ، ويريح القسم الأول الذي تمت زراعته أولا [2] وقد اختلف المؤرخون في تحديد الدورة الزراعية التي اتبعها الصليبيون في بلاد الشام ، فذكر البعض انهم استخدموا نظام الحقول الثلاثة [3] بينما أشار البعض الآخر أن الصليبيين استخدموا نظام الحقلين في العملية الزراعية التي كانت أهم حادث في الاقتصاد الزراعي الأوربي في العصور الوسطى [4] و لأجل ضمان سير العملية الزراعية كان الريس ومساعدوه يجتمعون لمناقشة الأمور الزراعية مع كبار الفلاحين ، حيث يتم تحديد الأراضي التي سيتم زراعتها والأخرى التي ستترك محروثة من دون زراعة [5] .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفلاحين كانوا يقومون بإنشاء القنوات والمجاري بالقرب من مدينة نابلس وقيسارية وأريحا [6] فقد أشار الرحالة دانيال الراهب إلى توافر المياه المتدفقة من

---

[1] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٢٨٨ .

[2] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١٢٥ .

[3] عرف الفلاحون الأوربيون نظام الحقول الثلاثة منذ العصور الوسطى ، فكان يزرع الحقل بالقمح في السنة الأولى ، وبالشعير في السنة الثانية ، ويترك محروثاً من دون زراعة في السنة الثالثة . وللمزيد من التفاصيل حول الدورة الزراعية الخاصة بالحقول الثلاثة في النظام الزراعي الأوربي في العصور الوسطى . ينظر : كوبلاند ، الإقطاع ، ص ٨-٩ ؛ ج. ج. كولتون ، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمة : جوزيف نسيم يوسف ، ط٣ (دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت : ١٩٨١م) ، ص ٨٣ ؛ بانتر ، " أوربا الغربية " ، ص ١٣ .

[4] آدم متز ، الحضارة الإسلامية في القرن التاسع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام ، ترجمة : محمود عبد الهادي آبو ريده ، ط٤ (دار الكتاب اللبناني ، بيروت : ١٩٦٧م) ، ج٢ ، ص ٣٠٢ ؛ ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٦٨ .

[5] الطحاوي، " الصليبيون " ، ص ١٢٥-١٢٦ .

[6] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٨٩ .

الينابيع والآبار في كثير من المناطق الريفية حول مدينة أريحا [١] كما ذكر الصوري وجود ينابيع في مدينة صور فائدتها إرواء الحقول الزراعية والبساتين بالماء التي ساعدت في زيادة الإنتاج من المحاصيل الزراعية [٢] .

أما عن الأساليب الزراعية التي كان يتبعها الفلاحون الشاميون والمستوطنون الأوربيون في زراعة الأرض زمن الحكم الصليبي فكانت تعتمد على الأساليب التقليدية كاستعمال المحاريث التي تجر بواسطة الإنسان والحيوان على أن حراثة الأرض كانت خاضعة لبعض القوانين فالأرض التي تتم حراثتها من أجل زراعة الذرة لمدة سنة يجب زراعتها بمحاصيل أخرى من السنة القادمة [٣] .

وبعد أن تنضج المحاصيل الزراعية تجري عملية حصدها ، ثم يقوم الفلاحون بتخزينها في مخازن الحبوب الخاصة التي يملكها السيد الإقطاعي [٤] وكان يجري تقسيم المحصول إلى عدة أكوام منها حسب نصيب السيد الإقطاعي الصليبي الأول ثم أنصبه الريس والترجمان والكاتب ، وبعد ذلك يقوم الفلاحون بمهمة فصل القش عن الحبوب وتخزينها في المخازن وأحيانا في كهوف تحت الأرض خوفاً من هجمات المسلمين في الوقت الذي كانت فيه السلطات الصليبية تدفع الإنتاج الفائض عند حاجتها إلى أسواق المدن ، فأنها كانت تقوم بتخزين كميات كبيرة من الحبوب والبذور التي تحتاجها في زراعة العام القادم [٥] .

أما عن أهم المحاصيل والمزروعات التي انتشرت في مملكة بيت المقدس ، فهي كثيرة ومتعددة ولعل من أهمها الحبوب (***القمح والشعير***) والبقول والخضراوات والأشجار المثمرة وقصب السكر ، وعلى الرغم من أن الصليبيين توسعوا في زراعة بعض المحاصيل دون غيرها إلا أن أراضي المملكة استمرت بزراعة معظم المحاصيل والأشجار المثمرة التي كانت معروفة وقتذاك [٦] .

---

[١] رحلة الحاج الروسي ، ص ٧٥ .

[٢] تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٦١٤ .

[٣] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٨٩ .

[٤] بانتر ، أوربا الغربية ، ص ١٣.

[٥] الطحاوي، " الصليبيون " ، ص ١٢٦ .

[٦] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٩١ .

وتعد الأراضي المقدسة مناسبة جداً لزراعة الحبوب وذلك يعود إلى خصوبة التربة فكانت المنطقة السهلية الواقعة بالقرب من مدينة القدس من جهتها الغربية تجاه بيت لحم تنتشر فيها زراعة القمح ، كما وجدت حقول مزروعة بأنواع جيدة من القمح في مدينتي نابلس والخليل (١) وكذلك اشتهرت المناطق المحيطة بمدينة صور بحقولها المنتجة للقمح هذا فضلاً عن أن الشوبك كانت تعد من اشهر المناطق عناية بزراعة ذلك المحصول (٢) على أن سكان مملكة بيت المقدس الصليبية كانوا يعتمدون بشكل كبير على محصول القمح الذي تنتجه الأراضي الواقعة في شرقي الأردن ، وفي حالة قلة القمح أو انعدام إنتاجه كان لابد من استيراده من سوريا (٣) .

ولم تقتصر أراضي مملكة بيت المقدس الصليبية على إنتاج الحبوب بل اشتهرت بزراعة كل أنواع الخضراوات ، فقد أشار الرحالة دانيال الراهب إلى ان منطقة الخليل انتشرت فيها زراعة ((***مختلف أنواع الخضراوات والتي هي اكثر وافضل من أي مكان على وجه الخليقة***)) (٤) ومنها على سبيل المثال الخيار والقرع والجزر ، هذا فضلاً عن اهتمام المزارعين الفلسطينيين بزراعة البطيخ بنوعيه الأصفر والأحمر (٥) وثمة إشارة أكدت على زراعة ((***البطيخ الأصفر الزائد الحلاوة على جميع بطيخ الأرض***)) في مدينة نابلس (٦) .

ومما يجد ذكره أن رجال الدين اللاتين قاموا بفرض الضرائب على الأراضي المزروعة بالقمح والخضراوات ، إذ كان المستوطنون الأوربيون ، وأهلُ البلاد الأصليون يدفعون ربع محصول القمح والخضراوات (٧) .

---

(١) دانيال الراهب ، رحلة الحاج الروسي ، ص ٩٢،٩٧ ، ١٠٩ ؛ ثيودريش ، وصف الأماكن ، ص١٠٥ .

(٢) الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٦٠ .

(٣) رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٣ ، ص ٦٠١ .

(٤) رحلة الحاج الروسي ، ص ٩٢ .

(٥) البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٩٣ .

(٦) شيخ الربوة ، نخبة الدهر ، ص ٢٠٠ .

(٧) البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٩٢ .

أما الفواكه فقد امتازت المنطقة السهلية القريبة من مدينة القدس بزراعة كل أصنافها وخاصة أشجار التفاح [١] .

والى جانب الحبوب والخضراوات والفواكه اهتم الصليبيون بزراعة أشجار الزيتون في مختلف أنحاء البلاد التي احتلوها ، إذ أشار دانيال الراهب إلى انتشار زراعة الزيتون في القدس والخليل ومناطق مختلفة من الأراضي المقدسة التي زارها آنذاك [٢] وكانت الأراضي المزروعة بأشجار الزيتون تقدم كمنح و اقطاعات للكنائس والأديرة فعلى سبيل المثال حصل دير القديسة مريم في وادي يوسفات على قطعة من الأرض مزروعة بأشجار الزيتون في حدود مدينة القدس ، كما حصل دير القديسة مريم على حقل زيتون في مستوطنة امبرت الصليبية [٣] .

وتعد مدينة القدس من المدن الرئيسة والمهمة في زراعة أشجار الزيتون الذي لا تحتاج زراعته إلى الماء الكثير[٤] كما كانت نابلس من اكثر مدن الشام شهرة بزراعة الزيتون وإنتاج الزيت الذي كانت تصدره إلى مصر ودمشق والحجاز [٥] وليس ذلك فحسب بل كان يجري تصديره إلى غرب أوربا [٦]وفضلاً عن مدينتي القدس ونابلس اشتهرت المناطق المحيطة ببيت لحم بكونها مناطق جبلية تنتشر على منحدراتها السفلى أشجار الزيتون [٧] وكذلك عرفت الشوبك بزراعة الزيتون [٨] .

---

[١] ثيودريش ، وصف الأماكن ، ص ١٠٥ ، ١٠٩ .

[٢] رحلة الحاج الروسي ، ص ٩٨-٩٩ .

[٣] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٤١٣ .

[٤] خسرو، رحلة ، ص ٥٥ .

[٥] شيخ الربوة ، نخبة الدهر ، ص ٢٠٠ ؛ ابن بطوطة ، رحلة ، ص ٩٥ ؛ لين بول ، صلاح الدين ، ص ١٥٩ بشارة دوماني ، إعادة اكتشاف فلسطين ، أهالي جبل نابلس ١٧٠٠-١٩٠٠م (مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت : ١٩٩٨م) ، ص ٣٤-٣٥ .

[٦] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٣ ، ص ٦٠١ .

[٧] دانيال الراهب، رحلة الحاج الروسي ، ص ٨٧ .

[٨] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص٥٦٠ .

ولم يقتصر الاهتمام على زراعة أشجار الزيتون في معظم الأراضي التي احتلوها بل قام رجال الدين اللاتين بمنح الأراضي المزروعة بأشجار الزيتون إلى المستوطنين الأوربيين مقابل دفع ضريبة العشر ونسبة معينة من الضرائب التي كانت تصل إلى نصف ثمار الزيتون في حالة مضي فترة طويلة من الزمن على زراعتها ، أما إذا كانت الأشجار مزروعة حديثاً ، فكان المزارعون يدفعون خمس ما تنتجه تلك الأشجار من المحصول فضلاً عن ضريبة العشر المقررة على جميع فئات السكان في مملكة بيت المقدس الصليبية [١] .

والى جانب أشجار الزيتون اشتهرت الأراضي في بلاد الشام بزراعة أشجار الكروم (العنب) فقد كانت المناطق المحيطة بمدينة القدس تكثر فيها أشجار الكروم ، كما انتشرت زراعتها في المناطق القريبة من مدينة بيت لحم [٢] وتعد الخليل وقراها من اشهر مناطق فلسطين عناية بأشجار الكَرْم منذ العهد الإسلامي وحتى الوقت الحاضر ، ويعد عنبها من أجود أنواع العنب في فلسطين بل في بلاد الشام وهو عنب زائد الحلاوة لذيذ المذاق ، وتمتاز عناقيده في منطقة الخليل بكبر حجمها ، إذ يصل وزن العنقود في كثير من الأحيان إلى كيلو غرام أو اثنين وأنواعه كثيرة اشهرها العنب الدوري والعيوني و العاصمي [٣] .

تركزت زراعة أشجار الكروم في مدينة نابلس ومعظم القرى والأراضي المحيطة بها [٤] كما انتشرت بساتين الكروم في صفد [٥] وكذلك اهتمت مقاطعة صور بزراعة أشجار الكروم ، إذ كانت أراضيها غنية بالكروم فضلاً عن مدينة عكا والقرى والأراضي التابعة لها كانت تزرع

---

[١] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٤١٤ .

[٢] دانيال الراهب ، رحلة الحاج الروسي ، ص ٦٨، ٨٧ ؛ ثيودريش ، وصف الأماكن ، ص ٧٨ .

[٣] محمد بن أحمد المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط٢ (مطبعة بريل ، ليدن : ١٩٠٦م) ، ص ١٨١–١٨٢ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٤٠٢ .

[٤] دانيال الراهب ، رحلة الحاج الروسي ، ص ١٠٩ ؛ ثيودريش ، وصف الأماكن ، ص١٢٩ .

[٥] المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص ٦٩ .

بكثافة أشجار الكروم التي تمتعت بشهرة واسعة [١] إلى جانب ألداروم التي اشتهرت أراضيها بزراعة الكروم [٢] .

وقد نالت زراعة الكروم اهتماماً كبيراً من لدن الصليبيين بدليل ما ذكره الشارتري أن الصليبيين أولوا عناية خاصة بزراعة أشجار الكروم [٣] وتأتي تلك العملية لأنها تحتاج إلى عناية كبيرة وتسميد الأرض بشكل مستمر بروث البقر والماشية فضلاً عن عمليات تقليم الفروع الزائدة التي كان يقوم بها الفلاحون ، وفوق ذلك كله فان الاهتمام بزراعة أشجار الكروم جاء لحاجة الصليبيين الملحة بصفة عامة ورجال الدين بصفة خاصة إلى النبيذ ، إذ كان المشرفون على مخازن التموين في الكنائس والأديرة يدركون أهمية النبيذ الفلسطيني وجودته ، وقد أفاد رجال الدين اللاتين من الضرائب المفروضة على أشجار الكروم ، إذ انهم كانوا يحصلون على نصف أو خمس الإنتاج من محصول العنب [٤] .

ولم تقتصر أراضي مملكة بيت المقدس الصليبية على تلك المحاصيل بل اشتهرت تلك البلاد بزراعة قصب السكر الذي تحتاج زراعته إلى توافر عدة مقومات أهمها المناخ الجيد من حيث درجات الحرارة والرطوبة الملائمة والتربة الخصبة ومصادر المياه اللازمة لزراعة القصب فضلاً عن توافر الخبرة في زراعته ، فعلى سبيل المثال اشتهرت مقاطعة صور بزراعة قصب السكر بكميات كبيرة بسبب وفرة المياه المتدفقة من الينابيع والعيون فضلاً عن وجود الكثير من الجداول التي كانت تزود المزروعات بالمياه العذبة [٥] كما كانت المناطق الواقعة في وادي الأردن وحول بحيرة طبرية تشتهر بزراعة القصب وتعطي إنتاجا وفيراً من السكر [٦] .

---

[١] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٤١١ .

[٢] ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٢٤ .

[٣] تأريخ الحملة ، ص ١٣٠ .

[٤] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٤١١-٤١٢ .

[٥] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٣ ، ص ٦٠٢ .

[٦] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٩٦ .

وتعَّد مدينة صور من أشهر مراكز زراعة قصب السكر في المملكة الصليبية [١] والتي كان حاكمها الإقطاعي يحصل على مردودات مالية كبيرة من محصول القصب فضلاً عن مدن نابلس وقيسارية أريحا وعكا [٢] .

وهناك محاصيل أخرى انتشرت زراعتها في البلاد المحتلة منها أشجار البلح تكثر زراعته في مدينة بيسان [٣] كما وجدت بساتين النخيل في مدينة عكا [٤] .

وفي النهاية يمكننا القول إن بلاد الشام بصورة عامة ومملكة بيت المقدس بصورة خاصة ، كانت تشتهر بزراعة مختلف أنواع المحاصيل والأشجار قبل قيام الحروب الصليبية وعندما استولى الصليبيون على تلك البلاد توسعوا في زراعتها في مختلف الأراضي التي خضعت لسيطرتهم لتحقيق مصالحهم الاقتصادية ، وقد أتضح ذلك من خلال العرض الآنف الذكر .

ثانيا : الصناعة

إن بلاداً كالبلاد الشامية تكون الزراعة فيها على الحالة التي ذكرناها لابد أن تكون صناعتها نامية متقدمة ،وذلك لوفرة المواد الخام فيها ، وكثرة معادنها فضلاً عن محاصيلها الزراعية ، والاهم من ذلك كله هو مستوى الرقي الذي بلغته المدن الشامية الضاربة في الحضارة منذ القدم ، ولاسيما أن الحضارة التي أوجدها العرب كانت الصناعة إحدى دعائمها المهمة بعد الزراعة ، لذلك احتاجت الدولة العربية الإسلامية إلى الاهتمام بالصناعة ، ويظهر أن الصناعة بمختلف فروعها بقيت من اختصاص العرب واليهود من بين شعوبها أيام الحروب الصليبية [٥] .

---

(١) الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٦١٤ ؛ متز ، الحضارة الإسلامية ، ج٢ ، ص ٣١١ .

(٢) البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٣٩٦ .

(٣) دانيال الراهب ، رحلة الحاج الروسي ، ص ١١٠ ؛ ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج١ ، ص ٥٢٧ ؛ المشترك وضعاً ، ص ٧٩ .

(٤) ثيودريش ، وصف الأماكن ، ص ١٢٣ .

(٥) كرد علي ، خطط الشام ، ج٤ ، ص ١٦٢ –١٦٣ ؛ النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٧٨ .

وقد كان معظم النشاط الصناعي في مملكة بيت المقدس الصليبية يعتمد على تصنيع المنتجات الزراعية اعتماداً كلياً ، وعلى الرغم من وجود صناعات معدنية وخشبية مثل صناعة السيوف والرماح خلال تلك الفترة إلا أن الصليبيين جلبوا معهم إلى الأراضي المقدسة مجموعة من النجارين والحدادين والبنائين وصناع الأحذية فضلاً عن مجموعة من الصاغة وعندما استولى الصليبيون على الأراضي المقدسة وجدوا بها الكثير من الصناعات الرائجة فتعلموها من السكان المحليين وبرعوا في الكثير من الصناعات التي أتقنوها واصبحوا خبراء في أمورها [١] .

فقد اشتهرت أراضي المملكة الصليبية بالعديد من الصناعات الهامة مثل صناعة السكر التي كانت قائمة في البلاد قبل الغزو الصليبي ، وقد عرفها الصليبيون وتعلموا صناعته من سكان البلاد الأصليين ، فأقاموا المصانع العديدة لصنعه في معظم الأماكن التي كانت تشتهر بزراعة قصب السكر ، هذا إلى جانب الكثير من معاصر السكر التي وجدت في مدن الساحل الشامي ، وخاصة في صور وعكا وقيسارية وارسوف وعسقلان [٢] كما وجدت في بعض المدن الاخرى التابعة للمملكة الصليبية منها أريحا ونابلس [٣] فضلاً عن مدينة صور التي كانت تمثل المركز الرئيس لصناعة السكر ، فقد أشار الرحالة بنيامين التطيلي إلى أن مدينة صور اشتهرت بصناعة السكر أثناء خضوعها للسيطرة الصليبية [٤] كما أكد الصوري شهرتها الواسعة بتلك الصناعة قائلاً : ((***وهو الإنتاج الثمين والضروري جداً لفائدة الجنس البشري وصحته ، حيث يقوم التجار بنقله من هنا إلى البلدان الابعد من العالم***)) [٥] وكان حاكم صور الصليبي يحصل على دخلٌ كبيرٌ من صناعة السكر ، كما أن ملك القدس كان

---

[١] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٤٢٥ .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٣ ، ص ٦٠٢ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٨٨ .

[٣] النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٨٢ ؛ البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٤٤٠ .

[٤] رحلة ، ص ٩٢ .

[٥] تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٦١٤ .

يحصل أيضا على عوائد مالية من خلال فرض الضرائب على محصول السكر الذي كان يصدر منها إلى مختلف مدن المملكة الصليبية [١] .

أما عن طريقة صناعة السكر فكانت تتم على مرحلتين ، الأولى : يتم فيها تجميع القصب وتقطيعه ، إذ يصل طول كل قطعة إلى نصف طول سعف النخلة ، ثم تؤخذ تلك القطع إلى المعاصر ، حيث يتم عصر القصب المراد تصنيعه ، وبعد الانتهاء من عصر القصب ، يتم وضع العصير في حوض برونزي أو نحاسي ، إذ يتم طبخه إلى أن يكتسب العصير صفة التماسك ، وبعد ذلك يوضع السكر المطبوخ في سلال مصنوعة من القش يوضع تحتها اوعية فخارية أو نحاسية من اجل ضغط المادة التي ترشح من السلال والتي تعرف باسم عسل السكر [٢] وكان يطلق على الأماكن التي يتم فيها صناعة السكر اسم مطابخ السكر [٣] .

كما تعد صناعة المشروبات الروحية (النبيذ) من الصناعات الرائجة التي كانوا ينتجونها من الكروم والشعير ، وكان يصنعها النصارى الشرقيون والصليبيون الغربيون [٤] فقد أدت سيطرة الصليبيين على الأراضي المقدسة إلى زيادة كبيرة في صناعة النبيذ ، إذ توسع الصليبيون في زراعة اشجار الكروم ، من أجل الاستفادة من محصول العنب في صناعة النبيذ ، إذ أشار الرحالة دانيال الراهب إلى أن مدينة نابلس اشتهرت بصناعة النبيذ [٥] واتفق معه ابن منقذ في ذلك حيث أكد بأنها اشتهرت بصناعة النبيذ وتجارته التي كانت رائجة في المدينة آنذاك [٦] هذا فضلاً عن أن الشوبك [٧] والداروم كانتا تشتهران بصناعة النبيذ [٨] ونالت تلك الصناعة اهتمام رجال الدين الصليبيين اهتماماً كبيراً نظراً لزيادة الطلب على النبيذ أثناء فترة

---

(١) البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٤٤٠ .

(٢) وعسل السكر له طعم لذيذ يستعمل في صناعة الكعك . ينظر : الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج٧ ، ق٢ ، ص ٢٧٧-٢٧٨ .

(٣) البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٤٤١ .

(٤) النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٨٢ ؛ بردج ، تأريخ الحروب ، ص ١٢٢-١٢٣.

(٥) رحلة الحاج الروسي ، ص ١٠٩.

(٦) الاعتبار ، ص ١٣٦.

(٧) الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٦٠.

(٨) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٢٤.

الحكم الصليبي ولعل ذلك يرجع إلى جودة النبيذ الفلسطيني ، وحاجة الكنائس والأديرة للنبيذ من أجل الطقوس الدينية [١] .

ومن الصناعات الأخرى الهامة في مملكة بيت المقدس الصليبية صناعة الصابون فقد أنشئت مصانع عديدة لصنعه منها في عكا ونابلس وصور وغيرها ، وأصبحت صناعته على قدر كبير من الأهمية في المستعمرات الصليبية حتى انهم أقاموا محلات خاصة لبيعه [٢] وقد أشار الرحالة دانيال الراهب إلى أن مدينة نابلس اشتهرت بإنتاج زيت الزيتون الذي أستعمل في صناعة الصابون الذي صدر مع سلع مختلفة إلى مدينة القدس [٣] فقد كان صابون نابلس من اشهر أنواع الصابون المصنع بفلسطين ربما لإتقان صنعه ، وعدم اللجوء إلى عمليات الغش [٤] .

وفضلاً عن المدن فقد كان الصابون يصنع في القرى التي تنتشر فيها أشجار الزيتون بكثرة ، وذلك من أجل الاستهلاك المحلي ، بمعنى أن سكان القرى لم يقوموا بتصنيع الصابون على أساس تجاري ، وإنما لسد احتياجاتهم السنوية ، ولا يزال معظم سكان قرى فلسطين يقومون بتصنيع الصابون بالطرائق التقليدية المعروفة لديهم من أجل تغطية احتياجاتهم فقط [٥] .

هذا عن أهم الصناعات التي اعتمدت اعتماداً كلياً على المنتجات الزراعية ، أما فيما يتصل بالصناعات الأخرى فهي حرفية لا تعتمد على الإنتاج الزراعي ، وكانت قائمة في مملكة بيت المقدس الصليبية وهي عديدة تأتي في مقدمتها صناعة الزجاج الذي اشتهرت به مدينة صور ، وحظي بشهرة عالمية [٦] فقد كان يصنع فيها نوع ممتاز جداً من الزجاج يفوق بجودته جميع المنتجات الأخرى من ذلك النوع ، ويستخدم في صناعة المزهريات والتحف الجميلة والمتميزة بشفافيتها ، وأدى ذلك إلى شهرة المدينة وزيادة دخل التجار [٧] .

---

[١] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٤٣٧–٤٣٨ .

[٢] النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٨٣ .

[٣] رحلة الحاج الروسي ، ص ١٠٩ .

[٤] كرد علي ، خطط الشام ، ج٤ ، ص ١٧٦ ؛ دوماني ، إعادة اكتشاف ، ص ٢٢٦ .

[٥] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٤٣٢–٤٣٤ .

[٦] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٣ ، ص ٦٠٣ .

[٧] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج٢ ، ص ٦١٤ .

وعلى الرغم من أن صناعة الزجاج كانت حسب زعم التطيلي يمتهنها اليهود الذين كانوا يمتهنون صناعة الزجاج النفيس المعروف بالزجاج الصوري [1] وان ما صنعوا منه كان معداً للتصدير غير انه كان لزاماً عليهم أن يواجهوا منافسة الزجاج المستورد من مصر [2] وربما كان ملك بيت المقدس الصليبي يحصل على نسبة من مصانع الزجاج المنتشرة في صور مقابل السماح لليهود بممارسة تلك الصناعة ، ولاسيما أن صوراً كانت تابعة لسلطة التاج الملكي [3] كما اشتهرت مدينة عكا بصناعة الزجاج وفي ذلك ذكر الشارتري ((***كان هنالك جدول ضئيل جداً ... على شكل واد مستدير وهو ينتج رملا زجاجياً***)) [4] وقد كشفت إحدى الدراسات الحديثة عن وجود فُرن لصهر الزجاج قرب مدينة عكا من جهتها الغربية [5] .

ومن بين الصناعات الأخرى صناعة المنسوجات وهي على نوعين ، الأول المنسوجات الحريرية التي اشتهرت بها مدن صور وعكا وبيروت ونابلس [6] أما النوع الثاني : فهي المنسوجات المخملية التي كانت تصنع في معظم مدن الشام ، وهي على أربعة أنواع الأول : ما هو مصنوع من وبر الجمال ، والثاني : من شعر الماعز ، والثالث : من صوف الغنم ، والرابع : من الحرير [7] وقد كانت تلك المنسوجات الحريرية والمخملية تكفي لسد الحاجة المحلية وما يفيض منه كان الصليبيون يصدرونه إلى الغرب الأوروبي [8] .

وتعد صناعة الفخار من الصناعات المهمة في المستعمرات الصليبية ، وخاصة في مدن يافا وبيروت وصور المتقدمة بجميل مصنوعاتها ، وبديع منتجاتها الفخارية ، لما عرفت به من دقة الصنعة وبهاء المظهر ولاسيما المطلية منها بالميناء ، أما بالنسبة لصناعة الأصباغ فقد

---

[1] رحلة ، ص ٩٢-٩٣ .

[2] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٣ ، ص ٦٠٣ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٨٨ .

[3] البيشاوي ، الممتلكات الكنسية ، ص ٤٤٤ .

[4] تأريخ الحملة ، ص ٢٣٥ .

[5] بردج ، تأريخ الحروب ، ص١٢٣ .

[6] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٣ ، ص ٦٠٣ .

[7] النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٨١-١٨٢ .

[8] خليل حسن الزركاني ، " العلاقات الاقتصادية في الحروب الصليبية " ، ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي (جامعة اليرموك ، الأردن : ٢٠٠٠م) ، ج٢ ، ص ٨٢٨-٨٢٩ .

تركزت في مدن القدس والخليل [١] واللد وبيت لحم ، هذا فضلاً عن مصنع للصباغة في مدينة القدس كان يملكه الملك الصليبي [٢] ومن الصناعات الأخرى التي كانت من اكثر الصناعات ازدهاراً هي صناعة التذكاريات التي كان يقتنيها الحجاج النصارى القادمين من الغرب الاوربي في أعداد كبيرة لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين[٣] .

ثالثا : التجارة

تعد التجارة الرافد الثالث للحياة الاقتصادية للصليبيين في بلاد الشام ، فعلى الرغم من سيادة التنظيم الإقطاعي للمجتمع الأوربي في العصور الوسطى على مقدرات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلا ان ذلك النظام الإقطاعي اعقبته مرحلة جديدة كان التجار الأوربيون هم اول المعبرين عنها ، وهي مرحلة سيطر فيها الانتعاش التجاري على المقدرات الاقتصادية ، في وقت بدأ فيه النظام الإقطاعي يخفف من قبضته على السكان الأوربيين [٤] وهكذا ما لبثت التجارة وحركة البضائع أن بدأتا في التحرر بشكل تدريجي من الضرائب الإقطاعية والرسوم ، التي كان يفرضها عليها السادة الإقطاعيون ، مما دفع بالتجار إلى سكنى المدن الجديدة [٥] .

وما بدأت التجارة بالانتعاش في الغرب الأوربي حتى ظهرت عدة مراكز تجارية في غرب القارة الأوربية ووسطها وجنوبها ، على انه لا يمكن الحديث عن التجارة الأوربية في العصور

---

[١] النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٧٩،١٨٣ .

[٢] التطيلي ، رحلة ، ص ٩٨-٩٩، ١٠٤ .

[٣] بردج ، تأريخ الحروب ، ص ١٢٣ .

[٤] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ٩٠ .

[٥] قاسم ، الخلفية الأيديولوجية ، ص ٩٠ .

الوسطى دون الحديث عن المدن الإيطالية (***البندقية . جنوة . بيزا . امالفي***) التي أدت دوراً كبيراً في تطور التجارة وانتعاشها ، ويرجع ذلك إلى ضعف الوجود الإقطاعي في ايطاليا والى تمتعها بحياة حضرية متقدمة نسبياً ، كما حظيت بتطور تجاري صناعي نسبي فضلاً عن استقرار سكاني لممارسة ذلك النشاط التجاري الصناعي البسيط [١] ويعود الدور التجاري الكبير الذي قمت به تلك المدن إلى موقعها الجغرافي القريب نسبياً من الموانئ الإسلامية في مصر وبلاد الشام وشمال أفريقيا وفضلا عن طبيعة المنافسة بين المدن الإيطالية للبحث عن أسواق خارج نطاق حدودها [٢] وبذلك كانت المدن الإيطالية وبحكم موقعها الجغرافي الممتاز اسبق من غيرها من أمم الغرب الأوربي في ذلك المجال مثلما كانت اسبق منها في عصر النهضة [٣] فالبندقية مثلاً احتلت مكان الصدارة في التجارة بين المدن الأوربية في عالم العصور الوسطى ، نتيجة لموقعها الجغرافي واستقرار نظمها السياسية فضلاً عن احتوائها على ثروات طبيعية خاصة الملح الذي يعد من أهم سلع العصور الوسطى كما امتازت بوفرة الأسماك في بحرها مما جعل عملية صيده وتجفيفه من أهم موارد الثروة آنذاك [٤] .

ومع بداية النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، أصبحت البندقية تمتلك أسطولاً قوياً خاصاً بها ، وفي الوقت ذاته تقريباً بدأت كل من جنوة وبيزا في ممارسة التجارة وعبر ساحل البحر المتوسط إلى مرسيليا ونار بون وبرشلونة ، كما بدأت هاتان المدينتان أيضا في مهاجمة السفن الإسلامية في البحر المتوسط فضلاً عن مهاجمة الإيطاليين لأملاك المسلمين في كورسيكا وسردينيا وتونس [٥] .

وخلال عصر الحروب الصليبية تمتعت المدن البحرية الإيطالية بتجارة مزدهرة مع القسطنطينية ، فقد ابحرت السفن التجارية الايطالية تحت حماية الأسطول البيزنطي بشكل ثابت

---

[١] بانتر ، " أوربا الغربية " ، ص ١٦-١٧ .

[٢] الطحاوي ، الصليبيون " ، ص ٩١ .

[٣] محمود ، العلاقات الاقتصادية ، ، ص ١٣٥ .

[٤] عفاف سيد صبرة ، العلاقات بين الشرق والغرب ، علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من ١١٠٠-١٤٠٠م (دار النهضة العربية ، القاهرة : ١٩٨٣م) ، ص ٨١ .

[٥] بانتر ، " أوربا الغربية " ، ص ١٦ .

بين القسطنطينية وبعض موانئ إيطاليا مثل البندقية وامالفي [١] ولاسيما ان تلك المدن ألإيطالية ارتبطت بالدولة البيزنطية ارتباطاً وثيقاً ، كما حصلت على امتيازات كبيرة من القسطنطينية منحها إياها الأباطرة البيزنطيون من أسرة كومنين فعلى سبيل المثال حصلت البندقية في عهد الإمبراطور حنا الثاني كومن ين (٥١٢-٥٣٨هـ/١١١٨-١١٤٣م) على امتيازات ضخمة في الإمبراطورية البيزنطية ذلك لأنه لم يتمكن من الوقوف بوجه البنادقة ولم تستطع أن تسلبهم شيئاً من امتيازاتهم ، بل انه أكد لهم الامتيازات التي حصلوا عليها في سنة ٤٧٥هـ/١٠٨٢م [٢] .

ومنذ الفترة المبكرة للغزو الصليبي لبلاد الشام بدأت المدن التجارية الإيطالية مساعدتها للصليبيين وبشكل فاعل عن طريق نقل الفرسان الصليبيين على متن سفنهم إلى

الشرق العربي ، وكذلك نقل الأسلحة والإمدادات لهم ، ولم تكتف المدن الإيطالية بذلك بل شاركتمشاركةً فاعلةً عن طريق تقديم المساعدة للصليبيين أثناء حصارهم وامتلاكهم الموانئ البحرية لبلاد الشام [٣] فقد كان دورهم فاعلاً في الاستيلاء على موانئ يافا أرسوف وقيسارية وعكا وصور وقد أشرنا إلى ذلك في فصل سابق [٤] وفضلاً عن مشاركتهم الفعلية في القتال فقد قدّم اولئك التجار للفرسان خدمات لا يستهان بها من خلال تزويدهم بالمقاتلين والأسلحة والمؤن وآليات الحصار وإن جميع تلك الخدمات كانوا يتقاضون عنها أجوراً ممتازة [٥] .

ومع أن المدن التجارية الإيطالية أيدت وشاركت في الحروب الصليبية إلا انها لم تفعل ذلك لخدمة الصليب ، و إنما كانت تبحث عن الكسب المادي والمنفعة الاقتصادية ، ورغبة في إقامة المستعمرات والمراكز الدائمة لهم في الشرق بغية استغلال موارده والمتاجرة فيها [٦] وفي المقابل كانت مملكة بيت المقدس الصليبية مضطرة للحصول على مساعدة المدن البحرية الإيطالية لأنها لم تكن تمتلك أسطولاً حربياً ، كما كانت بحاجة إلى الإيطاليين للقيام بأعمال

---

[١] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ٩١ .

[٢] سيد صبرة ، العلاقات ، ص ١٨٣ .

[٣] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٤١-٤٤٢ ؛ اليوسف ، علاقات ، ص٤٢ .

[٤] الشارتري ، تأريخ الحملة ، ص ١١٣،١١٥ ، ١٢١ ، ١٣١ ، ٢٠٧ .

[٥] النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٨٥ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٤٨ .

[٦] سيد صبرة ، العلاقات ، ص١٩ ؛ رباح ، " دور التجار " ، ص ٨٦٨ .

الاستيراد والتصدير ، وكذلك تحتم عليها بذل المساعي للحيلولة دون ارتياد الإيطاليين للموانئ المصرية [١] وعليه يمكن القول انه بفضل المساعدات الإيطالية الفعالة للصليبيين ، فقد استطاعوا الاستيلاء على الموانئ الإسلامية في بلاد الشام ، وبفضل الإمدادات المتتالية بالفرسان والأسلحة والسكان ، تمكن الصليبيون من إقامة مستعمرات دائمة في بلاد الشام ، إذ كانت المدن التجارية الإيطالية بمثابة وسيلة الاتصال والإمداد بين الظهير الأوربي والمستعمرات الجديدة في المنطقة العربية .

وقد كانت قوافل السفن التجارية الخاصة بالمدن الإيطالية كجنوة والبندقية تأتي إلى موانئ المستعمرات الصليبية في بلاد الشام في رحلتين ، الرحلة الأولى : تبدأ في الفترة من الثامن إلى الخامس والعشرين من آب كل سنة ، أما الرحلة الثانية : فكانت عادة تبدأ في الفترة

ما بين الخامس من نيسان إلى الخامس عشر من أيار كل سنة فضلاً عن بعض السفن الأخرى التي كانت تصل إلى بعض الموانئ مثل بيروت في شهر حزيران [٢] في الوقت الذي كانت فيه نسبة الربح الذي تحققه الرحلات التجارية الجنوية إلى موانئ المستعمرات الصليبية تبلغ ٣٠% فقد تراوحت نسبة ربح الرحلات التجارية الخاصة بالبندقية ما بين ٢٠% و ٣٠% [٣] .

ومن جانب آخر حملت تلك المدن الإيطالية معها إلى بلاد الشام خلافاتها المستعرة ولا سيما بين البيازنة والجنوية من جهة ، وما بين البنادقة والجنوية من جهة أخرى ، على أن تلك الخلافات ناجمة عن المنافسات التي قامت على أسس تجارية لامتلاك موانئ الشام وجعلها أسواقا لتصريف منتجاتها [٤] .

وقد نال التجار الغربيون في المدن الساحلية في بلاد الشام امتيازاتٍ واسعة جداً كانوا قد اشترطوها مقابل مساهمتهم في احتلال الموانئ وتلك الامتيازات كانت تتألف من ثلاثة أنواع ،

---

[١]ماير ، تأريخ الحروب ، ص ٢٦٠ .

[٢] محمود ، العلاقات الاقتصادية ، ص ١٣٦ .

[3] *Prawer , “ Social Classes in the Latin Kingdom : The Franks in A History the Crusades “ (ed.) setton , (Wisconsin University Press , Wisconsin : 1958) , Vol. V , p.182 .*

[٤] كروسيه ، الحروب الصليبية ، ص ١٠٥ .

الأول : الامتيازات الإقليمية ، فان التجار الإيطاليين وغيرهم من التجار الأوربيين كانوا ينالون في المدن الساحلية أحياءاً فيها بيوت سكنية ومستودعات وحمام وفرن وكنيسة وسوق ، بينما النوع الثاني : الامتيازات الحقوقية ، فهي عبارة عن استثناءات قانونية متنوعة من النظام القانوني المحلي ، فالتاجر أو الحرفي القادم من جنوة ويروم الإقامة يخصص له حي في الشرق ويتمتع بالامتيازات التي تكفلها له قوانين جمهوريته ، أما النوع الثالث : فهي الامتيازات ذات الطابع التجاري والمالي والضرائبي ، وتتمثل بالمواثيق (***الشهادات والوثائق***) التي منحها الملوك الصليبيين والأمراء والأسياد الحاكمين في مدن القسم الشرقي من البحر المتوسط لاولئك التجار الغرباء ، وتلك الامتيازات كانت لأجل تطوير نشاطهم العملي في ممتلكاتهم ولا سيما أنها تسهم في تعزيز النشاط التجاري للحكام الإقطاعيين ، وتحقيق مصلحة حيوية تعود بدخل كبير على خزائنهم [١] .

أدت موانئ البحر المتوسط دوراً هاماً في حركة التجارة العالمية خلال فترة الحروب الصليبية ، إذ كانت الموانئ التجارية في بلاد الشام تحت الحكم الصليبي بمثابة وسيلة اتصال بالغرب الأوربي على الضفة المقابلة للبحر المتوسط [٢] فقد كانت عكا وصور وبيروت ويافا وارسوف وقيسارية وعسقلان من موانئ مملكة بيت المقدس الصليبية التي حظيت باهتمام فعلي من لدن التجار الإيطاليين [٣] .

ففي مجال النشاط التجاري للصليبيين في بلاد الشام بصورة عامة ومملكة بيت المقدس بصورة خاصة برزت مدن مارست هذا النشاط ، فعلى سبيل المثال ذكر ابن جبير أن مدينة عكا كانت ((***قاعدة مدن الإفرنج بالشام ومحط الجواري والمنشآت في البحر كالأعلام***)) وليس ذلك فحسب بل شبهها بـ ((***القسطنطينية في كونها مجتمع السفن ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق***)) [٤] فضلاً عن ((***إنها كانت مظنة التجار***)) [٥] .

---

[١] زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٤٨ ؛ الزركاني ، " العلاقات الاقتصادية " ، ص ٨٣٢ .

[٢] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١٠٢ ؛ بروفنسال ، " الشام " ، ج١٣ ، ص ٩١ .

[٣] بالار ، " الجمهوريات البحرية " ، ص ١٩٥ .

[٤] رحلة ، ص ٢٧٦ .

[٥] ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج١١ ، ص ٥٣٩ ؛ أبو شامة ، الروضتين ، ج٢ ، ص ٨٦ .

وكان ميناء عكا الميناء الرئيس للصليبيين وذلك لعدة أسباب منها كونه ميناءاً جيداً صالحاً لرسو السفن في بعض فصول السنة [١] كما ان شكل خط الساحل الذي كان مستقيماً كان غير عميق هذا إلى جانب تمتع الميناء بحماية طبيعية من جهاته الشمالية والشرقية والجنوبية ، ويتضمن محناً من العواصف ، ومرسً مريحاً في جميع الأحوال لكون ميناء عكا يقع في نهاية طريق التجارة البري المار من آسيا الوسطى إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط مروراً ببلاد الشام فضلاً عن كونه اقرب الموانئ إلى القدس [٢] .

فقد ارتبطت مدينة عكا بخط ملاحي مع الموانئ الأوربية ، فكانت السفن الشراعية تغادر ميناءها في موسمين ، الأول : في فصل الربيع ، والثاني : في فصل الخريف والتجار لا ينزلون إلى عكا بالبضائع إلا في هذين الفصلين لأن حوض البحر المتوسط تهب عليه من ناحية الشرق رياح شرقية مرتين في السنة ، الأولى تبدأ في منتصف شهر نيسان وتنتهي أواخر شهر أيار ، أما المرة الثانية فتتحرك في فصل الخريف من منتصف شهر تشرين الأول ومدتها اقصر من المدة الربيعية ، وقد تكون بحدود الخمسة عشر يوماً أو اكثر بقليل على أن تلك الرياح الشرقية تدفع السفن باتجاه الغرب ، وهي فرصة مناسبة للإبحار إلى أوربا [٣] كما ارتبطت عكا بخطوط ملاحية مع الموانئ الشامية الأخرى كصور وبيروت
وطرابلس واللاذقية ، وكانت تلك الموانئ تتصل أيضا بأوربا بخطوط ملاحية ، وتنقل تلك السفن الشراعية السلع الشرقية والشامية فضلاً عن المسافرين من حجاج وتجار وغيرهم [٤] .

وتعد صور الواقعة ((***في صدر البحر كجزيرة تكتنفها المياه من كل صوب***)) من بين المدن الهامة في مملكة بيت المقدس الصليبية ، وقد كان لموقعها الجغرافي دورٌ كبيرٌ في شهرتها في المجال الاقتصادي التجاري [٥] .

تركزت الحياة الاقتصادية بالموانئ الشامية أثناء الحكم الصليبي في منطقتين رئيسيتين هما : منطقة الميناء ومنطقة السوق ، فقد كان ربانيو السفن التجارية القادمة من المدن الإيطالية

---

[١] دانيال الراهب ، رحلة الحاج الروسي ، ص ١٠٤ .

[٢] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١٠٢.

[٣] ابن جبير ، رحلة ، ص ٢٨٤.

[٤] غوانمة ، " التجارة وسياسة الاعتدال " ، ص ٦٤٢.

[٥] الصوري ، تأريخ الحروب ، ج١ ، ص ٥٤٦ .

فـي رحلـة بحريـة تسـتغرق ثلاثـة أسـابيع ، يسـتعينون بخـرائط البحـر وبالتعليمـات المكتوبـة التـي تساعدهم فـي الوصـول إلـى مشـارف المينـاء ، حيـث يرسـل حـراس القلعـة إشـارات إلـى رؤسـائهم وتقرع أجراس الكنائس ، وحال وصـول السفن التجاريـة إلى الميناء كان يجري تفريغها من السلع والبضـائع التي تحملها عن طريق العتالين الذين كانوا فـي الغالب من السكان المولدين الذين عرفوا باسم بولان الميناء ***Poulain Port*** ، ومن ثم يضعونها في قوارب خفيفة لتأخذ طريقها إلى الأرصفة [١] .

وكانت الإجراءات المتبعة في موانئ الشام الصليبية تجاه السفن الإيطالية تتم عبر أربع مراحل ، الأولـى : إنـزال البضـائع علـى رصـيف المينـاء ، والثانيـة : تسـجيل تلـك البضـائع فـي سجلات خاصة ، والثالثة : وضعها في المخازن ، أما المرحلة الرابعة : فهي بيع السلع والبضائع في الأسواق المحلية [٢] .

وعلى الرغم من الامتيازات الواسعة التي حصل عليها التجار الإيطاليون إلا أن السلطات الصليبية فـي بلاد الشام ، فرضت عليهم عدة أنواع من الضرائب منها ضريبة الرسو وضريبة الميناء والإبحار والسوق فضلاً عن الرسوم الكمر كية التي كانت تختلف نسبتها حسب جنسية التاجر ونوع السلعة التجارية وقد تراوحت نسبتها ما بين ٢%إلى ١٥% كما كانت نسبة الرسوم تختلف من ميناء صليبي إلى آخر [٣] على أن تلك الامتيازات التجارية الممنوحة للتجار تتمتعت بالإعفاء الجزئي من الرسوم التجارية ، فعلى سبيل المثال أن جان ابلين حاكم بيروت أعفى في أحدى وثائق المنح العائدة لمملكة بيت المقدس الصليبية تجار جنوة من دفع الرسوم عند بيعهم الخمور والحبوب [٤] .

وكانـت السـلع والبضـائع التـي تصـل إلـى الميـنـاء الصـليبي ، تتعـرض للفحـص إذ يقـوم موظفوا الكمارك بفحصـها مـن أجل فرض الضـرائب عليها بطريقتين ،الأولـى : تقدير الضـريبة حسب قيمة البضائع ، والثانية : حسب كمية السلع التجارية وحجمها [٥] .

---

[١] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٦٤-١٦٥ .

[٢] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١٠٣ .

[٣] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٦٦ ؛ ريشار ، " تكوين مملكة " ، ص ١٦٥ .

[٤] زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٥٠ .

[٥] بالار ، " الجمهوريات البحرية " ، ص ١٩٧ ؛ زابوروف ، نفسه ، ص ١٥٠ .

ولم تقتصر عملية فحص البضائع على موظفي كمارك الميناء بل وجدت مكاتب كمارك المدن منها مكتب كمارك مدينة القدس الواقع في قلعة داؤد ، كما وجدت عدة مكاتب أخرى بالقرب من البوابات الرئيسة للمدينة فضلاً عن وجود المكاتب الكمر كية عند بوابات

القلاع والحصون منها كمارك حصن الكرك وكمارك قلعة الشوبك ، أما عن الرسوم الكمركية المفروضة على السلع والبضائع عند البوابات ، فتمثلت بمكتب كمارك الكرك بالبوابة الذي كان يقرر وجوب دفع كاروبل واحد ***Carouble*** [١] على أية سلعة يتم تصديرها براً من المدن الصليبية إلى المدن الإسلامية الداخلية [٢] وحال الانتهاء من عملية دفع الرسوم الكمركية كان التاجر يتوجه ببضاعته من الميناء في طريقه إلى الفنادق التي كانت تقابل الخانات لدى الصليبيين في المدينة [٣] .

وقد مثلت أسواق المدن الصليبية المحطة الأخيرة لرحلة البضائع الشرقية التي كان التجار الإيطاليون والمسلمون يجلبونها من المدن الإسلامية عبر موانئ الشام الصليبية وبراً عبر طريق القوافل التجارية القديمة ، وكذلك البضائع الغربية التي كانت تجلبها السفن الإيطالية من موانئ جنوب وغرب أوربا ، علما بان الصليبيين قد استخدموا الأسواق الإسلامية نفسها بالمدن ، فلم يقوموا بتغيير مكان السوق ، إلا فيما ندر كما انهم استخدموا التجهيزات الموجودة من قبل والملائمة لعمليات البيع والشراء كما هي من دون تغيير [٤] .

وانسجاماً مع الوضع السياسي والاقتصادي للمستعمرات الصليبية في بلاد الشام كان هناك نوعان من الأسواق داخل مدن مملكة بيت المقدس الصليبية ، النوع الأول : الأسواق الملكية التي تعود تبعيتها للسلطة الصليبية الحاكمة المتمثلة بشخص الملك الصليبي إلى جانب الأسواق الإقطاعية التابعة لأمراء الإقطاعيات والبارونات ، أما النوع الثاني : فهي الأسواق الإيطالية التي كانت توجد داخل المستوطنات الإيطالية التي مثلت أسواق ممتازة ومتميزة على

---

[١] الكاروبل = ١/ ٢٤ من البيزنت . ينظر : الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١٠٩ ؛ هامش رقم (١) .

[٢] نفسه ، ص ١٠٨-١٠٩ .

[٣] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٦٦ .

[٤] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١٠٩-١١٠ .

الأسواق الملكية والإقطاعية [١] على إن تلك الأسواق استعمل فيها التجار الإيطاليون المقاييس وحدات الوزن المستعملة في مدنهم ، ومثلت امتيازاً تجارياً مهماً ، فقد نال مثل ذلك الامتياز تجار البندقية في عكا سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م كما حصل عليه تجار بيزا بينما لم يكن يسمح للتجار الالمان أن يستعملوا مقاييس وموازيين موطنهم إلا عندما يعقدون صفقات مع أبناء موطنهم [٢] .

وفرض التركيب السياسي للمدينة الصليبية فارقاً كبيراً في طبيعة الأسواق ، فيما تخصصت الأسواق التابعة للملك الصليبي وللأمراء في بيع وشراء المواد الغذائية والسلع الضرورية لحياة السكان الصليبيين وجه التجار الإيطاليون اهتمامهم الأكبر نحو السلع والبضائع التجارية التي كان يتم جلبها بكميات ضخمة من أسواق المدن الإسلامية الداخلية و أسواق الغرب الأوربي [٣] .

وقد امتلكت كل مدينة من مدن مملكة بيت المقدس الصليبية أسواقاً خاصة بها منها الدائمة ومنها الموسمية ، إذ كان يجري فيها مزاولة الفعاليات الاقتصادية بتعاون بين المقيمين الدائمين والتجار العابرين [٤] على أن كل مدينة كانت تفخر بأسواقها وخاصة الساحلية مثل عكا وصور التي كانت أسواقها عبارة عن أبنية عالية ذات قباب وتحوي على مختلف أنواع البضائع التي يعرضها التاجر في الأبواب المفتوحة على الشارع الذي توجد فيه حشود المشترين ، وكانت الأبنية ذات القباب أو المظلات القماشية فوق الشارع لتحمي رواد السوق من أشعة الشمس والمطر ، على الرغم من أنها تضفي على السوق جواً معتما فضلاً عن روائح التوابل التي كانت تختلط بالروائح الكريهة النفاذة التي تفوح من المطاعم المفتوحة ، تلك كانت تلك سمات المدن الساحلية الصليبية في بلاد الشام [٥] .

أما المدن الداخلية كالقدس والناصرة وبيت لحم ، فإنها تمتعت بنشاط تجاري صاحب أهميتها الدينية لدى الغزاة الصليبيين ، وجاء أيضا نتيجة للكثافة السكانية بالمدينة وما يجاورها

---

[١] بالار ، " الجمهوريات البحرية " ، ص ١٩٧.

[٢] زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٥٠ ؛ الزركاني ، " العلاقات الاقتصادية " ، ص ٨٣٢-٨٣٣ .

[٣] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١١١ .

[٤] بالار ، " الجمهوريات البحرية " ، ص ٢٠٠ .

[٥] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٦٧-١٦٨ .

وتلبية لاحتياجات الحجاج النصارى ، فكان للقدس أسواقها الدائمة والموسمية وتضمن السوق الرئيس للمدينة ثلاثة شوارع ، وتربط بينها ممرات جانبية [١] .

فقد انتشرت في القدس شوارع تجارية ضمت أسواقاً عديدة مليئة بالسلع والبضائع المختلفة تخصص كل منها ببيع وشراء سلعة معينة [٢] ومن تلك الأسواق سوق الغلال الذي يقع بالقرب من بوابة يافا شمال مدينة القدس [٣] وكان يوجد في القدس أسواق أخرى متخصصة منها سوق الأعشاب حيث تباع فيه كل الأعشاب والنباتات ، وجميع أنواع الفواكه وسوق السمك وسوق الطيور والبيض والجبن [٤] فضلاً عن وجود العديد من الأسواق مثل سوق الدباغين وسوق الطعام الذي كان يتم فيه بيع الطعام المطهي وتقديمه للزائرين من الحجاج النصارى الوافدين إلى الأراضي المقدسة ، كما وجدت في الأسواق محلات الصاغة ومحلات الصيارفة التي كانت تنتشر ليس فقط في مدينة القدس بل في جميع المدن الكبرى تقريباً ، ولا سيما أنها في الأراضي المقدسة كانت ضرورة يومية بسبب موجات الحجاج النصارى والتجار الوافدين من شتى أنحاء أوربا [٥] .

وكما هو الحال في الأسواق الإسلامية بالشام ، فقد تالف تجار الأسواق الصليبية من ثلاثة أنواع ، الأول : تاجر التجزئة ، والثاني : تاجر الجملة ، والثالث : التاجر الأكبر الذي يملك عملية تصدير السلع والبضائع ، وكان بعض التجار الكبار لهم وكلاء عنهم في الأسواق الصليبية والإسلامية على أن التجار كانوا يقومون بإقراض بعضهم البعض من أجل استمرار العمليات التجارية [٦] .

---

[١] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١١٣ ؛

Prawer , “ The Settlement “ , pp. 500 .

[٢] ثيودريش ، وصف الأماكن ، ص ٧٧-٧٨ ؛ زايد ، القدس الخالدة ، ٢١٦ ؛ النقر ، " التغيرات الإدارية " ، ص ٦٦٥.

[٣] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٦٧.

[٤] زايد ، القدس الخالدة ، ص ٢١٦.

[٥] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٦٧-١٦٨.

[٦] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١١٦ .

وفيما يتصل بتاجر التجزئة الذي كان يمارس نشاطه الاقتصادي في المدن الداخلية [١] فكان يذهب إلى أسواق المدن المختلفة ولديه قائمة بأسعار جميع السلع والبضائع التي اختلف سعرها من بلد إلى آخر ، كما كان يحتفظ معه بقائمة الضرائب المفروضة على البضائع في الأسواق المختلفة ، وكذلك كان عليه الا يتأخر وهو في طريقه إلى أسواق المدن لئلا تفسد بضاعته ، بينما كان تاجر الجملة يشتري السلع في موسمها ثم يقوم بتخزينها لكي يرتفع ثمنها نظراً لندرتها في الأسواق ، كما كان يبيع بضاعته عند انخفاض الأسعار كذلك كان تاجر الجملة يشتري السلع والبضائع عن طريق تقسيط ثمنها فلا يدفع ثمنها مرة واحدة [٢] .

وقد وجد في مدينة القدس أسواق مزدهرة في فترة الاحتلال الصليبي نتيجة لقدوم أعداد هائلة من الحجاج النصارى إلى المدينة سنوياً منها أسواق الجملة وتقع قرب بوابات المدينة وأسواق التجزئة في وسط المدينة ، وقد وجد ثلاثة أسواق رئيسة للجملة هي سوق الحبوب وسوق الغلال وسوق تجارة الطيور الحية ، بينما كانت أسواق التجزئة مركزة في شارع القديس اسطيفان ، وكانت تتألف من ثلاثة أسواق سميت باسم ((***السوق الثلاثي***)) وكانت حوانيت تجارة التجزئة صغيرة الحجم لا تتعدى مساحتها (٤م^{٢}) أقيمت أمامها شرفات تمتد إلى الإمام بحوالي (١م^{٢}) يتم فيها عرض السلع والبضائع وكانت اغلب تلك الحوانيت تطل دائماً على الشوارع الرئيسة حيث الكثافة السكانية ، خاصة في المنطقة القريبة من حي البطريرك الذي تتوسطه كنيسة القيامة [٣] .

على أن السلطة الصليبية في مملكة بيت المقدس لم تكن تفرق في معاملاتها بين تاجر الجملة وتاجر التجزئة ، وذلك لأنها لا تهتم إلا باستمرار الفعاليات الاقتصادية بغض النظر عن القائمين بها سواء كانوا من التجار الإيطاليين أم من أفراد الطبقة البرجوازية [٤] .

---

[1] *Prawer , “ The Settlement “ , pp.499 .*

[٢] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص١١٦ .

[٣] النقر ، " التغيرات الإدارية " ، ص ٦٦٥-٦٦٦ .

[4] *Prawer , “ Social Classes “ , vol. V , p. 155 .*

أما بالنسبة للتاجر الأكبر فهو يمتلك القدرة على تصدير سلعه وبضائعه ، فكان يجب أن يكون لديه وكيل أو ممثل عنه ليقوم باستلام البضائع ثم يرحل بها إلى الأسواق المختلفة ليتولى بيعها هناك نيابة عن التاجر الكبير ، وكان على الوكيل أن يكون أمينا متصفاً بالمراسة في التجارة [١] .

وقد استخدم التجار أسلوب المقايضة الذي عرفته الأسواق الأوربية منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ، كما عرفته الأسواق الإسلامية أيضا كبديل لنقص العملة وكطريقة مثلى للربح المشترك من دون خسارة ، فكأن التجار يتبادلون السلع التي جرى العرف التجاري على مقايضتها كالحبوب والخيول والماشية ، وكان التجار يعلنون عن سلعهم بوساطة المنادين الذين كانوا يجوبون الشوارع ليعلموا السكان بالسلعة المراد بيعها وبمكانها ، كما كان الحال بخصوص نبيذ نابلس على أن السماسرة قاموا بمهمة الإعلان عن السلع والبضائع على نسق اكثر تنظيماً ، حيث كان عملهم يتلخص في إعلان المشتري للسلعة وإحضاره للشراء من التاجر [٢] .

ونظراً لدور الأسواق الملكية الصليبية في عملية الانتعاش التجاري في بلاد الشام فقد أوجد الصليبيون نظاماً صارماً لإدارة الأسواق ، كان على رأسه الفيكونت ويساعده المحتسب ورفاقه من رجال الشرطة كذلك تم اتخاذ محكمة السوق التي قامت بدور كبير في حسم المنازعات التجارية في الأسواق [٣] .

وعلى الرغم من أن التجارة الصليبية كانت حلقة وصل بين الشرق والغرب وأيضا كانت بمثابة وسيلة اتصال بين المستوطنين الصليبيين والمسلمين أهل البلاد الأصليين [٤] إلا أن تجارة الصليبيين (٤٩١-٥٨٣هـ/١٠٩٨-١١٨٧م) كانت تتقدم باطراد حتى اصبح التجار الغربيون ذا سطوة ونفوذ سياسي قوي حتى دفعهم ذلك إلى التدخل في شؤون الحكومات الصليبية أولا ثم في المنازعات ثانياً ، مّما أدى بالتجارة إلى الضعف لا سيما ان تلك التجارة كانت موجهة

---

[١] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١١٦-١١٧ .

[٢] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١١٧ .

[٣] نفسه ، ص ١١٨ .

[٤] النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٩١ ؛ زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٥١ .

إلى الخارج أي صوب الاسواق الخارجية فضلاً عن ان التجار الايطاليون كانوا ينافسون بعضهم بعضاً واحياناً كان يشن بعضهم على بعض حروباً ضارية وفوق ذلك كله فان معركة حطين التي انتصر فيها المسلمون شكلت كارثة على الصليبيين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، إذ تأثرت الحالة التجارية من جرائها وأخذت تدب فيها عوامل الضعف [١] .

رابعا: النقود الصليبية

شكل النقد في الشرق الصليبي مصدراً آخَر للقوة الاقتصادية من الصعب تقدير قيمته فحينما بدأت الحروب الصليبية لم يكن في أوربا نقد ذهبي إلا في صقلية وأسبانيا الإسلامية إذ كانت الفضة اكثر المعادن النفيسة استعمالاً [٢] .

وقد تباينت النقود المتداولة في بلاد الشام خلال عصر الحروب الصليبية ، فضلاً عن العملات الغربية التي أحضرها معهم التجار والحجاج الوافدون من الغرب الأوربي لذا فقد ظلت النقود العربية الإسلامية والنقود البيزنطية متداولة أيضا في بلاد الشام طوال عصر الحروب الصليبية [٣] .

ومع مرور الزمن سك الصليبيون عملاتهم الفضية والنحاسية والذهبية ، وكانت العملة الذهبية الصليبية تسمى الدينار ***Denarius*** وسرعان ما أخذ الصليبيون بعدها يقلدون الدينار والدرهم الإسلاميين غير أن خاصية العملات الصليبية ظلت دون مستوى العملة البيزنطية والإسلامية من حيث الوزن والسبيكة فضلاً عن أن طراز العملة الصليبية كان لا يخفى على أي تاجر محترف قيمتها الحقيقية ، ولكنها مع ذلك كانت متداولة في التجارة العالمية في حوض البحر المتوسط بل أن العملات الصليبية في الأراضي المحتلة أصبحت هي العملة المعول عليها في معاملات السكان الخاضعين لسيطرتهم [٤] .

كذلك عرفت المدن الإسلامية الدوكات الفضية التي تم سكها في البندقية إلا أن التعامل بتلك العملة كان قليلاً لعدم إقبال الناس على التعامل بها في بلاد الشام وإصرارهم على التعامل

---

[١] الزركاني ، " العلاقات الاقتصادية " ، ص ٨٣٣ .

[٢] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٣ ، ص ٦١٨ .

[٣] عاشور ، الحركة الصليبية ، ج١ ، ص ٤٩٠ ؛ الزركاني ، " العلاقات الاقتصادية " ، ص ٨٣٥ .

[٤] براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٦٩ .

بالعملة الذهبية ، لذا فانهم رفضوا الفضة التي كانت غالبة أو هي القاعدة في المعاملات في الغرب الأوربي حتى ذلك الوقت (١) .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل قام الصليبيون أثناء استيطانهم في البلاد العربية بسك عملات خاصة من الفضة والنحاس على نمط العملة الفرنسية المعاصرة لها ، وكان يكتب اسم الملك الصليبي الحاكم في مملكة بيت المقدس على أحد وجهيها فضلاً عن الصليب المنقوش في الوسط ، بينما وضع على الوجه الآخر صورة قلعة داؤد أو صورة الملك الحاكم (٢) فقد كان لمملكة بيت المقدس الصليبية سكة خاصة بها من العملة الفضية فضلاً عن عملة ذهبية عليها نقوش عربية (٣) ومن جانب آخر كانت نقود الصليبيون على الأغلب تسك بشكل خام من تلك المعادن المذكورة (٤) .

وكانت عمليات الصيارفة في المدن الصليبية في بلاد الشام تجري فيما كان يسمونه الفندق ، وهو نوع من البُورصة كان يجتمع التجار فيها للتداول في شؤونهم التجارية والمالية (٥) إذ إن جميع المدن الكبرى كان فيها شارع أو أماكن مخصصة للصرافين بالقرب من الأسواق ، وكانت الصيرفة مهنة ترتبط بالمدن إلا إنها في الأراضي المقدسة كانت ضرورة يومية بسبب توافد الصليبيين والحجاج والتجار من شتى أنحاء أوربا إلى بلاد الشرق (٦) كما كان لدى معظم الجمهوريات الإيطالية في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي بنوك ضخمة لها فروع في جميع أنحاء مراكز نشاطهم التجاري في الشرق والغرب عملت على تسهيل التعامل المالي والتجاري (٧) .

---

(١) محمود ، العلاقات الاقتصادية ، ص١١٨ .

(٢) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٦٩ .

(٣) بروفنسال ، " الشام " ، ج١٣ ، ص ٩١ .

(٤) ماير ، تأريخ الحروب ، ص٢١٧ .

(٥) النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٨٩ .

(٦) براور ، عالم الصليبيين ، ص ١٦٨ .

(٧) فهمي نعيم زكي ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى (هيئة الكتاب ، القاهرة : ١٩٧٣م) ، ص ٣٤٠ .

وفضلاً عن الإيطاليين فقد زاولت الطوائف الدينية العسكرية الاسبتارية والداوية ببلاد الشام أعمال الصيرفة ، وكانوا من أصحاب اكبر المصارف المالية في قيسارية وعكا وصور وغيرها من مدن الساحل الشامي ، وبفضل ممتلكاتهم الشاسعة في جميع إنحاء أوربا تزايد نشاطهم المصرفي بشكل هائل ، إذ عهد إليهم بنقل الأموال من مكان إلى آخر وإيداعها في أحد البيوت التي تخصهم في الغرب [١] .

وكان على الصيارفة أن يقوموا بإبدال العملات الأوربية بالعملة المحلية ، والتعامل بمختلف فئات النقود التي سكت في دور سك النقود الأوربية ، كما يتم تثمين قيمتها الأساسية كمعدن ثم تحويلها إلى عملة محلية هذا فضلاً عن أن الصيارفة كان عليهم أن يتعاملوا بالعملات الموجودة في بلاد الشام إلى جانب عملات أوربا ، وفوق ذلك كله كان الصيرفي الصليبي بمثابة الوسيط بين العملات الأوربية وغير الأوربية ولكي يقوم الصيارفة باداء نشاطهم وبشكل فاعل فانهم كانوا يميلون إلى التخصص ، ففي القدس مثلا كان الصيارفة الصليبيون يشغلون شارعاً ، بينما كان نظراؤهم في الجانب الآخر هم الصيارفة السوريون وهم من النصارى الشرقيين الذين يحتمل انهم تخصصوا في العملات الشرقية [٢] .

أما دور سك العملة التي كانت منتشرة في أهم مدن مملكة بيت المقدس الصليبية فهي :

١ . دار سك القدس

كان في مدينة القدس داران لسك النقود ، الأولى : يتم فيها تقليد النقود الإسلامية ، فالدنانير التي سكها الصليبيون تقليداً لدنانير الخليفة الفاطمي المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ/ ١٠٣٥-١٠٩٤م) والتي ليس عليها الحرفان *T B* والصليب سكت في القدس أثناء حكم الملك بلدوين الأول كما أن الدنانير الصليبية المقلدة لدنانير الخليفة الأمر (٤٩٥-٥٢٥هـ/١١٠١-١١٣٠م) ، على إنها من دار سك القدس في عهد الملك بلدوين الثاني ولسوء الحظ لا يوجد أي نموذج من تلك النقود المقلدة عليه اسم دار السك الحقيقية التي سكت فيها ، أما دار السك الثانية : فهي التي سكت فيها النقود المحلية ذات الكتابة الفرنسية واللاتينية وتتميز تلك النقود بان هامش الظهر مكتوب عليه اسم بيت المقدس بالحروف اللاتينية وبهامش الوجه اسم الملك

---

[١] النقاش ، العلاقات الاجتماعية ، ص ١٨٩ ؛ نعينع ، " الأهمية التجارية " ، ص ١٠٣-١٠٤ .

[٢] براور ، عالم الصليبيين " ، ص ١٦٨ -١٦٩ .

الذي سكت في عهده ، وكان مركز الوجه غالباً ما يزخرف بصورة لإحدى المنشآت المعمارية الكبرى كقلعة داؤد ، أما مركز الظهر فعليه الصليب [١] .

٢.دار سك صور

تعد مدينة صور من أشهر المدن الصليبية في الجانب الاقتصادي ، فقد كان فيها أكبر سَك للعملة في مملكة بيت المقدس الصليبية ، وكان يوجد بصور دارين لسك النقود الأولى : تم فيها تقليد النقود المصرية الإسلامية ، والثانية : سكت فيها النقود الصليبية ذات الكتابات اللاتينية [٢] وبالنسبة للدار الأولى فقد أشار ابن خلكان إلى أن الصليبيين عندما احتلوا مدينة صور سكوا عملة باسم الخليفة الآمر لمدة ثلاث سنوات ثم قطعوا ذلك ، وهذا يعني أن تلك الدار جرى بها سك النقود المقلدة [٣] .

وتلك العملة كانت تعرف بالدنانير الصورية أو المشخصة أو الصليبية ، وتختلف عن الدنانير المصرية الإسلامية في العصور الوسطى لأن صورة الملك الصليبي التي سكت في عهده منقوشة على أحد وجهيها [٤] كما أنها لم تحوِ من الذهب إلا ثلثي ما تحويه الدنانير المصرية [٥] هذا فضلاً عن كونها مضروبة أصلا في مدينة صور ومنسوبة إليها [٦] وكان آهل الشام والعراق من التجار يتعاملون بالدنانير الصورية تسهيلاً لصفقاتهم التجارية وكان متداولاً في

---

[١] رافت محمد النبراوي ، النقود الصليبية في الشام ومصر (دار نهضة الشرق ، القاهرة : د.ت) ، ص ٢٦٠ .

[٢] زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٥٠ ؛ الزركاني ، " العلاقات الاقتصادية " ، ص ٨٣٤-٨٣٥ .

[٣] وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص ٣٠١ .

[٤] القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٥٠٧ .

[٥] رنسيمان ، تأريخ الحروب ، ج٣ ، ص ٦١٨ .

[٦] ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص ٧٦ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٥٠٧ .

جميع أسواق الشرق ، ولعل هذا أول عصر الأوربيين بالنقود الذهبية [١] وتجدر الإشارة إلى أن الناصر صلاح الدين عند وفاته سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٢م وجِدَ في خزينته دينار صوري [٢] .

أما الدار الثانية فقد سكت فيها النقود ذات الحروف اللاتينية منها الأوبول والدنيير وتتميز تلك النقود بان على هامش وجهها اسم الحاكم الذي أمر بسكها داخل دائرتين واسم دار السك وهي صور ***De SVR*** داخل دائرتين بهامش الظهر [٣] .

٣.دار سك عكا

وتأتي عكا في المرتبة الثالثة في سك النقود بعد مدينتي القدس وصور [٤] وكان بهما داران مستقلان لسك النقود الصليبية احدهما لسك النقود ذات الكتابات العربية والأخرى لسك النقود الصليبية المحلية ذات الكتابات اللاتينية ، وبخصوص الدار الأولى كان يسك فيها نوعان من النقود ذات الكتابة العربية ، الأول : هو النقود الصليبية المقلدة للنقود الفاطمية ، أما الدار الثانية : فكانت تسك فيها النقود المحلية المختلفة منها النقود التي سكت في عهد الملك جاي لوزجنان [٥] .

والى جانب دور السك في مدن القدس وصور وعكا كانت هناك دور سك أخرى انتشرت في أنحاء مختلفة من المملكة الصليبية ، منها يافا وحيفا وارسوف ويبنى والرملة وبيسان وطبرية والكرك والشوبك ، وكان من صلاحيات حكامها سك النقود ولكن لم يصلنا منها شيء [٦] .

ويتضح مما تقدم أن النظام النقدي للصليبيين بالشام قد انقسم إلى قسمين أساسيين النقود الذهبية والفضية عالية القيمة التي جرى سكها تقليداً للنقود الذهبية والفضية الفاطمية في مصر والشام ، ونقود برونزية ونحاسية ذات كتابات يونانية أو لاتينية أو فرنسية ، ونظراً لوجود

---

[١] زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٥١ ؛ الزركاني ، " العلاقات الاقتصادية " ، ص ٨٣٥ .

[٢] ابن الأثير ، الكامل ، ج١٢ ، ص ٩٦.

[٣] النبراوي ، النقود الصليبية ، ص ٢٦٧ .

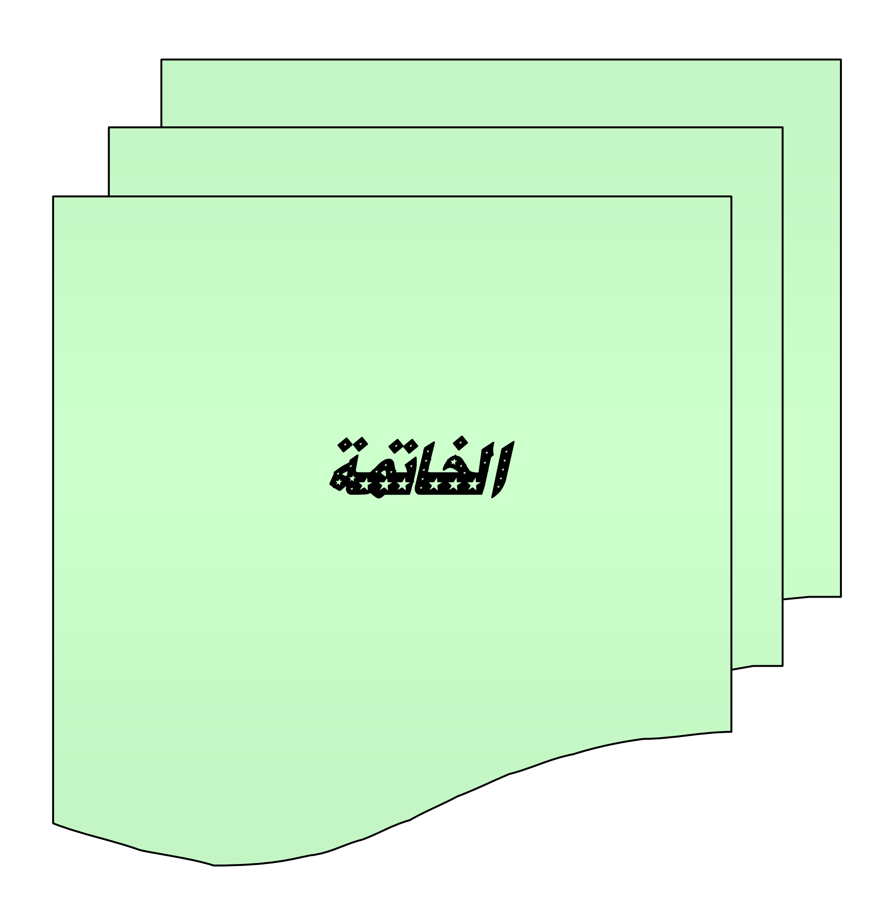
[٤] زابوروف ، الصليبيون ، ص ١٥١ .

[٥] النبراوي ، النقود الصليبية ، ص ٢٦٩ .

[٦] نفسه ، ص ٢٦٣،٢٦٥،٢٦٩ .

الصليبيين في وسط مجتمع نقدي متقدم في حين لم تكن لديهم عملة خاصة ، لذا قاموا بتقليد النقود الذهبية والنحاسية الخاصة بالخليفة المستنصر بالله وأيضا نقود الخليفة الآمر [١] .

[١] الطحاوي ، " الصليبيون " ، ص ١١٨ .


الخاتمة

الخاتمة

بعد البحث تم التوصل الى جملة نتائج افرزتها الدراسة منها :

١. أن الصليبيين الذين قدموا من الغرب إلى الشرق واستقروا فيه كانوا جماعات متنافرة حرّكتهم دوافع متباينة وتحكمت في سياستهم أطماع شخصية متضاربة ، وقد ترك ذلك كله أثره في تشكيل المجتمع الصليبي ببلاد الشام إذ ظل مجتمعاً ممزقاً لا تربط أفراده روابط مشتركةولا توجد بينهم سياسة ثابتة ، ونظراً لكون الصليبيين جزءاً من أوربا في العصور الوسطى ، فقد كان مجتمعهم مجتمعاً عسكرياً ، وقد اقتحموا بلاد الشام غزاة محاربين بالدرجة الأولى ، واستوطنوا فيها بالقوة ، وبمعنى آخر أن المجتمع الصليبي في بلاد الشام كان في أساسه مجتمعاً حربياً اعتمد على الحرب وقتال المسلمين من اجل الحفاظ على وجوده من ناحية ، وفي التوسع على حسابهم من ناحية أخرى .

٢. حاول الصليبيون تثبيت أقدامهم في بلاد الشام عن طريق وضع مجموعة من التنظيمات منها في الجانب الاداري والقضائي والديني الا ان اهمها كان في الجانب العسكري ويتمثل في إنشاء الكثير من القلاع والحصون فوق مرتفعات وعرة صعبة المسالك والتي خضعت لسيطرة هيئتي فرسان الاسبتارية والداوية وشكلت تلك المعاقل العسكرية الصليبية شبكة حصينة أحاطت بمملكة بيت المقدس الصليبية من جميع جهاتها ، فكانت وسيلة أساسية لحماية حدود المملكة وادارة الإقطاعات وإيداع الغنائم والإمدادات والأسرى وضمان الاتصالات بين المواقع العسكرية التابعة للمملكة الصليبية ، وهذا يعني أن تلك المعاقل قامت بوظيفتين ، الأولى :ان القلاع والحصون كانت سلاحاً حربياً استخدمه الصليبيون في حالتي الدفاع والهجوم ، أما الثانية :فان القلعة والحصن مثلا مركزاً إدارياً مهماً في وسط النظام الإقطاعي الكبير إذ كانت تلك المعاقل تجمع بين مقر السيد الإقطاعي والمستوطنة المحصنة بشكل يؤهلها تماماً لحمل اسم (قلعة) و(حصن) بمفهوم العصور الوسطى ، وبذلك كان تشييد القلاع والحصون من أهم عناصر الاستيطان الصليبي في بلاد الشام .

٣. إن الصليبيين من البداية حتى النهاية لم يحتلوا الأجزاء الشامية الداخلية بل كل ما قاموا به هو احتلال الأجزاء التي تعتمد على البحر لضمان التموين من الخارج وعلى سلسلة القلاع والحصون لضمان الحماية والدفاع ضد أي هجوم ، فاستراتيجيتهم تتحصر في

المعاقل العسكرية للحماية والدفاع وفي البحر للتموين والإمداد ، أما الصحراء في الجنوب تمثل الحد الفاصل لمملكة بيت المقدس الصليبية الممتدة من البحر المتوسط إلى البحر الميت ، وامتازت تلك الحدود بان قلاعها جمعت بين خصائص العمارة الغربية والشرقية مما سبقت الإشارة إليه .

٤. كانت أهداف الصليبيين من وراء إنشاء المستوطنات ، أهدافاً استيطانية تتمثل في تشجيع الأوروبيين وتحفيزهم بكافة الطرق والوسائل المتاحة للقدوم إلى الأراضي المقدسة والاستقرار فيها ، وفضلاً عن القرى العربية التي هجرها سكانها المسلمون ، فقد عملت السلطات الصليبية على تشجيع الفرسان العلمانيين ورجال الكنيسة على إنشاء قرى جديدة كما أنها قامت بجذب المستوطنين عن طريق منحهم الأرض وبناء المساكن اللازمة لمعيشتهم ، والأهداف الاقتصادية من اجل التحكم في اقتصاديات بلاد الشام بصورة عامة والأراضي المقدسة بصورة خاصة ، أما الأهداف العسكرية فكانت المستوطنات ثكنات للجيش الصليبي ومراكز للسلطة والقيادة ، فضلاً عن الأهداف الدينية المتمثلة بتوطين مجموعات من الحجاج النصارى الذين قدموا من أوربا إلى الأراضي المقدسة لاداء طقوس الحج .

٥. وقد اتضح من هذه الدراسة أن المجتمع الصليبي في بلاد الشام كان مجتمعاً يضم جماعات مختلفة تتكلم لغات شتى يجمع بينها العداء للإسلام واهله وتسعى للاستيلاء على بلاد الشام والاستيطان فيها ، على الرغم من الكثير من ملامح التطور التي شهدها المجتمع الصليبي في بلاد الشام إلا أن الصليبيين احتفظوا بكثير من عاداتهم وتقاليدهم التي تتفق وأصولهم الغربية لانه من الصعب أن يكون التحول الاجتماعي تاماً وشاملاً في تلك الفترة التاريخية المحدودة ، وعليه يمكن القول أن ذلك المجتمع كان مصطبغاً بصبغة بلاد الشام أهلها ومناخها العام وكانت كلها بعيدة عن طبيعة الغرب الأوربي الذي قدم منه الصليبيون ، ومن جهة أخرى فقد تأثر بعض المستوطنين الصليبيين بالثقافة والعادات العربية الإسلامية فمنهم من تعلم اللغة العربية ودرس التواريخ وتأثر بأزياء المسلمين وطرائقهم في إعداد الطعام ومعالجة بعض الحالات المرضية التي تصيبهم .

٦. إن النظام الزراعي الذي أوجده الصليبيون في بلاد الشام كان مقتبساً عن النظام المعتمد في أوربا ، ولانهم جاءوا إلى منطقة تمرس شعبها على الزراعة منذ آلاف السنين فلابد انهم

تأثروا بأساليب الزراعة في بلاد الشام ، ومن جانب آخر استولى الصليبيون على مساحات من الأراضي الزراعية واغتصبوها من أصحابها الأصليين واصبحوا السادة الجدد ملاك الأرض على حساب المسلمين الذين تركوا الريف مرغمين بسبب الغزو الصليبي إلا انهم احتفظوا بكثرتهم العددية خاصة في القرى المتاخمة لممتلكات القوى الإسلامية وحول المدن الكبرى داخل نسيج المستعمرات الصليبية مثل عكا ونابلس ومشاركتهم في النشاط الاقتصادي الزراعي .

٧. كان لرجال الدين الصليبيين دورٌ كبيرٌ في توجيه الأحداث في المجتمع الصليبي في بلاد الشام ذلك أن دورهم لم يقتصر على الوفاء بالمطالب الدينية للمجتمع والنهوض بشعائر الدين وانما تعدى ذلك إلى التدخل في شؤون الحكم والسياسة والحرب ، فضلاً عن قيام هيئتي الفرسان الاسبتارية والداوية بدور بارز في قتال المسلمين وحماية العديد من القلاع والحصون الصليبية ، فان كبار رجال الدين أنفسهم كانت لهم طموحاتهم ومطامعهم مّما جعل لهم دوراً مهماً في تدبير شؤون الحكم والسياسة منذ وقت مبكر .

٨. أما الأوضاع الحضارية للمجتمع الصليبي في بلاد الشام فقد اتصفت بالتخلف مقارنة بالمستوى الحضاري للمسلمين ، فمنذ وصول الصليبيين إلى بلاد الشام واستقرارهم وسط ذلك المحيط الإسلامي الكبير ظهر التباين واضحاً بين مجتمعين متواكبين أحدهما غربي نصراني يتصف بالجمود والتخلف وضيق الأفق والآخر شرقي اسلامي يتسم بالتسامح الديني والتقدم الحضاري ، وقد صور الكتاب المسلمون اوجه الاختلاف بين المسلمين والصليبيين في الخلقة والمعتقد والعادات والتقاليد وأساليب الحياة ، فوصفوا سماتهم الخلقية ومعالم حياتهم الدينية ، وتعجبوا من جرأتهم وقوة احتمالهم ونعتوهم بالقسوة والوحشية والغدر والتخلف والانحطاط ضاربين الأمثلة على ذلك من واقع الحياة اليومية .

٩. على الرغم من تغيير الغزاة الصليبيين لطبيعة البلاد المحتلة وزرعهم القلاع والحصون في بلاد الشام بصورة عامة و مملكة بيت المقدس الصليبية بصورة خاصة ، وكذلك المستعمرات الصليبية على حساب سكان البلاد الأصليين إلا أن ذلك لم يضمن للصليبيين الاستمرار والاستقرار في المنطقة إلى ما لا نهاية ، إذ أن تلك الحركة التي قامت على

التعصب لم يقدر لها أن تستمر بعد ان تأكد إخفاقها الكامل وعجزها عن القيام بدور حضاري في الشرق .

١٠. وفي ختام حديثنا عن أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال دراستنا لموضوع الاستيطان الصليبي لابد أن نشير إلى أن الكيان الصليبي الذي استمر قرنين من الزمان ونجح خلالها في إيجاد صيغ سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية تلائم الوضع الجديد إلى أن نجح المسلمون في القضاء على مملكة بيت المقدس الصليبية سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، وإسقاط آخر الأملاك الصليبية باستعادة عكا سنة ٦٩١هـ /١٢٩١م ، وطردوا ذلك الكيان الدخيل في نهاية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي .

١١. أما سقوط مملكة بيت المقدس الصليبية وانهيار الاستعمار الاستيطاني الأوربي فيعود إلى عدة عوامل في مقدمتها : نقص العنصر البشري في صفوف الصليبيين ، فقد كانت الكيانات الصليبية في بلاد الشام مستعمرات حكام لا مستعمرات لاستيطان السكان بينما كانت فئات الشعب في الريف من المسلمين أو النصارى الشرقيين في بلاد الشام .

العامل الثاني : للسقوط الصليبي يمكن عزوه إلى مساوئ أنظمة الحكم الإقطاعية ولاسيما التفرقة السائدة لدى الإقطاعيين وتقسيم المملكة الصليبية إلى اقطاعيات متفاوتة في المساحة ّمما وسع الفارق بين كبار السادة الإقطاعيين وصغارهم .

العامل الثالث : النزاعات بين الصليبيين أنفسهم ، فقد كان تاريخ المملكة الصليبية في اغلب فصوله صراعات متواصلة بين الامراء والحكام الصليبيين واخرها بين الملك جي لوزجنان وريموند الثالث عشية معركة حطين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، بمعنى أن الشرق الصليبي في جميع ارجائه كان منقسماً على نفسه الأمر الذي أدى إلى سقوط مملكة بيت المقدس الصليبية وانهيارها .

العامل الرابع : ان اعتماد المسلمين الجهاد وتكاتف ابناء المجتمع الإسلامي وتفانيهم لطرد المحتلين الصليبيين ابتداء بجهود القدة عماد الدين زنكي مروراً بابنه نور الدين وصولاً الى الناصر صلاح الدين الايوبي كان له ابلغ الاثر في تقويض دعائم ذلك الكيان الصليبي الطارئ .


ثبت المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الاولية

١. الابيوردي ، محمد بن احمد بن إسحاق (٥٠٧هـ/١١١٣م) .

. ديوان الابيوردي ، تحقيق :عمر الأسعد ، د. م. ، دمشق ، ١٩٧٥م .

٢. ابن الاثير ، عزالدين محمد بن محمد بن ابي الكرم (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م)

ـ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق : عبد القادر احمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

. الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٦م .

٣. الاصطخري ، إبراهيم بن محمد (توفي : في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي).

. المسالك والممالك ، تحقيق:محمد جابر عبد العال ، مطبعة دار القلم ، القاهرة ،١٩٦١م .

٤. الأصفهاني ، محمد بن محمد الكاتب (ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م) .

. البرق الشامي ، تحقيق : مصطفى الحياري ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان ، ١٩٨٧م .

. الفتح القسي في الفتح القدسي ، تحقيق : مصطفى فهمي الكتبي ، مطبعة الموسوعات ، مصر ، د. ت .

٥. الانطاكي ، يحيى بن سعيد (٤٥٨هـ / ١٠٦٦م) .

. تأريخ يحيى بن سعيد ، نشر مع التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق لسعيد بن البطرق ، تحقيق : لويس شيخو ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٩م .

٦. ابن بطوطة ، محمد بن إبراهيم (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) .

. رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٤م .

٧. البغدادي ، عبد المؤمن بن عبد الحق (٧٣٩هـ/١٣٣٨م) .

. مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٤م .

٨. البنداري ، قوام الدين ابو الفتح بن علي (٦٤٣هـ/١٢٤٤م) .

. سنا البرق الشامي ،(وهو مختصر كتاب البرق الشامي الاصفهاني) ، تحقيق : فتحية النبراوي ، مطبعة الجبلاوي ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

٩. التطيلي ، بنيامين بن يونة (٥٦٩هـ/١١٧٣م) .

. رحلة بنيامين ، ترجمة : عزرا حداد ، المطبعة الشرقية ، بغداد ، ١٩٤٥م .

١٠. ابن تغري بردي ، جمال الدين ابو المحاسن يوسف (٨٧٤هـ/١٤٦٩م) .

- النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، مطبعة كوستاتسوماتس ، القاهرة ، د. ت .

١١. ثيودريش

- وصف الأماكن المقدسة في فلسطين ، ترجمة وتحقيق ودراسة : سعيد عبدالله البيشاوي ورياض شاهين ، دار الشروق ، عمان ، ٢٠٠٣م .

١٢. ابن جبير ، ابو الحسن محمد بن احمد الأندلسي (٦١٤هـ/١٢١٧م) .

. رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٤م .

١٣. ابن الجوزي ،عبد الرحمن بن علي (٥٩٧هـ/١٢٠٠م)

. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، الدكن ، ١٣٥٧هـ .

١٤. الحنبلي ، احمد بن إبراهيم (٨٧٦هـ/١٤٧١م) .

- شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، تحقيق : ناظم رشيد ، دار الحرية للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٩٧٨م .

١٥. خسرو ، ناصر (٤٨١هـ/١٠٨٨م).

- سفر نامة ، ترجمة : يحيى الخشاب ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٥م .

١٦. ابن خلدون ، عبد الرحمن محمد الحضرمي (٨٠٨هـ/١٤٠٥م) .

- تأريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩م .

١٧. ابن خلكان ، شمس الدين احمد بن محمد (٦٨١هـ/١٢٨٢م) .

. وفياة الاعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق:إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، د. ت .

١٨. دانيال الراهب (ت : ٥١٦هـ/ ١١٢٢م) .

- رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الأراضي المقدسة ١١٠٦-١١٠٧م ، ترجمة : سعيد عبدالله البيشاوي وداؤد اسماعيل ابو هدبة ، دار الشروق ، عمان ، ١٩٩٢م .

١٩. الدوداري ، أبو بكر عبدالله بن ايبك (ت : في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي) .

- كنز الدرر وجامع الغرر المسمى الدر المطلوب في أخبار بني أيوب ، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور ، دار إحياء الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

٢٠. الذهبي ، محمد بن عثمان بن قايماز (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) .

. دول الإسلام ، تحقيق : فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤م .

- سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الارنؤوط ، ط٣ ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٦م .
- العبر في خبر من غبر ، تحقيق : ابو هاجر محمد السعيد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د.ت. .

٢١. سبط ابن الجوزي ، شمس الدين يوسف قزاوغلي (٦٥٤هـ/١٢٥٦م) .

. مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، الدكن ، د. ت. .

٢٢. السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (٩١١هـ/١٥٠٥م) .

. تاريخ الخلفاء ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط٣ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٥٢ م .

٢٣. الشارتري ، فوشيه (٥٢٢هـ/١١٢٧م)

. تاريخ الحملة الى القدس ، ترجمة : زياد العسلي ، دار الشروق ، عمان ، ١٩٩٠م .

٢٤. ابو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (٦٦٥هـ/١٢٦٦م) .

. الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، دار الجيل ، بيروت ، د. ت .

٢٥. ابن شاهنشاه ، محمد بن تقي الدين عمر (٦١٧هـ/١٢٢٠م) .

- مضمار الحقائق وسر الخلائق ، تحقيق : حسن حبشي ، دار النهضة للطباعة ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

٢٦. ابن شداد ، بهاء الدين يوسف بن رافع (٦٣٢هـ/١٢٣٤م) .

. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المسمى سيرة صلاح الدين الايوبي ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

٢٧. ابن شداد ، عز الدين محمد بن علي (٦٨٤هـ/١٢٨٥م) .

. الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق : سامي الدهان ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٦٣م .

٢٨. شيخ الربوة ، محمد بن ابي طالب (٧٢٨هـ/١٣٢٧م) .

. نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، مطبعة الأكاديمية ، بطرسبورغ ، ١٨٦٥م .

٢٩. الصوري ، وليم (٥٨١هـ/١١٨٥م) .

. تاريخ الحروب الصليبية الأعمال المنجزة فيما وراء البحار ، ترجمة : سهيل زكار ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٩٠م .

٣٠. ابن ظافر ، جمال الدين علي (٦١٣هـ/١٢١٦م) .

- اخبار الدول المنقطعة ، تحقيق : اندريه فريه ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .

٣١. ابن العبري ، جمال الدين أبي الفرج غريغوريوس الملطي (٦٨٥هـ/١٢٨٦م) .
. تأريخ الزمان ، ترجمة : إسحاق أرملة ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٩١م .
٣٢. ابن العديم ، كمال الدين عمر بن محمد (٦٦٠هـ/١٢٦١م) .
. زبدة الحلب في تأريخ حلب ، تحقيق : سامي الدهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ، ١٩٥١م .
٣٣. العليمي ، مجير الدين (٩٢٨هـ/١٥٢١م) .
. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٦٨م .
٣٤. ابن العماد الحنبلي ، عبد الحي (٩٢٨هـ/١٥٢١م) .
. شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، المكتبة التجارية للطباعة والنشر، بيروت : د. ت .
٣٥. الغساني ، إسماعيل بن العباس (٨٠٣هـ/١٤٠٠م) .
. العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ، تحقيق : شاكر عبد المنعم ، دار التراث الإسلامي ، بيروت ، ١٩٧٥م .
٣٦. ابن فارس ، احمد بن زكريا (ت٣٩٥هـ/١٠٠٤م) .
. معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ط٢ ، مطبعة عيسى البابي ، القاهرة ، ١٩٧٢م .
٣٧. ابو الفدا ، عماد الدين إسماعيل بن محمد (٧٣٢هـ/١٣٣١م) .
. المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الحسينية ، القاهرة ، د . ت .
. تقويم البلدان ، اعتنى بتصحيحه : رينود وماك كوكين ديسلان ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ، ١٨٤٠م .
٣٨. ابن قاضي شهبة ، بدر الدين محمد بن تقي الدين (٨٧٤هـ/١٤٦٩م) .
. الكواكب الدرية في السيرة النورية ، تحقيق : محمود زايد ، مطبعة الأمان ، بيروت ، ١٩٧١م .
٣٩.القاضي الفاضل ، مجير الدين أبو علي عبد الرحيم (٥٩٦هـ / ١١٩٩م)
. رسائل القاضي الفاضل ،دراسة وتحقيق:علي نجم عيسى ، د. م. ، الموصل ، ٢٠٠١م .
٤٠. ابن القلانسي ، ابو يعلي حمزة (٥٥٥هـ/١١٦٠م) .
. ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق : اميدوز ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٠٨م .

٤١. القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي (٨٢١هـ/١٤١٨م) .
. صبح الأعشى في صناعة الانشا ، تحقيق : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧م .

٤٢. ابن كثير ، احمد بن محمد (٧٧٤هـ/١٣٧٢م) .
. البداية والنهاية ، دار ابن كثير ، بيروت ، ١٩٦٧م .
٤٣. المقدسي ، شمس الدين محمد بن أحمد (٣٧٥هـ/٩٨٥م)
. احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط٢ ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٠٦م .
٤٤. المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي (٨٤٥هـ/١٤٤١م) .
ـ السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق ؛ محمد مصطفى زيادة ، ط٢ ، مطبعة لجنة التأليف الترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٦م .
ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق : محمد حلمي احمد ، مطابع الاهرام التجارية ، القاهرة ، ١٩٧٣م .
٤٥. المقدسي ، محمد بن احمد (٣٨٧هـ/٩٧٩م) .
. احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط٢ ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٠٦م .
٤٦. ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم (٧١١هـ/١٣١١م) .
. لسان العرب ، ط٣ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٩٤م .
٤٧. ابن منقذ ، أسامة بن مرشد بن علي (٥٨٤هـ/١١٨٨م) .
. الاعتبار ، تحقيق : فيليب حتي ، مطبعة جامعة برنستون ، الولايات المتحدة ، ١٩٣٠م .
٤٨. مؤرخ مجهول (٦٢٣هـ/ ١٢٢٦م) .
. تاريخ الرهاوي المجهول ، تعريب: الأب البير ابونا ، مطبعة شفيق ، بغداد ، ١٩٨٦م .
٤٩. مؤلف مجهول (معاصر للحملة الصليبية الأولى) .
. أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة : حسن حبشي ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٨م .
٥٠. ابن ميسر ، محمد بن علي (٦٧٧هـ/١٢٧٨م) .
. أخبار مصر ، اعتناء : هنري ماسيه ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ، القاهرة ، ١٩١٩م .
٥١. النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)
ـ نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق : محمد محمد أمين ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٢م .

٥٢. ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم (٦٩٧هـ/١٢٩٧م) .
. مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق : جمال الدين الشيال ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، القاهرة ، ١٩٥٣م .
٥٣. ابن الوردي ، زين الدين عمر (٧٤٩هـ/١٣٤٨م) .

. تاريخ ابن الوردي ، المطبعة الحسينية ، النجف ، ١٩٦٩ م .
٥٤. اليافعي ، عبدالله بن اسعد (٧٦٨هـ/١٣٦٦م) .
. مرآة الجنان وعبرة اليقضان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، ط٢ ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ١٩٧٠م .
٥٥. ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبدالله (٦٢٦هـ/١٢٢٨م) .
. المشترك وضعاً والمفترق صقعاً ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، د. ت. .
. معجم البلدان ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٧م .

ثانيا: المراجع العربية والمعربة

١. أحمد ، احمد رمضان
. شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى ، المطبعة الشرقية ، القاهرة ، ١٩٧٧م .
ـ المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية ، د. م. ،القاهرة ، ١٩٧٧م .
٢. احمد ، شفيق جاسر .
. القدس تحت الحكم الصليبي ودور صلاح الدين في تحريرها ،د.م.، القاهرة : ١٩٨٩م .
٣. ايليسيف ، نيكيتا .
. الشرق الاسلامي في العصر الوسيط ، ترجمة : منصور ابو الحسن ، دار الكتاب الحديث ، بيروت ، ١٩٨٦م .
٤. باركر ، ارنست .
. الحروب الصليبية ، ترجمة: الباز العريني ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٧م .

٥. براور ، يوشع .
. عالم الصليبيين ، ترجمة : قاسم عبدة قاسم ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ١٩٩٩م .
٦. بردج ، انتوني .
ـ تأريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : أحمد غسان سباتو ونبيل الحيرودي ، دار قتيبة ، دمشق ، ١٩٨٥م .

٧. بروكلمان ، كارل .

. تأريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : نبيه امين فارس ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٤٩م .

٨. بروي ، ادوار .

. القرون الوسطى تاريخ الحضارات العام ، مطبعة الموسوعات ، بيروت ، ١٩٦٥ م .

٩. البيشاوي ، سعيد عبدالله .

ـ الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٠م .

١٠. التكريتي ، محمود ياسين .

. الايوبيون في شمال الشام والجزيرة ، دار الخلود للطباعة والنشر ، بيروت ،١٩٨١م .

١١. توفيق ، عمر كمال

. مملكة بيت المقدس الصليبية ، مطبعة رويال ، الاسكندرية ، ١٩٨٥ م .

١٢. جب ، هاملتون

ـ صلاح الدين الايوبي دراسات في التاريخ الاسلامي ، ترجمة وتحرير : يوسف ايبش ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٣م .

١٣. جرنفيل ، فريمان .

. التقويمان الهجري والميلادي ، ترجمة حسام محي الدين الالوسي ، مطبعة الجمهورية ، بغداد ، ١٩٧٠م .

١٤. الجنزوري ، علية عبد السميع

. إمارة الرها الصليبية ، مطابع سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٧٥م .

ـ الحروب الصليبية المقدمات السياسية ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٩م .

١٥. حبشي ، حسن

. الحرب الصليبية الاولى ، ط٢ ، المطبعة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٨م .

١٦. حتي ، فيليب

ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة : كمال اليازجي ، ط٢ ،دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٢ م .

١٧. الحويري ، محمود .

ـ الاوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي ، د.م. ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

١٨.خضر ، بشارة .
ـ اوربا وفلسطين من الحروب الصليبية حتى اليوم ، ترجمة : منصور ابو القاضي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٣م .
١٩.خليل ، عماد الدين .
. الإمارات الارتقية في الجزيرة والشام ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠م .
٢٠.الداموني ، حسين لوباني
. معجم اسماء المدن والقرى الفلسطينية ، مركز باحث للدراسات ، رام الله ، ٢٠٠٣م .
٢١.الدباغ ، مصطفى مراد
. بلادنا فلسطين ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٥م .
٢٢.الدوماني ، بشارة .
ـ اعادة اكتشاف فلسطين ، اهالي جبل نابلس ١٧٠٠-١٩٠٠م ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٩٨م .
٢٣.الدويهي ، اسطفانوس .
. تأريخ الازمنة ، ترجمة : توتل اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥١م .
٢٤.ديورانت ،ول وايرل .
ـ قصة الحضارة (عصر الايمان) ، ترجمة : محمد بدران ، مطبعة دار الجليل ، بيروت ، ١٩٨٨م .
٢٥.رايلي ، كافين .
ـ الغرب والعالم ، ترجمة : عبد الوهاب محمد المسيري واخرون ، مطابع الرسالة ، الكويت ، ١٩٨٥م .
٢٦.رنسيمان ، ستيفن .
. تاريخ الحروب الصليبية : ترجمة الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٧م
. المدنية البيزنطية ، ترجمة: صالح احمد العلي ، مطبعة وزارة المعارف ، بغداد ١٩٥٦م .
٢٧.زابوروف ، ميخائيل .
. الصليبيون في الشرق ، ترجمة : الياس شاهين ، دار التقدم ، موسكو ، ١٩٨٦م .
٢٨.زايد ، عبد الحميد .
. القدس الخالدة ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤م .
٢٩.الزبده ، عبلة المهتدي .
. صلاح الدين وتحرير القدس ، د. م. ، عمان ، ١٩٩٤م .
٣٠.زكار ، سهيل .

. حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس ، دار حسان للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٩٨٤م .

. مدخل إلى تأريخ الحروب الصليبية ، ط٢ ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٧٣م .

. الموسوعة الشاملة لتاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر ، دمشق ١٩٩٩م .

٣١. زيترستين ، فرانز

. تأريخ سلاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩١٩م .

٣٢. سالم ، عبد العزيز

. دراسة في تاريخ الايوبيين والمماليك ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، ١٩٩٧م .

٣٣. سعداوي ، نظير حسان

. التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين الايوبي ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ١٩٥٧م .

. الحرب والسلام زمن العدوان الصليبي ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

٣٤. أبو سعيد ، حامد غنيم

. الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ، ط٢ ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٤م .

٣٥. سميل ، ر. سي.

ـ الحروب الصليبية ، ترجمة : سامي هاشم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٢م .

٣٦. سيد الأهل ، عبد العزيز .

. أيام صلاح الدين ، دار الكتب ، بيروت ، ١٩٦١م .

٣٧. سيد صبرة ، عفاف .

. العلاقات بين الشرق والغرب ، علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من (١١٠٠-١٤٠٠م) ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٣م .

٣٨. الشاعر ، محمد فتحي .

. أحوال المسلمين في مملكة بيت المقدس الصليبية ، مطبعة الديواني ، بغداد ، ١٩٨٩م .

٣٩. صليبا ، جميل .

. المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧١م .

٤٠. طرخان ، إبراهيم علي .

. النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

٤١. الطراونة ، طه ثلجي .

. مملكة صفد في عهد المماليك ، منشورات دار الافاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٢م .

٤٢. العارف ، عارف باشا .

. تأريخ القدس ، ط٢ ، مطبعة دار المعارف ، القاهرة ، ١٩١٩م .

٤٣. عاشور ، سعيد عبد الفتاح .

. أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، مطابع دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

. أوربا العصور الوسطى التاريخ السياسي ، مطبعة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٢م .

. بحوث ودراسات في تأريخ العصور الوسطى ، مطبعة الأحد ، بيروت ، ١٩٧٧م .

. تأريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٦م .

. الحركة الصليبية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

. الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٦٥م .

٤٤. العدوي ، إبراهيم أحمد .

. المجتمع الأوربي في العصور الوسطى ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة ،١٩٦١ م .

٤٥. العريني ، الباز

. الحضارة والنظم الأوربية في العصور الوسطى ، ط٢ ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

٤٦. العسلي ، بسام

ـ فن الحرب الاسلامي في ايام الحروب الصليبية ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٨م .

٤٧. علي ، عبد الحفيظ محمد .

ـ مشكلات الوراثة في مملكة بيت المقدس واثرها على تأريخ الحركة الصليبية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٤م .

٤٨. ابو علية ، عبد الفتاح .

. بيت المقدس في ضوء الحق والتاريخ ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٨١م .

٤٩. عوض ، محمد مؤنس .

ـ تأريخ الحروب الصليبية التنظيمات الدينية الحربية في مملكة بيت المقدس اللاتينية (القرنين ٦-٧هـ/١٢-١٣م) ، دار الشروق ، عمان ، ٢٠٠٤ م .

. الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية ، دار الشروق ، عمان ، ١٩٩٩م .
٥٠. أبو العينين ، حسن سعد احمد .
. دراسات في جغرافية لبنان ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٨م .
٥١. الغامدي ، سعيد عبدالله .
. صلاح الدين والصليبيون ، دار الندوة ، بيروت ، د. ت. .
٥٢. غنيم ، اسمث .
. الدولة الايوبية والصليبيون ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٨٨م .
٥٣. غوانمة ، يوسف درويش
. إمارة الكرك الايوبية ، ط٢ ، دار الفكر ، عمان ، ١٩٨٢م .
ـ آيلة (العقبة) والبحر الاحمر واهميتها التاريخية والاستراتيجية ، دار هشام للطباعة والنشر ، اربد ، ١٩٨٤م .
. التاريخ الحضاري لشرقي الاردن في العصر المملوكي ، دار الفكر ، عمان ، ١٩٨٢م .
. معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج ، دار الفكر ، عمان ، ١٩٩٥م .
٥٤. فشر ، هـ. أ . ل. .
ـ تأريخ أوربا العصور الوسطى ، ترجمة : محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ، ط٥ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٦م .
٥٥. فهمي ، نعيم زكي .
ـ طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب اواخر العصور الوسطى ، هيئة الكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٣م .
٥٦. قاسم ، قاسم عبدة .
. الخلفية الايديولوجية للحروب الصليبية ، مطبعة ذات السلاسل ، الكويت ، ١٩٨٨م .
. ماهية الحروب الصليبية ، مطابع السياسة ، الكويت ، ١٩٩٠م .

٥٧. قلعجي ، قدري .
ـ صلاح الدين الايوبي ، قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلادي ، ط٥ ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٩٧٩م .
٥٨. كاهن ، كلود .
ـ الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية ، ترجمة : احمد الشيخ ، دار سينا للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥م .

٥٩.كرد علي ، محمد .
. خطط الشام ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٢٦م .
٦٠.كروسيه ، رنيه
ـ الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب ، ترجمة : احمد ايبش ، دار قتيبة للطباعة والنشر ، دمشق ، ٢٠٠٣م .
٦١.الكناني ، مصطفى حسن محمد
ـ العلاقات بين جنوة والفاطميين في الشرق الادنى ١٠٩٥-١١٧١م/ ٤٤٨-٥٦٧هـ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨١م .
٦٢.كوبلاند ، ج. و.
. الاقطاع والعصور الوسطى بغرب اوربا ، ترجمة : محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٦ م .
٦٣.كولتون ، ج. ج. .
ـ عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمة : جوزيف نسيم يوسف ، ط٣ ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨١م .
٦٤.لسترانج ، جي
ـ فلسطين في العهد الإسلامي ، ترجمة : محمود عمايرة ، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، عمان ، ١٩٧٠م .
٦٥. لامب ، هارولد
. شعلة الإسلام ، ترجمة : محمود عبدالله يعقوب ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٦٧م .
٦٦.لوبون ، غوستاف .
. حضارة العرب ، ترجمة : عادل زعيتر ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٦٤م .
٦٧.لين بوول ، ستانلي .
. صلاح الدين وسقوط مملكة القدس ، ترجمة : فاروق سعد ابو جابر ، مطابع الاهرام التجارية ، القاهرة ، ١٩٩٥م .
٦٨.مؤنس ، حسين .
. نور الدين محمود (سيرة مجاهد صادق) ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٩م .
٦٩.ماجد ، عبد المنعم .
ـ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت ، ١٩٦٦م .
٧٠.ماير ، هانز ابرهارد .

ـ تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة وتعليق : عماد الدين غانم ، منشورات مجمع الفاتح للجامعات ، ليبيا ، ١٩٩٠م .

٧١. متز ، ادم .

. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام ، ترجمة : محمود عبد الهادي ابو ريده ، ط٤ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦٧م .

٧٢. محمود ، علي السيد علي .

. العلاقات الاقتصادية بن المسلمين والصليبيين ، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، الاسكندرية ، ١٩٩٦م .

٧٣. المدور ، مروان .

. الارمن عبر التاريخ ، منشورات دار الحياة ، بيروت ، ١٩٨٢م .

٧٤. المطوي ، محمد العروسي .

. الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، د. م. ، تونس ، ١٩٥٤م .

٧٥. المعاضيدي ، خاشع .

ـ الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٥-١٩٧٦م .

. الوطن العربي والغزو الصليبي ، دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ، ١٩٨١م .

٧٦. مقامي ، نبيلة إبراهيم .

ـ فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٩٤م .

٧٧. مقبل ، فهمي توفيق .

. الفاطميون والصليبيون ، الدار القومية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠م .

٧٨. المناوي ، محمد حمدي .

. الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

٧٩. موسى ، سليمان

. رحلات في الاردن وفلسطين ، دار ابن رشد ،عمان ، ١٩٨٤م .

٨٠. مولر ، فولفغانغ فينر

ـ القلاع أيام الحروب الصليبية ، ترجمة : محمد وليد الجلاد ، ط٢ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٤م .

٨١. مونرود ، مكسيموس .

ـ تأريخ الحروب المقدسة في الشرق ، عربة : كيريو كيريو مكسيموس مظلوم ، مطبعة دير الرهبان الفرنسيسكان ، اورشليم ، ١٨٦٥م .
٨٢. النبراوي ، رافت محمد .
. النقود الصليبية في الشام ومصر : ، دار نهضة الشرق ، القاهرة ، د. ت. .
٨٣. النتشة واخرون ، رفيق شاكر .
. تاريخ مدينة القدس ، دار الكرمل ، عمان ، ١٩٨٤م .
٨٤. النقاش ، زكي .
ـ العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية ، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٥٨م .
٨٥. نوري ، دريد عبد القادر .
ـ سياسة صلاح الدين الايوبي في بلاد مصر والشام والجزيرة ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧٦م .
٨٦. هنتس ، فالتر .
ـ المكاييل والاوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، ترجمة : كامل العسلي ، مطبعة القوات المسلحة الاردنية ، عمان ، ١٩٧٠م .
٨٧. هونكه ، زيغرد .
ـ شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة : فاروق بيضون وكمال دسوقي ، ط٢ ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٩م .
٨٨. وهبة ، مجدي وكامل المهندس.
. معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب ، ط٢ ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٤م .
٨٩. ويست ، انتوني .
ـ الحروب الصليبية ، ترجمة : شكري محمود نديم ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٩٦٧م .

٩٠. يوسف ، جوزيف نسيم .
. العدوان الصليبي على بلاد الشام ، هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة ، النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨١م .
. العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى ، ط٢ ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨١م .

٩١. اليوسف ، عبد القادر احمد .

. علاقات بين الشرق والغرب ، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٩٦٩م .

ثالثا: الرسائل والاطاريح الجامعية

١. البكر ، راغب حامد .

- الحروب الصليبية بدايات الاستعمار الاوربي ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ١٩٨٣م .
- أسرة بني منقذ ودورها السياسي والحضاري في بلاد الشام ومصر خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين / الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ، اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ١٩٨٩م .

٢. الجنابي ، طلب صبار .

. إمارة انطاكية الصليبية دراسة في علاقاتها السياسية بالقوى الإسلامية ، اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية التربية ابن رشد ، جامعة بغداد ، ١٩٩٦م .

٣. الحموشي ، فارس محمود ذنون .

. القدس في القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد ، دراسة سياسية حضارية ، اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ١٩٩٩م .

٤. الزيدي ، مصعب حمادي .

- عسقلان والحروب الصليبية للفترة بين ٤٩٠-٦٦٩هـ / ١٠٩٦-١٢٧٠م ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ٢٠٠٠م .

٥. سلطان ، سلطان جبر

. الدور السياسي للعلماء المسلمين ابان الحروب الصليبية ، اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ١٩٩٩م .

٦. عباس ، علي سلطان .

- مدينة عكا في العهدين الايوبي والمملوكي ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ١٩٩٧م .

٧. الغانمي ، ثريا محمد عطية .

. بيت المقدس في العصر الايوبي ، اطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية التربية للبنات بجدة ، السعودية ، ١٩٩١م .

٨. الفتاح ، شكيب راشد .

ـ الموصل ودورها في التصدي للغزو الصليبي ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ٢٠٠٢م .

٩. اللهيبي ، فتحي سالم .

ـ مملكة ارمينية الصغرى ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ٢٠٠٠م .

١٠. الملا جاسم ، ناصر عبد الرزاق .

ـ صلاح الدين الايوبي في الدراسات الاستشراقية الانجليزية والامريكية ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ١٩٩٢م .

١١. وحيد ، اكرم عبد الرزا ق عبود .

ـ مصر والغزو الصليبي ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ٢٠٠٢ م .

رابعا: المقالات والبحوث

١. ايليسيف ، نيكيتا .

ـ المملكة اللاتينية في القدس والحكام المسلمون في القرن الثاني عشر للميلاد خطوط كبرى للعلاقات السياسية ، ضمن كتاب الصراع الإسلامي - الفرنجي على فلسطين في القرون

الوسطى ، تحرير : هادية شكيل دجاني ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٩٤م .

٢. بالار ، ميشيل .

ـ الجمهوريات البحرية الايطالية والتجارة في الشام - فلسطين من القرن الحادي عشر حتى القرن الثالث عشر للميلاد ، ضمن كتاب الصراع الإسلامي - الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى ، تحرير : هادية شكيل دجاني ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٩٤ م .

٣. بانتر ، سيدني .

. أوربا الغربية عشية الحروب الصليبية ، ضمن كتاب تأريخ الحروب الصليبية ، ج١ ، تحرير : سعيد عبدالله البيشاوي ومحمد مؤنس عوض ، ترجمة وتعليق : سعيد عبد المحسن ، دار الشروق ، عمان ، ٢٠٠٤م .

٤. البكر ، راغب حامد .

. حكام دمشق والحروب الصليبية ، مجلة آداب الرافدين ، ع٢٧ ، الموصل ، ١٩٩٥م .

ـ الاستيطان الفرنجي في القدس ، ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ، ج١ ، جامعة اليرموك ، الأردن ، ٢٠٠٠م .

. الصليبيون في البحر الاحمر ، مجلة اداب الرافدين ، ع٣٠ ، الموصل ، ١٩٩٧م .

٥. بلدوين ، مارشال .

ـ اضمحلال وسقوط بيت المقدس ١١٧٤-١١٨٩م ، ضمن كتاب تأريخ الحروب الصليبية ، ج١ ، تحرير : سعيد عبدالله البيشاوي و محمد مؤنس عوض ، ترجمة وتعليق : سعيد عبدالله البيشاوي ، دار الشروق ، عمان ، ٢٠٠٤م .

. الدويلات اللاتينية تحت حكم بلدوين الثالث وعموري الأول /١١٤٣-١١٧٤م ، ضمن كتاب تأريخ الحروب الصليبية ، ج١ ، تحرير: سعيد عبدالله البيشاوي ومحمد مؤنس عوض ، دار الشروق ، عمان ، ٢٠٠٤م .

٦. البيشاوي ، سعيد عبدالله .

ـ دراسة مقارنة بين الاستيطان الصليبي والصهيوني ، المجلة الفلسطينية للدراسات التاريخية ، م١ ، ع١ ، رام الله ، ١٩٩٨م .

. المقاومة الشعبية الفلسطينية ضد الفرنجة الصليبيين ، ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ، ج١ ، جامعة اليرموك ، الأردن ، ٢٠٠٠م .

٧. بيضون ، إبراهيم .

. طبرية في العهد الصليبي في اشكالية الموقع الدور ، ضمن عمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ، ج١ ، جامعة اليرموك ، الأردن ، ٢٠٠٠م .

٨. جب ، هاملتون .

- سيرة نور الدين ، ضمن كتاب تأريخ الحروب الصليبية ، ج١ ، تحرير : سعيد عبدالله البيشاوي ومحمد مؤنس عوض ، ترجمة وتعليق : محمد مؤنس عوض ، دار الشروق ، عمان ، ٢٠٠٤م .

- زنكي وسقوط الرها ، ضمن كتاب تأريخ الحروب الصليبية ، ج١ ، تحرير : سعيد عبدالله البيشاوي ومحمد مؤنس عوض ، ترجمة وتعليق : علية عبد السميع الجنزوري ، دار الشروق ، عمان ، ٢٠٠٤م .

٩. جبران ، نعمان محمد .

. المصادر الارمنية واهميتها -حولية متي الرهاوي نموذجاً ، ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ، ج١ ، جامعة اليرموك ، الأردن ، ٢٠٠٠م .

١٠. الجميلي ، خضير عباس .

. مدينة انطاكية في مواجهة الحملة الصليبية الاولى ، ضمن اعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ، ج٢ ، جامعة اليرموك ، الاردن ، ٢٠٠٠م .

١١. الحارثي ، عبدالله بن ناصر .

. رؤية اسامة بن منقذ الشيزري لبعض طبائع الصليبيين واخلاقهم كما ورد في كتاب الاعتبار ، ضمن اعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ، ج٢ ، جامعة اليرموك ، الأردن ، ٢٠٠٠م .

١٢. حسين ، مرتضى الشيخ .

- الحروب الصليبية وعبرها في كفاحنا ضد الصهيونية ، مجلة افاق عربية ، ع١ ، بغداد ، ١٩٧٩م .

١٣. حماد ، منى جمعة .

- تطور الكتابة التاريخية عن الحروب الصليبية في الغرب الاوربي من القرن الثاني عشر وحتى القرن العشرين ، ضمن اعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ، ج١ ، جامعة اليرموك ، الاردن ، ٢٠٠٠ م .

١٤. الحسو واخرون ، احمد عبدالله .

. الكرك كما ارخ لها السخاوي ، مجلة المؤرخ العربي ، ع٥٧ ، بغداد ، ١٩٩٩م .

١٥. دكروب ، محمد عطاالله .

. صفحات متنوعة من تاريخ تبنين ، منشور على شبكة الانترنيت
WWW. Tibneen. Com.

١٦.رباح ، احمد .

. دور التجار الاوربيين في دعم وتوجيه الحملات الصليبية ، ضمن اعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الاسلامي الفرنجي ، ج١ ، جامعة الرموك ، الأردن ، ٢٠٠٠م .

١٧. الرشدان ، وائل .

. المدرسة المملوكية في قلعة الكرك ، مجلة دراسات تاريخية ، ع ٥٧-٥٨ ، دمشق ، ١٩٩٦م .

١٨. الرقب ، شفيق محمد .

ـ صور من الحياة الاجتماعية للفرنجة في النثر الفني زمن الحروب الصليبية ، مجلة دراسات للعلوم الانسانية والاجتماعية ، م٢٣ ، ج٢ ،عمان ، ١٩٩٦م .

١٩. ريشار ، جان .

. تكوين مملكة القدس اللاتينية وبنيتها ، ضمن كتاب الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى ، تحرير : هادية دجاني ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٩٤م .

٢٠. الزركاني ، خليل حسن .

. العلاقات الاقتصادية في الحروب الصليبية ، ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ، ج٢ ، جامعة اليرموك ، الاردن ، ٢٠٠٠م .

٢١. السامرائي ، عبد الجبار محمود .

. معركة حطين دراسة تاريخية عسكرية ، مجلة المورد ، م١٦ ، ع٤ ، بغداد ، ١٩٨٧م .

٢٢. شوكة ، إبراهيم .

ـ تحقيق سورية ولبنان وفلسطين والاردن من نزهة المشتاق في اختراق الافاق للشريف الادريسي ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، م٣٠ ، بغداد ، ١٩٧٩م .

٢٣. صالح ، عبد العزيز حميد .

. الحرم الشريف في ظل الغزو الصليبي ، مجلة المورد ، م١٦ ،ع٤ ، بغداد ،١٩٨٧م .

٢٤. الطحاوي ، حاتم عبد الرحمن .

ـ الصليبيون في بلاد الشام صفحات من النشاط الاقتصادي ، مجلة الاجتهاد ، ع ٣٣ ، بيروت ، ١٩٩٦م .

٢٥. الطراونة ، طه ثلجي .

ـ المرأة الصليبية ، دراسة في تأريخ المجتمع الفرنجي في بلاد الشام ، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات ، م٨ ، ج١ ، الاردن ، ١٩٩٣م .

٢٦. عاشور ، سعيد عبد الفتاح .

ـ ملامح المجمع الصليبي في بلاد الشام ، مجلة المستقبل العربي ، ع١٠٢ ، بيروت ، ١٩٨٧م .

٢٧. العريني ، الباز .

. نمو طبقة النبلاء الإقطاعيين بمملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي ، مجلة كلية الاداب ، م ٢٠ ، ج٢ ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٨م .

٢٨. عطية ، حسين محمد .

ـ المسلمون في الإمارات الصليبية في بلاد الشام ، ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ، ج١ ، جامعة اليرموك ، الأردن ، ٢٠٠٠ م .

٢٩. عمران ، محمود سعيد .

ـ معركة حارم ، التحالف البيزنطي الصليبي الارميني ضد نور الدين زنكي ، مجلة المؤرخ العربي ، ع٨ ، بغداد ، ١٩٧٨م .

٣٠. غوانمة ، يوسف درويش .

ـ التجارة وسياسة الاعتدال والتسامح بين المسلمين والفرنج في عهد صلاح الدين الايوبي ، ضمن أعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الإسلامي الفرنجي ، ج٢ ، جامعة اليرموك ، الاردن ، ٢٠٠٠م .

. رؤية في مفهوم الامن القومي في عهد صلاح الدين ، مجلة المؤرخ العربي ، ع ٤٣، بغداد ، ١٩٩٠م .

٣١. فنك ، هارولد .

ـ تأسيس الإمارات اللاتينية ، ضمن كتاب تأريخ الحروب الصليبية ، ج١ ، تحرير : سعيد عبدالله البيشاوي ومحمد مؤنس عوض ، ترجمة : عامر نجيب موسى ، دار الشروق ، عمان ، ٢٠٠٤م .

٣٢. قاسم ، قاسم عبدة.

. بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام عصر الحروب الصليبية ، مجلة عالم الفكر ، م٢٢ ، ج ٢ ، الكويت ، ١٩٩٣م .

٣٣. القطار ، الياس .

ـ المجتمع الصليبي في صور في العهد الفرنجي ، ضمن أعمال المؤتمر الثاني لتاريخ مدينة صور ٢٤–٢٥ أيار ، م١ ، منتدى صور الثقافي ، صور ، ١٩٩٧م .

٣٤. كيلاني ، هيثم .
. الصليبية والصهيونية : دراسة مقارنة ، مجلة شؤون عربية ، ع٥٢ ، تونس ، ١٩٨٧م .
٣٥. المعاضيدي ، خاشع
. طبيعة الحرب الصليبية الاولى ، مجلة الجامعة المستنصرية ، ع٤ ، بغداد ، ١٩٧٤م .
٣٦. النابلسي ، محمد راتب
. القدس عبر العصور التاريخية ، ضمن أعمال الندوة العالمية حول القدس وتراثها الثقافي في إطار الحوار الإسلامي المسيحي ، الرباط ، ١٩٩٣م .
٣٧. النقيب ، مرتضى حسن
ـ عماد الدين زنكي وسياسة الجهاد تجاه الصليبيين ، مجلة المورد عدد خاص عن غزو الفرنجة للاراضي العربية ، م١٦ ، ع٤ ، بغداد ، ١٩٨٧م .
٣٨. نيكلسون ، روبرت . ل.
ـ تطور الدويلات اللاتينية ٥١١-٥٣٩هـ/١١١٨-١١٤٤م ، ضمن كتاب تأريخ الحروب الصليبية ، تحرير : سعيد عبدالله البيشاوي ومحمد مؤنس عوض ، ترجمة وتعليق : عبد الرحمن المغربي ، ج١ ، دار الشروق ، عمان ، ٢٠٠٤م .
٣٩. يوسف ، محسن .
. سكان مدينة القدس في القرن الحادي عشر الميلادي ، مجلة المؤرخ العربي ، ع٥٧ ، بغداد ، ١٩٩٩م .

خامسا : دوائر المعارف والموسوعات

١. بروفنسال ، ليفي .
. مادة " الشام " ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج١٣ ، ترجمة : أحمد الشنتناوي واخرون ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٩م ، .
٢. سوبرنهايم .

. مادة " صلاح الدين " ، دائرة المعارف الإسلامية ،ج١٤، ترجمة : أحمد الشنتناوي واخرون ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

٣. شلبي ، أحمد .
. موسوعة التاريخ الإسلامي ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

٤. العقيقي ، نجيب .
. موسوعة المستشرقون ، ج١ ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

٥. كرام ، بول .
. الحروب الصليبية وغرب اوربا في العصور الوسطى ، موسوعة تاريخ العالم ، م٢ ، تحرير : السير أ. هامرتن ، ط٢ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د. ت .

٦. كرامرز .
ـ مادة " صفد " ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج١٤، ترجمة : احمد الشنتناوي واخرون ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

٧. ماسينيوس
ـ مادة " شوبك " ، دائرة المعارف الإسلامية ، ج١٣ ، ترجمة : احمد الشنتناوي واخرون ، دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

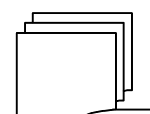
٨. هرنشو ، ف. ج. س. .
ـ الحياة الأوربية واساليبها ، موسوعة تأريخ العالم ، م ٥ ، تحرير : السير أ. هامرتن ، مطابع كوستاتسوماتس ، القاهرة ، د. ت .

سادسا : المراجع الاجنبية

1. Baldwin , Marshall Whithed .
-- Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem , Princeton University Press , New Jersey , 1936 .

2. Cahen , Claude .
-- La Syria Du Nord A lepogue des Croisade et La Prinicipaute dAntioch , Paris , 1940 .
-- Pre – Ottoman Turkey , Helythom Press , London , 1968 .

3. Ehrenkreutz , Andrew .



-- Saladin , New York State University Press , New York , 1972 .

4. Encyclopaedia Britannica , Art : Ashqelon , No. p , London , 1994-2000 .

5. Erdmann , C.

-- The Origin of the ldea of the Crusade , Priceton Univercity Press , New Jersey , 1977 .

6. Fedden , Robin and John Thomson

-- Crusader Castles , No. P. , London ,1957 .

7. France , John .

-- " The Capture of Jerusalem " , http / ehostvgw 2 / epnet Com.

8. Gowdrey , H. E. J.

-- " The Latin Kingdom of Jerusalem " , in History , 1977 , Vol. 57 .

9. Grousset , Rene .

-- Histoire des Croisades et du Royaume de Jersalem , Librairie Plon Paris , 1934 .

10. Harthmann , R . and B . Lewis .

-- Art : Askalan , The Encyclopaedia of Islam , Second edition, No. p . , London , 1965 , vol . I .

11. Holt , P. M.

-- The Age of the Crusades , No. p. London , No. D. .

12. Mohammed A. Hussein .

-- " The Imperialistic Elements of the Crusades " , in Speculum , 1981 , Vol. 1 .

13. Richard Jean .

-- " The political and Ecclesiastical Organization of the Crusaders States " in A History of the Crusades (ed.) Setton " Wisconsin University press , Wisconsin , 1958 . Vol. V .

14. Lewis , B.

--" An Arabic Account of the Province of " Safed " , in BSOAS " 1953 ,Vol. XV .

15. Lyons , M. C. , and D.E.P. Jackson

-- Saladin : the Politics of The Holy War , Cambridge University press , Cambridge : 1986-1988 .

16. Pernoud , Regine .

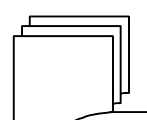
-- The Crusaders , Robert Cunningham Press , London , 1963 .

17. Prawer , J.

-- " The Settlement of the Latins in Jerusalem " in Speculum , 1981 , Vol. 27 .

--" Social Classes in the Latin Kingdom : The Franks in A History the Crusades " (ed.) Setton " Wisconsin University Press , Wisconsin , 1958 , Vol. V .

18. Saewulf .



-- The Pilgrimage of Saewulf , Trans , by Bishop of Lifton , NO . P .New york , 1971 .

19. Setton , K. M.

-- A History of the Crusades , Pennsylvania University Press . New York , 1955 ,Vol. 1 .

20. Stevenson , W. B.

-- The Crusaders in the East , second edition , Slim press . Beirut , 1968 .

21. Tanner J. R. ,

-- The Cambridge Medieval History , Cambridge University Press , Cambridge , 1968 .

22. Wurzburg , John

-- Description of the Holy land , by Aubrey Stewart , in Palestine Pilgrims text Society , No. p. , New York , 1971.


الملاحق والخرائط والأشكال

أولاً : الملاحق

ملحق رقم (١)

جدول باسماء ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية وفترات حكمهم

الأمير جودفري	٤٩٢-٤٩٣هـ/١٠٩٩-١١٠٠م
بلدوين الأول	٤٩٤-٥١٢هـ/١١٠١-١١١٨م
بلدوين الثاني	٥١٢-٥٢٦هـ/١١١٨-١١٣١م
فولك الانجوي	٥٢٦-٥٣٨هـ/١١٣١-١١٤٣م
بلدوين الثالث	٥٣٨-٥٥٩هـ/١١٤٣-١١٦٤م
املريك الأول	٥٥٩-٥٦٩هـ/١١٦٣-١١٧٤م
بلدوين الرابع	٥٦٩-٥٨١هـ/١١٧٤-١١٨٥م
بلدوين الخامس	٥٨١-٥٨٢هـ/ ١١٨٥-١١٨٦م
جاي لوزجنان	٥٨٢-٥٩١هـ/١١٨٦-١١٩٤م

ملحق رقم (٢)

جدول باسماء بطاركة مملكة بيت المقدس الصليبية

ارنولف مالكورون	بضعة شهور
دايمبرت البيزي	٤٩٤.٤٩٢ /١٠٩٩.١١٠١م
افريمار شوكس	٥٠٢.٤٩٥هـ/١١٠٢.١١٠٨م
جبلين ارال	٥٠٦.٥٠٢هـ/١١٠٨.١١١٢م
ارنولف مالكورون	٥١٢.٥٠٦هـ/١١١٢.١١١٨م
جرموند البيكيني	٥٢٣.٥١٢هـ/١١١٨.١١٢٨م
ستيفن الشارتري	٥٢٥.٥٢٣هـ/١١٢٨.١١٣٠م
وليم الاول	٥٤٠.٥٢٥هـ/١١٣٠.١١٤٥م
فوشيه	٥٥٢.٥٤٠هـ/١١٤٥.١١٥٧م
عموري نسل	٥٧٦.٥٥٢هـ/١١٥٧.١١٨٠م
هرقل	٥٨٧.٥٧٦هـ/١١٨٠.١١٩١م

ثانيا: الخرائط والأشكال

Crusading Settlement in Syria
With Special Reference of the Latin Kingdom Jerusalem
(492- 583 A.H./ 1099 – 1187 A.D.)

A Thesis Submitted

By

MUSAB HIMMADI NAJIM AL – ZAIDI

TO
The Council of the College of Arts
Univestiy of Mosul in Partial Fulfillments of the Requirements For the Degree of PH. D. in Islamic History

Supervised By

Asst Prof
DR. NASSER ABEDULRAZAQ AL- MULA JASIM

2005 A. C. **1426 A.H .**

Abstract

The Crusading warfare was one of long struggle series between East and West. The Crusades which lasted two centuries (6^{th} -$7^{th\ A}$./11^{th} -13^{th} A.C.) Started with a call from the popery to wage war against Muslim under religious pretexts, like liberating the holy sites from the hands of infidels.

No doubt the religion used to heighten the zeal of the common people but underneath lie the real plans of occupation, and exhort the economic resources of the eastern lands. In response the popery call European armies cross Europe and invaded the Muslim lands in Turkey and Syria, the outcome of this campaign is the establishment of four entities : the Kingdom of Jerusalem, the counties of Edessa and Tripoli and the principality of Antioch .With the establishment of those former entities ,the crusaders commenced an imperialist policy of expansion and settlements at the burden of Muslims . This policy implemented with most cruelty: massacres looting and devastation was the dominating acts during the early years of crusading settlement in the East, this obliged large number of Muslim to immigrate to neighboring countries.

The crusading settlement in the East is highly important issue, and occupies, through the centuries a very remarkable attention because its is the first European settlement outside Europe, distinguished by impose an alien institutions in the Eastern land. Hence comes the importance of this study,

which aims to give a faithful account of the aspect of this settlement: military, political, economical and social.

This study divided into five chapters with an introduction and conclusion.

The introduction has a summary of the different interpretations of the origin of the crusades, also it give an account of the first crusade form its beginning to its last step with the occupation of Al-Quds .

Chapter one devoted to study the political and administrative nature of the Latin kingdom of Jerusalem .This kingdom subdivided into four feudalities:Al-Jalil,Sidon,Jaffa and ascalon and lastly the trans Jordan. This chapter also tackles the monarchy of Jerusalem: its administrative, legal, religious institutions.

The second chapter portrays the feudal system of the crusaders in the East, emphasizing on the Kingdom of Jerusalem. It's obvious that the crusaders tried to impose the European feudalism on the East, so the king considered the high lord who alone has the authority to give lands and fiefs to his followers according to the feudalistic rule in Europe.

In Chapter three we focus on the military aspect of the crusading settlements, through studying the policy of building castles and forts and its implications on the expansionist nature of the crusading movement. The crusaders used these castles to threaten the Muslims caravans and to block the roads against any cooperation between the Syrian and Egyptian armies to liberate the Arab land.

Chapter four deals with the social institutions in the Latin kingdom of Jerusalem like the classes of thee community, their morals and habits which brought from their native land to the East. The chapter also relates how those semi-barbarians affected by their settlement in civilized environment, many of them abandoned their traditions and borrowed many of the eastern habits in bathing, medical treatments etc.

Although the economic aspect of the Latin settlement in the East comes in the last chapter but that doesn't imply that it is less important than the other aspects, in contrary the economic motive was the most influential one, this reflected clearly in the acts of the leaders of the first crusade. This chapter subdivides into sections concentrated respectfully on agriculture, industry and commerce. As it mentioned above the king was the lord owned, in theory the whole land of the kingdom, and have alone the right to rewarding the others with fiefs .As far as the industry concern we find that the industrial activities during this period are those Palestinians famed

with since very old times like olive sugar,soap,glass and paintings .The trade had a very important place in the economical activities of the age owing to the influential role of the Italian commercial cities like Vinice,Pisa.Also we shed light on the crusading currency which stroked at Byzantine and Fatimid models from gold and silver. Lastly we have some conclusions as a result of this study the first and the foremost one that the crusading settlement was initial western attempt to occupy the Eastern land as a prelude to the colonialism ,this attempt was utterly failed because it try to impose an alien body in highly civilized area, so it give a moral to those feel desperate from the new western settlement in the same area that was the Zionist ,its fate will be the same no matter how much does it last.